



عبد الأحد السبتي

# بين الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار

دار توفيق للنشر





## للمؤلف

المدينة في العصر الوسيط: قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي (بالاشتراك مع ح. فرحات)،

بيروت / الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1994.

من الشاي إلى الأتاي: العادة والتاريخ (بالاشتراك مع ع. لخصاصي)،

الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1999.

المجتمع الحضري والسلطة بالمغرب

من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر (بالاشتراك مع حليلة فرحات) ط 1، 2007.

النفوذ وصراعاته في مجتمع فاس

من القرن السابع عشر حتى بداية القرن العشرين ط 1، 2007.

*Ville et figures du charisme*  
Casablanca, éd. Toubkal, 2003.

كتب مترجمة

مجموعة من المؤلفين الانتروبولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي (بالاشتراك مع ع. الفلق)،

الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط 2، 2007.

جون واتربوري، أمير المؤمنين: الملكية والنخبة السياسية المغربية (بالاشتراك مع ع. أبو العزم وع. الفلق)،

الرباط، مؤسسة الغني، 2004.

تنسيق مؤلفات جماعية

التاريخ واللسانيات: النص ومستويات التأويل،

الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992.

الإسطوغرافيا والأزمة: دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة،

الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط / الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 1994.

عبد الأحد السبتي

# بين الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار

دار توبقال للنشر

عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار

بلقيدر، الدار البيضاء 20300 - المغرب

الهاتف / الفاكس: 022.34.23.23 (212) - 022.40.40.38 (212)

الموقع: [www.toubkal.ma](http://www.toubkal.ma) - البريد الإلكتروني: [contact@toubkal.ma](mailto:contact@toubkal.ma)



تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة  
المعرفة التاريخية

الطبعة الأولى، 2009  
© جميع الحقوق محفوظة

إهداء

إلى روح الأستاذ محمد المنوني  
تقديراً للإنسان والباحث

إِذَا نَجَّتِ الْقَافِلَةُ مِنَ الرِّطَاطِ  
مَا كَانَتْ مِنْ يَدَيْهَا

(مثل مغربي)

## شكر

هذا الكتاب هو في الأصل أطروحة جامعية أعدتها لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، وقد تمت مناقشتها بتاريخ 9 فبراير 2005 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

أود أن أقدم شكري للزملاء والأصدقاء الذين ساهموا في بلورة هذا البحث بشكل أو آخر، عن طريق اقتراحات تهم بعض جوانبه، أو توفير معطيات بيблиوغرافية، أو ملاحظات بصدد بعض المقالات المنشورة التي تخللت إنجازها<sup>1</sup>. أخص بالذكر أحمد أعفيف، وعمر أفا، وسطيافانيا باندولفو، وعمر بنميرة، وأحمد جوماني، وحسن حافظي علوي، ومحمد حمام، وحسن رشيق، ومبارك الشنتوفي، وخالد بن الصغير، وحמיד عبقرى يوسفى، وعبد اللطيف كمال، وعبد الرحمان لخصاصي، ومحمد علال مزيان، ومحمد المغراوي، ومحمد المنوني، ودنيال نوردمان، ومحمد ياسر الهلالي.

كما أشكر الزملاء الذين استضافوني في حلقات دراسية أو ندوات ساهمت في بلورة هذا العمل، ويتعلق الأمر بعبد الرحيم بن حادة، وحسن البودراري، وعبد الله حمودي، وجوسلين داخلية، وعبد الحى الديوري، وويلفريد رولمان، ومرسيديس غارسيا أرينال، وعبد الرحمان المودن.

وأقدم شكري للباحث الجغرافي عبد العلي فاتح الذي أنجز، بتنسيق مع الصديق توفيق أگومي، مجموع الخرائط التي تساعد على توضيح بعض جوانب البحث. وأشكر كذلك زميلي

1. وهذه المقالات هي:

«Présence des crises dans la chronique dynastique marocaine : Entre la narration et les signes». *Cahiers d'Etudes Africaines* (Paris), XXX (3), 119, 1990, pp. 237-250 ; «Insécurité et figures de la protection au XIXe siècle : La Ztâta et son vocabulaire », in *Signes du Présent*, dossier «La société civile au Maroc», dir. Noureddine El Aoufi, Rabat, 1992, pp. 47-69; « Hagiographie du voyage au Maroc médiéval », *al-Qantara* (Madrid), vol. XIII, fasc. 1, 1992, pp. 167-179; « Ztâta et sécurité du voyage, un thème de pratique judiciaire marocaine », *Hesp.-Tam.*, vol. XXX, fasc. 2, 1992, pp. 37-52.

أحمد بوحسن الذي قدم لي مساعدة ثمينة في المرحلة الأخيرة من مراجعة نص البحث المرقون. وقد كان هذا البحث نتيجة لمسار لم يخل من فترات انقطاع، وانعطاف، وإعادة صياغة. وربما ساهم هذا المسار في إنضاج موضوع لم ينطلق في البداية من إشكالية مُحددة المعالم. وعبر كل هذه التطورات، استفاد البحث من المرافقة المتفهمة والمحفزة للأستاذ محمد القبلي الذي عرف في كل لحظات الاستشارة كيف يشجع على الاستمرار، ويقدر الاجتهاد الشخصي، ويرصد مواطن الضعف، ويقترح إمكانيات التطوير. فله شكري وامتناني على إشرافه ومساعدته.

كما أشكر الأساتذة نور الدين العوفي وحليمة فرحات ومحمد مفتاح ومحمد الناصري على قبولهم المشاركة في لجنة مناقشة الأطروحة وعلى الملاحظات والاقتراحات التي تفضلوا بتقديمها خلال جلسة المناقشة.

وفي الختام والبدء، أجدد شكري لزوجتي زهرة وابني زياد، لقد ساعدني عطفهما وتشجيعهما على الاستمرار.

## تنبيهات

يجد القارئ، في هوامش الكتاب إحالات كاملة أحياناً، ومختصرة أحياناً أخرى، ففي الحالة الثانية يتعلق الأمر بمصادر ومراجع لها صلة بالنصوص الواردة في البحث، أو تردت الإحالة عليها، أو لها أهمية منهجية أو نظرية خاصة، وبالتالي يجد القارئ تفاصيلها في الببليوغرافيا الموضوعية في نهاية الكتاب.

وفيما يخص ترتيب أسماء الأعلام في الببليوغرافيا والفهارس، اتبعنا الترتيب الأبجدي، دون اعتبار عناصر الاسم التي تدل على الانتساب، من قبيل «ابن»، و«أيت»، و«ولد»، و«أبو». ومن أجل تسهيل قراءة النصوص وإبراز بعض مضامينها، أدخلنا أحياناً بعض التعديلات في توزيع الفقرات.



## اختزالات

منخط : منخطوط

ط : طبعة

ط.ح : طبعة حجرية

خ.س.ر : الخزانة الحسنية بالرباط

خ.ع.ر : الخزانة العامة بالرباط

ك.آداب : كلية الآداب والعلوم الإنسانية

د.د.ع : دبلوم الدراسات العليا

د.د : دكتوراه الدولة

ن.م : نفس المرجع

م.س : المرجع السابق

ت : تاريخ الوفاة

(؟) : غير مقروء

(...) : حذف



## منطلقات

سوف ننطلق من علامتين معبرتين ومتباعدتين في الزمان.  
العلامة الأولى هي عبارة عن نص يعود بنا إلى العصر «الوسيط». ففي سنة 617 للهجرة (1220-1221م)، خصص أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات كتاب «التشوف إلى رجال التصوف»، للتعريف بصلحاء وأولياء مراكش وناحيتها. ونقتطف هنا بعض ما جاء في ترجمة محمد عبد العزيز التونسي :

«أصله من تونس وأخذ الفقه عن أبي عمران الفاسي وأبي إسحاق التونسي واستقر أخيراً بأغمامات وبها مات سنة ست وثمانين وأربعمائة (1093-1094م) ودرس الناس الفقه ثم تركه لما رأيهم نالوا به الخطط والعمالات وقال : صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص . وكان ورعاً متقللاً من الدنيا، هارباً من أهلها (....).

وحدثوا عن عبد العزيز أن المصامدة أخذوا عنه الفقه ثم عادوا إلى بلادهم فسادوا في أقوامهم بما تعلموه من الفقه وصاروا قضاة وشهوداً وخطباء وغير ذلك من المراتب . فذهب عبد العزيز في بعض سياحته إلى أقصى أرض المغرب، فكلما مر بقوم تلقوه . فوجد تلامذته قد نالوا الخطط والمراتب بما تعلموه منه، فقطع تدريسه الفقه وأمر تلامذته بالنظر في «رعاية» المحاسبي ونحوها من علوم التصوف إلى أن عثر على بعض تلامذته وقد وقعوا في جهل الفقه في الربا . فقال : سبحان الله، كرهت تدريس الفقه خوفاً من أن تنال به الدنيا، فضيعتم معرفة الحلال والحرام؟ فعاد إلى تدريس الفقه»<sup>2</sup>.

حين يرد ذكر موضوع اللصوصية على لسان فقيها التونسي، فلا شك أنه حديث يردد أصداء النزوح العنيف لقبائل بني هلال وبني سليم التي استنهضها الحكم الفاطمي ضد دولة الزيريين بإفريقية، فدخلت هذا البلد، وأحدثت به اختلالاً كبيراً أصاب مسالك المنطقة واقتصادياتها

2. ابن الزيات، التشوف، ص. 92-93.

وبنياتها السياسية، إلى درجة أن رجالاً من كبار فقهاء الغرب الإسلامي لم يترددوا في إسقاط فريضة الحج على سكان المغرب، «تجنباً للإلقاء بالنفس إلى التهلكة»، وذلك «بسبب تعذر طريق البر»، على حد تعبير بعض أصحاب الفتاوى<sup>3</sup>.

وفي مستوى آخر، لا شك أن ابن الزيات، كباقي المؤلفين في أدب المناقب، يقصد بشكل أساسي تصوير نماذج حية قابلة لأن يقتدي بها رجال العصر. فالتونسي جمع بين الورع وتدريس الفقه. ونراه يعيش موقفين متتاليين. في المرة الأولى، يرفض التونسي أن يُفرضي تعلم الفقه إلى تولي الخطط لأن ذلك يؤدي إلى الانزلاق نحو إغراءات السيادة والنفوذ. ومعلوم أن كتب التراجم والمناقب ظلت تُردد صورة الولي والفقير والعالم الذي يرفض تولي الخطط، ويتخذ في ذلك مختلف الأعذار الممكنة. وإذا ما تولى خطة القضاء أو الشهادة، فهو يغادر الدنيا ولا يترك أحياناً ما يكفي لتجهيز جنازته. ويجد هذا الموقف تجسيده الأقصى في مفهوم «الانقباض عن السلطان»، ورفض مؤاكلته، أو حتى مجرد لقاؤه<sup>4</sup>. ومن اللافت أن عبد العزيز التونسي نصح تلامذته بالرجوع إلى كتاب الرعاية للمحاسبي<sup>5</sup>، وهو نفس الكتاب الذي سوف ينصح ولي سلا ابن عاشر السلطان المريني أبا عنان بقراءته بعد ما رفض لقاؤه حسب الرواية المتواترة<sup>6</sup>.

أما الموقف الثاني فهو موقف تطبعه واقعية تتوخى تجنب الخلل الذي قد ينتج عن التطبيق الحرفي للمبدأ المعلن عنه فيما قبل، إذ يعتبر الفقيه أن الخطط ضرورية ليستمر التمييز بين الحلال والحرام، وهو موقف يناسب موقع ابن الزيات نفسه، لأنه تولى القضاء في بلاد رگراگة. وربما جاز لنا أن نعتبر أن عبد العزيز التونسي عبر، في لحظتين متتاليتين، عن تصور مركب ساد عند فقهاء السنة منذ العصر الوسيط، وهو تصور يقوم على حتمية جُور السلطان، وضرورة القبول به حفاظاً على وحدة الجماعة. ومن هذا المنظور، قيل إن «الجور المرتب أبقى من العدل المهمل»<sup>7</sup>.

ولا شك أن نص ابن الزيات ترك أثراً لا يُستهان به عند معاصريه وقرائه من الفترات

3. محمد القبلي، «ملاحظات حول التجارب الوجدانية الوسيطية بالمغرب الكبير»، ضمن مراجعات، ص. 16.

4. راجع :

Manuel Marin, « Inqibad an al-sultan. Ulama and Political Power in al-Andalus », in *Suber religioso y poder politico en el Islam*, collectif, Madrid, 1994, pp. 127-139.

وحول نفس الموضوع في سياق مغربي، انظر مقالنا حول الولي القاسي أحمد بن عبد الله معن : «في الكرامة والهيبة»، مجلة المناهل، عدد 64-65، ماي 2001، ص. 425-445.

5. يتعلق الأمر بكتاب الرعاية لحقوق الله والقيام بها، للمحاسبي (المتوفى عام 243 للهجرة)، وهو من أهم المؤلفات التي ساهمت في تشكل الثقافة الصوفية للمغرب الأقصى، إلى جانب كتاب النصائح (لنفس المؤلف)، ورسالة أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت 386 للهجرة)، وقوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد لأبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي (386 للهجرة)، وإحياء علوم الدين للغزالي. حول مضمون هذه المؤلفات، راجع محمد مفتاح، الخطاب الصوفي، ص. 97 وما تلاها.

6. انظر تفاصيل هذا الحدث في ابن عاشر، تحفة الزائر، ص. 48 وما تلاها.

7. محمد بن الوليد الطرطوشي، سراج الملوك، ص. 174. وقال نفس المؤلف كذلك : «السلطان الكافر الحافظ لشرائط السياسة الاصلاحية أبقى وأقوى من السلطان المؤمن العدل في نفسه المضع للسياسة النبوية العادلة». وحول واقعية الفقيه، راجع كذلك : Gustave von Grunebaum, *L' Islam médiéval. Histoire et civilisation*, Paris, 1962, pp. 103 et suiv.

اللاحقة . فهذا محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح، يورده في كتابه «أنس الساري والسارب». فقد تحدث المؤلف عن خروجه من مراكش، «أقصى حواضر المغرب»، للحج في عهد الوليد السعدي، سنة 1040 للهجرة (1630 للميلاد). وبدأت الرحلة بزيارة مقابر الصلحاء والأولياء المدفونين بأعمات أوريككة، ومن بينهم عبد العزيز التونسي المذكور، ونقل ابن مليح نبذاً من مناقبهم نقلاً عن صاحب «التشوف»<sup>8</sup>.

وتعود بنا العلامة الثانية إلى المغرب غداة انتهاء عهد الحماية الفرنسية-الإسبانية (1956)، وبالتحديد إلى دراسة أنثروبولوجية هامة أنجزها الباحث الإنجليزي دفيد هارت David Hart حول قبيلة أيت ورياغل التي تقطن جبال الريف، انطلاقاً من بحث ميداني بدأه المؤلف في أواخر الخمسينيات من القرن الفارط<sup>9</sup>. ففي أحد فصول الكتاب، تعرض المؤلف لمؤسسة الزطاطة التي عرفتها مختلف مناطق المغرب حتى حدود المرحلة الاستعمارية المعاصرة، ومعناها ما يؤديه المسافر لمن يخفره ويحميه في الطرق غير الآمنة التي يرتادها للصوص والقطاع. ثم يضيف هارت أن الكلمة أصبحت تدل على الرشوة التي تدفع للقاضي من أجل استصدار حكمه في الاتجاه المطلوب، وقد استعملت في بعض الحالات للدلالة على المال الذي كان يدفع «تحت الجلابة»، للرجل الذي يُستأجر لقتل شخص آخر<sup>10</sup>.

والواقع أن الأجيال الجديدة غالباً ما تجهل الدلالة التاريخية لمصطلح الزطاطة، ولا تعرف سوى المعنى المتصل بالرشوة. كما أن فعل زطط كثيراً ما يُستعمل حالياً في العامية المغربية، بمعنى الخبرة العملية، والقدرة على إيجاد المخرج المناسب في الظروف الصعبة. وقد نلتقي من حين لآخر بهذه الدلالات الجديدة في الخطاب الصحفي والسياسي الذي يسعى أحياناً إلى استعمال اللغة اليومية<sup>11</sup>، مثلما نلتقي بمصطلح المخزن الذي يحيل على الدولة البعيدة عن مفهوم وممارسة المؤسسة العمومية، أو مصطلح السببة الذي يحيل على وضعية تسود فيها أنماط سلوكية تتجاهل الضوابط القانونية.

هكذا تعرض تاريخ الزطاطة للنسيان، ونجت الكلمة من الضياع بفضل عملية استعارية

8. انظر حضور عبد العزيز التونسي في محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح، أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الأمال سيد الأعاجم والأعارب، تحقيق محمد الفاسي، فاس، 1968، ص. 15.  
9. صدرت أطروحة دفيد هارت :  
David M. Hart. *The Aith Waryaghar of the Moroccan Rif. An Ethnography an History*, Tucson, 1976.

10. وقد سبق لنفس المؤلف أن أصدر سنة 1960، دراسة حول أسماء القبائل والأماكن بشمال غرب المغرب *Tribal and Place Names among the Arabo-Berbers of Northwestern Morocco . A Preliminary Statistical Analysis*, *Hesp.-Tam.*, 1960, fasc.3, pp. 451-457.

10. انظر :

David M. Hart, *The Aith Waryaghar*, op.cit, pp. 303-304.

11. انظر على سبيل المثال عبارة «تزطيط الملفات» في مقال بعنوان «الوجيز في تاريخ الحزب السري»، بجريدة الاتحاد الاشتراكي، عدد 22 يوليوز 1992. «...فما زال كل صاحب مشروع، مغربياً كان أم أجنبياً، ملزماً بأداء حق المافيا، وربما قبول شريك يسلمه نصيباً من الأسهم مجاناً مقابل «تزطيط» ملفه ومشروعه...».

تتنمي إلى معجم الرشوة. ومن منظور الاجتماعيات التاريخية، عادة ما يتم تفسير الرشوة ببعض العوامل الرئيسية<sup>12</sup>:

أولاً- سيادة علاقات الولاء الشخصي والزبونية على امتداد جهاز الدولة.  
ثانياً- تعود الدولة المخزنية على تقاليد مالية لا تعتمد، في كثير من المستويات، مبدأ الأجرة بالنسبة لرجال السلطة وأعوانها، ومبدأ الإدارة كخدمة عمومية تلزم الساهرين عليها بواجبات معينة تجاه المواطن، مثلما يلتزم المواطن بالمساهمة في تمويل الإدارة ومختلف دواليب الدولة عن طريق الجبايات التي يؤديها للدولة. ولعل غياب مثل هذه التصورات الحديثة، هو ما يؤدي إلى «شرعية» الأساليب التي يستعملها ولاة الأمر لاسترجاع ما دفعوه من هدايا من أجل الحصول على مناصبهم، ولاستغلال مواقعهم على حساب السكان.

ثالثاً- تكثف الأعراف المخزنية مع ظروف التدخل الاستعماري الحديث. ففي القرن التاسع عشر، لم تتردد القوى الأوروبية في إرشاء رجال المخزن من أجل الحصول على التنازلات الدبلوماسية الضرورية لفتح السوق المغربية أمام التيار الرأسمالي السائد<sup>13</sup>. وبعد ذلك اعتمدت الحماية الفرنسية أسلوب توظيف النخب العتيقة للتخفيف من كلفة الإدارة الاستعمارية، فغضت الطرف عن الممارسات القائمة على تسخير الفلاحين وإبزازهم، ودعمت طبقة القواد<sup>14</sup>. وبعد الاستقلال، سرعان ما عمدت الدولة، منذ نهاية الخمسينات، إلى إزاحة رجال الحركة الوطنية من مناصب السلطة المحلية في البادية، وأعدت هيكلية شبكات النخب المحلية، وقوامها الأعيان الذين احتفظوا بمكاسهم الاقتصادية بعد انتهاء نظام الحماية. وهكذا تم إحداث جهاز الشيوخ والمقدمين، وأسندت لهؤلاء صلاحيات إدارية واسعة، مقابل أجور رمزية، مما أحدث معادلة جديدة تقوم على المفارقة بين بنية إدارية حديثة ومؤسسات جماعية وبرلمانية منتخبة، وبين ممارسة يومية تعيد إلى الأذهان هيبة الدولة التقليدية<sup>15</sup>.

وفي الوقت الراهن، يكشف معجم الرشوة عن دلالات جديدة بالاهتمام. فالمجاز يعتمد على ميادين متعددة من الحياة اليومية، نذكر من بينها الأكل (الأكل، والحلاوة، والقهوة)، والأدوات ذات الاستعمال اليومي (المُغرقة، والسَيْر)، وبعض أدوات العمل (الزَيْرَازِر، والمنشار، والمسمار).

12. راجع مقال محمد جوسوس، «ملاحظات حول ظاهرة الرشوة بالمغرب»، جريدة الاتحاد الاشتراكي، 30 ماي 1992.

13. اتسمت السياسة الأوربية بازدواجية واضحة في مواقفها العملية. فقد كانت تدعو المخزن إلى إصلاحات إدارية في اتجاه إحداث أجور للمسؤولين، من أجل تجنب استقلالهم لمناصبهم. وكانت في آن واحد ترشي كبار رجال المخزن لتسهيل إضفاء اتفاقيات ثنائية تتضمن التنازلات المطلوبة من جانب الدولة المغربية. انظر خالد بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني. انظر على سبيل المثال وثيقة 79، ص. 128-130.

14. راجع :

Daniel Rivet, *Le Maroc de Lyautey à Mohammed V : Le double visage du protectorat*, Paris, 1999, pp. 126-127.

15. حول هذه السياسة، راجع :

Rémy Leveau, *Le fellah marocain, défenseur du trône*, Paris, 1985, pp. 44 et suiv.

ويلاحظ أن المجاز «يسطو» على عدة حقول دلالية، ويحور بعض الدلالات، وكأنه يجتهد للإقرار بحتمية ممارسة الرشوة، وانتقاد من يتحفظ إزاءها. وهكذا ننتقل على سبيل المثال :

- من الحق بمدلوله القانوني، إلى «أكل الحق»، بمعنى الحصول على نصيب من الرشوة.

- من اسم الولي سيدي قاسم إلى نفس الصيغة بمعنى تقسيم الرشوة بين المستفيدين منها.

إنها مؤشرات قد توحى برسوخ ثقافي له صلة برسوخ تقبل الرشوة في مستوى الممارسة رغم استنكارها في مستوى الخطاب<sup>16</sup>.

هناك جانبان يشكلان قاسماً مشتركاً بين العلامتين المذكورتين. فمن جهة نلاحظ أن المجال والسفر يردان كاستعارة للحديث عن السلطة، ومن جهة أخرى نلاحظ مسألة الظاهرة ذات الوجهين المتعارضين. ففي كلتا الحالتين ازدواجية وتعارض لافتان في الأدوار والوظائف، إذ تُنسب صفة اللصوصية للقاضي الذي يفترض فيه أن يحمي المجتمع من مخاطر اللصوصية، ويُنسب معنى إرشاء القاضي أو استئجار القاتل لمصطلح كان يعني حماية المسافر من كافة مخاطر الطريق غير الأمن. إن غرضنا في هذا البحث هو القيام بحفريات لفهم الأسس التاريخية والثقافية للاستعارتين المذكورتين، والدلالات التي تحملها ثنائية الزطاط وقاطع الطريق، وثنائية الحماية والاعتداء.

لا شك أن العلاقة بين السلطة السياسية والمحاور الطرقية تشكل ملفاً أغنته سلسلة من الأبحاث، سواء في مستوى تاريخ المجتمعات العربية الإسلامية بشكل عام، أو في مستوى تاريخ المغرب الكبير أو المغرب الأقصى بشكل أخص. يمكن أن نذكر بأهمية موقع الجزيرة العربية قبل الإسلام، وموقع قريش، ومؤسسة «الإيلاف» المرتبطة بـ«رحلة الشتاء والصيف»<sup>17</sup>. وقد تم كذلك إبراز أهمية الاستمرارية الحضرية، وعلاقتها بالمحاور التجارية<sup>18</sup>.

وبالنسبة لتاريخ المغرب، ألحت مجموعة من الدراسات على دور التجارة الصحراوية، ودورها كعامل أساس يساعد على فهم التطورات السياسية منذ «العصر الوسيط»<sup>19</sup>. هناك صلة بين قيام الدولة المركزية، وبين مراقبة المحاور التجارية. بل إن تطور المحاور التجارية يساعد على فهم

16. حول هذا المعجم، انظر :

Néjib Bouderbala, «La lutte contre la corruption. Le cas du Maroc», *Critique économique* (Rabat), n° 4, hiver 2001, pp. 12-14.

والملاحظ أن الكتابة الصحفية ترصد أحيانا ظهور مصطلحات جديدة تدل على ظاهرة الرشوة. انظر على سبيل المثال مقال خالد بلزيز، «التزييف في كل مكان»، جريدة الصباح (الدار البيضاء)، -910 دجنبر 2000. ويرد الحديث عن كلمة الجمعية التي تعني، في اللغة الخاصة بالمرشدين السياحيين النسبة المئوية التي تصل إلى 30 في المائة والتي يمددهم بها أصحاب البازارات عن كل عملية بيع».

17. فكتور سحاب، إيلاف قريش. رحلة الشتاء والصيف، بيروت، 1992.

18. راجع على سبيل المثال كتاب موريس لومبار، الإسلام في عظمته الأولى. وبالنسبة لحضور نفس الموضوع كعامل تفسيري في أعمال تركيبة، انظر :

Samir Amin, *La nation arabe. Nationalisme et luttes de classes*, Paris, 1976.

19. انظر :

Jean Devisse, «La question d'Audagust», in D. Robert, S. Robert, J. Devisse; *Tegdaoust 1. Recherches sur Aoudaghost*, t.1, Paris, 1970, pp. 109-156.

مرحلة الانتقال بين مختلف الدول التي تعاقبت على الحكم، واستجلاء عدد من الأزمات المتعددة الأوجه، وكذلك بعض الاختيارات السياسية بما فيها خطة التقرب من الأشراف في عهد حكم بني مرين<sup>20</sup>.

فيما يخص التحولات التي عرفها المجال المغربي خلال القرن التاسع عشر، رسم جان-لويس مياج، في أطروحته «المغرب وأوروبا»<sup>21</sup>، خطاطة تقر بأن التطورات المجالية كانت بمثابة صدى للتحولات الاقتصادية التي نتجت عن «الانفتاح»، أي الانتقال من نمط تقليدي إلى نمط اقتصاد السوق. إنها ثنائية المغرب الداخلي والمغرب الساحلي. فبعد احتلال الجزائر، كان هناك اختياران وإمكانيتان بالنسبة للتجارة الأوربية: ولوج السوق المغربية من جهة الشرق، أو من جهة الغرب؟ من جهة البر أو من جهة البحر؟ فانتصر الاحتمال الثاني، وبرزت الواجهة الأطلسية على حساب الشبكة الداخلية، والموانئ على حساب المراكز التجارية التقليدية، والانتظام الأفقي على حساب الانتظام العمودي<sup>22</sup>. وأدى هذا التحول إلى تحركات بشرية من مناطق الركود في اتجاه مناطق الدينامية. وهكذا هاجرت أعداد من الفلاحين والتجار في اتجاه مدن الساحل الأطلسي، وانهار حجم ساكنة ملاحات الجنوب. إن هذه الصورة تخضع، في شكلها العام، لتمثل ضمنى يستعيد التجربة التي عاشتها المجتمعات الأوربية في فترة تراجع النظام الفيودالي<sup>23</sup>.

لقد تبنت جل الدراسات اللاحقة هذا التصور العام. ومن اللافت للنظر أن التراكم الهام الذي عرفته الدراسات المونوغرافية حول القرن التاسع عشر، ركز بشكل ملحوظ على مجتمع البوادي، ولم يهتم كثيراً بالتطور المجالي<sup>24</sup>، ولا سيما بموضوع النقل والسفر وقضية أمن الطرق. وفي

20. تشكل قضية مراقبة المحاور التجارية أحد أهم العناصر التفسيرية في أطروحة محمد القبلي: *Société pouvoir et religion*. وانظر كذلك دراساته المنشورة في مجموعين. انظر على سبيل المثال «مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين»، ضمن مراجعات، ص. 79-126. و«الدولة المغربية في العصر الوسيط»، ضمن الدولة والولاية، ص. 71-83. راجع:

Jean-Louis Miège, *Le Maroc et l'Europe (1830-1894)*, Paris, 1961-1963, 4 vol.

22. حول هذا الجانب، راجع:

Hubert Beguin, *L'organisation de l'espace au Maroc*, Bruxelles, 1973, pp. 754-755.

23. تعرض عبد الله العروي لهذه القضية من زاوية منهجية، لتوضيح ما سماه بالأغماط التعليلية. «ماذا يقع لمجتمع مشيد على اقتصاد اكتفائي عندما يرغم على الدخول في علاقات تجارية مع الغير؟ وبمجرد ما يطرح الدارس السؤال في الصورة المذكورة فإنه يتمثل بكيفية عفوية ما حصل في القرون الوسطى حسب ما يقوله المؤرخون الأوربيون المهتمون بنشأة أوروبا الحديثة». ويلاحظ العروي أن «السؤال ذاته يطرح في التاريخ القديم عندما خرج الفينيقيون من قرطاجنة وبدأوا يستكشفون شواطئ المغرب، وفي نهاية التاريخ الوسيط عندما استولى البرتغاليون على الشاطئ الأطلسي المغربي، وفي التاريخ الحديث عندما تمت التجارة الأوربية في تونس والمغرب الأقصى. لا نحكم هنا على النتائج وإنما نتساءل عن السر في استعمال نمط تعليلي واحد لفهم أحداث حقبت متباعدة جداً». وبدل النمط التعليلي، القائم على منطق استنباطي، يفضل العروي «النظرية التفسيرية»، القائمة على منطق استقرائي. انظر كتاب ثقافتنا في ضوء التاريخ، بيروت / الدار البيضاء، ط. 2، 1988، ص. 29-30، 33-34.

24. الملاحظ أن الجانب المجالي حضر بشكل لافت للنظر في الفصول الاستراتيجية لبعض الأبحاث التي تناولت التاريخ المحلي. انظر على سبيل المثال أحمد التوفيق، إينولتان. أما عبد الرحمن المودن، فقد أولى عناية خاصة بالمنطق المجالي لمنطقة إيناون قبل القرن التاسع عشر، ولا شك أن ذلك هو ما دفعه إلى تغيير هام في عنوان بحثه بين صيغة الرسالة المرقونة (إسهام في دراسة العلاقة بين المجتمع القروي والدولة في مغرب القرن التاسع عشر. قبائل إيناون والمخزن، 1290 / 1873 - 1320 / 1902) والكتاب المنشور (البوادي المغربية قبل الاستعمار. قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، الرباط، 1995).

اعتقادنا أن هذا التقصير يعود إلى الإطار «الإيديولوجي» العام الذي تحكّم في تناول القرن السالف الذكر<sup>25</sup>. إنها مرحلة التمهيد لنظام الحماية، وأصول المقاومة المسلحة والحركة الوطنية، وهي مرحلة تتيح إعادة النظر في الصورة الموروثة عن الكتابة الاستعمارية، وذلك بفضل الرصيد الوثائقي الذي تولد في آن واحد عن التدخل الأوربي، وعن الموقع الدفاعي الذي جعل الدولة المخزنية تنتج المزيد من الوثائق المكتوبة، وتحافظ لأول مرة على مستنداتها، بعدما كانت الوثائق تتعرض للإتلاف، أو تشتتت عبر دور العائلات التي ظلت تتوارث المناصب المخزنية في القبائل والمدن.

في هذا الإطار، تنحو المقاربة الوطنية الدفاعية إلى التركيز على العامل الخارجي لتفسير أوضاع المغرب خلال القرن التاسع عشر. فالتسرب الأوربي كان وراء جل الاختلالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بما فيها اختلال الأمن، ولا سيما أمن الطرق، وهو أمر قد يوحي بصورة التوازن السابق للحظة الأزمة الطارئة. وهكذا قد يعتبر التدخل الأوربي بمثابة المسؤول الأساس عن وضعية أزمة واضطراب واختلال أدت إلى تزايد أعمال اللصوصية وقطع الطريق<sup>26</sup>، وفرضت أساليب لتجاوز هذه الآفة<sup>27</sup>. وبما أن قطع الطريق يتصل بتوتر العلاقة بين القبائل والمخزن، فإن الموضوع يجد أجوبة جاهزة في الدور الذي لعبه التدخل الأوربي في إضعاف الدولة وتفاقم تناقضاتها مع مختلف مكونات المجتمع<sup>28</sup>. إنه تناول يطرح الجواب محل السؤال، ويتكلف بإعادة الاعتبار بدل التحليل، ويحمل التدخل الأوربي أكثر مما يتحمله لتفسير معضلات المغرب خلال القرن التاسع عشر.

هل ينبغي على المؤرخ أن يتعامل مع القرن التاسع عشر على أساس رصد النسق الاجتماعي والسياسي التقليدي، أو على أساس رصد التحولات التي عرفها ذلك النسق بفعل التسرب الأوربي؟

25. راجع مقالنا: «التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج. ملاحظات أولية»، ضمن البحث في تاريخ المغرب. حصيلة وتقوم، جماعي، الرباط، 1989، ص. 43-57.

26. عبد العزيز التسماني خلق، «الظروف العامة للصوصية في غرب القرن التاسع عشر ومشكلة الأمن بطنجة»، دار النياحة، عدد 1، يناير 1984، ص. 26-35.

27. علاء الخديمي، «النزائل والمواصلات والتدخل الأجنبي في المغرب خلال القرن التاسع عشر»، هسريس - نمودا، عدد 31، 1993، ص. 7-21.

28. بصدد تبريره للاهتمام بموضوع تاريخ الرحامنة في المرحلة المذكورة، يذكر عبد الرزاق الصديقي «الازدواجية التي تطيح أخبار الرحامنة لدى الرواة المغاربة، وفي الكتابات الأجنبية والمنتقلة في قوة شوكتهم ووفرة عثرتهم من جهة، وما كانوا يقومون به من تمردات كانت الهجة هدف عيشها خلال كل عيطات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مما يستدعي البحث في أسبابها والنظر في عواقبها». لقد تعتمد المؤلف «البحث في علاقة القبيلة بالمخزن المركزي لاستجلاء طبيعة هذه العلاقة، ومعرفة ما كانت عليه من مستوى، خاصة إذا اعتبرنا ما كانت الكتابات التقليدية تتناول به أخبارهم من تهيب واحتقار وما كانت تصفهم به من زيف وطيش بل من شق لعصا الطاعة وخروج عن سلك الجماعة، وهي نعوت كان يجنح إليها رواد المدرسة الاستعمارية في بناء نظرية «سبية القبائل» بمزيد من الثقة في النفس اعتمادا على ما كتبه الرواة». ويضيف المؤلف أن الفترة المعنية ببحثه «تصادف تلك الأزمة التي كانت تعترى كل مجالات الحياة المغربية، على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والدبلوماسية وحتى الشرعية بسبب ما كانت تعانيه البلاد من ضغوط أجنبية وما كان يترتب عليها من نتائج وخيمة، نخرت كيان الأمة المغربية، وكسرت توازن مجتمعا. وبهمننا أن نتعرف عبر هذه الدراسة المحددة في الزمان والمكان على ما آلت إليه علاقة الرحامنة بالمخزن في النصف الثاني من القرن الماضي، على ضوء المستجدات التي طرأت على البلاد، وإلى أي حد نالت الأزمة المشار إليها من قبيلة كانت تستمد هيمنتها في الحوز، من توازنات مجتمع زراعي قبل أن تفكك الضغوط الأجنبية بنياته». انظر الرحامنة، ص. 18-19.

إنه سؤال يدعو إلى التأمل وإلى قدر كبير من مراجعة المسلمات<sup>29</sup>. في اعتقادنا أن التركيز المعلن أو الضمني على العامل الخارجي قد يحجب فهم بعض الظواهر والبنى التي ورثها المجتمع المغربي على امتداد قرون عديدة. وبالتالي سوف نعتبر القرن التاسع عشر مرحلة «توطين» وتحديد الخطوط العامة لقضية أمن السفر، من خلال موضوع الزطاطة وصيغ تأمين الطريق عبر مناطق مختلفة من التراب المغربي، دون تركيز على هذه المنطقة أو تلك. وسوف نحازف بتهميش دور العامل الخارجي، ونعود إلى حقب سابقة، وإلى ما يعرف بالعصرين «الحديث» و«الوسيط»، من أجل فهم جذور الظاهرة وتطورها في مستوى الممارسات الاجتماعية والسياسية، والتصورات والأنساق الثقافية<sup>30</sup>.

تسعى محاولتنا إذن إلى محاورة ملف القرن التاسع عشر بواسطة المكتسبات التي حققها البحث الذي أنجز حول الحقب السابقة. وفي مستوى آخر، فإننا سوف نهتم بمواطن التماثل بين الممارسات الاجتماعية والتصورات، ولذلك لن نتعامل مع التاريخيات (الاسطوغرافيا) كمتن من المعطيات التي يتجاوزها المؤرخ حين يتاح له الوصول إلى الوثائق والأرشيف، بل فضلنا أن نسائل المضامين الثقافية للنصوص، من مفاهيم ومضمرات.

29. عرفت بعض التجارب إعادات نظر لا تخلو من دلالة. نذكر، على سبيل المثال محمد أعيف الذي يوضح، في مقدمة دراسته حول منطقة توات، أن الصيغة الأصلية لبحته كانت هي التدخل الفرنسي في الجنوب الشرقي المغربي في مطلع القرن العشرين. وقد تبين له مع تقدم العمل أنه أمام ثلاثة مواضيع، وهي: التدخل الفرنسي، وأوضاع المنطقة في مختلف جوانبها الجغرافية والبشرية والاقتصادية والسياسية، وعلاقة سكان المنطقة مع المخزن والرحل والزوايا. وبعد تردد بين موضوع ينتمي إلى «تاريخ الاستعمار» ويهتم بـ«الجسم الغريب»، فضل الباحث الاهتمام بـ«الجسم الأصلي»، واقتنع «بضرورة البدء بتاريخ اجتماعي للمنطقة قبل الخوض فيما تعرضت له من تدخل أجنبي». «ومحولنا تدريجياً من تاريخ حدسي محض إلى الكتابة في تاريخ اجتماعي في محاولة مونوغرافية». في هذه التجربة، نرى الباحث يحتفظ بالقرن التاسع عشر، ويلغى تناول العامل الخارجي عن طريق تأجيله. انظر محمد أعيف، توات في القرن 19، ص. 1-2، 354-355.

30. في مجال آخر، انظر :

Roland Barthes, «Réflexions sur un manuel», in *Le bruissement de la langue*, pp. 49-56.

يدعو المؤلف، في مجال كتابة تاريخ الأدب، إلى إعادة النظر في المنظور التوليدي، وفي مركزية الحقة «الكلاسيكية». وبدل ذلك، يدعو إلى إعادة تنظيم تاريخ الأدب انطلاقاً من الحدائق كقطيعة كبرى، وبالتالي يتم التعبير عن أدب الماضي بواسطة لغة اليوم.

## متن وقرارات

يقتضي التعامل السائد مع النصوص أن يستنطقها المؤرخ، ويطرح عليها أسئلة تندرج ضمن استمارة ضمنية أو صريحة، واعية أو غير واعية، مبتكرة أو مطابقة لخطاطة جاهزة قد تستعير عناصرها من أبحاث سابقة. وهكذا يقترب المؤرخ من مضمون النص - الوثيقة، في مستوى مكوناته وسياقاته. ويقارن هذا المضمون مع ما ورد في نصوص أخرى، ويمحص، ويؤول، ويقدم للقارئ استنتاجاته ونتائج تحقيقه. وقد يستشهد أحياناً بمقتطفات من متنه الوثائقي، وقد ينتقي بعض النماذج من الوثائق في شكلها الخام، فيرقمها ويدرجها في خانة «الملاحق». لكنه يكتفي بالإحالة في الهوامش على مراجع المواد المعتمدة، ويحتفظ بالمتن في جذذاته، في انتظار فرص لاحقة، أو تحقيقات تستجيب لاهتمامات جديدة.

لقد اتبعنا طريقة مختلفة لا تخلو من تجريبية، وجعلنا من تقديم شبكة من النصوص عنصراً أساساً في هذا البحث<sup>31</sup>. فعلى امتداد أربعة فصول، سوف نعطي الكلمة للنصوص كوئائق وأصوات من الماضي، وسوف يقتصر تدخلنا في مستوى انتقاء النصوص، وتبويبها، والربط فيما بينها، وهي عملية أشبه في بعض الأحيان بالتوضيب montage الذي يستعير منهج اللقطات السينمائية. وقد بذلنا بعض الجهد لتوفير أدوات تفك بعض مُستغَلقات النصوص، أو تساعد القارئ على الاقتراب من سياقها وظروف إنتاجها<sup>32</sup>.

---

31. سبق أن خُصنا هذه التجربة في كتابين يتصلان بموضوعين مختلفين، وهما المدينة في العصر الوسيط (بالاشتراك مع حليلة فرحات)، ومن الشاي إلى الأتامي : العادة والتاريخ (بالاشتراك مع عبد الرحمان لخصاصي)، الرباط، 1999.

32. في تقديمنا للنصوص، وفي الهوامش التي وضعناها للتوضيح أو التعليق، لا ندعي أن كثافة «حضورنا» ترقى، في مستوى «عمودي»، إلى الإحاطة الشمولية بمضمون النصوص وملابساتها، وهي الكثافة التي تقتضيها عملية التحقيق، أو عملية التعريف بالوثائق في إطار كتاب التاريخ المحلي. بل عمدنا أكثر، في مستوى «أفقي» أو «جانبى»، إلى إبراز عدد من التقاطعات والعلاقات التي تعبر عن بعض ملامح النسق الاجتماعي والثقافي.

إن هذا المتن قد يظهر للقارئ، في الوهلة الأولى، بمظهر الركام المتعب، حيث تختلف النصوص في أنواعها، وحجمها، ولغاتها، والفترات التاريخية التي تنتمي إليها. لذلك فمن المناسب أن نوضح المنطق العام الذي وجه اختيار النصوص وانتظامها. ففي كل فصل من الفصول الأربعة، تتمحور النصوص حول جنس معين، وسؤال منهجي يتفرع عن القضية المركزية التي تتعلق بأمن السفر.

## الرحلة والاستكشاف

ففي الفصل الأول، التزمنا بوحدة الزمن، إذ لم نغادر محطة القرن التاسع عشر. وارتبطنا بتأليف محوري، هو «استكشاف المغرب» للرحالة الفرنسي شارل دو فوكو<sup>33</sup>، الذي زار المغرب خلال سنتي 1883 و1884. وينتمي الكتاب المذكور إلى أدبيات الاستكشاف التي رافقت التغلغل الأوربي بالمغرب خلال القرن التاسع عشر، وهي أدبيات احتفظت في كثير من الأحيان بقيمة وثائقية هامة، ولا سيما بالنسبة للمواضيع التي تتصل بالحياة اليومية، والتي لم تكن تثير نفس القدر من الفضول في المصادر المغربية<sup>34</sup>.

وتكمن خصوصية كتابة شارل دو فوكو في تعدد مستويات الاهتمام والرصد والتأويل<sup>35</sup>.

فهي في آن واحد :

- يوميات رحلة يصف مشاهداته، ويحكي توقيت ومراحل تنقله.
- تأليف جغرافي يعنى بتصنيف المناظر الطبيعية، ويصف الساكنة وأنماط عيشها.
- تأليف إثنوغرافي يهتم بالأعراف، ويرصد في كثير من الأحيان انتظام المجموعات، وسير عدد من المؤسسات المحلية.

ومن المثير أن فوكو أعلن منذ البداية عن ثنائية موجهة، وهي ثنائية «بلاد المخزن» و«بلاد السبية»<sup>36</sup>. وربط المؤلف بين المجال الأول وأمن السفر، وربط في المقابل بين المجال الثاني وضرورة الانجاء إلى حماية الزطاط. ولذلك اهتم فوكو بذكر المعطيات المتعلقة بهذا الجانب. لذلك عمدنا

33. سوف نكتفي هنا بذكر الملامح العامة لخريطة المصادر المستعملة، وسوف نعود إلى التعريف بها بشكل أكثر إسهاباً في الفصول الأربعة اللاحقة.

34. ومع ذلك، نشير إلى فائدة توظيف رحلات المغاربة إلى أوروبا، حيث يشير المؤلفون إلى سلبيات أوضاع الطرق في بلدهم، بطريقة غير مباشرة، عن طريق وصف إيجابيات الطرق عند الآخر. انظر على سبيل المثال وصف الطرق الإسبانية في كتاب محمد ابن عثمان الكناسي، الإكسبر في فكاك الأسير، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1965، ص. 31-33، 49-51، 72-76. وانظر كذلك التأليف الجغرافي لمحمد بيرم التونسي، صفوة الاعتبار بمسودع الأمصار والأقطار، بيروت، د.ت، حيث يجد القارئ وصفاً لطرق فرنسا وإيطاليا، راجع ج 1، ص. 55-57، 87، 152-153.

35. لم تحظ بعد هذه المصادر بدراسات تتناولها في مستوى منطقتها الداخلي. ومن بين الأعمال الجديدة في هذا المجال، راجع : Magali Morsy, *La relation de Thomas Pellow*.

36. لا شك أن السلطة العلمية لشارل دو فوكو جعلته يساهم في تأسيس هذه الثنائية التي وجهت رسم معالم الدولة المغربية التقليدية في الكتابات الفرنسية منذ الفترة التي مهدت لنظام الحماية. وبعد الاستقلال، استقطبت الثنائية المذكورة اهتمام الكتابة التاريخية المغربية في اتجاه نفي مضمونها، وذلك عن طريق تأكيد الحضور المخزني في البادية المغربية. راجع مقالنا «التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج : ملاحظات أولية»، م.س.، ص. 46-48.

إلى الانطلاق من هذا الكتاب لإعادة تركيب مشاهد حية من مشاهد السفر، وآليات حماية المسافر والقافلة، من خُفراء، ومحطات، وأساليب أخرى.

كان نص فوكو نقطة انطلاق، غير أننا لم نكتف بشهادته، بل استحضرننا مؤلفات أخرى لأوربيين ومغاربة، مما يتيح تلمس اختلاف الأسلوب، ويتيح كذلك تأكيد بعض مقولات فوكو، وتفنيد بعضها الآخر. وهكذا نجد الرحالة أحمد بن طوير الجنة (المتوفى سنة 1849 للميلاد) يحكي بطريقة تعتمد أحياناً الكرامة والانتقام بواسطة قوى الغيب. أما محمد يحيى بن محمد المختار الولاتي، فقد قام برحلته الحجازية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وأدرج في نصه جزئيات تنتمي إلى عالم رحلة طلب العلم.

غير أن الابتعاد عن مناخ فوكو كان أمراً أكثر إلحاحاً، عندما عمدنا إلى الكشف عن آليات التدبير المخزني لقضية أمن الطرق. فقد اتبع الرحالة الفرنسي خطأً شديد الالتصاق بالمغرب «المجهول»، مما وسم نصه بقصور واضح حين يتعلق الأمر بالتعرف على دور المخزن في تأمين الطرق، أي على الأدوات التي كان يستعملها، والعلاقات المعقدة التي كانت تربط المخزن بالسلطات المحلية والقبايل المكلفة بوظيفة دَرَكِ الطريق. لذلك استحضرننا نماذج من الكتابات الأخبارية والمراسلات المخزنية.

## أخبار الدول والسلاطين

عرف المغرب كتابة تاريخ حكامه بشكل متأخر. فقد كتب هذه الأخبار في البداية مؤرخون من المشرق والأندلس. وضاعت عدة مؤلفات وصلت أصدؤها عن طريق النُقول والاستشهادات. ومعلوم أن أقدم الكتب الأخبارية المحلية التي وصلتنا تعود إلى عصر دولة الموحدين. ومع بني مرين، تزايد إيقاع التأليف<sup>37</sup>، وتبلورت صياغة قصة الوصول إلى السلطة بطريقة تسند مشروعية حكام استظلوا في الأصل بمشروعية دولة بني حفص ورثة المشروعية الموحدية. وعلى العموم، فقد تم آنذاك إرساء تقليد إسطوغرافي سوف تنحو منحاه الكتابات التي أرخت للدول اللاحقة بالرغم من تغير الأوضاع على المستوى الجهوي.

كيف تحضّر قضية أمن الطرق في هذا النوع من التأليف؟ لقد كان المنظور السائد هو تاريخ السلاطين، من حيث أوصافهم، وذكر وُزرائهم، وحجابهم، وكتابهم، وعمالهم، وقضاتهم. وهو كذلك تسلسل أحداث عهود الدول والسلاطين، من حيث الوصول إلى السلطة، والبيعة، ومختلف الحروب التي شنها السلاطين، أو فرضت عليهم، سواء داخل المملكة أو خارجها.

إنها كتابة تمجيدية، غير أنها لا تصطنع تاريخاً ساكناً، بل كثيراً ما تُسهب في ذكر المواجهات والمعارك التي دارت بين الدولة وأطراف أخرى، وذلك على منوال أيام العرب ومغازي الرسول. وفي

37. انظر :

هذا الإطار، تحضر ثنائية «الطرق الآمنة» و«الطرق المخوفة». إنها صورة تستحق الاهتمام، لذلك حاولنا في الفصل الثاني، أن نقرب منها بواسطة مجموعة من النصوص وفق عدد من التساؤلات والعناصر التحليلية.

ففي مستوى المرجعية المؤسسية، أثرنا الانتباه إلى بعض النصوص من الآداب السلطانية والسياسة الشرعية. ففيما يخص النوع الأول<sup>38</sup>، نلتقي بمقتطفات من «تسهيل النظر» لأبي الحسن الماوردي، و«سلوك المالك» لابن أبي الربيع، و«الشهب اللامعة» لابن رضوان. وفيما يخص النوع الثاني، نلتقي مرة أخرى بالماوردي («الأحكام السلطانية») وابن تيمية («السياسة الشرعية»). وتقرن النصوص الطريق الآمن بالعدل وحسن السياسة، والطريق المخوف بالجور وسوء التدبير.

ثم طرحنا أسئلة من قبيل: ما هي عناصر الصور التي تتصل بالثنائية المذكورة؟ وكيف تشكل هذه الصور؟ وكيف تتطور؟ وما هي الوقائع التي توجد خلف الصور الحاضرة في أشكالها المبسطة والتكرارية؟ وهنا ارتأينا الانطلاق من نموذجين محددين.

يتمثل النموذج الأول في المرحلة الموحدية- المرينية، من خلال كتاب «روض القرطاس» لابن أبي زرع. والراجع أن هذا الأخير ألف الكتاب سنة 726 للهجرة (1326 للميلاد)، وأهداه للعاهل المريني أبي سعيد عثمان. وقد مثل «روض القرطاس» محطة هامة في التأليف الأخباري، لأنه جمع معطيات عديدة من مصنفات ضاع بعضها، كما أنه أقام تركيباً جمع بين تاريخ دول المغرب وبين تاريخ حاضرة فاس.

لعل ما أثار انتباهنا بشأن كتاب ابن أبي زرع، هو درجة الترميم في سرد الأخبار، بالرغم من اختلاف الدول والسياقات، وبالرغم من اختلاف المصادر التي استقى منها معلوماته بالنسبة للحقب التي لم يعاصرها المؤلف. لذلك فعبر المقاطع التي انتقيناها من «روض القرطاس»، تتعدد وجوه السلاطين، وتكرر نفس الصورة، على أن عهد كل سلطان ينتمي إلى وضعية «أمن المسالك»، أو إلى وضعية اضطراب المسالك وسيادة الخوف فيها.

أما النموذج الثاني فهو يتمثل في مرحلة الدولة العلوية، وبالتحديد في حقبة ما بين سنة 1672 وسنة 1757، وهي حقبة تتالت فيها، حسب الصورة الاسطوغرافية المتداولة، حقبة النظام المطلق وحقبة الاختلال المطلق. توافق الأولى حكم السلطان إسماعيل، وتوافق الثانية ما يعرف ب«الفترة» التي دامت ثلاثين سنة، وانتهت بوصول محمد بن عبد الله إلى الحكم.

لقد اتبعنا هنا أسلوباً آخر في تناول الصورة الاسطوغرافية، بحيث انتقينا نصوصاً متعددة بالنسبة للعهد الواحد. ففيما يخص عهد السلطان إسماعيل، سوف نتبع فقرات معبرة من كتب «روضة التعريف» للإفراني، و«نشر المثاني» لمحمد بن الطيب القادري، و«البستان الطريف» لأبي القاسم الزياني، و«الاستقصا» لأحمد بن خالد الناصري. وبالنسبة لأخبار مرحلة الاضطراب التي تلت وفاة إسماعيل، سوف نتعرف على فقرات من «إنحاف أعلام الناس» لعبد الرحمان ابن زيدان،

و«زهر الأكم» لعبد الكريم الريفى، و«نشر المثانى» للقادري، على أن تسلسل النصوص لا يقوم في هذه الحالة على تاريخ تأليف النصوص، بل يقوم على تصنيفنا للمواضيع المطروقة.

كيف يمكن الانتقال من الصورة إلى الحدث؟ ماذا يوجد خلف الصورة؟ في خطوة أولى سوف نتوقف عند نموذجين من النصوص النادرة التي تُسهب في ذكر إجراءات تأمين الطرق. ففي «مسند» ابن مرزوق، استعراض للسياسة التي اتبعتها السلطان المريني أبو الحسن، لكن هذا النص أقرب إلى أسلوب أدب المناقب منه إلى جنس كتب الأخبار، بحيث يشيد بالإنجازات، ولا يحدد أي موقع أو تاريخ. وعلى عكس ذلك يستعرض الزياني، في «البستان الطريف»، معطيات محددة تهم عهد إسماعيل، وهي معطيات وضعها المؤلف داخل كرونولوجية الحملات العسكرية التي شنها العاهل ضد مجموعة من القبائل بشمال شرق المغرب ومنطقة فازاز.

وفي الخطوة التالية، استوقفنا بعض النصوص التي تدعو إلى إعادة النظر في الوصف المبسط لأوضاع أمن السبل. وفي غياب التأليف الأخباري البعيد عن محيط التمجد والإجلال، تأتي بعض رسائل النصيحة التي وجهها إلى السلطان علماء أو فقهاء أو متصوفة<sup>39</sup>، حيث لهجة المؤاخذة، والدعوة إلى رفع المظالم، واستعراض أحداث ووقائع تتجاهلها الرواية التاريخية السائدة. تلك كانت حالة ابن عباد مع العاهل المريني أبي فارس عبد العزيز، وحالة الحسن اليوسي مع السلطان العلوي إسماعيل. ومن حظنا أن وثيقتين للمؤلفين المذكورين تناولتا ظاهرة قطع الطريق، وتجاوزات رجال المخزن في جباية رسوم المرور بالرتب.

### السفر في تاريخ الصلاح والولاية

تشكّلت كتابة أدب المناقب بالمغرب، على غرار تطور أدب الأخبار، عبر حركة إعادة اعتبار إزاء مركزية المشرق، وإزاء الأندلس كذلك. وفي آن واحد تميز التأليف المنقبي بنوع من الاعتزاز بالهوية الإقليمية، وهو ما عبر عنه حافظ الكتابة عند التميمي صاحب «المستفاد» حول فاس، وبعده ابن الزيات مؤلف التشوف حول مراكش، ثم البادسي صاحب «المقصد الشريف» حول الريف<sup>40</sup>. وفي مستوى آخر، عبر هذا الإنتاج عن مختلف المراحل التي مرت بها حركة الصلاح والتصوف، من الظاهرة الفردية، إلى تنظيم الطوائف، ثم الزوايا<sup>41</sup>.

39. من بين الدراسات الحديثة حول موضوع النصيحة، راجع محمد العيادي (تنسيق)، محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، الدار البيضاء، 1996. انظر على الأخص دراسات كل من لطفى بوشنتوف حول رضوان الجنوي، و محمد فلاح العلوي حول محمد گنون، و محمد العيادي حول محمد بن جعفر الكتاني.

40. انظر وصف الإنتاج المنقبي، وتعليل موضوعاته من زاوية أدبية وأثنوبولوجية، في كتاب محمد مفتاح، الخطاب الصوفي. راجع كذلك:

Halima Ferhat & Hamid Triki, «Hagiographie et religion au Maroc médiéval», *Hesp.-Tam.*, vol. XXIV, fasc. unique, 1986, pp. 17-51.

41. راجع:

Halima Ferhat, «L'évolution de l'écriture hagiographique entre les XIIe et XIVe siècles au Maroc», in *Le Maghreb*, pp. 13-28.

إن موضوع أمن السفر كثير الحضور في هذا التأليف لسببين، وهما كثرة التنقل في سير الصلحاء والأولياء، وقيام هؤلاء بوظيفة حماية المسافرين. ومعلوم أن نص الكرامة يشكل نص المنقبة بامتياز، وهو ما يميز أدب المناقب عن أدب التراجم، وهو جنس يتولى التأريخ لنخبة ثقافية أخرى، هي فئة الفقهاء والعلماء. لذلك انطلقنا في الفصل الثالث، من مجموعة من الكرامات التي تهم نفي إكراهات المجال، أو التغلب على قاطع الطريق وغيره من مصاعب الطريق.

تضعنا قراءة كرامة السفر أمام ثنائية هامة، هي ثنائية الواقعة والقصة المتخيلة. والملاحظ أن أساليب تناول المصادر المنقبية تميل أحياناً إلى التصديق، وأحياناً أخرى إلى التشدد في انتقاء الواقعة البعيدة عن التخيل، وأحياناً أخرى إلى نفي السياق التاريخي والثقافي والتركيز على الكرامة في مستوى بنيتها التصويرية<sup>42</sup>.

لقد تبيننا موقفاً يقوم على لحظتين اثنتين<sup>43</sup>. تتمثل اللحظة الأولى في تأمل مشهد الكرامة في حد ذاته، مع ما يحمله من صور، وما يعبر عنه من رصيد ميثولوجي، وما يعكسه من مفاهيم، ومقولات ضمنية، ودلالات ثقافية.

وتتمثل اللحظة الثانية في رصد نقط التفاعل بين جانب التخيل والرمز، وبين جانب الممارسات الاجتماعية الملموسة، ولا سيما تلك التي تتصل بأمن السفر كأداة تُيسر السلم الضروري لعملية التبادل بين المجموعات. وهنا نتبعنا تصنيفاً يقوم على التمييز بين مختلف وسائل تأثير مستوى التخيل في الحدث والتنظيم الجماعي، مثل المكان، والزمان، والقلائد. وكان من اللازم أن نلجأ في كثير من الحالات، إلى أجناس أخرى غير أدب المناقب، مثل كتب الحوليات السلطانية.

### صيغ النص القانوني

وأخيراً كان اهتمامنا في الفصل الرابع بالنص القانوني وأشكال تناوله لموضوعنا المركزي. إن هذا النص ليس مجرد مصدر يزودنا بالأخبار، بل من المفيد أن نسائله في مستويات متعددة. كيف تتم عملية التقنين؟ وما هي عناصر لغة التقنين؟ وما هي صور المجتمع والعلاقات الاجتماعية في النص القانوني؟

لقد انطلقنا من التمييز بين عملية زجر اللصوصية والحراية، وبين إرساء مؤسسات تهتم بإقامة علاقات الحماية بين الأفراد والمجموعات. ومعلوم أن دراسة هذا المجال عرفت ثنائية موجهة، وهي ثنائية العرف والشرع، حيث يقترن العرف بالبادية، وبالقبيلة «البربرية» على وجه التحديد، ويقترن الشرع بالمدينة والمخزن. غير أن منظور «الدراسة الإجرائية» الذي تبناه الضباط-الباحثون،

42. راجع من الوجهة السيميولوجية :

Abdelmajid Zeggaf, *Des récits hagiographiques marocains. Essais d'analyse morphologique et mythologique*. thèse inédite, Toulouse, 1988.

43. في مقال سابق، ميزت بين القراءة «الداخلية» والقراءة «السياقية». انظر «أخبار المناقب ومناقب الأخبار»، ضمن التأريخ وأدب المناقب، جماعي، الرباط، 1989، ص. 93-113.

والذي كان يعلن بكل وضوح عن أبعاده السياسية والإيديولوجية، أدى إلى تراكم دراسات ومُتون أساسية<sup>44</sup>، وواجه خلال حقبة الحماية ذاتها اجتهادات رائدة انتبعت إلى مواطن التفاعل بين الشرع والعرف<sup>45</sup>، ومن هذه الأعمال استلهمنا بناء متن النصوص القانونية.

وفيما يخص أنماط تأمين المسافر حاولنا أن نتتبع خريطة الأعراف من خلال نماذج من الأبحاث الميدانية التي أنجزت خلال مرحلة الحماية، وكذا الوثائق الأصلية التي ساهم في بروزها تراكم الدراسات في التاريخ المحلي للبوادي المغربية<sup>46</sup>. وفي هذه النصوص تختلف المناطق المعنية، وتتعدد اللغات والمصطلحات. ثم نتوقف عند موضوع الزطاطة كنقطة التقاء بين العرف والشرع، وهو ما يقودنا إلى منظومة «العمل الفاسي» لعبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، وشرحها من طرف محمد السجلماسي (المتوفى سنة 1800 للميلاد). وبذلك نعود إلى منطلقنا الأول من حيث الزمن والموضوع، أي إلى القرن التاسع عشر ووظيفة الزطاط. ويستوقفنا مفهوم «ثمن الجاه»، وعلاقته بمفهوم الرشوة، فتتلمس بعض عناصره الثقافية والتاريخية من خلال نصوص من المآثور الإسلامي المؤسس، ثم نستعين بنصوص أخرى لتوضيح التعارض بين خطاب النموذج في النص المنقبي، وبين خطاب الممارسة الاجتماعية العنيدة التي تصل أصدائها بشكل لافت في لحظات التوتر وانكسار التوافق، بينما تظل في نطاق المسكوت عنه في التدوين التاريخي السائد.

### بعض الاعتبارات المنهجية

لا شك أن استعراض عناصر المتن، وفق منظور الأجناس، يوحي بأننا توخينا بالأساس إعادة الاعتبار للنصوص والوثائق، والمساهمة في إفراز المزيد من زوايا القراءة والتأويل، مع تأكيد انفتاح نفس النصوص على المزيد من القراءات الممكنة.

ففي مستوى أول، حاولنا أن نعيد بناء وحدات نصية من قبيل المشهد، واللقطة، واللوحة الوصفية، والإشارة، والنبذة. فالمشهد يستحق أن نوليه مكانة الخبر ذي الدلالات المتعددة. ومعلوم أن شح المصادر المغربية قبل القرن التاسع عشر، بالنسبة لحقل مثل تاريخ المجال، يفرض على المؤرخ أن يتحايل لاقتناص المعطيات، ويتعامل مع بعض الشذرات على أساس أنها عينات تمثيل على ظواهر

44. نشرت نماذج كثيرة في دوريات مثل هسبريس *Hespéris*، والوثائق البربرية *Archives Berbères*، والمعلومات الاستعمارية *Renseignements coloniaux*. وأنجزت دراسات عديدة من طرف الأطر المحلية لسلطة الحماية في إطار مركز الدراسات العليا لإفريقيا وآسيا الحديثين (C.H.E.A.M)، وهو مركز أسسه روبر مونتاني *Robert Montagne*.  
45. راجع :

Jacques Berque, *Essai sur la méthode juridique maghrébine*, Tanger, 1944.

وقد استفاد المؤلف من تكوينه الذي جمع بين الاستشراق والسوسولوجيا والتاريخ الاجتماعي، كما أن بيرك زواج بين دراسة المدينة ودراسة البادية.

46. من بين الدراسات الرائدة التي ركزت على التعريف بالوثائق المحلية، نذكر :

Larbi Mezzine, *Le Tafilat*.

انظر كذلك أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة.

ذات امتداد أوسع<sup>47</sup>.

والنصوص أصوات تنتمي إلى بيئات وسياقات معينة، وتحركها رهانات وقيم وتصورات. فهناك الفعل والحوار. وهناك لغات تتسم بالتعدد والتراتبية<sup>48</sup>. فبالنسبة لموضوعنا يمكن التمييز بين المستويات التالية :

- معجم الاستعمال اليومي.
- لغة فقيه البادية الذي يدون نص الاتفاق العُرفي بلغة تمزج بين العربية الفصحى وكلمات وتراكيب العامية المحلية والأمازيغية.
- لغة الرحالة المستكشف أو الضابط - الباحث الفرنسي اللذين قد يضيفان صفة التنميط القانوني الثابت على ممارسات اجتماعية مرنة ومتحركة.
- لغة فقيه الحاضرة الذي يصدر الفتوى بطريقة تعبر عن وقائع محلية بمصطلحات معيارية.
- لغة المراسلة المخزنية<sup>49</sup>.
- لغة الأخباري.

إن منحى الاهتمام بلغة النصوص لا يخلو من صعوبة. فقد تفرض بعض الظروف أن تتغير الكلمات في الزمان أو المكان بغض النظر عن أي تغير في طبيعة الأشياء ذاتها. وفي حالات أخرى، قد يحدث تغير في الأشياء دون أن يوازي ذلك بالضرورة تغير للكلمات وأسماء الأشياء. وفيما يخص الوقائع المجردة مثل الظواهر الاجتماعية، فهي غالباً ما تتحول ببطء كبير لا ينتبه إليه المعنيون، ولذلك يتمسكون بالكلمات الموروثة. وهذا ما يجعل المدلول يعرف حركية لا تقابلها حركية في مستوى الدال<sup>50</sup>.

47. من بين نماذج توظيف الشذرات، نذكر :

Jacques Berque, *L'intérieur du Maghreb, (15<sup>e</sup> - 19<sup>e</sup> siècle)*, Paris, 1978.

وكذا محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال.

وحول الامتدادات الإستيمولوجية لاستعمال المؤشر (indice)، راجع :

Paul Ricoeur, *La mémoire, l'histoire et l'oubli*, Paris, 2000, pp. 219-222.

48. انظر :

Marc Bloch, *Apologie pour l'Histoire*, pp. 135-136.

وقد استعمل المؤلف استعارة فضائية لإبراز الفرق بين لغة المجتمعات ولغة المصادر التاريخية السردية. ففي كثير من الأحيان، لا تصلنا سوى لغة الإخباري، مع أن هذا الأخير «ينفتح» لغة المجتمع الذي عاش الواقعة التاريخية، على غرار كاتب الضبط الذي ينفتح لغة الشهود أو الأطراف المتقاضية. انظر ن. م.، ص. 137.

49. انظر على سبيل المثال اهتمام عبد الرحمن المودن بالخطاب المخزني حول موضوع الحركة في قبائل إيناون والمخزون، ص. 307-319. راجع أيضاً خالد بن الصغير، «سلطة اللغة ولغة السلطة في الوثيقة المخزنية»، مجلة المناهل، عدد 63-62، ماي 2001، ملف «اللغة والسلطة»، ص. 262-279.

50. حول مفهوم القبيلة في تاريخ المغرب، لاحظ بول باسكون : «تدوم العلامة أكثر ما يدوم المضمون الذي تحيل عليه. ففي المغرب الكبير، كم من مرة نفاجاً مصطلح واحد يستعمل لتسمية ظواهر اجتماعية يكون بينها اختلاف بين». ويستدل باسكون بكلمة التويزة التي انتقل مضمونها من ممارسات ترتبط بالتضامن القبلي، إلى التسخير في إطار النظام القائدي، ثم إلى أورايش «الإنعاش الوطني» في مرحلة ما بعد الحماية. انظر :

Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, t. 1, p. 147.

وسبق أن طرحنا قضية مماثلة من خلال تناولنا لمصطلحات الترتيب الاجتماعي. راجع مادة «أعيان»، معلمة المغرب، ج 2، ص. 525-529.

وينبغي أن لا يحول هاجس تصنيف النصوص دون تمثل أشكال التقاطع. وهكذا تستحق الإسطوغرافيا أن تستفيد من بعض مكتسبات الدراسات الأدبية التي اهتمت بتقاطع الأنواع، وعلاقته بـ«النص الثقافي». كتب عبد الفتاح كيليطو: «ونعني بالنسق الثقافي بكل بساطة مواضعة (اجتماعية، دينية، أخلاقية، استيعابية...) تفرضها، في لحظة معينة من تطورها، الوضعية الاجتماعية، والتي يقبلها ضمناً المؤلف وجمهوره، وهكذا يكون أفق النصوص المنفردة والإنجازات الفردية هو «النص الثقافي» الذي يجعلها ممكنة، وفي الوقت نفسه يحد من مدى تساؤلاتها. وينتج عن ذلك أنه لا يمكن اعتبار أي نص مغلقاً أو متوحداً، أو مصوغاً من كتلة واحدة. إنه منفتح على نصوص أخرى، ومعرفيات أخرى، يدمجها في بنيته وتمنحه مظهراً مختلطاً ومتجزئاً. وليس للنسق الثقافي، بطبيعة الحال، وجود مستقل وثابت. إنه يتحقق في نصوص تداعبه أحياناً، وفي الحالات القصوى تشوشه وتنسبه.<sup>51</sup>»

وفي مستوى آخر، من الممكن أن نتناول الكتابة التاريخية كصدى للتجربة التاريخية، والتجربة التاريخية كصدى للكتابة التاريخية، وذلك لأن النص الإسطوغرافي ليس مجرد سجل لوقائع عاشها مجتمع معين، بل هو يحمل قيماً وتصورات أطرت المجتمع وساهمت في توجيه أشكال سلوكه وممارساته.<sup>52</sup>

وفي نهاية هذا التقديم، من المناسب أن ننبه القارئ بأن البحث يتفرع إلى خمسة فصول. تستعرض الفصول الأربعة الأولى نصوصاً ووثائق تنتمي إلى الأجناس المذكورة آنفاً، وهي الرحلة الاستكشافية، والكتابة الأخبارية، وأدب المناقب، والنص القانوني.<sup>53</sup> وبعد ذلك يأتي الفصل الخامس حيث نستعيد الكلمة، ونعيد تركيب حصيلة نفتح فيها متن النصوص على بعض القضايا التاريخية والاجتماعية والثقافية.

51. عبد الفتاح كيليطو، المقامات، ص. 8.

52. أبرز عبد الله العروي هذا الجانب من خلال موضوع فكرة الدولة في المجال العربي-الإسلامي التقليدي، بين «الأدلوجة» والواقع المعاش. راجع كتاب مفهوم الدولة، ص. 89-90.

53. من الواضح أن نصوص الفصلين الأول والرابع لا تنتمي إلى التاريخيات (الإسطوغرافيا) بمعناها المتداول. ومع ذلك من المفيد أن نذكر بأنه كثيراً ما كان مصطلح الإسطوغرافيا موضوع التباس، إذ يُراد به أحياناً ما يُصنف بفرض التاريخ، ويُستعمل أحياناً أخرى للدلالة على كافة أشكال التأليف الذي يشهد على حقبة تاريخية معينة. حول هذه التعريفات، راجع:

Bernard Guenée, *Histoire et culture historique dans l'Occident médiéval*, Paris, 1980, pp. 12-14.



الفصل الأول

الزَّطَاةُ وَأَلْيَاتُ الْحِمَاةِ



## مقدمة

خلال القرن التاسع عشر، كانت رحلات الأوربيين إلى المغرب تسلك نوعين من المسالك.

- طريق السفارات، وهو محور ينطلق من مدينة طنجة، مقر «دار النيابة» والقناصل ممثلي «الأجناس»، ثم تتجه إلى إحدى عواصم السلطان، في شمال المملكة أو جنوبها<sup>1</sup>. ولهذه الرحلة إيقاعها، وترتيباتها، وطقوسها. وهي في الغالب رحلة نمطية، من حيث مسالكها، ومحيطها البشري.

- طريق المستكشفين، من فرنسيين، وإسبان، وأнгليز، وألمان. اختلفت ظروف هؤلاء، وحوافزهم، وعلاقاتهم مع مؤسسات بلدانهم. غير أن قدرا من المغامرة، والخروج عن المسالك «الرسمية» كانا يشكّلان القاسم المشترك بين هؤلاء الرحالة-المؤلفين الذين تركوا نصوصاً صمدت حتى الآن بفضل حجم وأهمية المعطيات التي سجلتها<sup>2</sup>. ذلك أن الرحالة انتبهوا لجوانب لم تكن تثير فضول المؤلفين المغاربة في ذلك العصر، بيد أنها أصبحت تثير اهتمام الباحث في مجالات مثل تاريخ المجتمع والحياة اليومية.

---

1 . انظر :

Roland Lebel, *Les voyageurs français au Maroc. L'exotisme marocain dans la littérature de voyage*, Paris, 1936, pp. 63-84.

2 . حول المستكشفين بمنطقة «عمر تازة»، راجع :

Abderrahmane El Moudden, « Exploration et pénétration. Un siècle d'itinéraires dans le couloir de Fès-Taza (1805-1911) », *Hesp.-Tam.*, vol. XX, 1984, pp. 103-118.

ينتمي شارل دو فوكو إلى الصنف الثاني<sup>3</sup>. وهو ينحدر من وسط أرسطراطي. وقد ارتاد مدارس عسكرية عليا، وتخرج ضابطاً في جيش الخيالة. وفي سنة 1864، ساهم فوكو بصفة مباشرة في قمع انتفاضة أولاد سيدي الشيخ، التي تزعمها بوعمامة في الجزائر، وهي تجربة جعلت الشاب الفرنسي يقضي مدة ثمانية أشهر في الدوريات والمعارك بالجنوب الجزائري، في ظرف تميز بتزايد ضغط الأوساط الاستعمارية «الوهرانية» في اتجاه جنوب شرق المغرب، خاصة وأن فرنسا قد سبق لها أن حققت مكسباً استراتيجياً في اتفاقية للا مغنية (1845)، وهو يتمثل في حق المطاردة، ومبدأ تعيين الحدود في مستوى المجموعات البشرية بدل التراب جنوب واحة فكيك.

استقال فوكو من الجيش، واستقر بمدينة الجزائر. وهناك قضى خمسة عشر شهراً من العمل المتواصل. وقد تعرف على أوسكار ماك كارتي، محافظ خزانة الجزائر العاصمة، ورئيس «الجمعية الجغرافية الجزائرية». وكان لهذه العلاقة تأثير حاسم على مسار فوكو، حيث نشأت فكرة الرحلة إلى المغرب، وتبنى فوكو فكرة التنكر واستعارة الهوية اليهودية<sup>4</sup>، وقدم له ماك كارتي الحاخام مردوخي أبي سرور. ولم يكن هذا التنكر يعني الاندماج في الأوساط اليهودية بالمغرب، أو حتى التعاطف مع ساكنة الملاحات، بل تدل بعض المؤشرات على تحفظ الرحالة الفرنسي وتبنيه لعدد من الأحكام السلبية إزاء هذه الجاليات. بيد أن الهوية المستعارة كانت عنصراً أميناً وعملياً بالأساس، إذ بفضلها تمكن فوكو من الاشتغال وتسجيل ملاحظاته الجغرافية الدقيقة بعيداً عن الأنظار المشككة. ومن أجل نفس الهدف، تعلم فوكو اللغة العربية، وقدرراً من الأمازيغية، ونزراً يسيراً من العبرية.

دامت الرحلة من يوم 20 يونيو 1883، تاريخ وصول فوكو إلى طنجة، إلى يوم 23 ماي 1884، تاريخ مغادرة الرحالة لمدينة وجدة في اتجاه التراب الجزائري. وقد كان المخطط المسبق للرحلة ينص على المراحل التالية :

- من طنجة، الالتحاق بفاس، عبر طريق تقع شرق المسالك المعروفة.
- ثم الانتقال من فاس إلى تادلا، مروراً بالمنطقة الجبلية التي يقطنها زمور وزيان.
- عبور تادلا، والالتحاق بوادي العبيد، ومن ثم إلى مدينة دمنات.
- اجتياز الأطلس الكبير شرق الممرات المعروفة. ويلي ذلك استكشاف الصحراء المغربية،

3. حول حياة فوكو، انظر على سبيل المثال :

René Bazin, *Charles de Foucauld. Explorateur du Maroc, ermite au Sahara*. Paris, 1921.

وهناك دراسات حديثة اهتمت بنص فوكو في مستوى بنيته وتضميناته. راجع :

Jacques Frémeaux et Daniel Nordman, « La Reconnaissance au Maroc de Charles de Foucauld », in Daniel Nordman, *Profils du Maghreb*, pp. 141-180.

4. هناك رحالة آخرون فضلوا التنكر في زي إسلامي، نذكر منهم على سبيل المثال الفرنسي روني كايي، والإسباني علي باي العباسي، والألمانيين رولف ولانتس (René Caillé, Ali Bey El Abbassi, Rohlf, Lenz). وفي مرحلة لاحقة (سنة 1930)، هناك حالة الرحالة الفرنسي ميشال فيوشانج الذي تنكر في هيئة امرأة أمازيغية، وانطلق من شمال مدينة تزيت، بهدف «التوغل عند مشردي الأطلس الصغير ووادي الذهب، والوصول إلى سمارة، مدينة ماء العينين...». انظر :

Michel Vieuchange, *Smara : Carnets de route*, Paris, 1932.

ولاسيما السفح الجنوبي للأطلس الصغير، والمنطقة الواقعة بين هذه السلسلة ووادي درعة والساحل.

- الانتقال إلى الحوض الأعلى لوادي درعة، والروافد الواقعة على يمين وادي زيز.  
- في طريق العودة إلى الحدود الجزائرية، اجتياز الأطلس الكبير للمرة الثانية، واستكشاف مجرى وادي ملوية، والمرور بمحطات دبدو، ووجدة، وللا مغنية.  
غير أن حافظ الفضول وبعض الظروف الطارئة جعلت فوكو يضيف جولة من فاس إلى تازة مروراً بقبيلة غيطة، وجولة أخرى من فاس إلى صفرو، ورحلة من تيسيننت (إحدى واحات جبل باني) إلى ميناء الصويرة.

في سنة 1884، على إثر انتهاء الرحلة وتحرير الكتاب، تلقى شارل دو فوكو تنويهاً وميدالية ذهبية من «الجمعية الجغرافية لباريس»، بناء على تقرير قدمه هنري دوفريي، وهو باحث اثنوغرافي ولساني متخصص في استكشاف الصحراء، وقد اعتبر أن كتاب فوكو شكل «عهداً جديداً في المعرفة الجغرافية للمغرب».

والواقع أن الكتاب احتفظ إلى يومنا هذا بقيمة علمية كبرى. فهو يتميز بدقة الملاحظة والوصف، إلى جانب ما يرافق النص من رسوم وخرائط وأرقام. وقد اهتم فوكو بالبيئة الطبيعية، فوصف التضاريس والغطاء النباتي ومجاري المياه. واهتم بالسكان، فذكر القبائل ووطنها داخل المجموعات الكبرى. ووصف الموارد، ومستوى عيش السكان، وأنماط عيشهم. وتوقف عند عادات المناطق التي زارها، فسجل معطيات حول البناء واللباس والغذاء. واهتم كذلك بالتنظيم السياسي والعلاقات التي كانت تربط القبائل بدولة السلطان.

وفي مستوى الشكل، مزج فوكو بين هاجس التصنيف الجغرافي القائم على التعريف بوحدات مجالية، وبين سرد اتخذ فيه المؤلف صيغة يوميات السفر. وفي هذا الإطار، ذكر المؤلف جزئيات مفيدة وملموسة حول الزطاطة، أي الحفر الذي كان يلجأ إليه من حين لآخر لاجتياز مناطق غير آمنة. وقد أوضح فوكو، منذ بداية الكتاب، خلفية هذا الاهتمام، وهي أن ضرورة الزطاط ترتبط بعبور «بلاد السبية»، والاستغناء عنه يرتبط بعبور «بلاد المخزن»<sup>5</sup>. إن طريقة التعامل مع أمن الطريق كانت إذن من بين المعايير التي تساعد على التمييز بين عنصري هذه الثنائية الشهيرة.

سوف ننطلق من هذه الرحلة لتصنيف أليات حماية أمن الطريق<sup>6</sup>. ولا ينبغي أن يغيب عن ذهننا أن رحلة فوكو لا تخلو من خصوصيات. فقد استعار المسافر الهوية اليهودية، ثم إن تزييط المسافرين القلائل يختلف ولا شك عن تزييط القافلة. غير أن هناك قاسماً مشتركاً يجمع بين النصوص التي

5. حول البروز التدريجي لهذه الثنائية، راجع :

Edmund Burke III, « The Image of the Moroccan State in French Ethnological Literature : a New Look at the Origin of Lyautey's Berber Policy », in Ernest Gellner & Charles Micaud (eds.), *Arabs and Berbers : from Tribe to Nation in North Africa*, London / Duckworth, 1973, pp. 175-199.

6. نود أن ننبه القارئ إلى أن الباحث الجغرافي المختار بلعربي أصدر ترجمة عربية لكتاب شارل دو فوكو: التعرف على المغرب، 1883-1884، ج 1: الرحلة، ج 2، أطلس، الدار البيضاء، 1999. غير أننا فضلنا بذل مجهود الترجمة بالنسبة للمقاطع التي انتقيناها من النص الأصلي، وذلك بطريقة تستجيب لاهتماماتنا في هذا البحث.

انتقيناها ، وهو أنها تُصور مشاهد حية، حكاها المؤلف بالدقة التي تميّزت بها كتابته بوجه عام . وسوف يلاحظ القارئ أننا سايرنا فوكو في تركيزه على أشكال التدبير المحلي للزطاطة، وعمدنا كذلك إلى توسيع إطار المقاربة، فحاولنا رصد أشكال التدبير الذي تتولاه الدولة المركزية. وقد استعنا أحياناً بنصوص أخرى، أوروبية ومغربية من قبيل أدب الرحلة والوثيقة المخزنية، والملاحظ أن هذه النصوص تزكي ملاحظات فوكو في بعض الحالات، وتفندها في حالات أخرى.

حين غادر شارل دو فوكو مدينة طنجة لاستكشاف المغرب، تعمّد السفر خارج المحاور الطرقية الكبرى. واختار السفر مع رفيقه الخاخام، بدون خفر دائم يحمي المسافرين الاثنين. ولم يتقيد فوكو بيومية سفر صارمة. ونتيجة لهذه الاختيارات، ظل فوكو باستمرار يتزود بمختلف أشكال الحماية في المستوى المحلي. فهو يستعلم، ويبحث، ويتفاوض، ويدون بعد ذلك مختلف الحيشيات التي واجهها عبر مراحل استكشافه لعدد من مناطق المغرب. ولذلك تتيح هذه التجربة الشخصية تصنيف أشكال حماية المسافر.

من خلال مشاهد متعددة، يخبرنا فوكو بالمكان الذي بحث فيه عن الزطاط، والمعايير التي تساعد على تحديد الرجل الأمثل. وفيما يخص أداء المقابل، ميز فوكو بشكل واضح بين الثمن الذي يتقاضاه الرجل الذي يخفر المسافر، وبين واجب أقرب إلى رسم المرور *peage*، يُجبر المسافر على أدائه في نقط معينة من طرف رجال القبيلة التي تتحكم في الطريق.<sup>7</sup>

ويحكى فوكو أساليب الحذر التي كان يتخذها مع الزطاط لتفادي أخطار قطع الطريق، ولم يُغفل ذكر بعض الحالات التي نرى فيها الزطاط وهو يحاول أن يبتز المسافر، وهو سلوك نلتقي به كذلك من خلال فقرات انتقيناها من رحلة المرابط الوداني ابن طوير الجنة.<sup>8</sup>

إلى جانب النفوذ القبلي، تقوم حماية المسافر والقافلة على النفوذ الديني. ففي بعض المناطق، اضطر فوكو للاستعانة بزطاطين ينتمون إلى زوايا معينة أو وسط الشرفاء. ومعلوم أن خريطة المحاور التجارية ومراقبة الطرق كانا من بين أهم المرتكزات التي قامت عليها رباطات وطوائف «العصر

7 . أنظر النصوص الواردة أدناه، ص. 47-48.

8 . ولد ابن طوير الجنة حوالي سنة 1202 / 1787، ولم يغادر بلده إلا في رحلته الحجازية التي دامت حوالي خمس سنوات : من سنة 1245 (1829 للميلاد) إلى سنة 1250 (1834 للميلاد). وعند خروجه إلى الحج، كان ينوي الانضمام إلى الركب الذي يتجه من سجلماسة إلى المشرق. غير أنه لم يتمكن من الالتحاق بالركب، فقرر تغيير الاتجاه نحو الشمال، أملاً في الانضمام إلى الركب الفاسي أو السفر بحراً من أحد مراسي المغرب. وعند مروره بمراكش، استدعاه السلطان عبد الرحمان بن هشام، واستقبله بعناية كبيرة، وتواضع له، وقدم ابن طوير الجنة بيعته للسلطان. وفي طريق العودة، توقف المرابط ثانية بمراكش، وزار السلطان، ولم يتمكن العاهل من إقناعه بالاستقرار بالمغرب، ومع ذلك أسس له بمدينة مراكش زاوية سهر المرابط على تنظيمها قبل عودته إلى وادان. حول هذه الرحلة، راجع الدراسة مع ترجمة جزئية لنص الرحلة إلى الإنجليزية :

H.T.Norris, *The Pilgrimage of Ahmad, Son of the Little Bird of the Paradis*, Narminster (G.B), 1977.

وراجع أيضاً محمد المنصور كلخة، «عرض كتاب رحلة أحمد بن طوير الجنة (تحقيق د.ت.نوريس)، المناهل، عدد 17، مارس 1980، ص. 392-393.

الوسيط»<sup>9</sup>، ثم الزوايا التي نشأت ابتداء من القرن السادس عشر<sup>10</sup>. وقد اخترنا أن نقدم نموذجين من الزوايا :

استفاد النوع الأول من تأمين الطرق، دون أن يرتبط بموقع حيوي على خريطة المحاور التجارية (وزان وأحنصال وأبي الجعد). في هذه الحالة، نلاحظ أن أهمية الموقع تكمن أكثر في اختيار منطقة اتصال بين مجال جبلي ومجال سهلي، وهو موقع كانت له حساسية كبرى من منظور العلاقة بين القبائل والمخزن. فالإلى هذا النوع تنتمي وزان، وأحنصال، وأبي الجعد التي زارها فوكو وترك حولها معلومات ثمينة.

وارتكز النوع الثاني على الموقع التجاري، حيث اعتمدت السلطة الاقتصادية للزاوية على المساهمة في المبادلات ومراقبة المحاور. وإلى هذا النوع تنتمي زوايا إلبيغ، وتامگروت، والقنادسة. وقد تم تأسيس هذه الأخيرة بموقع هام بالنسبة للمحاور الطرقية الواقعة بجنوب شرق المغرب، وبالتحديد في منتصف الطريق الرابطة بين تافيلالت وفكيگ<sup>11</sup>. وقد انتقينا حولها فقرات من كتاب «رابطون وإخوان» للويس رين Rinn، المنشور سنة 1884، وهو تأليف ينتمي إلى جيل الدراسات الفرنسية التي اهتمت برصد التنظيمات الصوفية من منظور أمني<sup>12</sup>.

وقد استعان فوكو بفتة الشرفاء لاجتياز بعض الطرق والمناطق غير الآمنة، مثل الطريق الرابطة بين فاس وتازة. والواقع أن نفوذ الشريف كان في بعض الحالات مرتبطاً بمؤسسة الزاوية، وهي على سبيل المثال حالة زاوية الأدارسة بفاس<sup>13</sup>، وزاوية وزان ذات الفروع العديدة داخل التراب المغربي وخارجه<sup>14</sup>. وقد كان الشريف مؤهلاً لحماية المسافر، لأن هيئته الدينية كانت تجعله يتمتع بامتياز

9. راجع محمد مفتاح، الخطاب الصوفي، ص. 43 وما تلاها.

10. راجع :

Abdallah Hammoudi, «Sainteté, pouvoir et société : Tamgrout au XVIIe et XVIIIe siècles », *Annales ESC*, mai-août 1980, pp. 626-629.

انظر كذلك عبد العزيز الخليلي، «زاوية تمجروت والمخزن (1642-1914)»، ضمن نفيصة الذهبي (تنسيق)، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، ص. 121-122.

11. حول هذه الزاوية، راجع :

Auguste Cour, « Le Cheikh El Hadj Mohammed ben Bou Zian », *Revue du Monde Musulman*, t. XII, pp. 359-371, Ross E. Dunn, *Resistance in the Desert*, pp. 98-101.

وكذلك محمد مرزاق، الشيخ محمد بن أبي زيان وزاويته بالقنادسة : الدور الديني والثقافي والسياسي، رسالة مرقونة، الرباط، 1987-1988. ونشير كذلك للدراسة الأنثروبولوجية :

Abderrahmane Moussaoui. *Espace et sacré au Sahara*.

12. في حديثه عن مثل هذه الدراسات، يستعمل جان لويس تريود Jean-Louis Triaud (المتخصص في تاريخ الزاوية السنوسية) عبارة «أدبيات مراقبة الأولياء وإعداد جذادات عنهم». راجع الحوار الذي نشرته مع الباحث المذكور مجلة العالم العربي في البحث العلمي (باريس) حول موضوع «الإسلام والطرق في إفريقيا السوداء (جنوب الصحراء)»، عدد 8، 1997، ص. 41-42.

13. انظر النص الوارد أدناه، ص. 58-59.

14. انظر أدناه، ص. 60-61، حيث أوردنا نصوص رسائل تتصل بأحد فروع الزاوية الزوانية، أي زاوية سيدي علال الوزاني الواقعة بمتينة، بناحية تاونات، في منطقة مقدمة الريف شمال فاس.

أمن التنقل في وسط يعيش التوتر واختلال أمن الطرق، إلى درجة أن الشرفاء ورجال الزوايا كانوا يحتكرون نقل السلع وامتھان التجارة في بعض المراكز المرتبطة بالأسواق داخل المجال القروي<sup>15</sup>.  
نتقل الآن إلى التدبير المخزني لأمن الطريق. فمن الناحية الميدية، يشكل تأمين الطرق جزءاً من مهام القائد، في إطار «أمور الخدمة الشريفة». وتزداد العناية بالمسافر إذا كان هذا الأخير مُزوداً برسالة سلطانية، كما هو الشأن بالنسبة لمحمد الولاقي الذي يحكي بعض جوانب تنقلاته في رحلته الحجازية<sup>16</sup>.

غير أن أبرز شكل يكشف عن التدبير المخزني هو «طريق المخزن». وتطلق هذه التسمية على عدد من المحاور التي يشرف السلطان على تنظيم حراستها<sup>17</sup>. فهو يكلف بعض القبائل بـ «درك الطريق»، ويأمر بوضع النزائل كمحطات لاستراحة وتكوين المسافرين والقوافل.  
لكن هذه الصيغ لم تكن تتلائم بشكل قار. فقد تُوكَل مهمة «درك الطريق» خارج «طريق المخزن»<sup>18</sup>. وسوف نلاحظ كذلك أن إقامة النزائل كانت تتم أحياناً بمبادرات محلية تتجاوز التعليمات المخزنية. ومن اللافت للنظر أن تأمين «طريق المخزن» كان من بين أهداف الأعراف المحلية<sup>19</sup>.  
أقيمت النزائل (مفردها: نزالة) في المحطات المُرتبة على امتداد «طريق المخزن»<sup>20</sup>. وكان لها شكل «قطع أرضية غالباً ما تكون مربعة الشكل، ومحاطة بزرية (حوش) من الأشواك، أو بسور من الحجر. وقد تكون محاطة بخندق...». ويتولى تدبير هذه المحطات «أهل النزائل»، وهم «حراس يقطنون داخل النزالة، في بيت من الطين أو الحجر، أو في نواله من القصب والتبن». وتوفر النزالة للمسافرين والقوافل المبيت والأمن مقابل رسم متواضع يُحصَل على الدواب لاعلى الأفراد، باستثناء اليهود. كما أنها توفر إمكانية التمون بمواد مثل البيض والدجاج والعلف للدواب.  
ويتحمل أصحاب النزالة مسؤولية أمن المسافرين الذين يتوقفون عندهم. وغالباً ما يتبرأ

15. انطلاقاً من مراسلات مخزنية، يُورد العربي اكنينج بعض الأمثلة بمجال بني مطير، وقصبة الحاجب. انظر قبيلة بني مطير، ص. 130-131.

16. انظر النص الوارد أدناه، ص. 62-63.

17. نذكر من بينها، على سبيل المثال: محاور فاس - الرباط، ومراكش - الصويرة، ومراكش - تارودانت (عن طريق تيزي ن ماشو). والملاحظ أن بعض المحاور كانت تطلق عليها في آن واحد تسمية «طريق السلطان»، وهي حالة محور فاس - تافيلالت.

18. انظر النص الوارد أدناه، ص. 64.

19. جاء في عرف أحد القصور الواقعة بتافيلالت: «ومن قطع في طريق المخزن من تبوزمت إلى الميزان أو تابعه ليأخذ الزطاطة فيعطي خمسين مثقال». انظر:

Larbi Mezzine, « Ta'qitt des Ayt Atman : Le recueil des règles de coutume d'un groupe de qsur de la moyenne vallée de l'Oued Ziz », *Hesp.-Tam.*, vol. XIX, 1980-1981, clause 62.

20. اعتنى بعض الرحالة الأوربيين بذكر مواقع النزائل التي مروا بها. انظر على سبيل المثال:

A. Brives, *Voyages au Maroc (1901- 1907)*, Alger, 1909.

وانظر الدراسة الحديثة حول الموضوع، علا الحديمي، «النزائل والمواصلات والتدخل الأجنبي في المغرب خلال القرن التاسع عشر»، هسبريس - تمودا، عدد 1993، XXXI، ص. 7-21. يقدم المؤلف معلومات ثمينة حول طريقة تأسيس النزائل، وقيمة «الحقوق» التي تؤدي بها. غير أن المنظور العام لهذه الدراسة يدفعنا إلى طرح السؤال التالي: كيف نوفق بين المؤشرات التي تعود بتأسيس النزائل إلى سياق التوتر الذي شهدته بداية القرن التاسع عشر في أواخر عهد سليمان، وبين ربط ظاهرة النزائل بعواقب التدخل الأوربي؟

المخزن من كل مسؤولية حين يخيم المسافرون خارج النزلة، ثم يشتكون بعد ذلك من مختلف أشكال المضايقة أو الاعتداء. وفي ظروف الاضطرابات، يمنح السلطان أحيانا القوافل من أن تمر بنزلة دون أن تقضي الليلة بها. وإذا ما تجاهلت القافلة قرار المنع، ولم يتمكن أصحاب النزلة من إرغامها على التوقف، فإن إثبات موقف القافلة يتم بواسطة شهود أو عدول<sup>21</sup>.

لقد ميزنا إذن، من حيث مستويات تدبير تأمين الطرق، بين القبيلة والزاوية والمخزن. غير أن القضية التي أثارنا اهتمامنا في كتاب فوكو، هي مفارقة حقيقية بين إقرار المؤلف بشناية مجالية («بلاد المخزن» و«بلاد السبية»)، وبين إيراد لمعطيات تدعو إلى إعادة النظر في تلك الشناية. فمن جهة، ظل فوكو يوحى بوجود تمييز واضح ومرئي بين مجالين. فعندما غادر مدينة مكناس، كتب: «إن بلاد السبية، وهي البلاد الحرة<sup>22</sup>، تبدأ عند أبواب مكناس، وسوف تستمر الطريق عبرها حتى تادلا، وتادلا ذاتها جزء من بلاد السبية. لقد غادرنا إذن بلاد السلطان لمدة طويلة<sup>23</sup>. وعندما وصل إلى الضفة اليسرى من وادي العبيد، كتب: «ها أنذا في بلاد المخزن، للمرة الأولى منذ أن غادرت مكناس. فبعدما اجتزت النهر، دخلت إلى تراب نتيفة، وهي قبيلة خاضعة [للمخزن]. فهنا لا حاجة إلى زطاط، ولا إلى خفر. يسافر الإنسان وحده في أمان»<sup>24</sup>. وفي إحدى المراحل الأخيرة من الرحلة في اتجاه التراب الجزائري، كتب: «عند دخولنا لميسور، نكون قد غادرنا بلاد المخزن»<sup>25</sup>.

هكذا تتكرر صيغة الدخول والخروج بين المجالين المذكورين. غير أن فوكو يذكر وقائع جديدة بالاهتمام. ففي معرض وصفه للطريق بين زاوية سيدي رحال وتيكيرت، قال: «رغم أن هذه المنطقة تقع في بلاد المخزن، فليس فيها ما يكفي من الأمان للسير بدون زطاط. لكن رجلاً واحداً يكفي. ولم أجد صعوبة في العثور على من يخفني»<sup>26</sup>. وبعد الخروج من تلوات، قال: «لقد دخلت إلى بلاد السبية: ها أنا بها لمدة طويلة. وهنا لا تعرف المنطقة أخطاراً كبيرة، ففي هذا اليوم يكفي خفر رجل واحد»<sup>27</sup>. وفي منطقة سوس، كتب فوكو: «رغم أن هذه القبائل تنتمي حالياً إلى بلاد المخزن، فهي تعرف عوائد ماثلة لعوائد بلاد السبية. لا يغادر أحد القرى بدون أن يحمل السلاح، ولا يسافر أحد بدون زطاط. فالفخدات تتحارب باستمرار فيما بينها، والطرق تعرف في بعض الأماكن أخطاراً

21. انظر:

Edmond Doucté, *Merrâkech*, pp. 22-23.

ومن جهته عرّف فوكو النزلة بالشكل التالي: «يعطى هذا الاسم لمراكز تسكنها عائلات مرتبطة بالمخزن، وهي تكلف بضمان أمن الطرق، ويرخص لها بتحصيل رسوم مرور زهيدة. وقد أقيمت هذه النزائل فوق تراب عدد من القبائل الخاضعة للمخزن، وهي في الواقع لا تضمن إلا أماناً نسبياً. وهناك، كما في أماكن أخرى، لا يتجرأ الأجانب على السفر بدون رقة». انظر م. س.، ص. 185.

22. التأكيد منا.

23. فوكو، م. س.، ص. 40.

24. ن. م.، ص. 75.

25. ن. م.، ص. 241.

26. ن. م.، ص. 80.

27. ن. م.، ص. 86.

أكبر من الأخطار التي تعرفها مناطق غير خاضعة للمخزن»<sup>28</sup>. وعند الوصول إلى ممر تالغمت، في الطريق إلى أعالي ملوية، يعلن الرحالة عن بداية بلاد المخزن، لكنه يضيف : «لا يحتاج المسافر لزطاط، لكن رسوم المرور تكلف أحياناً أكثر مما يؤديه المسافر ببلاد السبية»<sup>29</sup>. ومن جانب آخر نلمس، من خلال فوكو، ظاهرة تعارض الأدوار وتقاطعها في ثلاثة مستويات.

- أولاً : تأرجح بين تأمين المسافر وقطع الطريق. نجد القبيلة تنتقل أحياناً بين وظيفة «الدرك» وسلوك «العيث في الطريق»<sup>30</sup>. ويعرف مدلول كلمة الزطاطة تحولات معبرة. فقد أظهرت بعض الدراسات المحلية على أنه وقع انتقال من الزطاطة كأجرة للحراسة إلى الزطاطة كواجب مرور يحصل أحياناً بواسطة العنف<sup>31</sup>. وقد تؤدي الزطاطة عند الاعتداء على المسافر أو القافلة، وقد تعني نفس الكلمة ما يفرض على المهاجم أن يؤديه إذا رغب في النجاة من العنف، وتمتد هذه الوضعية أحياناً إلى حالات الهجوم على السكان داخل الوسط الحضري<sup>32</sup>.

- ثانياً : نسبة التمايز بين التدبير المحلي والمخزني. لاحظنا أن الزاوية والشريف يشكلان حضوراً غير مباشر للمخزن داخل مجالات عُرفت بعدم خضوعها لحكم السلطان وتعليماته<sup>33</sup>. وقد صُنِّفنا واجب المرور ضمن أساليب التدبير القبلي، بيد أن بعض المعطيات تدل على أن تحصيله كان يتم بترخيص من جانب السلطان<sup>34</sup>. وإذا كانت النزلة من الناحية المبدئية مؤسسة مرتبطة بطريق المخزن، فإن المبادرة المحلية كانت تجعل أحياناً من النزلة وسيلة ابتزاز أقرب من رسم المرور<sup>35</sup>.

- ثالثاً : اضطراب العلاقة بين المخزن والقوى المحلية إلى درجة أن بعض المشاهد القصوى تتحدى التصورات المتداولة حول موقع الحكم المركزي. فالمسافر يحتاج أحياناً إلى الاستعانة بالزطاط

28. ن. م، ص. 194.

29. ن. م، ص. 236.

30. انظر حالة بني مطير في النص الوارد أدناه، ص. 79. وقد تهاجم القبيلة المحلة السلطانية، ثم تنتقل بعد ذلك إلى وظيفة الدرك. انظر النص الوارد أدناه، ص. 78. ويتعلق الأمر بآيت يوسي، في سياق الحركة التي شنّها السلطان الأول إلى تافيلالت في أواخر عهده.

31. يصدد تنظيم عملية حراسة الطرق المتصلة بممر تيزي ن تاست، كتب روبرت منوطاني : «وهكذا أصبحت كل عائلة تملك «يوماً» أو عدة «أيام» من الحراسة، وهي ملكية تؤكدها عقود مكتوبة، وكانت هذه الأيام تباغ، وترهن، وتقسّم في إطار التركات. وقد عاينا نماذج من عقود بيع أيام الحراسة، وهي عقود تم تحريرها مثل عقود الصفقات العقارية». انظر :

Robert Montagne, «L'Aghbar et les hautes vallées du Grand-Atlas», *Hesp.*, t. 2, 1927, 1<sup>e</sup> trim., pp. 7- 8 ; R. Montagne, «Le développement du pouvoir des caïds de Tagountaft (Grand-Atlas), in *Mémorial Henri Basset : Nouvelles études nord-africaines et orientales*, Paris, 1928, t. 2, pp. 174-175.

وحول توارث وظيفة الزطاطة، راجع أيضاً مقال عبد الله حمودي، «الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة :

ملاحظات حول أطروحات كلنير»، ضمن عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الغلق (ترجمة)، الأنتروبولوجيا والتاريخ، ص. 72.

32. انظر أدناه، ص. 80- 82. أوردنا نصاً شفوياً يحكي وقائع الهجوم الذي تعرض له ملاح فاس في أبريل 1912.

33. انظر على سبيل المثال النماذج التي ذكرها فوكو عند مروره بقبائل زمور وزيان. انظر م. س.، ص. 46-42.

34. انظر أدناه، ص. 47. وقد تكون هناك علاقة بين واجب المرور وظاهرة «درك الطريق».

35. انظر النص الوارد أدناه، ص. 69.

لمغادرة المدينة<sup>36</sup>، مع أن الوسط الحضري أقرب إلى مراقبة السلطة المركزية. وقد يحصل في بعض الحالات تواطؤ بين القائد وقاطع الطريق<sup>37</sup>. ومن خلال بعض النصوص، يظهر السلطان في وضعية توحى بأنه يستفيد من ترطيب القبيلة أو شيخ الزاوية<sup>38</sup>.

ونشير إلى أننا ختمنا الفصل بنصين يدعوان إلى تجاوز فكرة القصور أو الشذوذ في علاقة المخزن بالقوى المحلية فيما يخص تأمين الطرق. نرى الخطاب المخزني المكتوب يعترف بوضعية «غياب الأحكام» في بعض المناطق<sup>39</sup>. ويصور فوكو بشكل دقيق اختلاف صيغ تأمين المسافر في منطقة نفوذ قائد غلاوة بحسب اختلاف درجات تبعية القبائل للقائد المذكور<sup>40</sup>. ومعناه أن هذا المتن من النصوص يحيلنا على طرح السؤال حول نسقية السلطة المخزنية في مستوى مراقبتها للمجال.

وفي نهاية هذا التقديم، نعيد طرح سؤال آخر حول إمكانيات قراءة نص شارل دو فوكو. لماذا تلك المفارقة بين مقولة غطية تُبسط أوضاع تأمين السفر ومراقبة التراب المغربي، وبين معطيات تتيح تنفيذ نفس المقولة النمطية؟ في اعتقادنا أن جزءاً من الإجابة عن السؤال يكمن في التعدد الذي يطبع تجربة فوكو وكتابته. ففي الكتاب المذكور تتقاطع عدة نصوص:

- نص أقرب إلى أدب الرحلة، اتخذ صيغة يوميات السفر.

- نص جغرافي تصنيفي.

- نص إثنوغرافي تلتقي فيه المشاهدة مع أصداء القراءات التي اكتسبها فوكو خلال مقامه بالجزائر.

وإذا انتقلنا إلى تجربة فوكو، وموقعه داخل عملية التسرب الفرنسي بالمغرب الكبير، فإننا نلمس تقاطعاً من نوع آخر بين:

- التكوين العسكري للضابط الذي خاض عملية قمع المقاومة في جنوب غرب الجزائر.

- روح المغامرة لمستكشف فضل تجنب المحاور الآمنة، والغوص في عالم القبائل، بحساسة رومانسية لا تخلو من رغبة في التماهي مع الآخر<sup>41</sup>.

وبعد مرور بضعة عقود على عودة فوكو من رحلته المغربية، سوف تتخذ تلك الحساسية الرومانسية تعبيراً دينياً قوياً، وهو ما جعل فوكو ينخرط في تجربة المبشر بالشرق العربي ثم بالصحراء الجزائرية. ومن اللافت للنظر أن فوكو سوف ينتهي قتيلاً على يد رجل من مقاومي الوجود الفرنسي بالمنطقة المذكورة، وسوف تهيمن بعد ذلك على شهرة «الأب فوكو» صورة القديس الذي كان يبحث

36 . انظر حالة مدينة تازة، في النص الوارد أدناه، ص. 83.

37 . انظر أدناه، ص. 87.

38 . انظر النصين الواردين أدناه، ص. 84-85.

39 . انظر النص الوارد أدناه، ص. 86.

40 . انظر أدناه، ص. 87-88.

41 . حول هذا الجانب، راجع:

منذ البداية عن طريقه إلى الارتقاء الروحي، وبذلك تحولت سيرة فوكو، في بعض الكتابات البيوغرافية، إلى قصة أقرب إلى أدب المناقب.<sup>42</sup>

## I. التدبير القبلي

### 1. التعاقد

نص 1 : الرجل المناسب<sup>43</sup>

كان الذهاب من تازناخت إلى تيسينت في السابق أمراً هيناً<sup>44</sup>. ففي كل يوم خميس، كان السوق ملتقى لإدا وبلال، فيأتي عدد منهم إلى هنا. وكان من الأنسب أن يتخذ المسافر خفراً من بينهم. فقد كانت عصابات من قبيلتهم تعيث في الطريق<sup>45</sup>، ولذلك كان من المستحيل أن يجتاز المسافر هذه الطريق دون أن يستفيد من حماية إدا وبلال، أو يكون في رفقة غرباء يحظون باحترام هذه القبيلة<sup>46</sup>.

أما الآن فلم تعد لتازناخت أية علاقة بالصحراء، لذلك من المستبعد أن نلتقي هنا برجال من إدا وبلال. ينبغي إذن أن أجد زطاطاً من عين المكان، ويكون في آن واحد معروفاً لدى رُحل الجنوب، ويحظى بتقديرهم. لا يتوفر هذان الشرطان في الزنيفي والأرضيفي<sup>47</sup>، وإمكانهما أن يساعداني على الوصول في أمان. لكن أناساً نصّحوني بأن أتجنب هذين الرجلين القويين. فقد قيل لي: إذا اعتبرا أنك فقير، فلن يرافقاك، لأنك لن تفيدهما كما يريدان. وعلى عكس ذلك، إذا اعتقدا أنك موسر، سوف يأكلانك في الطريق<sup>48</sup>، ويسطوان على متاعك، لأن ذلك أفيد بالنسبة إليهما. فمن قبيل المخاطرة أن تضع نفسك بين أيدي رجال ذوي سيادة، لأن مكائهم تجنّبهم المحاسبة من طرف الآخرين، ولا يهمهم

42. انظر :

Marcel Clément, «Charles de Foucauld, serviteur de Dieu », in Olivier Lesourd (dir.), *Les grands destins, Pionniers et colonisateurs*, Paris, 1944, pp. 309-332.

43. مترجم عن فوكو، ص. 110-111.

44. بالنسبة للمواقع والمجموعات القبلية التي لها صلة برحلة فوكو، والواردة في النصوص التي اقتطفناها من كتابه، انظر الخريطة، ص. 44.

45. انظر النص أدناه، ص. 76.

46. وفي بعض الطرق، تقتضي الخريطة القبلية أن يتخذ المسافر زطاطين ينتمون إلى قبائل مختلفة. ففي الطريق بين تينتازارت وقصور آقا الواقعة بجبل باني، اتخذ فوكو زطاطين، أحدهما من إدا وبلال، والآخر من آيت أمريبط. وقبل ذلك، في الطريق بين ملال ووايزرت، اتخذ فوكو زطاطاً واحداً من قبيلة بني ملال، وزطاطين اثنين من آيت عطا دو مالو. انظر ص. 150، 68.

47. لعلهما رجلان من الأعيان. ينتمي أحدهما إلى آيت وازنيف، التي يقع مركزها بتازناخت (يطلق اسم وادي تازناخت على وادي أوزنيف)، والثاني إلى أرضيف، وهو اسم يطلق على زناغة، وكذلك على القصر ومكان إقامة الشيخ بالمنطقة. انظر فوكو، م. ص.، ص. 203، 106.

48. ترجم فوكو حرفياً عبارة «الأكل» التي تفيد، في الاصطلاح المحلي، قطع الطريق وسرقة المسافر. انظر النموذج المذكور أدناه، ص. 297.

أبداً أن يوصفوا بالأمانة أو الغدر.

ينبغي أن يكون الزطاط رجلاً له ما يكفي من القوة لكي يحترم الآخرون عنايته<sup>49</sup>، وينبغي في نفس الوقت أن لا تبلغ قوته درجة تجعله لا يأبه بنوع السمعة التي يحظى بها عند قومه. وهكذا فبعد خمسة عشر يوماً من البحث، وجدت رجلاً يتوفر فيه هذان الشرطان، وله في الجنوب علاقات تسمح له بالذهاب إلى هناك بدون أن يعرض نفسه لخطر كبير. وكان هذا الرجل يحمل هو كذلك لقب «الشيخ» الذي لا يُستعمل هنا للدلالة على الرئيس المؤقت للدوار أو القصر، بل هو لقب نادر ويحظى بالاحترام، وهو وراثي يقتصر على رؤساء بعض كبريات العائلات، وإلى هذه النخبة ينتمي الزينفي، والمزغيطي، وابن عثمان، والأرضيفي، وإليها ينتمي الزطاط الذي سوف يرافقتني، وهو الشيخ محمد أو عزيز ولد الشيخ الحسن. غير أن هذا الأخير كان بمثابة الملك الذي أزيح عن عرشه، وهو ما يجعل منه الرجل المناسب الذي يستحق أن أمنحه ثقتي. فهو يرأس إحدى العائلات السائدة في قبيلة زناغة، وقد سبق لها أن تقاسمت السيادة في هذه القبيلة مع الأرضيفي السالف الذكر. وقامت بين العائلتين المتنافستين حرب طويلة انتهت منذ خمس عشرة سنة بإفلاس الشيخ محمد أو عزيز. وتعرض قصره للتخريب. واضطر للبحث عن ملجأ خارج القبيلة. وهكذا قدم إلى تازناخت واستقر بها. وهو الآن من الرجال الذين يحظون هنا بتقدير ملحوظ، وقد اشتهر ببأسه و شجاعته. فكلما تعبأت القبيلة لمواجهة عسكرية مع الغير، تجد الشيخ أو عزيز في الصف الأول، إلى جانب الشيخ عبد الواحد. وقد كانت لعائلته علاقات قديمة مع قبائل الجنوب، وما زالت قرابة الدم تربطه هناك بعدة قبائل. وقد عرف كيف يحافظ على جودة تلك الروابط. كل هذا يؤهله أكثر من غيره لحمايتي في الطريق. فهو الرجل الذي سوف يرافقتني، ولا أشك في أنه سوف يستجيب لما أتوخاه منه.

نص 2 : البحث عن زطاط في السوق<sup>50</sup>

كل هذه المسالك تجتاز صحراء جبلية شاسعة، وهي سلسلة صَفْرُو المرتفعة، وهي تنتمي في الواقع للأطلس الصغير، إذ يطلق على هذا الأخير اسم صَفْرُو شرق وادي درعة. ولا تتوفر منطقة صَفْرُو على ساكنة مستقرة، بل معظم أهلها من الرحل، فإمغْرَانْ وآيت سُدْرَاتْ ينصبون فيها خيامهم، ويرعون فيها مواشيتهم.

من هنا إلى دَادَسْ، يقوم آيت سدرات بمهمة الزطاطة. وقد اغتنمت فرصة وجود عدد كبير من رجال هذه القبيلة بسوق الخميس كي أتعاقد مع أحدهم<sup>51</sup>: سوف يأخذني الزطاط اليوم، وسوف

49. نلاحظ أن فوكو استعمل عدة مرات مصطلح «العناية» بمعنى الزطاطة. انظر الدراسة المعجمية أدناه، ص. 281.

50. مترجم عن فوكو، ص. 211. يتضمن النص مشهداً بهم الطريق الذي يصل بين أعالي درعة ووادي دادس.

51. في مناطق أخرى، كانت المدن الصغرى بمثابة «بورصة للمعلومات والأسعار يمكن الاطلاع بها على وضعية السوق وأثمان السلع وأحوال المرور» وفيها كانت القوافل تبحث عن الخفر المناسب وتتفاوض حول كلفة تأمين الطريق. انظر مصطلحي ناعمي، بلاد تكتة، ص. 52.

أقضي الليلة في قصره<sup>52</sup>، وسوف تنطلق في اتجاه دادس صباح غد.

نص 3 : الزطاطة والعقد المكتوب<sup>53</sup>

انعقد السوق اليوم بإمزور، قرب تَيْلِيْت. واغتنمت هذه الفرصة لأبحث، من بين آيت سُذْرَاتُ الموجودين بالسوق، عن زطاط مأمون يرافقني إلى تَدْغَة. اخترنا واحداً، وتم الاتفاق معه، وتمت صياغة الاتفاق أمام «طالب» كان حاضراً في السوق، فحرر هذا الأخير عقداً مع نظير له، ينص على أن فلان السدراتي يلتزم، مقابل مبلغ 15 فرنكاً يؤدي عند الوصول، على أن يوصلني إلى تَدْغَة. وسوف يكون مسؤولاً عن أي أذى يصيبني في الطريق. وفي حالة عدم وصولي إلى تيليت، فهو ملزم بدفع مبلغ 5000 فرنك للجالية اليهودية القاطنة بتيليت. وتستعمل هذه الإجراءات الشكلية في مناطق مختلفة من الصحراء، لا سيما عند البربر وآيت سدرات. ففي هاتين القبيلتين، نادراً ما يسافر اليهودي دون أن يؤمن نفسه إزاء زطاطه بواسطة عقد من هذا النوع، وهو إجراء لا يتم بين المسلمين، لأن الرجل يصاب بالخزي والعار في أي مكان، إن هو التزم مع مسلم آخر، ثم استغل ثقته ليغتاله. وعلى عكس ذلك، ففي بعض القبائل مثل آيت سدرات، إذا وعد مسلم مسافراً يهودياً بأن يخفّره ويحميه، ثم سلبه وقتله في الطريق، سوف يعتبر الحدث مجرد هفوة، أو حيلة تثير الإعجاب. ولهذا السبب، هناك احتياطات خاصة لا بد من اتخاذها.

## 2. ثمن الحماية

نص 1 : ثمن الزطاطة<sup>54</sup>

لقد مشيت منذ الصباح مع قافلة حمارة من مدغرة. التقيت بهم في تَيْالَالِين، وسوف يسرون رفقتي حتى قصابي الشرفاء، وهم يحترفون نقل السلع بين تافيلالت وفاس. وقد اتفقت معهم أن نستأجر معاً خفراً من قبيلة آيت إزدگ<sup>55</sup>، إذ يتحكم هؤلاء في كامل المنطقة، بين قصر السوق وتَالْغَمْت<sup>56</sup>، وهم يزططون بين تيالالين والفتح المذكور، مقابل مبلغ 5 فرنكات على كل بغلة ويهودي وجمل، ونصف ذلك على الحمير، بينما لا يؤدي المسلمون على أنفسهم. ومقابل ذلك الواجب، يخفر آيت إزدگ القوافل ويضمنون سلامتها. وقد رافقنا زطاطون كان تعدادهم ثلاثة فرسان وستة أو سبعة من المشاة.

52. المراد هنا القصر بالمعنى المحلي، أي تجمع سكني محصن في بيئة واحة.

53. مترجم عن فوكو، ص. 216-217. يجتاز فوكو وادي دادس، ويتوقف بقصر إمزور.

54. مترجم عن فوكو، ص. 232. نحن هنا في الطريق الذي يؤدي من دادس إلى قصابي الشرفاء. يمر فوكو بوادي النزالة، ويتوقف بمكان يحمل اسم النزالة. وحول النزالة كمؤسسة، انظر النصوص الواردة أدناه، ص. 68-71.

55. حول آيت إزدگ، من المحادية آيت يافلما، انظر أدناه، ص. 269.

56. حول عمر تيزي ن تالغمت، انظر أدناه، ص. 242.

نص 2 : اجتياز تراب گروان<sup>57</sup>

إنها بلاد زمور شلاحة<sup>58</sup>، وقد كان السهل في ملك گروان<sup>59</sup>. وتنتمي القبيلتان إلى العرق الأمازيغي، وسرعان ما لاحظنا أننا أمام قبيلتين لا تخضعان للمخزن. ويتبع كروان مع المسافرين، النسق الذي تتبعه بعض القبائل المحاذية لبلاد المخزن : فهي لا تنهب، ولا تمنح العُناية، لكن كلما مررت أمام أحد الدواوير، كلما أُجبرت على التوقف، وكان عليك أن تؤدي رسماً تعسفاً يُسمى الزطاطة. وهكذا تجد أمامك مجموعة من الفرسان والمشاة، فيعترضون طريقك ويجبرونك على الأداء بواسطة السلاح. وهكذا فخلال ساعتين، واجهنا خمس مرات وفوداً من هذا النوع، وهم البشر الوحيدون الذين التفينا بهم في طريقنا.

نص 3 : اجتياز تيزي ن تالغمت<sup>60</sup>

لقد التقيت في الطريق بمسافرين أقل عدداً من البارحة. وكانت ثلاث قوافل ذاهبة في الاتجاه المعاكس، وهي تتكون من مائة وخمسين من دواب النقل. وطبقاً لما كان مقرراً، فارقني الزطاطون بفتح تالغمت. وهناك تبدأ بلاد المخزن : فشمال الفج، يوجد أيت إزدگ، وهم في علاقة متوترة مع السلطان<sup>61</sup>، ولا يغامرون على السير وهم في أعداد قليلة. أما المسافرون، فهم في منطقة خاضعة للمخزن، لذلك فهم لم يعودوا في حاجة إلى خفراء. وبين الفج والقصابي، غر بتراب أيت أوفلا، وهي قبيلة صغيرة، كانت في الأصل فرقة من أيت إزدگ، لكنها انفصلت عنهم سياسياً، وأصبحت تخضع لطاعة السلطان. فالمسافر يمر هنا بدون عناية، والقبيلة مسؤولة عن كل نهب يحصل فوق ترابها. ومن أجل تعويضها عن الأرباح التي تضيع لها بسبب خضوعها للسلطان، فإن المخزن رخص لها في الحصول على رسم يؤديه كل من يمر بترابها، وهو رسم يبلغ فرنكاً واحداً على كل دابة نقل وكل مسافر يهودي. وقد اضطرت قافلتني لأداء هذا الواجب مرتين، مبدئياً يكون على المسافر أداء هذا الرسم مرة واحدة، غير أنه يكون مرغماً على أدائه ثلاث أو أربع مرات. ويتم الأمر على الشكل التالي : بالقرب من فج تالغمت، أوقفنا بعض الرجال، وطلبوا منا مبلغ الرسم، فأدبناه. وبعيداً عن ذلك المكان، في السهل وجدنا مجموعة هامة من الرجال المسلحين يعترضون الطريق،

57. مترجم عن فوكو، ص. 42. يتحدث المؤلف عن ظروف السفر من مكناس إلى أبي الجعد.

58. قارن مع تسمية «زمور الشلح» التي كانت تستعملها المراسلات السلطانية. انظر النموذج الوارد أدناه، ص. 65.

59. في أوائل القرن التاسع عشر، استقر گروان بشكل نهائي قرب مكناس، حيث احتلوا تراب أجدادهم أيت إدراسن. وربما كانت قبيلة گروان في الأصل من أيت عطا، ثم ساهمت في تشكيل نواة أيت يافلما. وقد عاشت في العصر الوسيط بالجنوب (صغرو، ثم بلاد زيز)، وفي القرن الثامن عشر، انتقلت إلى الأطلس المتوسط، في الجزء الأعلى من وادي جيگو وفي منطقة تيكريرا. راجع :

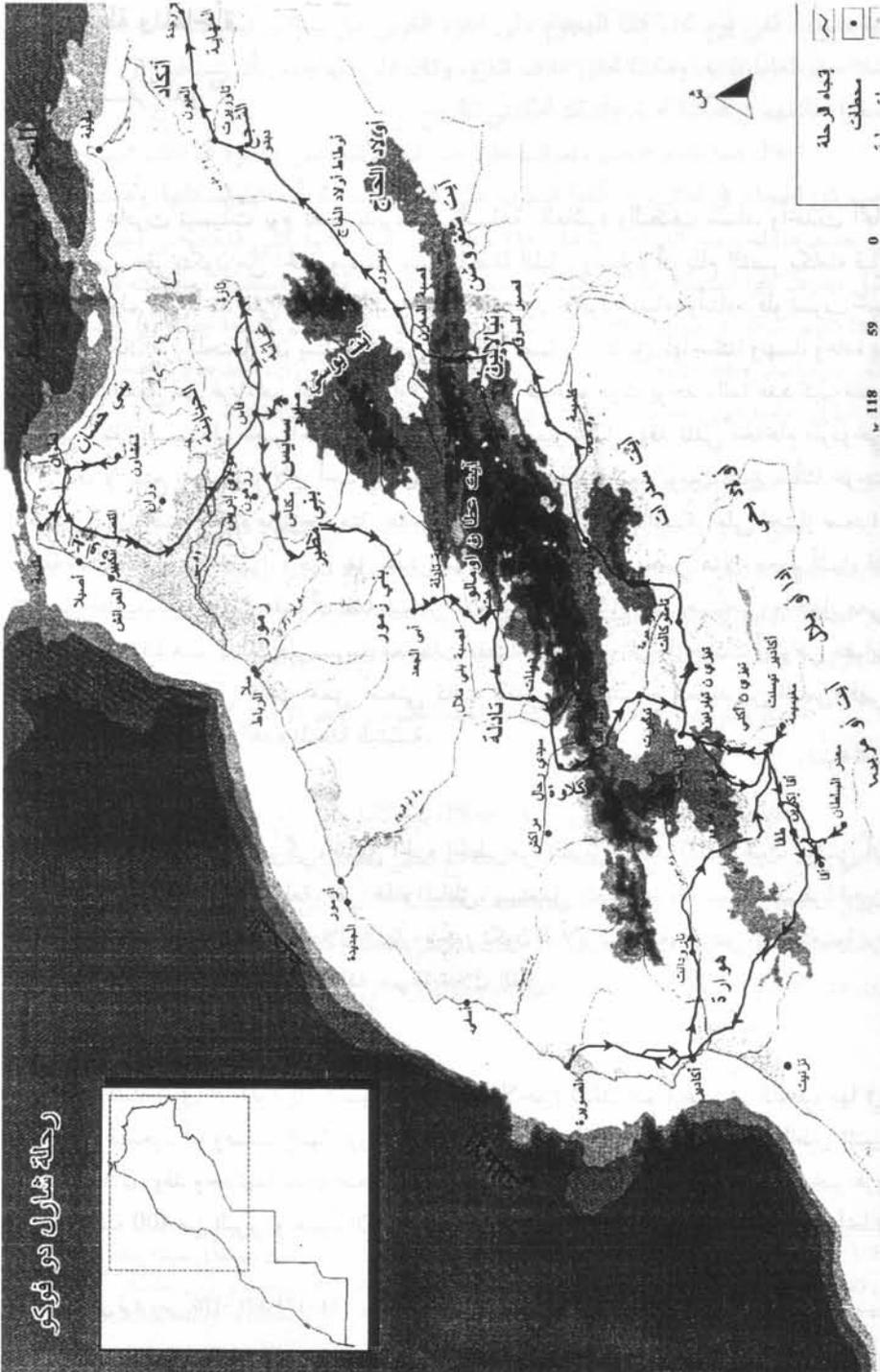
Lt. de la Chapelle, «Le Sultan Moulay Smail et les Sanhaja de l'Atlas central», A.M., vol. XXVIII, 1931, p. 33, n. 5.

60. مترجم عن فوكو، ص. 236-237. وصل المؤلف إلى قصابي الشرفاء ببلاد ملوية.

61. انظر نص الدكتور ليناريس الوارد أدناه، ص. 78.

فصرح هؤلاء أننا لن نمر إلا إذا دفعنا نفس المبلغ. فاحتج رئيس القافلة مذكراً بأننا سبق أن دفعنا المبلغ المطلوب. فكان الجواب : «لقد التقيتم بنصابين، لم يكن لهم الحق في مطالبتكم بدفع أي شيء، نحن وحدنا المفوضون لتحصيل واجب المرور، فلن نمرؤا إلا بعد أن نتوصل منكم بالواجب المفروض». وكان الوفد يتكون من أربعين من الرجال المسلحين، لذلك كنا مضطرين للاستجابة للطلب. ومثل هذه الأشياء تتكرر بشكل يومي : فكلقة المرور بمناطق بلاد المخزن، حيث أقيمت محطات الأداء المسماة بالنزائل، كثيراً ما تتجاوز كلفة المرور بمناطق بلاد السيبة، ومن حسن الحظ أن تلك المناطق المكلفة نادرة، وهي تخضع مؤقتاً لنفوذ المخزن، وقد تعمد للنهب بشكل واضح، ودون أن يتمكن أحد من منعها من ذلك، لولا ذلك الدخل الذي يسمح لها بتحصيله. فأننا لم أر نزالات من هذا النوع إلا في قبيلتين، وهما آيت أوفلا، وآيت يوسي. وتكثر النزائل عند آيت يوسي، إذ يقال إن عددها يصل إلى ست عشرة نزالة بين قصابي الشرفاء وصفرو<sup>62</sup>. وهي خسارة جسيمة بالنسبة للتجار.

62 . حول الإكثار من النزائل، انظر المراسلة السلطانية الواردة أدناه، ص. 69.



## 3. الحيلة والمفاجأة

نص 1 : السفر بالليل<sup>63</sup>

9 يناير

غادرت تيسينث يوم تاسع يناير، على الساعة العاشرة والنصف مساءً، وأخذت اتجاه طاطا، ومعني خفر يتكون من الحاج ورفيقه. وسافرنا طيلة الليل. وانتظرنا أن ينام القصر بكامله قبل الانطلاق. ولم يكن أحد على علم بسفرنا، وخرج الحاج دون أن يودع نساءه وأبناءه. فلو تسرب خبر خروجنا، لكان من المحتمل أن يسارع البعض إلى اعتراضنا في الطريق لمهاجمتنا ونهينا، وعادة ما يصدر هذا الفعل عن غرباء من البربر، من أولاد يحيى أو غيرهم، حيث يوجد دائماً عدد كبير منهم بأكادير. لهذا السبب لم نخبر أحداً بخروجنا، واخترنا السير بالليل. وقد تلقى الحاخام مارذوخى الأمر بأن لا يفتح باب الدار لأي أحد في اليوم الموالي، وأن يصرح بعد يومين اثنين، بأننا خرجنا قاصدين تازناخت. وعادة ما تؤخذ مثل هذه الاحتياطات حين يقبل المسافر على اجتياز صحراء طويلة وشاسعة، أو مراً خطيراً، وحين يقل عدد المسافرين مثلنا، وحين يحمل هؤلاء معهم أشياء قد تثير من جانب الغير. وكان علينا أن نضاعف من الاحتياط، فقد شاع أنني مسيحي، وأحمل معي كمية هامة من الذهب. لذلك فلو تسربت معلومات مفصلة حول خروجي، لتحركت أكثر من عصابة لتهاجمني. فالبعال التي كانت تحمل أمتعتي كانت تكفي لكي يتسلح العديد من الناس، فهي تشكل رأسمالاً حقيقياً في هذه المنطقة البئيسة.

13 يناير :

عند وصولي إلى تيزكي، انتهى الجزء الخطير من الطريق. ومنذ ذلك الحين، يمكنني أن أمشي تحت نور الشمس الساطعة. ففي هذه المناطق، يستعمل المغاربة طريقة بسيطة للسفر. فحين تكون البلاد آمنة، فهم يجتازونها خلال النهار، وحين تكون البلاد غير آمنة، فعوض أن يستعينوا بمن يخفرهم، فهم يفضلون أن يجتازوا المنطقة بسرعة خلال الليل.

نص 2 : أصداء الأخطار وتأجيل الخروج<sup>64</sup>

كنت أنوي أن أعود إلى تيسينث في وقت لاحق، لذلك لم أرغب في التوقف بها في هذه المرة. فبمجرد أن وصلت إليها، قررت أن أنطلق في اتجاه طاطا. واكتفيت برفقة زطاطين اثنين من إدا أوبلال، وقد وجدتهما بدون صعوبة. لكن وقع أمر طارئ : فمنذ بضعة أيام، ورد خبر غزو شنه بالناحية 400 من البربر. واعتبرنا أن السفر مبادرة غير مأمونة طالما لم يتأكد الاتجاه الذي أخذه

63. مترجم عن فوكو، ص. 170-171، 173-174. يسافر المؤلف هنا من تيسينث (بجيل باني) إلى مدينة الصويرة، وذلك في شهر يناير 1884.

64. مترجم عن فوكو، ص. 137.

المهاجمون . ففي يوم 16، كان الهجوم على الجزء الغربي من بساتين تيسينت، فذهب واختطف الفلاحون العاملون به. وهكذا تحقق هدف الغزو، وكان على المهاجمين أن ينسحبوا إلى الورا كي يضعوا غنائمهم في أمكنة آمنة. وأنداك أمكنني الخروج.

خلال هذا المقام القصير، تعرفت على عدد من الأشخاص. وبمجرد أن انتشر خبر وصولي، رغب كل الحجاج في لقائي، إذ ألفوا التعرف على البلاد البعيدة بأشيائها وسكانها. وهكذا عاينت من جديد ما للحج من آثار إيجابية على هؤلاء السكان. فقد علموا بأنني قدمت من الجزائر، حيث سبق لهم أن لقوا استقبالا طيباً، ولذلك خصصوا لي بدوري أفضل استقبال. وعلمت فيما بعد أن عدداً منهم شكوا في هويتي المسيحية، ولم ينبسوا ببنت شفة، لأنهم فهموا جيداً بأن اقتضاح هذا الأمر سيعرضني لخطر مؤكد. وفيما بعد أصبح الحاج بورحيم ولد بورزق، أحد هؤلاء الحجاج، صديقاً حقيقياً لي، وأسدى لي خدمات ثمينة، وجنّبي من الوقوع في مخاطر كبرى.

نص 3 : الغدر و الابتزاز<sup>65</sup>

نحن هنا في تراب زيان. لقد تخلينا عن الزمورين الذين زططونا فيما قبل. لم يعاملنا هؤلاء بطريقة محمودة. ففي يوم البارحة، بينما كنا في وسط الطريق، حين رأوا أننا توغلنا داخل القفر، صرحوا لنا أنهم لن يتقدموا معنا أكثر إن لم نزد في قيمة الأجرة التي اتفقنا عليها فيما قبل. وكنا مضطرين لأن نلبي طلبهم. أما اليوم، فيكفي رجل واحد لخفرننا، وهو لا يحمل معه أي سلاح.

اجتاز شارل دو فوكو عمر تلوات في اتجاه الجنوب. وهو الآن في الطريق من تيكرت إلى تازناخت.

التقيت في طريقي بمسافرين قلائل. فخلال يوم كامل، لم ألتق سوى بثلاث قوافل صغيرة. ودخل رئيس إحدى القوافل في مفاوضات طويلة مع بعض خفرائي. لقد كان يريد أن ينهني، واقترح عليهم أن يفعل ذلك بموافقتهم، ووعدهم بنصف الغنيمة<sup>66</sup>. ألم يكن ذلك أفضل من أن يستمروا في ممارسة حرفة حقيرة مثل مرافقة يهودي ؟ كانت لرفقائي أحكام مسبقة، فرفضوا اقتراح الرجل، ولم يجد هذا الأخير عبارة قوية ليُعبّر عن مدى استخفافه برفقائي.

65. مترجم عن فوكو، ص. 45، 105. في سياق وقائع السفر من مكناس إلى أبي الجعد.

66. في بعض الحالات، تؤدي الرغبة في السطو على ممتلكات المسافرين إلى القتل. وقد يكون الحدث منعطفاً في حياة الزطاط الذي يتحول إلى قاطع طريق. يحكي الباحث دفيد هارت حالة موحا أو جُنج الذي اغتال مسافراً تكلف بتزيطه في تراب إخنصالن. راجع :

David M. Hart, *Banditry in Islam*, p. 29.

نص 4 : ابن طوير الجنة «من يد إلى يد»<sup>67</sup>

ثم خرجنا من عند تَجْكَانَتْ<sup>68</sup>، ليلتين خلنا من ذي القعدة، ذاهبين مع طريق آق<sup>69</sup> إلى تَبِزْغِي. فمن قرية إلى قرية في تلك الجبال، من يد إلى يد، ونحن لا نرى إلا الشلوح الذين لا يعرفون لغتنا ولا نعرف لغتهم، ومع ذلك والحمد لله لا نرى منهم إلا الإحسان، وكل واحد من أولئك الشيوخ، أعني شيوخ قبائل الجبال التي بين مراكشة ووادي درعة، وأظنه نحو عشرة أيام أو قريب من ذلك، يركب كل واحد على بغلته معنا إما بنفسه، أو يبعث معنا رسولا، أو يكتب لنا براءة إلى صاحبه في القرية التي تلي قرية هذا الكاتب، وكأنه جاء بنفسه إذ جاءته براءته، لما بينهما من المواصلات والمرافقات. وكلهم يفعلون معنا ذلك بلا كراء، حتى إن شيخاً من أولئك الشيوخ، لما جئناه بمكتوب من عند صديقه، قال لنا : إلا بالكراء (كذا). فقلنا له : الذين قبلك لم يلتمسوا منا الكراء، وأنت إن قلت لا بد من الكراء، فالسمع والطاعة. فلما أراد أن ينزلنا منزلاً فيه بعض روث الحمير، قلت : أنا والله لا أنزل، فصلاحي وكتبي في موضع فيه روث. فأخبروه بما قلت أنا، فأنزلنا عليه، أي غرفة في سطح داره. فلما بنتنا تلك الليلة عنده، نوديت في سري آخر الليل : أنتم من طلب منكم الكراء، فقد فعل العار برسول الله (ص). فلما أصبحنا عنده وجماعتنا، جاء لجماعتنا بطعام، ووضعه بين يدي الجماعة، ثم هبط وصعد، وأخذ بيدي إلى عليه أخرى بعيدة من الجماعة. فجلس وجلست معه، وليس فيها غيرنا، أنا وهو، فإذا نحن برغيف رقيق وإدام. وصار يقطع لي الطعام بيده، ويجعله في الإدام، وأنا ما علي إلا الأكل، وهو يقطع لي من الرغيف ويجعله في الإدام، إلى أن شبعت. فخرج وخرجنا بأثره، وركب على بغلته، وركبنا جمالنا، وسار قدامنا وسرنا خلفه، وهو لا يتكلم معي [في] حالة الأكل، ولا يتكلم مع الجماعة [في] حالة السير إلى المدينة الأخرى. فأركب صاحباً له على بغلته، وجلس هو عند تلك القرية، وأرسل صاحباً له على بغلته إلى صديق له بمدينة أخرى. والله إنه لم يتكلم بطلب الكراء بعد كلامه الأول وقت مجيئنا إليه، وما ذلك كله إلا لبركة رسول الله (ص).

حتى بلغنا تيوت، وهي مدينة صغيرة، محصنة مسورة، بينها وبين تارذانت مسيرة يوم. ثم سرنا من تيوت إلى تارذانت، وهي مدينة كبيرة جداً، عامرة جداً، وفيها العلماء والأولياء. وقالوا لنا: إنها باب السوس الشرقي، ظنا مني. وجئناها على الحالة الحسنة المتقدمة، من يد إلى يد، وقائدها ووزيرها قَصْرًا في حقنا<sup>70</sup>. أما القائد فسجن بعدنا بشهر أو شهرين أو أكثر، فحججنا، ومكثنا أربع سنين، ورجعنا إلى الغرب، حتى بلغنا محروسة الصويرة آيين، وهو مسجون. وأما الوزير، فلما سرنا

67. ابن طوير الجنة، رحلة، ص. 4-7.

68. هي من فصائل مسوفة، وقد استوطنت في القدم مجالاً يقع بين درعة شمالاً وتاودني جنوباً، وعرفت بمراقبتها للتجارة الصحراوية. ومعلوم أن إعادة بناء مدينة تندوف، في أواسط القرن التاسع عشر، تعود إلى الشيخ محمد المختار بلعش، الذي يعتبر أكبر علماء تَجْكَانَتْ. انظر مصطفى ناعمي، مادة «تجكانت»، معلمة المغرب، ج 7، ص. 2286-2289.

69. المراد آقا، وهي إحدى واحات جبل بانتي، وتقع بين طاطا وفم الحصن. (انظر خريطة رحلة فوكو).

70. المراد بقائد تارودانت آنذاك أعلى منصب مخزني يشرف على قبائل منطقة سوس، وقد أطلق عليه كذلك لقب «العامل»، أو «خليفة» السلطان. وخلال القرن التاسع عشر، قد تولى هذا المنصب رجال ينتمون إلى فئات مختلفة : أمراء، ووصفان، وأهل سوس، والكيش. راجع علي المحمدي، أيت باعمران، ص. 83-88.

من تَأْرَدَانَتْ، قتله عبيده وهو نائم، وقالوا : إنهم قال لهم سيد وسيد أن نقتله<sup>71</sup>. وسيد ولي قطب كبير، عليه قبة عظيمة، مشهورة الزيارة والبركة بتأْرَدَانَتْ.

وذلك أننا وقت خروجنا منها للسفر، قصدنا زيارة ذلك القطب، أنا وولدنا سيدي محمد الصابر، ووجدنا جماعتنا وأهل الفندق يتخاصمون. فقلت لهم : ما هذه الخصومة ؟ فقالت لي جماعتنا : يلتزمون منا كراء الفندق، فقلت لهم : نحن لا نخاصم على الدنيا، ادفع لهم يا سيدي محمد الصابر كراء الفندق. ودفعت الجماعة كلهم منا بهم، فكان من الأمر ما كان، رحمه الله تعالى ورضي الله تعالى عنه، ونفعا به وبولايته وبعلمه أمين، يا أرحم الراحمين دنيا وأخرى. وما ذلك كله إلا أننا ضعفاء وفقراء إلى الله، إذ الغرباء أبناء السبيل أضياف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. وأهل ذلك الجبال يقولون لنا قبيل مجيئنا : هذا لا يقدر أحد أن يمر بها إلا وقتل ونهب ماله، لكثرة قطاع الطريق فيها، ونحن والحمد لله لا نلقى إلا من يكرمنا، ويحسن إلينا، ويبجلنا على كثرة إساءتنا. والحمد لله الذي يجازي المسيئين بالإحسان، ويهدون لنا، ونحن والله لسنا أهلا لذلك، لسنا أهلا للهدية (...).

## II. الخضر والقوى الدينية

### 1. الزاوية

نص 1 : زاوية أبي الجعد<sup>72</sup>

(خامس شتنبر 1883)

لم تبق لي إلا مسيرة ثلاث ساعات قبل الوصول إلى أبي الجعد، لكن وصولي ليس بالأمر الهين. ففيما يتبقى من الطريق يتهددني من الخطر ما يساوي الخطر الذي كان يهددني في مجموع الطريق التي اجتزتها إلى حد الآن. ففي هذه المنطقة لا تنفع عناية ولا زطاط، كل من يمر من هنا يتعرض للنهب. فالمنطقة خالية في هذا الفصل على الأخص. وهناك مجموعات من قطاع الطرق، من جميع قبائل تادلة، ومن إشقيز<sup>73</sup> أحيانا، تأتي بالأربعين والستين فرسا، وترصد المارين، وهي مستعدة للاقتضاض على كل من غامر بالمرور من هنا. ولا تتجرأ القوافل على اجتياز المنطقة، حتى وإن كانت مسلحة بخمسين بندقية. لكن وسط كل هذه الأخطار، يوجد سبيل واحد للنجاة : فالذين لا

71. هو الولي أبو محمد صالح ابن واندلوس السوسي (الأسود)، المعروف بـسيدي وسيدي، من الأفراد. قال ابن الزيات في بداية ترجمته : «أصله من تارودانت واستوطن مراكش وأغامت وريكة بعد أن حج واستقر أخيرا بالسوس الأقصى وبه مات رحمه الله بعد التسعين وخمسمائة». انظر ابن الزيات، الشوف، ص. 347.

72. مترجم عن فوكو، ص. 50-57.

73. تنتمي قبيلة إشقيز إلى مجموعة آيت عطان أومالو (آيت عطا الظل)، وقد كانت تقطن آنذاك في الأطلس المتوسط، وبالتحديد في الجزء المطل على سهل تادلا.

يحترمون أحداً، يحترمون مع ذلك سيدي بن داوود<sup>74</sup>. وفي الأماكن التي لا يحمي فيها السلاح من خطر المهاجمين، تكفي المظلة المسالمة لأحد أعضاء العائلة المبيجة، لإبعاد كل خطر محتمل. وهكذا فسواء رغب مسافر منفرد أو رفقة كبيرة في الذهاب إلى أبي الجعد، فليس أمامهم سوى وسيلة واحدة، وهي أن يلتمسوا من سيدي بن داوود أن يبعث أحد أبنائه أو أحفاده لمرافقتهم في السفر. وتختلف كلفة تلك الحماية حسب عدد المسافرين وتكوين القافلة<sup>75</sup>. ومن اللازم أن نؤكد بأن صلحاء الزاوية يتصرفون بطريقة بعيدة كل البعد عن أسلوب الجشع. فهم يستفيدون من هذا الاحتكار بكثير من الاعتدال، ويأسفون للأحوال التي تجعلهم يحتكرون حماية المسافرين. ورغم ما لهم من نفوذ، فقد عجزوا عن القضاء على ظاهرة الغزو التي تعود إلى القديم، ويعتز بها الرحل في كل مكان.

وهكذا بعثت إلى سيدي بن داوود رسالة توصية موجهة إليه، وطلبت منه أن يبعث لي من يرافقني. تكلف مبعوث بهذه المهمة، ولم ينطلق إلا بعد أن تخلص من جل ثيابه، وهي الوسيلة الوحيدة لضمان المرور بأمان (...).

(سادس شنتبر)

عاد مبعوثي على الساعة العاشرة والنصف صباحاً، وكان يرافقه أحد حفدة سيدي بن داوود، وهو شاب وسيم يبلغ عمره حوالي تسع عشرة سنة. ووصل على متن بغلته، وهو يمسك مظلة بيده، ويمشي وصيف له خلفه. وبمجرد أن وصل، انطلقنا في اتجاه أبي الجعد.

ومن هنا إلى أبي الجعد، مشينا في سهل تادلا المترامي الأطراف (...). وفي الساعة الواحدة والنصف، دخلنا إلى المدينة.

«هنا لا سلطان ولا مخزن، هنا الله وسيدي بن داوود». هذا ما قال لي رجل مسلم عند دخولي لأبي الجعد، وهو كلام يلخص وضعية المدينة. فسيدي بن داوود هو السيد الوحيد والمطلق. وهو يتمتع بسلطة روحية تتحول متى أراد إلى سلطة دنيوية، بسبب الأهمية التي توليها القبائل المجاورة لبركة الولي. ويمتد نطاق هذه السيادة حوالي مسيرة يومين في جميع الاتجاهات. فمن كل الأماكن الواقعة داخل منطقة نفوذ الولي، يأتي الناس في أوقات عديدة لتقديم جملة من الهدايا. لذلك تغص المدينة بالزوار باستمرار، ويأتي هؤلاء للحصول على بركة الولي ودعواته، مقابل ما يقدمونه من هدايا. ويتكاثر الزوار بشكل خاص خلال يوم الخميس الذي ينعقد فيه السوق. ففي الأسبوع الفارط، بلغت الزيارات من القمح فقط مائتين من أحمال الجمال، وفي الأسبوع السابق بلغ العدد أربعمائة، بالإضافة إلى هبات هامة من النقود والماشية والخيول. ولا يقتصر هذا الواجب الديني على الخواص،

74. تم تأسيس الزاوية على يد الولي سيدي امحمد الشرقي، المتوفى سنة 1601 للميلاد. وعند مرور فوكو، كانت الزاوية تعيش فترة ولاية سيدي بن داود الكبير (المتوفى سنة 1889 للميلاد).

75. خلال عهد السلطان الحسن الأول، بلغت قيمة واجبات الزطاطة نصف ريال للجمال الواحد. انظر د. إيكلمان، م.س، ج 1، ص. 62.

بل تأتي القبائل المجاورة كل سنة الواحدة تلو الأخرى، والفرقة تلو الأخرى، لتلتبس بشكل جماعي بركة الولي، وتقدم له الإتاوة المعهودة، وقد تعودت على دفعها كل قبائل تادالا، وجل قبائل الشاوية، وبعض فرق آيت سري، وجزء قليل من إشقيرن (...).

وغني عن القول أن الزاوية ثرية للغاية. فهي تتوصل كل سنة بهبات ضخمة، نقداً وعيناً، في شكل «زيارات» منتظمة ترد من النواحي المجاورة، أو هبات يأتي بها زوار منفردون، أو هدايا يبعث بها كبار رجال الدولة من فاس ومراكش. لذلك يملك سيدي بن داوود ثروة ضخمة. ويساهم بقية أعضاء عائلته في صدقات الأتباع، كما يساهمون في طقوسهم الدينية، وذلك حسب درجتهم في الولاية. ويتفاوت أعضاء العائلة في الغنى، وكلهم لا يعيشون إلا من الهبات التي يتوصلون بها (...).

في يوم الخميس، ينعقد السوق الكبير الذي ترتاده كل قبائل الناحية. وتوجد في حوانيت السوق معظم المنتجات الأوربية التي تباع بفاس ومكناس، باستثناء النفط، والسكاكين، والأقلام، لكن هذه المواد توجد بوفرة عند رجال الزاوية الذين يجلبونها مباشرة من مدينة الدار البيضاء. وهذا الميناء هو المزود الرئيسي لتجارة أبي الجعد، فمنه ترد الأقمشة القطنية، والشاي، والأرز، والسكر، والتوابل، والعمود، والثياب الفاخرة. وفي المقابل تقدم المنطقة مواد مثل الجلود والصوف والشمع. هناك مسيرة أربعة أيام من أبي الجعد إلى الدار البيضاء، منها يومان في بلاد السبية حيث لا يسافر أحد بدون رفقة أحد أقرباء الولي، ويومان في بلاد المخزن. ولا توجد أية مواصلات مع مراكش، بسبب شدة أخطار الطريق. فالسفر يتطلب ثمانية أيام، وكثيراً ما يضطر المسافر لاتباع مسالك ملتوية، والاحتماء بزطاط تلو الآخر (...).

قبل مغادرة أبي الجعد، ينبغي أن أتأكد من الحصول على خفر أحد حفدة سيدي بن داوود، خلال كل الوقت الذي بقي لي أن أقضيه في تادالا. وبفضل هذه الحماية، سوف أذهب في البداية إلى قصبة تادالا، ثم إلى قصبة بني ملال.

نص 2 : القنادسة<sup>76</sup>

ولد سي أمحمد بن عبد الرحمان بن بوزيان – المشهور بولاي بوزيان – في أواسط القرن السابع عشر للميلاد، في أسرة شريفة استوطنت في وقت سابق مصب وادي درعة. وبدأ دراسته بجامعة فاس، ولكنه طرد من هذه المدينة بأمر من السلطان الذي وصف له وكأنه ساحر مُصاب بمس من الجن. والواقع حسب الأسطورة، أن الله منحه كرامة، وهي أن قلمه قطر زيتا وهو ما وفر له الحصاة التي كان عليه أن يؤديها كأجرة لأستاذه.

76. مترجم عن :

Louis Rinn, *Marabouts et khouan*, pp. 408- 409, 412- 415.

ونشير إلى أن الزاوية المذكورة بدأت تضمحل منذ أواسط القرن التاسع عشر، وانقسمت آنذاك إلى فرعين، وهما القنادسة ووطاط الحاج. وفي أواخر القرن كانت ساكنة قصر القنادسة تقدر بحوالي 2000 نسمة.

التجاً مولاي بوزيان آنذاك إلى تافيلالت، وصاحب هناك الولي مبارك بن عبد العزيز، مقدم الزاوية الناصرية<sup>77</sup>. فأخذ عنه مولاي بوزيان ورَدَ تلك الطريقة، ولما شعر بأنه استكمل كل ما كان عليه أن يأخذ من ذلك الشيخ، شد الرحلة إلى الحجاز، ولقي في الطريق عدداً من الشيوخ، وأقام عندهم فترات متفاوتة.

وفي الطريق إلى الحج، تولى مولاي بوزيان التعليم والوعظ بفضل تدينه ومعرفته بشؤون الإنسان والخالق. وفي مكة حصل له الفتح، وبدأت الكرامات تتحقق له بفضل العناية الربانية. وعند عودته، مرَّ مولاي بوزيان بالقاهرة وطرابلس وتونس، ويقال إن نوراً قوياً كان ينبعث منه ويشع في كل الاتجاهات، إلى درجة أن الناس كانوا يقصدونه ويطلبون منه أن يلقنهم الذكر الشاذلي. ونزولا عند رغبة أتباعه، عين م. بوزيان عدداً من الخلفاء والمقدمين في مراكز عديدة، ونشأت بذلك زوايا محلية لا زالت إلى يومنا هذا تعتبر هذا الولي حلقة في سندها الصوفي، وتستخدم اسمه لتطلب «الزيارة» من الوافدين عليها.

عوض أن يعود مولاي بوزيان إلى مسقط رأسه، توقف عند ذوي منيع<sup>78</sup>، بالقرب من وادي غير، بمكان يسمّى القنادسة، وهناك أسس زاوية سوف تشكل نواة لقصر هام<sup>79</sup>. تجمع حول مولاي بوزيان عدد كبير من المريدين، كانوا يرغبون في تلقي تعليمه والأخذ من بركته. وبعدهما توطدت شهرته وساهم أتباعه في انتشار تعاليمه، قام بسياحات واسعة في الصحراء، وهو ما زاد في توسيع مجال شهرته ونفوذه.

وعمل مولاي بوزيان طيلة حياته على توظيف نفوذه الشخصي، وما خصه الله به من قدرات وكرامات، من أجل إرهاب ومعاقبة اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا يغيرون على مسالك الصحراء في عصره (...).

من الناحية العملية، تخصصت الزاوية الزيبانية في مرافقة القوافل وحمايتها من اللصوص وقطاع الطرق. فأصبح رجال الزاوية بمثابة ربابنة الصحراء. فلم يعد التجار يتجروون على وسق أحمال سلعهم في اتجاه الجنوب، دون أن يضمّنوا لقوافلهم حماية الزاوية. وهكذا فمقابل الزيارة التي يؤديها التجار والإجلال الذي يُعربون عنه إزاء شيخ الزاوية أو أحد مُقدّميه، يبارك الشيخ الركب، ويرسل معهم «ركاباً» يحمل معه رسالة تحمل خاتمه<sup>80</sup>. ويعمل هذا الركاب في أن واحد كدليل للقافلة وإمام لها. فألى جانب معرفته بمسالك البلاد ورجالها، يتمتع الركاب بهيبة دينية وصفته كمبعوث شخصي

77. سوف تنتمي زاوية القنادسة إلى الطريقة الناصرية، ومعلوم أن التحكم في طرق القوافل كان من بين دعائم نفوذ زاوية تامگروت بدرعة.

78. قبائل رحل تنتمي إلى مجموعة عرب المعقل. انظر أدناه، ص. 262 - 264.

79. مر إنشاء الزاوية المذكورة بمرحلتين رئيسيتين. ففي القرن الخامس عشر، أسس الولي سيدي عبد الرحمان «العُونة» التي كانت بمثابة قصر صحراوي ومحطة قافلة. وبعد مرور قرنين، حل اسم «القنادسة» محل الاسم السابق، مع سيدي امحمد بن بوزيان. راجع: Abderrahmane Moussaoui, *Espace et sacré*, pp. 67-68.

80. يستعمل آيت باعمران مصطلح «مول الركاب» للدلالة على نفس الوظيفة في السياق القبلي. انظر أدناه، ص. 281.

لسي امحمد بوزيان، مما يجعل منه أفضل ضمانة ممكنة للجمالين وما يحملونه من سلع. تجني الزاوية الأم فوائد ضخمة من هذه الخدمة، لاسيما في ظروف الاضطرابات. لذلك فالزيانيون يتفرون على أملاك عديدة، سواء في القنادسة أو تافيلالت، عند بني گمي، وبوادي درعة. ومع ذلك يعيش شيوخ الزاوية حياة متقشفة، وتدل ملامحهم على فقر حقيقي، لأنهم يصرفون كافة مداخيلهم.

في كل سنة، يكلف شيخ الزاوية عدداً من الخلفاء من أعضاء عائلته، ويفوض لهم سلطات خاصة، فيقومون بجولات تفتيشية وسط القبائل. وهكذا يجمعون «الزيارات»<sup>81</sup>، ويعيّنون المقدمين باقتراح من مردي الزوايا المحلية، ويزودون مسؤولي الفروع بتعليمات شيخ الزاوية الأم، ويشجعون على إرسال القوافل، وبذلك يدبرون شؤون الزاوية في كافة المجالات الدينية والدنيوية.

وفي نهاية المطاف، فالزاوية المذكورة تنظم ديني يتسم بقدر كبير من روح التسامح. ويعيش جل أعضائه عيشاً كريماً، بعيداً عن المشاغل الدنيوية، وهم يُسدون الخير إلى من حولهم، ويتولون تدريس القرآن، ويحافظون على قدسية الزاوية، وهو ما يجلب لها التبجيل، وأعداداً كبيرة من المنخرطين، و«زيارات» وافرة.

وينبغي أن نؤكد أن كافة فروع الزاوية الزاوية تتسم بسخاء ملحوظ في استضافة العابرين<sup>82</sup>، وتوزيع الصدقات، كما أن المقدمين والإخوان يعملون ما في وسعهم لتجنب الانحياز في التحالفات القبلية والصُفوف المحلية أو الإقليمية، لأن موقف الحياد المطلق والدائم مسألة حيوية إن هم أرادوا أن يحافظوا على نفوذهم ويضمنوا فعاليتهم في حماية القوافل.

تمتخ الزوايا اللجوء الأمان للمهزومين، ويتوسط المقدمون من أجل إقرار السلم، لكنهم يرفضون أن يدعموا هذا الحلف أو ذلك. وكثيراً ما تمسكوا بموقف التحفظ تجاه النفوذ السياسي أو الديني لسلطان المغرب وكذا الزاوية الطيبية<sup>83</sup>. ولم يتمكن أولاد سيدي الشيخ من الحصول على دعم الزيانيين<sup>84</sup>، رغم أن عدداً من شراكة انخرطوا في الزاوية، لأن عدداً كبيراً من عائلات الغرابة كانوا من أتباع الزاوية الطيبية، بينما حافظ الزيانيون على علاقات طيبة مع هؤلاء وأولئك (...).

81. ورد ذكر «الزيارات» التي تدفع لزاوية القنادسة في أعراف قصور أعالي وادي گیر. راجع نصوص الأعراف :

Nehlii, « L'azef des tribus et qsour berbères du Haut-Guir », A.B., 1915-1916, fasc. I, pp. 81-98, fasc.2, pp. 186-201, fasc.3, pp. 205-232.

انظر على الأخص عرف تولال، بند رقم 49.

82. تلعب هنا الزاوية دور النزالة. انظر محمد أعيف، توات في القرن 19، ص. 208. وحول مؤسسة النزالة، انظر أدناه، ص. 40-41.

83. ومعناها الزاوية الوزانية.

84. اشتهر أولاد سيدي الشيخ في مقاومة الاستعمار الفرنسي في جنوب غرب الجزائر بين سنتي 1864 و 1882. وهم ينتسبون للولي الصحراوي سيدي عبد القادر بن محمد السماحي (المتوفى سنة 1025 للهجرة / 1616 للميلاد ؟). أنشأ هذا الولي زاوية يمكن يسمى «الببّض»، في منتصف الطريق الرابطة بين فگيک وهران. وبفضل التحالفات التي أقامتتها الزاوية مع كبريات قبائل الرحل بالمنطقة، تمكنت من مراقبة جزء هام من التجارة التي تربط بين شمال الجزائر وبلاد السودان، وذلك عن طريق حماية القوافل والمساهمة في المبادلات. راجع :

يتوفر الزيانبون على أتباع عديدين بالمغرب، في عين طاهر، وتافياللت، ووادي درعة، وعند بني زُنَّاسْن، وذوي مُنيح، وبني گيل، وأولاد جرير، والمهائية، وفي فِگِگِگ، الخ. ويعاملهم إمبراطور المغرب بعناية كبيرة، ويعفيهم من كل جباية، ويبعث لهم الصلات من حين لآخر.

وفي الجنوب المستقل، يتوفر الزيانبون على أتباع عند بني گومي، وفي توات وگورارة، وحتى في السودان.

وهناك زيانبون عديدون على الحدود نفسها، عند أنگاد وحميان، المغاربة منهم والجزائريين.

## 2. الشريف

نص : رفقة سيدي الرامي<sup>85</sup>

هناك مسلکان رئيسيان للذهاب إلى تازة : الأول هو أقصرهما، لكنه لا يستعمل أبداً، وهو يصعد مع وادي إيناون، عبر قبائل حياينة وغيائة، والثاني هو الذي يستعمل عادة، وهو يمر بقبائل الحياينة، والتسول، ومكناسة، ويفضله يَمُكِن للمسافر أن يتجنب تراب غيائة ، ولا يمر به إلا عند مدخل مدينة تازة.

توجد قبائل الحياينة، والتسول، ومكناسة داخل بلاد المخزن، لكنها لا تطيع السلطان إلا بشكل جزئي، لذلك قل الأمن في أرضها، ولا تُمرُّ بها القوافل من دون خفر، لكن الغرباء لا يسافرون هناك من دون رفقة. وتقع تازة فوق تراب غيائة. وهؤلاء قوم مستقلون، وقد اشتهروا بالعنف وقطع الطريق. فلا يمكن أن تمشي خطوة واحدة في أرضهم من دون عناية أحد أعضاء القبيلة، بل من اللازم أن تختار رجلاً قوياً كي يضمن لك الأمن والسلامة، وليس ذلك بالأمر الهين، لا سيما بالنسبة للمسافر الأجنبي.

سوف أسافر في أفضل الظروف. ففي هذه الأماكن التي ليس فيها للسلطان أي نفوذ، هناك رجل يتمتع بنفوذ مطلق، وهو مقدم زاوية مولاي إدريس الكبرى بفاس، سيدي الرامي<sup>86</sup>. إنه يتمتع بنفوذ كبير لدى الحياينة وغيائة، والواقع أن نفوذه يشمل منطقة أوسع، إذ أن كلمته مسموعة عند قبائل الريف من غمارة إلى بني إزْنَاتْن، وكافة القبائل التي تستوطن الأراضي الواقعة بين فاس وتازة والبحر الأبيض المتوسط. ومتى احتاجت هذه القبائل إلى حل بعض مشاكلها بحاضرة فاس، فهو الذي يتكفل لها بذلك. ومتى رغب السلطان في شيء من إحدى تلك القبائل، فهو يتوجه إلى سيدي الرامي. سوف أغادر إذن مدينة فاس في ظل هذه الحماية القوية : فنزولا عند طلب السيد بن سمهون، عين سيدي الرامي أحد عبيده الموثوقين لمرافقتي إلى تازة. سوف نسلك أقصر الطرق ، وهو طريق لا يتجرأ أحد على عبوره. وبفضل تلك الحماية، يمكن اجتياز أخطر الطرق. وبنفس السهولة التي سوف أسافر بها من فاس إلى تازة بفضل حماية سيدي الرامي، يمكن الذهاب من فاس

85. مترجم عن فوكو، ص. 25-26، 30-34. بصدد وقائع السفر من فاس إلى تازة.

86. انظر فوكو، م. ص. 25، الهامش 1.

إلى شفشاون وتطوان عبر الطريق التي كنت أرغب في اجتيازها، والتي كانت بالغة الصعوبة في الاتجاه المعاكس (...).

في الطريق بين فاس وتازة، نادراً ما التقينا بمسافرين آخرين : لا قافلة على الإطلاق، بل مسافرون قلائل فقط، وكلهم فرسان يحملون البندقية والسيف. ولا تجد أحداً في الحقول، وقد لاحظت، أربع أو خمس مرات، في جانب الطريق رجالاً مسلحين، يحرسون الحصيد، ويتعرضون أحياناً للمارين الغرباء عن المنطقة. وعلى امتداد الطريق، أظهر كل الأشخاص الذين التقينا بهم احتراماً بالغاً للدليل الذي كان يرافقني، إذ كانوا دائماً يسلمون عليه، ويخاطبونه، وغالباً ما يُقبلون يده. وكانت المنطقة التي اجتزناها قليلة السكان، وقليلة الزراعة، وشاهدنا هناك خياماً جميلة، لكن القرى كانت ذات شكل بئيس، ولم تكن بها دور حقيقية، بل كانت مساكنها مجرد أكواخ. وكانت داخل الدواوير خيول عديدة تبدو عليها مظاهر الاعتناء، وهو ما يدل على أن السكان متمرسون على المواجهة والحرب (...).

إن غيابة قبيلة مiale إلى الحرب، وغيورة على استقلالها. وهي تتكون من ست فرق تتقاتل فيما بينها باستمرار، لكنها تتحد دائماً في مواجهة أعدائها المشتركين. فمنذ مدة تناهز سبع سنوات، عزم مولاي الحسن على أن يُخضع قبيلة غيابة، فهاجمها على رأس جيش حقيقي، فانهزمت قواته وقتل فرس السلطان خلال المواجهة، وغادر العاهل ميدان المعركة فاراً على قدميه<sup>87</sup>. ومنذ ذلك الحين، لم يحاول أن ينتقم لذلك الفشل. ولا يولي غيابة اهتماماً كبيراً بالدين، وقد أصبحوا بذلك مضرب مثل، إذ يقال : « ليس لهم لا رب ولا سلطان، ولا يعرفون إلا البارود». ورغم ذلك فقد لمسنا النفوذ الواسع الذي يعترفون به لسيدي إدريس، وهم يوقرون، وإن بدرجة أقل ثلاثة أو أربعة شرفاء آخرين، مثل مولاي عبد الرحمان ومولاي عبد السلام اللذين سوف نتعرف على زاويتيها في طريق العودة. ولا ينتخب غيابة من بينهم شيوخاً أو رؤساء من أي نوع كان، فهم يعيشون حالة الديمقراطية في كل قوتها<sup>88</sup>، إذ يُعتبر كل فرد مسؤولاً عن نفسه بواسطة بندقية. ومع ذلك فإن بعض الرجال يتمتعون بنفوذ خاص بفضل ثروتهم أو بسالتهم، وهي ظاهرة تعرفها كذلك قبائل أخرى. وفي الوقت الحاضر، يتمتع بهذه الحظوة رجل يدعى ابن الخضمر، من قرية نكرت.

87. في صيف 1876، قاد السلطان الحسن الأول حركة أخذت طريق الشرق، وعُرفت بوقعة «الشقة» الشهيرة، وهي تسمية تشير إلى الخندق الذي هوى فيه جند السلطان، نتيجة لخدعة عسكرية استعملها غيابة. وعلى سبيل الانتقام، أصدر السلطان أمره لعامله بتازة «يقبض كل من يدخلها من غيابة ما جعل التوتير يستمر، وغيابة يتعرضون طريق جند السلطان عند رجوعه من وجدة». عبد الرحمن المردن، قبائل إناون والمخزن، ص. 411-124.

88. يبدو حديث فوكو عن «بلاد المخزن» أقرب إلى صورة الاستبداد الشرقي على النمط الذي ساد عند عدد من الرحالة الأوربيين. انظر على سبيل المثال :

ملف : تنقلات الشرفاء وخدامهم<sup>89</sup>

## (الرسالة الأولى)

من عبد ربه تعالى أحمد بن محمد بن عبد الله بن علي الحسيني الوزاني إلى أبناء عمنا سيدي علال وسيدي الطيب وسيدي أحمد، أبناء سيدي عبد السلام،  
رعاكم الله وسلام عليكم ورحمة الله مع الدعاء لكم بخير كما هو مطلوب منكم لنا تقبل  
الله وبعد،

نحبكم حين يرد عليكم صاحبنا علي بوصفيحة خذوا بيده في الطريق حتى توصلوه إلى  
الموضع الذي يؤمن فيه على نفسه بارك الله فيكم وأصلح حالكم والسلام

في متم جمادى الأولى عام 1326 (يونيو 1908).

## (الرسالة الثانية)

نحبك أحبك الله ورسوله تهتلاً فيه<sup>90</sup> كما هو الظن فيك وارسله إلينا محفوظاً حتى يصل  
إلى أولاد أدموش خمليش في الأمان وإياكم ثم إياكم تقصر من جانبه وهو منا وإينا وإياك تفرط فيه  
لا بد ولا بد بارك الله لنا فيك وسلم منا على الشرفاء وأولادك وإخوانك .

## (الرسالة الثالثة)

من عبد ربه عبد السلام بن ادريس زين العابدين<sup>91</sup> إلى ابن عمنا الشريف البركة سيدي  
عبد السلام بن علال،  
السلام عليك ورحمة الله وبعد،

يرد عليك وصيف أبناء عمنا سيدي الشاهد متوجها لزاوية التفاح عند أولاد أخمليش  
نحبك توجهه على يدك مع من يوصله ويرجع معه في الأمان ولا بد نحبك تقف معه<sup>92</sup> ولا بد وتعجل  
به جزاك الله فيه وعلى المحبة والسلام

89. خمس وثائق واردة في مقال مبارك الشنتوفي، «زاوية سيدي علال الوزاني»، ضمن نفيسة الذهبي (تنسيق)، الرباطات والزوايا، ص 263-266. وتهم هذه الرسائل زاوية سيدي علال الوزاني التي تقع بمتيوة، بناحية تاؤنات، وبالتحديد في دوار بودة الذي استقبل جد شرفاء هذه الزاوية (سيدي علال المذكور)، في أواسط القرن التاسع عشر، ووهب له أرضاً تحمل اسم «المتنصر». وهناك يقم حالياً حسن بن علال بن عبد السلام بن علال الوزاني الذي احتفظ بأرشف عاتلي، اقتطف منه مبارك الشنتوفي الرسائل الواردة هنا. وننبه القارئ أننا تعمدنا احترام لغة المراسلات بما تحتوي عليه من عبارات عامية، وذلك إذ نعتبر أن هذا الجانب لا يخلو من فائدة في مستوى التاريخ الثقافي.

90. كلمة عامية تعني «تعتني به». وأصل الكلمة من التهليل، أي الترحيب، وهي تفيد: «كن له أهلاً».

91. كانت أسرة ابن زين العابدين أكبر عائلة بالمنطقة. وقد كامن سندا هاما للسلطة المخزني، وذلك من خلال دعمها للقواد، ومساعدتها على إخضاع الفرق التي لا يتحكم فيها القواد. راجع عبد الرحمن المودن، م.ص، ص. 295-305.

92. كذا في الأصل.

(الرسالة الرابعة)

من عبد ربه الطيب بن التهامي بن عبد الله بن علي إلى أبناء عمنا سيدي الطيب وسيدي المكي وكافة إخوانكم أنجال عمنا سيدي عبد السلام الوزاني،  
سلام عليكم ورحمة الله أما بعد،

فالسؤال عنكم والدعاء منكم ولكم بخير يتقبل الله نعلمكم بأن ابن عمنا البركة سيدي عبد الله بن سيدي الحاج التهامي الوزاني صهرنا أراد التوجه لقبائلكم والريف قصد الزيارة<sup>93</sup> على عادة الأسلاف نحكمم ببارك الله فيكم تعينوا شريف منكم يكن له رفيق ويأخذ بيده في تلك القبائل ويجعله كنفنا كما هو الظن بكم ببارك الله فيكم وفي عمركم حتى يتوفى غرضه إن شاء الله ودمتم في عز وإكرام وعلى الأخوة والسلام.

(الرسالة الخامسة)

من عبد ربه تعلی محمد بن ابراهيم بن التهامي بن عبد الله بن علي الحسيني الوزاني إلى أبناء عمنا الشرفاء الأجلين الخيرين الفضليين سيدي علال وسيدي الطيب وسيدي المكي حفظكم الله ورعاكم وسلام عليكم ورحمة الله مع الدعاء منكم ولكم بخير يتقبل الله  
وبعد،

فاعلموا رعاكم الله أن أختنا مولاي علي طلب أن يدور<sup>94</sup> في نواحيكم مع فنانسة مع قبيلة مرنيسة<sup>95</sup> ويرجع معه سيدي علي بن داود نفعنا الله ببركاته وعليه فالمطلوب منكم أن يقدم معه أحد منكم ليأنسه ولا يفرقه حتى يرجع لدينا سالماً من فضل الله وذلك جميل الظن بسيادتكم برك الله لنا في عمركم أمين يا رب العالمين دتمتم في حفظ الله بإكرام وعلى خالص الأخوة والسلام،

في 29 رجب عام 1335 (21 ماي 1917).

93. تدل كلمة «الزيارة»، في هذا السياق، على معنى أقرب إلى الجباية. وبشكل ملموس، تتمثل الزيارة التي يحصلها الشرفاء الوزانيون من قبائل المنطقة، في رؤوس المعز، وفواكه جافة مثل اللوز والتين، وكذا مشروب الصامت.

94. كلمة عامية تعني: «يجول».

95. صيغة عامية تعني: «مروراً بقبيلة مرنيسة».

## III. التدبير المخزني

## 1. المكتوب المخزني

نص : الولا تي من مراکش إلى گلیم<sup>96</sup>

ثم ارتحلنا من مراکش قاصدين مدينة الصويرة فبتنا دونها ثلاث ليال فدخلناها لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع النبوي من العام الخامس عشر بعد ثلاثمائة وألف، فنزلنا عند قائدها الحاج أعل<sup>97</sup>، وبأيدينا كتاب مولانا عبد العزيز نصره الله تعالى يأمره فيه بإنزالنا وإكرامنا حتى نرتحل<sup>98</sup>، فناولته إياه ففضه وقرأه وقبله وقال على الرأس والعين، فأنزلنا في منزل طيب رحب وأكرمنا وأحسن ضيافتنا، فمكثنا في الصويرة تسع ليال، واجتمعنا فيها بقاضيها الشريف مولاي أحمد البلغيشي، فأهدى إلينا شرح الشيخ گنون الفاسي على موطأ الإمام مالك في مجلد واحد، وأهدى إلينا تأليفاً له أي للمقاضي المذكور في بعض العلوم التي تتعلق بالصلاة على النبي (ص). واجتمعنا فيها بأخيها في الله وحبيبتنا سيد أحمد أقنور من أصحاب شيخنا ومولانا أحمد التجاني رضي الله عنه فأكرمنا وقام في مصالحتنا بنفسه ويعماله حتى أنفق لنا ما بأيدينا من الدراهم في السلع التي أمرناه بها، وعدل لنا ذلك كله في سبعة أحمال وصناديق الكتب في ثلاثة أحمال، فأكرى لنا الجميع للجمالين إلى تزروالت.

ثم خرجنا من الصويرة بعد خروج الجمالين منها على بغلين فارهين أكرهما لنا سيد أحمد أقنور، ومعنا رباهما قاصدين تزروالت، فمررنا في طريقنا بدار القائد سعيد الجلولي قائد حاحا<sup>99</sup> غازياً في محلة مولانا السلطان معسكراً في سوس في بلاد اشتوك (كذا) فنزلنا داره بغير حضرته عند ابنه الأبر السيد الأغر سيد محمد، فقبلنا عنده وبتنا فأكرمنا وأحسن ضيافتنا وأهدى إلينا قفطان من ابراي في غاية الجودة وعشر ريات زودنا بها، وأرسل معنا رسولا يقبل بنا وبيت بنا في منازل عينها لنا، وكتب لأهل تلك المنازل بإكرامنا حتى تخطينا أكدير فبتنا عند قائده الحاج أحمد الجسيمي، فأضافنا ضيافة حسنة، وارتحلنا عنه من الغد فرحنا قبيل الغروب إلى المحلة السعيدة فبتنا فيها عند

96. الولا تي، الرحلة الحجازية، ص. 387-388. وقد دامت رحلة الولا تي إلى الحجاز من رجب 1311 (يناير 1894) إلى شوال 1317 (يناير 1900).

97. لعله الحاج علي بن الحاج التطواني الذي تولى «العمالة وأمانة الديوانة» بالصويرة سنة 1315 للهجرة (1897-1898 للميلاد)، وقد توفي سنة 1315، فأسندت العمالة إلى أمين الديوانة وقتئذ السيد محمد بن الحاج التطواني. انظر محمد بن سعيد الصديقي، إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة، ج 1، الدار البيضاء، د.ت، ص. 133، 135.

98. نقرأ في نموذج من هذه الرسائل : «نأمر من يقف عليه من خدامنا العمال الذين يمر بهم حملته في طريقهم ما بين مراکش إلى واد نون أن يكون منهم على بال ويكرم مرورهم به حتى ينفصلوا عن ترابه إلى تراب غيره في أمن وسلام» (19 شوال 1325، من السلطان عبد الحفيظ إلى عمال الجنوب). وثيقة أمدا بها أحمد جوماني مشكوراً.

99. تنحدر أسرة الكلولين من أسا جنوب شرق أكلميم، وانتقلت إلى إداوگلول بحاحة. وقد عين سعيد بن أحمد الكلولي قائداً على قبيلته، ثم على مجموع حاحة وإداوتنان. واتسع مجال قيادته حتى شمل تزنيث في حقبة وزارة أبا حماد. وبعد وفاة هذا الأخير (1900)، أقيمت سعيد الكلولي من منصبه، ونقل إلى مراکش، وبها توفي. انظر محمد الإكراري، روضة الأفتان في وفيات الأعيان، تحقيق حمدي أنوش، أكادير، 1998، هامش 8 (للمحقق)، ص. 62.

أميرها القائد سعيد الجلولي، فأنزلنا وأضافنا ضيافة حسنة، فارتحلنا عنه من الغد فبتنا دون تَزَوَّالْت ليلة واحدة ورُحنا لها منسلف ربيع النبوي فنزلنا عند عريفها وسيدها الفاضل الأكرم الشريف مولانا سيد محمد بن مولانا سيدي الحسين<sup>100</sup> فأنزلنا وأضافنا وأكرمنا فمكثنا عنده أربعين ليلة في أمم إكرام وإحسان، فأكرى لنا عشرة جمال تحمل لنا أحمالنا العشرة إلى إجليميم (كذا) بعشرين ريالاً دفعها من نفسه، وحملنا على بغلين فارهين، وزودنا بخمسة عشر ريالاً وسبع قوالب من السكر ورطلين من أتاى وخنش (كذا) من الأرز وأخرى من دقيق الشعير، فخرجنا من عنده لعشر ليال خلون من ربيع الثاني فبتنا دون أجليميم ليلتين ودخلناه ليلة الثالث عشر، فنزلنا عند أميره وزعيمه القائد دحمان بن الشيخ بيروك<sup>101</sup> فأنزلنا وأكرمنا وأحسن ضيافتنا.

100 . خلف أباه الحسين على رأس دار إليغ سنة 1303 للهجرة ، وتوفي سنة 1335 للهجرة . وقد وصفه محمد المختار السوسي بالطريقة التالية : «من أرمى الناس بالبندقية وأصحهم بصراً، وأحلمهم وأسخاهم، وأرزنهم وأبسلهم، يتهلل في وسط حاشيته السوداء، كالقمر تبدي وسط السحابة الدكناء...». انظر كتاب طاعة ريحان من روضة الأفتان، الرباط، 1984، ص. 33.

101 . لقبه محمد المختار السوسي ب«القائد الاكلمي». تولى القيادة سنة 1299 للهجرة، وتوفي سنة 1325 للهجرة. انظر ن.م.،

## 2. درك الطريق

نص : رسالة سلطانية إلى قبيلة الغنائمة<sup>102</sup>

الحمد لله وحده  
 وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه  
 الطابع السلطاني الصغير بداخله الحسن بن محمد الله وليه ومولاه  
 خدامنا الأتجاد، قبيلة الغنائمة كافة  
 وفقكم الله وأرشدكم وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته  
 وبعد فقد بلغنا وقوفكم في الصلاح والخير، فنأمركم أن تدوموا على ذلك وتكونوا عند الظن  
 بكم في حفظ الطريق، وتأمين المارة كما ينبغي، وقد كلفنا محبنا المرباط الخير عبد الكبير الكرزازي أن  
 يكون يطلع علمنا الشريف بأمركم<sup>103</sup>، ويرفع إلى حضرتنا العالية بالله شؤونكم<sup>104</sup>، فكونوا عند الظن  
 بكم، أصلحكم الله ورضي عنكم، والسلام.

في سادس رمضان عام 1291

## 3. طريق المخزن

نص 1 : رسالة سلطانية حول تحديد الطريق<sup>105</sup>

الحمد لله وحده  
 وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما

الطابع الصغير وبداخله : الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

102. مجلة الوثائق (الرباط)، عدد 3، 1977، ص 416-417. والغنائمة من قبائل الكيش العربية، وكانت تقطن بجهة وادي الساورة جنوب شرق المغرب. وحول بعض جوانب تاريخ هذه القبيلة، راجع :  
 A.G.P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine*, Rabat, 1994 (réimpression), pp. 55-56, 93, 161-162;  
 رُوسْ دَانْ، المجتمع والمقاومة، ص. 176.  
 103. نسبة إلى الزاوية الكرزازية. انظر :

Louis Rinn, *Marabouts et khouan*, pp. 342 et suiv.

ومعلوم أن زاوية كرزاز كانت تمثل أحد قصور الغنائمة، ضمن واحات وادي الساورة. انظر محمد أعيف، توات، ص. 36.  
 104. يظهر هنا قيام عدد من الزوايا بوظيفة الاستعلام لصالح المخزن. ولا شك أن لهذا الدور صلة بالهبات التي كان السلطان يوزعها على رجال الزوايا عند مرور الحركة السلطانية. انظر مثلا ما يذكره الناصري بصدد مرور السلطان سليمان بتافيلالت في سياق الحركة التي استهدفت آيت عطا سنة 1231 للهجرة. الاستقصا، ج 8، ص. 131-132.  
 105. وثيقة واردة في محمد اللحية، مكناس، ص. 262.

وصيفنا الأرضى القائد حم بن الجيلاني<sup>106</sup> (...) وبعد، فقد شرح الله صدرنا لجعل طريق المخزن الكبرى ببلاد زمور، ونصرفها عن بني حسن<sup>107</sup>. فإنها أول طريق من طرق الخير، صرفها الله عنهم، لينقطع تعلمهم بأن زمور هم الذين يقطعون في بلادهم مع خراج بني حسن. وعليه، فنأمرك أن تخرج بنفسك لقواد أهل الوادي، وتفاوض معهم على تعيين محل النزائل، وبيان الفرق التي تكون وسطهم، ونحو ذلك من كل ما يضبطها. ويتراقدون عليها فيما بينهم<sup>108</sup>، حتى تأمن السيارة في المرور عليها، من غير أن يتوجه أحد منهم عند الذهاب والإياب معهم. وبعد انعقاد ذلك، أشعه في الناس، وأعلم به. كما نأمرك أن تتوجه مع العمال المذكورين والأعيان، للخدم الحاج محمد ابن سعيد السلوي، وعمال وأعيان الوادي، فقد أمرناه بالخروج إليهم بنفسه، والإتيان بهم معه، وملاقاتك في المحل الذي تجتمعون فيه. ويعقدون ذلك حتى يجتمع كلامكم، وتخرجوا معهم على ما شرحنا لك وله، وليتعاهدوا على ذلك كلاً على ترابه على مقتضى أعرافهم. وإذا تم الأمر اعلمونا. ويوافيك كتابنا الشريف بأخيينا مولاي إسماعيل<sup>109</sup>، والخدم بوشتي بن البغدادي إذا تم أمر الطريق<sup>110</sup>، وعلمت من زمور الشلح الصدق والجد في تأمين السيارة بها، وجههما لهما ليعلموا الناس بأن الطريق من مكناش إلى سلى (كذا) على زمور الشلح. وعين من قبلك من يرشدهم إليها حتى تعرف. وإذا لم يظهر لك فيهم ما يفيد ذلك، ولم تأمن من غدرهم، فالحق الكتابين المذكورين تحت يدك، ولا تشع ذلك ولا تعلم به.

والسلام في 18 ربيع الخير عام 1308 هـ

نص 2 : رسالة سلطانية حول نفس الموضوع<sup>111</sup>

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

الطابع الصغير وبداخله : الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

106. حمو بن الجيلاني هو عامل مكناش آنذاك، وأصله من الجيش البخاري، وكان ينتمي إلى شبكة زبناء أبا احماذ، على غرار الباشا بن داود والقائد وبدة براكش. انظر مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، الرباط، 1995، ص. 171.

107. حول العلاقة بين زمور وبني حسن في تلك الفترة، راجع :

Marcel Lesne, « Les Zemmour. Essai d'histoire tribale », R.O.M.M., n° 2, 2<sup>e</sup> trim. 1966, p. 111.

108. التأكيد منا. وحول عرف «الترافد»، انظر أدناه، ص. 284.

109. هو الأمير الذي كان يتولى منصب خليفة السلطان بفاس عند وفاة محمد بن عبد الرحمان وبيعة الحسن الأول سنة 1290 للهجرة (1873 للميلاد).

110. بوشتي بن محمد بن البغدادي الجامعي من كبار رجال المخزن الذين لم تحتفظ المصادر الاسطوغرافية بمعطيات وافرة عنهم. فهو من قرابة الوزيرين الجامعيين الأخوين المعطي (الوزير الصدر) والصغير (العلاف الكبير) الذين عملا إلى جانب السلطان الحسن الأول. وقد عين ابن البغدادي قائداً على قبيلته أولاد جامع، ثم على جيش شراكة، وبعد ذلك عين عاملاً على وجدة، ثم ولي عمالة فاس سنة 1887، وظل في هذا المنصب حتى وفاته سنة 1893. انظر مصطفى بوشعراء، الحماية والاستيطان بالمغرب، الرباط، 1988، ج 3، ص. 1146-1147، وأحمد العماري، مادة «البغدادي (ابن) بوشتي»، معلمة المغرب، ج 4، ص. 1294-1295.

111. محمد اللحية، م.س، ص. 263.

وصيفنا الأرضى القائد حمُّ بن الجيلاني (...) وبعد وصل جوابك عما أمرناك به في شأن جعل طريق كبرى للمخزن ببلاد زمور من مكناس إلى سلا، بأنك خرجت إلى المحل الذي وقع الاتفاق على الملاقاة فيه، على نحو ما شرحته، مع عامل سلا وقواد أهل الوادي وأعيانهم، وهو قصبه الحيات من بلاد آيت لحسن وعيسى الذي هو وسط القبيلة. فلما اجتمعتم فيه، ونهضتم لبلاد بني عمرو قرب تيفلت، ووافق ذلك عمارة سوق الأربعاء إخوان خديم المرزوقي، قرأتم عليهم كتابينا الشريفيين، فأجابوا بالامتثال، وتكفل كل فريق من أهل الوادي ببلاده مع آيت وربيل والقبليين وآيت لحسن وعيسى. وأما بنو عمرو، وقائد آيت واحي وآيت بلقاسم وجوار سلا<sup>112</sup>، فأكثروا الهرج واللجاج، وصار كل واحد يتعلل بعلته، ولم تحصلوا منهم على طائل. وحيث أراد أهل الوادي المضاربة معهم، نهضتم عنهم، وتوجه كل لحاله في الحال. وصار بالبال، فقد كتبنا في ذلك لقواد بني عمرو ومن تبعهم.

والسلام في عشرين ربيع الثاني عام 1308 هـ

نص : 3 : رسالة سلطانية حول ترتيب الحراسة بناحية الرباط<sup>113</sup>

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

طابع بداخله : الحسن بن محمد بن عبد الرحمن الله وليه

خديمتنا الأرضى القائد المهدي الجرازي<sup>114</sup> سلام عليك ورحمة الله وبعد

فلما قضى الله سبحانه ما سبقت به إرادته في الدغمة من أعراب الرباط، وصدمت الصدمة من عداهم من أعراب ذلك المحل، وهلك بهم ذلك المناط، وفروا من الطريق، وتركوا أرضهم خالية، وتأسى بهم جوارهم بنو عبيد من زعير، فأحجموا وأبقوا منازلهم خاوية، وكان حفظ الطرقات وضبط أمرها من أهم المهمات، اقتضت المصلحة بناء أمر ذلك على أساس، كما كانوا قبل، حتى تأمن المارة والحيتام، ويحصل لها الاطمئنان والاستئناس.

112 . بصد أسماء المجموعات الواردة هنا، ينبغي التمييز بين اللفيق القبلي مثل بني عمرو (ويشمل قبائل الخزازنة والمزورفة والقطبيين والحجامة وآيت بويحي وآيت علي أولحسن)، والقبيلة المنصوية في لفيق معين (مثل قبيلتي آيت واحي وآيت بلقاسم اللتين تنتمين للفيق آيت زكري)، والقبيلة المستقلة مثل آيت أوربيل وقبليين. انظر أحمد بوبية، قبائل زمور، ص. 31-43، 80-101، وكذا رحمة بورقية، علاقة الدولة بالقبائل، ص. 18 وما تلاها، والخريطة ص. 62.

113. وثيقة واردة في :

Nehilil, *Lettres chérifiennes*, doc. LXXVII.

114. ينتمي المهدي الجرازي إلى بيوتات أعيان الودايا، وقد خلف أخاه علال في منصب قائد الودايا في أواخر عهد السلطان الحسن الأول. وكان يقيم بقصبه الودايا بمدينة الرباط، غير أنه كان كثير التردد على إخوانه القاطنين بين تمارة والصخيرات، وذلك من أجل تدبير شؤونهم والدفاع عن مصالحهم. انظر عبد الإلاه الفاسي، مدينة الرباط وأعيانها في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الرباط، 1996، ص. 184-186.

فأمرنا بالترافد بين الجميع، أعراب، وزُعَيْرُ، وإيالة الرباط، والادوية<sup>115</sup>، على قاعدة القبائل في تلك المسائل. وحضر بأعتابنا الشريفة :

- من أعيان الادوية وكبرائهم وأنجادهم، أنت ومحمد بن العربي الدليمي نيابة عن نفسه وعن إخوانه أولاد دليم والدرابكة ووزارة والشبانات، والطاهر بن الطيب الامطاعي نيابة عن نفسه وعن إخوانه أولاد مطاع وأولاد جرار ومن أعيان زعير وأنجادهم الخديم بوقطيب نيابة عن نفسه وعن إخوانه، وولد باهية نيابة عن نفسه وعن محمد ولد بوشطابة نيابة عن نفسه وعن إخوانه الرمامحة، والخديم الشرقي الدحاق نيابة عن نفسه وعن إخوانه أولاد دح وأولاد زيد، والخديم ولد حراكة السلماني نيابة عن نفسه وعن إخوانه السلامة، والشيخ علي المخلوفي نيابة عن نفسه وعن إخوانه المخاليف، وبوعزة ولد الحاج موسى الكثيري نيابة عن نفسه وعن إخوانه الشطاطبة، والخديم أحمد بن مسعود الراشدي نيابة عن نفسه وعن إخوانه الرواشد، والخديم الجليلي المباركي نيابة عن نفسه وعن بني عبيد.

- ومن أعيان الأعراب وأنجادهم الخدام الغازي، وعبد القادر الدهيمان، ومحمد بن مليك، والحاج موسى المحرزبان، والطاهر بوعراف العبادي، وبوعزة والهوارى العكبان، والبلال اللماغي وبوعزة الدغمي نواب عن أنفسهم وعن إخوانهم، والخديم الطالب محمد السويسي نيابة عن إيالته الولايدة.

وبعد تعريف الأعراب وزعير بما صدر منهم وما ارتكبوه، وما آل إليه أمرهم بسببه وعلموه، وأعلموا بالمقصود من جمعهم، والمراد من إشخاصهم وإحضارهم، تحمل كل منكم ومنهم بدرك ما عسى أن يصدر من أحد من الكل بالطريق والخيام، وألزمه لنفسه الإلزام التام على قاعدة القبائل وعرفهم في ترافدهم وتحملهم<sup>116</sup>، بحيث تصير الطريق محترمة كما كانت، لا يمس سالكها بسوء أمنا في نفسه وماله و (...) من كل ما يسوء وجعلوا ذعيرة لمن أفسد ذلك أو تسبب فيه بحال خمسمائة ريال.

وقد أمضينا ذلك، وأوجبنا العمل بمقتضاه. فنأمركم بالوقوف عند حده ومنتهاه، ومن خالف ذلك، أو سعى في نقضه بحال، فتلزمه الذعيرة المقدرة، ويرى من جانبنا العالي بالله شديد التكال والوَبال.

والسلام في 26 محرم عام 1309 هـ

115. تبرز الخريطة مجاوراً بين المجموعات المعنية بموضوع الرسالة. فقد كان الادوية يحتلون الشريط الساحلي غرب الرباط، ونجد في جنوبهم «أعراب الرباط»، ثم زعير. وكان وادي الشراط يفصل بين هذه المجموعات الثلاث وبين الزيائدة والمدكرة المنتمين إلى مجموعة الشاوية. انظر غلال الخديمي، احتلال الشاوية، ص. 121.

116. التأكيد منا.

## 4. النزالة

نص 1 : الرحالة سُوْكَزَاكُ بنزالة أَرْكَانَةَ<sup>117</sup>

الطريق سهلة ومريحة، وهي تلتقي بوادي يحمل في البداية اسم وادي تالاتيغال، نسبة إلى اسم القرية التي يخترقها. ثم ترافق الطريق الوادي عند أيت موسى، فيأخذ الوادي هذا الاسم. تغادر الطريق حوالي المساء كي نطلب الضيافة من الشيخ الحاج بيهي گنوني بنزالة أَرْكَانَةَ<sup>118</sup>. تتخلل هذه النزالات الطرق الرسمية لبلاد المخزن. ومقابل أداء واجب محدد، يجد المسافرون بالنزالة مكانا للمبيت، وبعض المؤن وقدرًا من الشعير. في بعض الأحيان، تكون النزالة عبارة عن منزل، لكن غالبًا ما تكون مجرد نواله، أو كوخًا من القصب أو أغصان الشجر، بل قد تكون مجرد خيمة داخل دوار.

أما الاستقبال الذي لقيناه في ذلك المساء، فكان من أسوأ ذكريات سفرنا. لا أدري سبب ريبة الشيخ، لكنه رفض أن يرخص لنا بالدخول إلى نزالته، وأرغمنا على البقاء خارجها. وبدأ المطر يتساقط، وكان الليل شديد الظلمة، وكان بعض الناس يحومون حولنا بهيئة لا تبعث على الاطمئنان. وغادرتنا وصيفي سيدي مري بمبرر تافه، ولم يظهر من جديد. وابتعد دليلنا نحو الجبل، مدعياً أننا قد نتعرض للهجوم إذا ظللنا مجتمعين. وحوالي الساعة العاشرة، جاء خادم ويده فانوس، وطلب منا بأدب أن ندخل إلى النزالة. وفي البداية اعتقدنا أن الأمر يتعلق بمكيدة، مع أن الاستيلاء على رجلين عملية لم تكن تتطلب كل تلك الاحتياطات. لكن الشيخ جاء بنفسه، وأمر بأن يقدم لنا صحنًا من الكسكس، وبدأ يأكل معنا. وأنداك لم يعد لنا أي مبرر للخوف. وبدأنا نتجادب أطراف الحديث، وظهر لنا أن الهدف البديهي لمضيفينا هو أن تتخلى عن متابعة سفرنا. فقد حكوا لنا عددا كبيرا من أخبار قطاع الطرق. «كانت الطريق مقطوعة... البارحة فقط، تم نهب أصحاب قوافل... هاجم هوارة مجموعة من فرسان السلطان...». ولم نجد صعوبة كبيرة في الاستخفاف بكل هذه الأخطار، فقبل ساعات قليلة، التقينا بمسافرين مسلمين رسموا لنا صورة جد مطمئنة عن أوضاع الأمن في الطريق. حكى الملياني ذلك وهو يضحك فأثار ذلك ضحك كل أولئك الأطفال الكبار. وأخبرنا مضيفونا ببعض الأسرار. فقد أشعروا بوصولنا عن طريق رقاص سبقنا إلى النزالة، وتقرر اعتقالنا، وخاف سيدي

117. مترجم عن:

Segonzac. *Voyages au Maroc*, pp. 251- 253.

في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، قام الماركي دو سوكوزاك برحلات استكشافية عبر ثلاث مناطق من المغرب، وهي على التوالي جبال الريف، و«بلاد البرابر» (الأطلس المتوسط والكبير)، وسوس. نحن هنا في الرحلة الثالثة. غادر الرحالة مدينة مراكش في يوم 31 أكتوبر 1899، وسافر عبر «طريق المخزن» التي كانت تربط عاصمة الجنوب بمنطقة سوس. ولم يتوقف بإيحي ن تانوت حيث يقطن خليفة القائد التوگي، واجتاز فج بيباون، ووصل إلى منخفض أَرْكَانَةَ. وحول هذا المحور المرتبط بمبر تيزي ن ماشو، انظر أدناه، ص. 242-243.

118. وتسمى كذلك «نزلة الوادي». وتقع أركانة على وادي إسْن. ويتعلق الأمر بنزلة كبرى كانت «نقطة انطلاق طريقين رئيسيين إلى سوس، أحدهما يتجه جنوباً محاذياً للوادي والآخر شرقاً نحو تارودانت عبر بيباون. وتقع أركانة بأراضي قبيلة إداوزيكي». انظر محمد زرهوني، الأطلس الكبير الغربي، ص. 131، هامش 8.

مري على نفسه، وخانتنا من أجل أن ينجو بنفسه. وكان أصحاب النزلة يعرفون بالضبط هويتنا والمكان الذي نقتصده.

لكن خيانة وصيفنا أحدثت تحولاً تاماً في أهداف إدا وزيكي. فإذا كان هؤلاء البربر يعمدون بسهولة إلى نهب مسافر، فإنهم لن يقبلوا أن يقدموا على عملية خيانة بتواطؤ مع عبد أسود البشرة. وبالتالي تقرر ما يلي: بما أننا كنا عازمين على الذهاب إلى السوس، فإن الشيخ لن يمنعنا من ذلك، بل سوف يساعدنا مقابل أجره كما تقتضيه العادة. وسوف يوفر لنا ثلاثة رفاق، وهم أخوه الحسن، ومحمد أحد أصدقائه، ورجل هوارى من قرية مجاورة. ونبهونا كي نتخذ الحيطة من بعض العراقيين، واتفقنا على الخروج عند مطلع الفجر.

لقد حكيت هذه المغامرة لكي تكشف عن الوجه الحقيقي لهؤلاء الشلوخ: استقبال مخيف، وهيئة لا تبعث على الاطمئنان، وغريزة النهب، مع قدر من استقامة النبلاء، وكثير من الروح الصيبانية.

نص 2: رسالة سلطانية حول الإكثار من النزائل<sup>119</sup>

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

طابع بداخله: الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

خدينا الأرضى الطالب عبد السلام بن محمد السويسي<sup>120</sup>،

وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد،

فقد بلغ جانبنا الشريف أن النزائل التي بإيالتك زناتة<sup>121</sup>، ومن إلى نظرك من الأعراب، صار أصحابها يقضون من المارين بالطريق مالا له بال، ويشددون بالتضييق عليهم في ذلك، وأحدثوا نزائل أخرى على التي كانت قيد حياة سيدنا الوالد قدسه الله. فنأمرك أن تكف هؤلاء النازلين بها عن القبض من المارين والتعرض لهم، وترفض ما أحدثوا منها على ما عهد قبل. ومن عاد لذلك، فإنه لا يحمد عاقبة أمره. وقد وجهنا كاتبنا الطالب عبد القادر بن عياد الزناتي، بقصد النزول على ذلك، حتى تنفذوا أمرنا الشريف، والسلام.

في 15 من ذي قعدة الحرام عام 1296 هـ

119. وثيقة واردة في:

Nehilil, op. cit., doc. XLIII.

120. ينتمي إلى عائلة احتكرت منصب قائد مدينة الرباط من سنة 1855 إلى 1909 للميلاد. وقد تولى عبد السلام المنصب المذكور مدة ثلاثين سنة من سنة 1271 للهجرة (1855 للميلاد) إلى سنة 1302 للهجرة (1885 للميلاد)، حيث توفي فخلفه ابنه محمد. انظر عبد الإلاه الفاسي، م.س، ص. 141.

121. منذ عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان، أصبحت مدينة الرباط خارج نفوذ عامل الشمال، واتسعت منطقة نفوذ قائد الرباط، باعتبار هذه المدينة عمراً أساسياً بين الشمال والجنوب، ومكاناً لتجمع القبائل الذاهبة إلى الحركات السلطانية. ولعل هذا هو ما يفسر تبعية «إيالة زناتة» لقائد الرباط. راجع م.س، ص. 143-145.

نص 3 : رسالة سلطانية حول نفس الموضوع<sup>122</sup>

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

طابع بداخله : عبد العزيز بن الحسن الله وليه ومولاه  
خدمينا الأرضى القائد المكى المروري الشيطمي،  
وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد،

فقد بلغ علمنا الشريف أن طريق المخزن من الصورة إلى مراكش فيها طلب العطاء من المارين، ونصب النزائل الخارجة عن الحد، بقصد قبض أربعة ريال ونصف ريال عن كل جمل حامل للسلعة، حتى صار الجمالون يؤدون من الصورة إلى مراكش عشرين عن الطون. وحصل الضرر الكبير بإحداث ذلك للتجار، وتشكى نواب الأجانب بما لحقهم من العطاء المذكور. وعليه فنأمرك أن تقوم على ساق الجد في الضرب على يد المحدثين لذلك من إخوانك، وكفهم، وإلغاء ما يقبضونه مما ذكر، وحراسة الطريق المذكورة وحفظها، وعدم إحداث شيء على المهود قديماً فيها. وإن وقع شيء بما هو من حساب إياتك، فعهدته عليك، وأنت المؤاخذ به. وقد كتبنا بمثله لغيرك من خدامنا عمال حَاخَا والشياظمة، والسلام.

في 15 قعدة عام 1323 هـ

نص 4 : رسالة سلطانية حول أساليب تحايل المحميين<sup>123</sup>

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

طابع بداخله : محمد بن عبد الرحمن الله وليه  
خدمينا الأرضى الطالب محمد برگاش<sup>124</sup> أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد  
فقد تشكى أهل النزائل الذين بقرب الرباط بأن الجمالة أصحاب النصرارى يأخذون من أصحابهم بطائق ويمرون بها عليهم ولا يعطون حق النزائل ثم يبيعونها لجمالة آخرين ليسوا من أصحاب النصرارى ويسلكون بها مجاناً وإذا حاول أحد منهم مخاطبتهم بحق النزالة يرمون بعض حوائجهم

122 . وثيقة واردة في :

Nehil, *op. cit.* doc. CIX.

123 . وثيقة واردة في :

Nehil, *op. cit.* doc. XXV.

124 . حول النائب برگاش، انظر أدناه، ص. 86، هامش 166.

ويدعون أنهم نهبهم حتى صار أهل النزائل لا يقدرّون على مخاطبة جل الناس بحق النزالة خوفاً على أنفسهم<sup>125</sup>.

فلا بد تكلم مع النواب في ذلك وقرر لهم أن هذه النزائل أنزلت هناك قديماً من عهد جدنا مولانا سليمان وميدنا الوالد قدسهما الله لمصلحة حفظ الطريق والقيام بحراستها ليلا ونهارا وما يقبضونه من القوافل هي إعانة لهم على ذلك وما قط وقع فيهم كلام منهم في شأنهم في هذه السنين الماضية إلى هذه الأيام أرادوا خرق القانون الذي وجدنا عليه أسلافنا معهم وذلك فيه ما فيه ومخالف للشروط وإن ادعوا أنه في الشروط فما سبب سكوتهم ولم يتكلموا في ذلك إلى هذا الوقت.

وبين لهم أي للنواب ما صار أصحابهم يفعلون من بيع نقائلهم لأصحاب قوافل أخرى هروبا من الإعطاء ليعرفوا ما آل إليه أمر عدم الإعطاء حتى أدى إلى أمر آخر وهو عدم إعطاء غيرهم مع أنهم أي النواب لا يوافقون على هذا ولا يحبونه.

وليس سبيل هذا الإعطاء سبيل الكُنْطَرْدَة لأن هذا الإعطاء هو لأجل تحصين متاع التجار وتوجيهه في الأمان فليس الإعطاء إلا على نفعهم بخلاف الكنطرة فإنها لمصلحة الإيالة فلا كلام فيها مع التجار فإذا وسع الله تعالى على المخزن فإنه يسقطها كما كنا أسقطناها قبل إلى أن دعت الحاجة إليها.

والسلام في 15 رجب الفرد عام 1285 هـ

نص 5 : نص شفوي حول السفر في أيام «زمان»<sup>126</sup>

زمان قبل لا يدخلو النصارى، ما كنا كأنعرفو لا الشمان دي فيرو ولا الطوموبيل. وكان السفر عندنا ممرت، وما كايوصل بن آدم فاين بغى حتى كايشتيع محنة.

كان الواحد منّاين كايغني يسافر كايغجنولو دارو العوين، وداك النهار فاش كايكون خازج للسفر، كايتمموا عليه أحبابو ف الصباح، ف باب المدينة، على برا، باش يتصافطوا معه ؛ هذا الشي إيلا كانت عندو شي نهيمه دبالو والرفاكة مع من يمشي. واللي ما عندو شي البهيمه، كايمشي للفندق ويتكاري مع شي حمار ف شي نهيمه، وكايسافر مع الحمارة<sup>127</sup>.

125 . حول أساليب الاحتيال التي كان يمارسها المستفيدون من حماية الفصليات الأوربية، راجع :

Mohammed Kenbib. *Les protégés. Contribution à l'histoire contemporaine du Maroc*, Rabat, 1996, pp.

14 et suiv.

126 . نص وارد في :

G.-S. Colin, *Chresthomathie*, pp. 211- 213.

بدأ كولا بن دراسة اللغات الشرقية، وفي سنة 1918 استدعاه المقيم العام ليوطي للعمل في صفوف الجيش الفرنسي بالغرب. وفي فترة لاحقة، تفرغ للبحث والتدريس في معهد الدراسات العليا المغربية (كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط حاليا)، ثم في «مدرسة اللغات الشرقية» بباريس.

127 . حول تنظيم مهنة الحمارة بفاس، راجع روجي لوطونو، فاس قبل الحماية، بيروت، 1986، ص. 358-359. ويوضح محمد بوسلام أن الحمارين كانوا متخصصين في «أساليب التموين والحمل والتفريغ ومعرفة المسالك الوعرة والأمنة وأساليب «الزطاطة» وأماكن النزائل وغيرها...». راجع قبيلة بني ملال، ص. 122-123.

وكانوا الناس، ف ذلك الوقت كأيديرو من الرباط للدار البيضاء يومين وضبحية. وهذا الشيء، إيلا كانوا عنددم البهائم شعبانين، وبشرط إيلا ما صابوشي الواذ حامل<sup>128</sup>.

وكانوا كايباتوا ف النزائل ف الطريق، فاين كانوا العرب دايرين العسة. وهاذ النزائل، اللي بات فيهم، حيث كايظلام الحال، كأيجي موال النزالة ويدور على الناس ويتخلص منهم ف كرا المباته؛ وما فيهم شي المحرر، غير اللي كان غادي مسخر للمخزن.

وشي مرات كانوا الكطاطعيه من العرب، كايخرجو على الناس ف الطريق، بالمكاحل والزراوط، وكايشدو الناس ويديو ليهم البهائم ديالهم، واللي يغوت معهم، كايضربوه ولا كايقتلوه. وهاذ الشيء كانت فيه تماره كبيره. واليوم الحمد لله اللي ما بقاشي هاذ الشيء ولى كل شي ساهل. الرجل<sup>129</sup> كأينوض من النعاس ف الصباح، ويثري شي خبزة، ويكري بلاصة ف المشينه ولا ف الكار، ويوصل فاين ما بغى ف نهارو، مريح، بلا خلعة بلا مشقة. والناس، عاجبهم الحال، على قبل، جبروا فيه الراحة وتهناو من اللي بقاوشي كايضربوا ديك تماره كيف ضارين.

- كنا ف شي تاريخ، بغينا نسا فرو لفاس، احنا وشي زباعة؛ وكان ذلك الشيء ف الشتوه. خلطنا على الحمارة، وتاوتنا معهم ف التمن وكرينا منهم البهائم. نهار ليلة السفر، وجدنا احمانا واديناهم للفندق فاين عملنا الميعاد، وبيتناهم تمه.

الصباح جاو الحمارة بالبهائم ديالهم؛ صابونا موجددين لهم الفطور والماطيب؛ كلينا وشربنا. ناضوا همما وبدوا كاينزولوا الاحمال على البهائم ويعدلوا كل حاجة مع اختها باش ما يكون شي الميل. حيث سألوا من الرفود والحزم، قالوا لنا: «يا جاه النبي». عاد اعطيناهم العربون باش يتقضاو اللي خصهم وركبونا. فينا اللي ركب على الشريجة، وفينا اللي ركب على البردعة؛ واضحابنا، اللي جبناهم معنا يتسخرؤا لنا فيهم اللي ركب على الحلاس وفيهم اللي مشى زجلي.

مهما خرجنا من المدينة، قبطنا واحد الطريوقه ما كايتمساغوشي فيها جوج د الناس متمسامين. تمينا غادين هاكدك، واخذ مورا واحد، حتى خرجنا للتيساع وتفارقنا؛ وتمينا غادين مجانيين بالجوج وبالتلاته.

سنخو روسنا وحلت الهدره بينتنا، ودينا كانتلقوا ف الطريق: ساعة ساعة، هادي حكاية وهادي غنايه وكان معنا واحد الرجل مولوع بالآله، عيطنا لو وقلنا لو: «الله، أفلان، إيلا ما ونسنا بشي

128. يتعلق الأمر بالأودية التالية: وادي إيكم، وادي الشراط، وادي نفيغ، وادي المالح. والملاحظ أن فوكو ذكر أسماء الأودية التي يجتازها المسافر في الطريق بين فاس ومكناس، وهي: وادي نزا، وادي المهذومة، وادي الجديدة، أوسلين. راجع فوكو، م.س، ص. 40.

129. نهنا عبد الرحمان لخصاصي إلى ورود مثل هذه الصورة الإيجابية في بعض أبيات الشاعر السوسي الشهير الحاج بلعيد:

- إجمال أغ ربي س لمخزن، إتهنا أغاراي / بفضل الله تتوفر على المخزن، وقد أمنت الطرقات

- أر سول إلا شقاغ لبر الأاغ وامان / لم تعد هناك حواجز، سواء في البر أو في البحر

- وانا يران أمودو أد أر ياك لعدوروات / من رغب في السفر لم يعد له مبرر للتردد

انظر:

حاجه». بدأ كايگول شي غنا د الأندلس؛ شويه شويه، عاود جبد شي عيوط حوزيين . وكان عندو واحد الحلق مزيان، مسگد (تبارك الله عليه)، ما تسخاشي بيه يسكت وما تاتمناه غير بيقى كايگول. الحاصل فوج علينا جهد شي ساعه ولا اكثر حتى وصلنا للنزله الاولى. حصرنا، حطوا الحمارة على البهايم وحننا نزلنا. شعلوا اصحابنا العافيه وطيبوا الما ؛ جبدنا شي قرأشل وشربنا بهم أتاي، وتريحنا من العياذ الطريق . به فيه، نصبنا الغدا وتسنيناه يوجد. واما الحمارة غير كيف علقوا العمائر للبهام، وهما يدكوا لنا الخزانة وفرشوها بالزرابي والخنايل اللي جبنا معنا ؛ دخلنا لها تنكيو شويه حتى توجد الماكله. عاد نضنا وكلينا وشربنا حتى شبنا؛ ومورا هاد الشبي تمفطنا على خاطرنا. عاد اتفقنا بين داك النهار ندوزوه تمه، مرتاحين حتى لليل ؛ عاد انوضو وتمشاو شي شويه وغدا نيكروا.

اللا غدا مع الفجر، نضنا، جمعنا روستنا ولمينا زايدين لقدام ؛ النهار كلو واخنا غادين حتى تعشت العشييه وهو يتقلب علينا الحال، بدأ الزفزا في كايسوط والحال غيم، وكانت النزله باقي بعيدة. واخذ الشويه، بدأت الشتا كاتنقط ؛ وبدأت المناغز للبهام حتى وصلنا للنزله.

غير اخنا وصلنا وهما يبطرو بنا الحمارة، دغيا دكوا لنا الخزانة ودوروا بها الاوني باش ما يدخلش لها الما. صبت الشتا رفدت شي شويه ؛ وبالحق، كان شي صر كايترز، عمرنا ما شفنا بحالو، عيانا. ف ديك الساعه، شعلوا اصحابنا العافيه ؛ غير اخنا سخنا وشوينا شي قطبان د كباب، سبقناهم هما اللولين، عاد نصبنا الغشا.

الحاصل، بتنا ديك الليله في امان الله وحفظه. باتت الشتا خدامه ؛ وكنا معولين بين على الصباح لمجمعوا روستنا بكري ؛ ساعه تم ماجي عندنا واحد الرجل وگال لنا : «ما كايئن علاش تسافروا ف هاد النهار : غير كلسوا تراتحوا مع روستكم را الواذ حامل، ما كايئشي اللي يقدر يسلك منو واللا يقطع شي مشرع اليوم». إيوا، يا سيدي ، كمننا تما حتى دار الله تاويل وخرج الطياب . عاد عاودنا رقدنا على البهايم وتمينا زايدين للقدام .

والايام اللي جات من بعد داك الشبي خرجت لنا كلها مزياته، حتى وصلنا لفاس بالسلامه

والعافيه.

## IV. تعارضُ الأدوار

## 1. الدفاع الذاتي

نص 1 : فوكو يُر بقصّر بني زُمور<sup>130</sup>

نتوقف هنا اليوم. ووافق دخولنا حلول قافلة كبيرة، مدججة بالسلاح، وقد سارت إلى جانبنا منذ وادي گُرو.

نص 2 : إذا أوبلال<sup>131</sup>

يتمثل الخطر الوحيد الذي يهدد المسافرين في هذه المنطقة في تلك المجموعات التي تتعاطى الغزو، وتكتسح الصحراء في كل الاتجاهات، من جبل باني إلى السودان. أما القوافل الكبرى، والتي يبلغ تعداد الواحدة منها عدة مئات من الأفراد، فليس لها ما تخشاه، فهي مسلحة، ولا يتجرأ أحد على مهاجمتها. وهي القوافل التي تجتاز الصحراء كل فصل ربيع وكل فصل خريف، بين تنبوكتو من جهة، وبين تندوف، ودرعة، وتافيلالت من جهة أخرى<sup>132</sup>. ويريد بعض التجار أن يصلوا قبل الجميع كي يحصلوا على أكبر قدر من الأرباح، فيحاولون اجتياز الصحراء بشكل فردي، فهؤلاء يعرضون أنفسهم لكل الأخطار المحتملة. وهم يحاولون تفادي الغارات بواسطة العدد المحدود والزيادة في السرعة. وقد يتفوقون أحياناً في تحقيق مبتغاهم. وهكذا اجتاز الدكتور لانز (Lenz) الصحراء وحده تقريباً، ويحكي كل الناس هنا أخبار مروره بتندوف<sup>133</sup>. وكانت جراته مثار استغراب حيث أقام بهذه الواحة قبيل توغله في الصحراء. فكيف تجرأ على المغامرة وحده في تلك القفار المخيفة؟ ألم يخطر بباله قطاع الطرق، من برابر، وأولاد دليم، والزكيات؟ وعلى سبيل الجواب على هذه التساؤلات، أشار لانز إلى بندقيته قائلاً :

- كم عدد هؤلاء «الغزاة» الذين تُخيفونني بهم؟

- يصل عددهم إلى 60، و80، وأحياناً إلى 100.

- ألا يتجاوزون المائة؟

- لا.

- فإذاً، انظروا.

وأنداك يسند سلاحه على كتفه، ويطلق مائة وخمسين طلقة، دون توقف ودون أن يعيد

130 . مترجم عن فوكو، ص. 50. في الطريق من مكناس إلى أبي الجعد.

131 . مترجم عن فوكو، ص. 157.

132 . حول توقيت القوافل بين المغرب وتيمبوكتو، راجع دنيال شروتر، تجار الصويرة، ص. 179 وما تلاها.

133 . انظر:

شحن سلاحه بالذخيرة .

نص 3 : في الطريق بين دَادُسْ وقصر السوق بتافلالت<sup>134</sup>

لقد سرت اليوم رفقة قافلة كبيرة، وتحت حماية ثلاثة زطاطين. وكان عدد أعضاء القافلة يتراوح بين 100 و150 شخصاً، نصفهم من آيت عطا، والنصف الآخر من آيت مُرْعَاذُ. وكان هناك ما بين 60 و70 بندقية، وليس هناك فارس واحد معهم. وكل هؤلاء الناس قدموا من سوق إثنين تُدْعَة، وهم يقصدون فركلة، ومعهم ما بين 120 و150 من دواب الحمل، من الحمير والبغال.

نص 4 : في الطريق من فركلة إلى غُرَيْسْ<sup>135</sup>

إنني أتجه اليوم إلى غريس، وهي واحة أخرى تشبه واحة فركلة. كان الخروج على الساعة الثامنة صباحاً، رفقة الخفر الذي كنت مجبراً على اتخاذهم لمرافقتي، وهم ثلاثة من البرابر. وأسير رفقة قافلة من حوالي عشرين شخصاً، نصفهم يحمل السلاح.

134 . مترجم عن فوكو، ص. 224 .

135 . مترجم عن فوكو، ص. 225 .

## 2. بين الحماية والاعتداء

نص 1 : نموذج إدا وبلال<sup>136</sup>

إدا أوبلال قبيلة رحل، تدعي النسب العربي، وموطنها محصور بين السفوح الأولى للأطلس الصغير شمالاً، وأولاد يحيى شرقاً، وأيت أوفريبط غرباً. وفي الجنوب، تمتد قبيلة إدا أوبلال مسيرة عدة أيام في الصحراء، دون حدود معينة بدقة، فليس هناك قبيلة تفصلها عن بلاد السودان. وإذا كان أهل إدا أوبلال يجولون عبر هذا التراب الشاسع وسيطرون عليه، فإن خيامهم لا تحتل سوى جزء ضئيل منه. فمن أجل الحفاظ على أمنهم، يتجنب إدا وبلال نشر خيامهم بشكل واسع، ويتجنبون كذلك تشتيتهم، بل إنها غالباً ما تتجمع في نقطة واحدة، ونادراً ما تنقسم إلى أكثر من مجموعتين. وخلال معظم أوقات السنة، تقيم القبيلة بجوار تيسينت أو خنك الطرفة، بين جبل باني ودرعة. وفي فصل الربيع، تحتاز القبيلة الوادي لتستفيد من المراعي الغنية التي تقع على ضفته اليسرى، بينه وبين الحمادة. وتمتد رقعة عمليات إدا أوبلال خارج ترابهم. وهي عمليات تتمثل في نشاطين : حفر القوافل ونهبها : العناية والغزو. فمن طاطا إلى تمبوكوتو، ومن طاطا إلى أدرار، داخل المثلث الذي تشكله هذه العناصر الثلاثة، في الساحل، وجنوب وادي درعة، تارة نجدهم في شكل مجموعات صغيرة تخفر القوافل، وتارة في شكل قوات يتراوح تعدادها بين 50 و60 رجلاً، تجوب المنطقة لتباغت القوافل وتهاجمها. والمناطق المذكورة هي المواقع الرئيسية لإدا أوبلال، لكن هؤلاء لا يقتصرون عليها، فهم يجوبون الفأجة شمال جبل باني<sup>137</sup>، ويمضون أحياناً حتى جنوب درعة حيث ينقضون على عريب والبرابر، ويشمل مسرح عملياتهم بلاد تافيلالت وتوات (...).

يعيش إدا أوبلال حالياً في وضعية بؤس قصوى، فقد أفقرتهم حروبهم الداخلية، والسنين المتتالية من الجفاف التي زادت في عوزهم<sup>138</sup>. ففي الظروف العادية، عرفت القبيلة بغناها ووفرة مواشيها - المنعدمة في الوقت الحالي -، كما أن المعدر يزودها بالحبوب<sup>139</sup>، ويتعاطى بعض أعضائها لتجارة السودان، ولها في الصحراء مورد لا ينضب، وهو ما تخنيه من خفراها للقوافل، وما تستولي عليه من غنائم عند نهبها للقوافل. فالغزو هو أهم مؤسسة عند إدا أوبلال، وهو يتم وفق الطريقة التالية : هناك رجلان، معروفان بجراتهما، يعلنان عن مشروع غزو، ويطلبان المساهمة من الرجال ذوي العزيمة

136. مترجم عن فوكو، ص. 153-157.

137. الفأجة هي عبارة عن شريط سهلي يقع بين الأطلس الصغير وجبل باني، وهي منطقة مليئة بالمخاطر بالنسبة للقوافل، إذ كانت هذه الأخيرة تتعرض هنالك لغارات قبائل مثل إدا وبلال، وأولاد يحيى. انظر فوكو، م. ص. 116.

138. حول الأزمة الغذائية وأوضاع الوباء، خلال فترة 1878-1883، راجع محمد الأمين البراز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الرباط، 1992، ص. 237-153، وحول اختلاف الأوضاع بين مختلف المناطق، راجع :

Nicolas Michel. *Une économie de subsistance*, t. 2, pp. 623 et suiv.

139. المعدر هو اسم يطلق على مجرى وادي درعة، وهو يشكل شريطاً من الأراضي الزراعية الخصبة بالنسبة لسكان الأطلس الصغير، وسوس، والساحل، سواء الرحل منهم أو المستقرون، حيث يقضي هؤلاء بالمعدر فترات الأشغال الزراعية، من حرث وزرع وحصاد. انظر فوكو، م. ص. 148-150. وقد أفادني أحمد بوحسن بأن اسم المعدر يطلق كذلك على مجرى زوزفلة وزيز وغيرهما من الوديان الصحراوية. والمعدر هو في الواقع اسم جنس يدل على المجرى الذي يفيض عليه النهر، وأصل الكلمة من «المدر»، أي المطر الكثير.

والاستعداد. آنذاك يتقدم شبان من القبيلة، وكثيراً ما ينضم إليهم شُلُوحٌ من القصور، أو يضعون رهن إشارتهم خيولهم مقابل جزء من الغنيمة. ويتكون الغزو من جمال، وخيول، أو مشاة. ويصل تعداد هؤلاء أحياناً إلى ما بين 400 و500 رجل، ويقومون بحملات محدودة في الزمن والمكان. أما الآخرون فلا يتجاوزون 100 من المقاتلين، ويدبرون عمليات على نطاق واسع. فهم يأخذون معهم جمالا محملة بالتمر، وينصبون الخيام قرب مورد ماء، ويرسلون كل يوم فرسانا يقومون بعمليات الاستطلاع والتجسس. فما إن يرى أحدهم مسافرين أو قافلة، إلا ويسارع إلى إعلان الخبر. فينطلق المقاتلون لمتابعة الفريسة، ويستولون على السلع، ويسلبون الرجال. وإذا كان هؤلاء من قبائل بعيدة أو ضعيفة، أو يهوداً، يُطلق سراحهم بعدما يجردون من لباسهم<sup>140</sup>، لكنهم ينجون من القتل. وإذا كانوا، عكس ذلك، من فرقة قريبة يُخشى رد فعلها، فهم يقتلون كي لا ينفضح الأمر. ثم يعود المغيرون إلى جمالهم، ويتربعون مرور قوافل أخرى. وطالما بقي التمر، فإن الترصّد يستمر من نفس الموقع، أو بمورد ماء مجاور. وحين ينفذ الزاد، يرجع الرجال إلى موطنهم المعتاد. وفي بعض الأحيان، يباغت الغزو دواوير تنتمي لقبيلة مجاورة، إذا ما كانت معزولة أو لا تستفيد من الحراسة الكافية. ورغم أن إدا أو بلال معروفون بقلّة تدينهم، فهم لا يخرجون أبداً لغزوة دون أن يرافقهم «مرابط» من المنطقة، ليدعو الله أن تكون الحملة مثمرة. فكل يوم يطلب من الله أن يسر لهم الغزو، وأن يسقط في الكمين أكبر عدد من المسافرين، وأن يلهمهم لابتداع أمهر الكمائن. ويتوصل الرجل بمقابل عن خدماته من فوائد العمليات. فإن كانت الفريسة غنية، نال قسماً وافراً، وإن كد الرجال بدون طائل، اعتبروا أن ذلك من شؤم المرابط، فيؤاخذونه، ولا يعطونه شيئاً، ولن يأخذوه معهم مرة أخرى.

140. تشير المصادر التاريخية، منذ العصر الوسيط، بصدد بعض الأحداث البارزة، إلى ظاهرة تجريد العدو من لباسه. انظر، على سبيل المثال، أخبار «المشغلة» قرب مدينة فاس، في سياق المعارك الأولى التي دارت عند انطلاق بني مرين نحو الاستيلاء على الحكم. ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، ص. 266.

نص 2 : مهاجمة المحلة السلطانية<sup>141</sup>

الجمعة 21 يوليوز. إقامة في قصور آيت عيَّاش

استولى آيت يوسي على قافلة مكونة من إحدى عشرة بغلة محملة بأكياس من البسة الصوف الموجهة إلى شرفاء تافيلالت<sup>142</sup>.

أخبرت بأن السلطان استشاط غضباً، وهو رد فعل طبيعي بالنسبة لما حدث. وتلقى في الحين عمر ولد الطالب، نائب قائد هذه القبيلة التي أظهرت استهانتها بالسلطة الشرفية، الأمر بالتوجه مباشرة إلى اللصوص وإحضارهم إلى المحلة، ومعهم الدواب وحمولتها. فضلاً عن ذلك، ألزمت دَوَاوِيرِ آيْتِ يُوْسِي بِالْإِقَامَةِ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ الْوَاقِعَةِ فَوْقَ تَرَابِهَا، وَضَمَانِ أَمْنِ الْمَسَافِرِينَ الَّذِي يَنْجَهُونَ مِنَ الْمَحَلَةِ السُّلْطَانِيَّةِ إِلَى فَاسٍ أَوْ فِي الْإِتْجَاهِ الْمَعَاكِسِ.

وهكذا يبدو أن قطاع الطريق، أو إخوانهم على الأقل، سوف يتحولون إلى قوات درك. وبفضل مبدأ المسؤولية الجماعية التي تسري في هذا البلد<sup>143</sup>، تعتبر القبيلة بكاملها ضامنة للأعمال المشينة التي يمكن أن تقع بعد صدور الأمر السلطاني. وتؤكد حوادث من هذا النوع بوضوح، المضار التي تنتج عن وجود قيادات ترابية واسعة في المناطق البربرية. ولا شك أن تقسيم هذه القيادات من شأنه أن يسهل إدارتها.

141. مترجم عن :

Dr. Linares, «Voyage au Tafilalet avec S.M. le sultan Moulay Hassan en 1893», *Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc*, 1932, pp. 16- 17.

ازداد فرنان ليناريس سنة 1858. وقد عمل في مستشفيات وهران، والتحق بالبعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب سنة 1875. وقد أصبح صديقاً ومستشاراً للسلطان الحسن الأول، وظل يرافقه في كل تنقلاته، كما أنه أصبح يحظى بثقة عدد من الشخصيات المخزنية وأعيان كبريات الحواضر، مثل باشا مدينة الرباط محمد السويسي. ومن أجل إزالة الشبهات المرتبطة بالصفة العسكرية، غادر ليناريس منصبه الأصلي، وكلف بـ«مهمة» لدى ممثل الدولة الفرنسية بطنججة. وهكذا ظل ليناريس داخل الوسط المخزني حتى سنة 1901. راجع تريبا برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، الرباط، 1997، ص. 357-361.

وتقع أحداث النص في سياق حركة الحسن الأول إلى تافيلالت. وقد سعى العاهل من خلالها إلى تحقيق أهداف متعددة، وهي التبرك بزيارة جد السلاطين العلويين، والاتصال المباشر مع الزعامات القبلية، وحل مشاكل محلية في عين المكان، وكذا التلميح في اتجاه فرنسا بامتداد سلطة المخزن جنوب شرق المغرب، والتذكير بوجود المخزن إزاء مبادرات الجهاد المحلية التي بدأت تستغني عن التنسيق مع السلطان. وقد انطلقت الحركة من فاس في يونيو 1893، ووصلت إلى وادي إلفي (مركز الشرفاء العلويين) في نوفمبر، وأقامت هناك مدة ثلاثة أسابيع، ثم أخذت طريق العودة مروراً بورزازات ومراكش. راجع : رُوشْ ذَانْ، المجتمع والمقاومة، ص. 195-199.

142. تنتمي قبيلة آيت يوسي إلى آيت إدراسن. حول هذه الاتحادية، انظر أدناه، ص. 271-272. وتلقى بنماذج أخرى من هجوم بعض القبائل على المحلة السلطانية، في مجموعة الوثائق التي ألحقها رحمة بورقية بمقالها :

Rahma Bourqia, «Vol, pillage et banditisme dans le Maroc du XIXe siècle», *Hesp.-Tam.*, vol. XXIX, 1991, fasc.2, pp. 210-226.

143. وهي إحدى حالات الأعراف التي يتيناها المخزن، ويستخدمها في علاقته مع المجتمع القبلي. ففي حالات التوتر مع قبائل معينة، يعمد المخزن إلى اعتقال أبناء تلك القبائل الموجودين في المدن. وحول تراجع مبدأ التضامن الجماعي خلال القرن التاسع عشر، انظر نموذج أعراف ماسة في :

M. Bendaoud, «Documents pour servir à l'étude du droit coutumier du Sud marocain», *Hesp.*, t. VII, 3<sup>e</sup> trim. 1927, pp. 401-445.

نص 3 : بني مطير<sup>144</sup>

وفي غرة جمادى الأولى من عام ستة وتسعين، نهض المترجم من مراكش، ومر في طريقه على قبيلتي الرحامنة والسراغنة. ولما كان بآيت عتاب، أوقع بهم، وأكل زروعهم، وقطع منهم واحداً وعشرين رأساً، جزاء لهم على ما اجترموه من الزيغ والعيث. ثم نهض وسار إلى تادلا، فزعر، فرباط الفتح، وأقام بها أياماً.

ثم ظعن منه، مصمماً على الزحف لبني مطير، إذ كانوا سعوا في الأرض الفساد، وعاثوا في الطرقات بسلب ونهب المارة، وأوقعوا بعرب دخيسة وأولاد نصير، الذين كان أنزلهم المترجم بسايس بدلاً من مجاط، شر وقعة. ولما شردوهم عن سايس، رجعوا إليه مجاط الذين رحلهم السلطان منه، فسار من الرباط على بني حسن، وزمور الشلح، وجروان، ثم نزل ببجوحه بني مطير أكرائي والحاجب، وأمر بني مكيلاً أن يزحفوا إليهم من ناحية أكرائي، فزحفوا، وربطوا عليهم آيت يوسي، وآيت شقروشن، وآيت عياش، وآيت ولان من جهة الشمال. كما ربط بإزاء المذكورين القائد العربي بن محمد الشرقي، والد الباشا عبد الكريم عامل شراغة وأولاد جامع سابقاً، القاطن حينه بفاس، وبقية من جاء مع المحال السلطانية من القبائل الغربية والحوزية<sup>145</sup>. وأحدق الجميع بعصاة بني مطير، فضاق بهم الفضاء المتسع، ولم يجدوا خلاصاً ولات حين مناص.

ولما أيقنوا بالثبور واليوار، وأكلت زرعهم الرطب واليابس، وهلكت ضرعهم، وجاست الجيوش المخزنية التي لا قبل لهم بها ولا طاقة لهم عليها ربوعهم، وبارت منهم الخيل، لجأوا إلى المترجم، وتطارحوا على أبواب رحابه، وأعلنوا بالإنبابة وإخلاص الطاعة والتوبة النصوح، وتشفعوا واستجاروا بالصالحين، وتمسكوا بأذيال الحلم والحنان والعفو المولوي. فرق لهم المترجم لما وصلوا لهذه الحالة، وعفا عنهم عفو قادر، ووظف عليهم غرامة مالية قدرها مائة وخمسون ريال وخمسمائة مرهون من أعيانهم. وأدوا جميع ذلك، والتزموا برد الحقوق والمظالم، وإخراج قبيلة مجاط من بين أظهرهم، وجعل النزائل لحراسة المارة بين فاس ومكناس (...)<sup>146</sup>.

144. ابن زيدان، الإتحاف، ج 2، ص. 194-195. يحكي النص بعض وقائع تنقل الحسن الأول انطلاقاً من مراكش سنة 1296 للهجرة.

145. حول ثنائية «الغرب» / «الحوزة»، وأهميتها في تعبئة القبائل من طرف المخزن، راجع أدناه، ص. 284 وما تلاها.

146. يظهر هنا ارتباط مؤسسة النزالة بوظيفة درك الطريق.

نص 4 : الهجوم على ملاح فاس<sup>147</sup>

التريتل<sup>148</sup> جانا صباح بيساح<sup>149</sup> في الرحولات ما بين حنا كانزفدوا الماضيرة ذالعيد. ليلة بيساح ما بين ليهود ذالسوق كائسدوا حوانتهم وهذا الملاح كله تروغ ويداوا شي كايجري على شي من حيث المسلمين كانوا يعلوا القرطاض على الحوانيت ذاليهود، حنا كنا كانسدوا ببيان الديار علينا وقلبنا كان كايروح بالخلعة، ذيك الساعة الحوانتيا مشاوا يزاوگوا في الكبار ذالبلاد ومشاوا رغبوا الحكام ودحاوا ذوك المسلمين.

بيساح كله داز علينا خير باصارة لعلم الله علينا كيف دوزناه على قبالت كان واحد الخوف كبير.

الجمعة ذي دواز بيساح اليهود كانوا كايتمجموا جميعات جميعات في السوق، دازت ذيك الجمعة، حنا جالسين نهار الثنين في ديورنا والملاح كله تعمر بالمسلمين راكبين فوق الخيل محزمين بالقرطاض وبالمكاخل. حنا ريناهم وحنا جلسنا شي كايجري على شي، العدو كان كايدخل لنا حتى لقلب الدار يحوسنا ويند فينا مكحلته ويقول لنا «جيبوا الزطاطة أولاد الحرام»<sup>150</sup>. حنا بالخوفة كنا كانهطوا له كل شي نبقاوا نرغبوه باش يخلينا غير العمر، وذو ما كان شي كايحب يعطي له كان يفرغ فيه البارود ويزول له ذاك الشي ذي عليه، بزاف ذي كان كايدفن ماله في الأرض أو يعليه في البيير باش يمنع له.

في وسط السوق كانوا كايذوزوا المسلمات بالزغاريت كايقولوا «قداش علينا هاذ النهار هنيا علينا ساعتنا جات» حنا من اين كنا كانسفهم كايغررتو كنا كانهزجوا من حيث كان كايبان لنا

147. نص وارد في :

Bruno & Malka, *Textes judéo-arabes de Fès*, pp. 10- 20.

وقد ساعدني الصديقان إدمون عمران المليح وأحمد شحلان على فهم مدلول بعض المصطلحات المحلية الواردة في النص. ويتعلق الأمر بحدث وقع في مناخ الترقب والبليلة الذي تلا التوقيع على معاهدة الحماية. ففي يوم 17 أبريل 1912، تمردت ثلاث وحدات (طابورات) مغربية من الجيش داخل قصبه الشراة بفاس، بسبب تخفيض الأجر. وتوجه الجنود إلى المدينة، ونادوا السكان إلى الجهاد. وانضمت إلى المتمردين مجموعات من النساء والطلبة «الأفاقين». فشل الهجوم على حي الدوخ حيث تقطن الجالية الأوروبية، وحيث مقر المؤسسات الاقتصادية الأوربية. فتوجه المتمردون نحو فاس الجديد، ثم الملاح. ويبدو أنهم اتهموا اليهود بالتعبير عن فرحهم بوصول الفرنسيين، وتسهيلهم لتموين قوات الاحتلال. ومن أجل القضاء على مهاجمي الملاح، لجأ الفرنسيون إلى قصف الحي اليهودي، واستقدموا قوات إضافية من مدينة مكناس. راجع :

Mohammed Kenbib, *Juifs et musulmans au Maroc, 1859-1948 : Contribution à l'histoire des relations inter-communautaire en terre d'Islam*, Rabat, 1994, pp. 376-394.

148. التريتل كلمة من عامية يهود فاس، ويبدو أنها من أصل أمازيغي. «ريتل، فعل بمعنى نهب»، و«التريتيل : النهب». انظر محمد شفيق، الدارجة المغربية، مجال توارد بين الأمازيغية والعربية، الرباط، 1999، ص. 108.

149. بيساح هو عيد يهودي يخلد حدث الخروج من مصر. ويسمى بيساح في المغرب «عيد الرقاقة». والرقاقة خبز يحضر بعجين غير مخمر وبدون ملح، وهي تؤكل بدل الخبز العادي الذي يحرم في تلك المناسبة. وقد اعتاد اليهودي أن يترك مفتاح خانوته عند صديق مسلم خلال أسبوع العيد.

150. يذكر استعمال كلمة الزطاطة، في مثل هذا السياق، بما صرح به أحد كبار الضباط الفرنسيين، حيث قال إن مهاجمي الملاح أبانوا عن مواقف أقرب إلى مواقف رجال محولوا أحياناً من تجربة قطع الطريق إلى وظيفة درك الطريق. انظر :

Mohammed Kenbib, *op.cit.*, p. 381, avec note 200.

بأين السوق بدا يتهدن واليهوديات هما ذي كايغررتوا.

ثلاثة أيام طالوا المسلمين في الملاح وهما كايحوسوا الديار ويقيموا فيها العافية، السلعة ذ الحوانت كلها كانت مسيبة في السوق والحوانت كلهم كانوا محروقين.

حنا جالسين في ديورنا وحنا رينا واحد الشعلة ذالنار طالعة حتى لهواين السَمَا، حنا طلعتنا للسطح وحنا كاتراوا باين النار قابضة في الملاح حتى كان كايان لنا باين السوق كله كان شعلة واحدة، واش ن هي الغيبنة الكبيرة ذي كانت تحرقنا في جوفنا؟ هي ذي كانوا كايحفظوا لنا وليداتنا من حجرنا ويعليوهم تحت الخليل يرفسوا عليهم.

موالين الفران والطراحة كانوا كايستفاوا فينا ويدخلوا لنا حتى لقلب بيوتنا ويحوسونا ويقولوا لنا «اش ظهر لكم يا اولاد الحرام تعقلوا ذي كنتوا كاتاذايو بنا؟».

نهار الاربعاء اليهود ذالملاح كله طلعتوا للنواول حفيانين رافدين اولادهم فوق كتافهم وكانوا كايزاوگوا في يهود النواول باش يخليوهم ينزلوا عندهم من حيث الملاح كله كان محروق، والطلبية الكبيرة ذي كنا كانطلبوا هي لقيمة ذالخبز نعتقوا بها ترايبنا.

من الاول العدو ما كان شي يعرف النواول، نهار الخميس حنا جالسين العدو خلط علينا وكان كايقول لنا «اخرجوا اولاد الحرام. جيتوا تتخباوا هنا» حنا رينا وحنا كلنا طلقناها بسبغة واحدة للميعارة<sup>151</sup> في حال الدولة ذالغنم<sup>152</sup> وأولادنا معنا كايثباكاوا وكايعطوا «اعطيني ناكل ماشي نموت بالجوع»، وحنا ما كنا نصيبوا ما نعطوا لهم وكانوا يموتوا لنا بالجوع.

والعدو كان تبعنا طريق النواول كلها، جينا حنا دخلنا للميعارة وتدركننا بين القبورات وبدينا كاتزاوگوا في الصديقيم<sup>153</sup>، دخل لنا العدو حتى الميعارة وداوا يهدمو القبورات، والحبلات ذي كانوا موجعات كانوا كايقبضوا في الربيع ويعصروا ويولدوا.

ذي زاد كمل لنا على التريتل هو الشتا والرعد ذي حتى كنا كانقولوا باين الدنيا ماشي تخللا.

نهار الخميس حسنا براسنا باين ماشي نموتوا كلنا من حيث العدو عبي الرحيل ذي كان كله في الملاح ورجع باش يقتلنا.

مشينا كاتزاوگوا في المخزن جان هو باش يهرب المسلمين، بدا كايضرب الكور ذ المدفع من برج النور، ذوك الكور طيحوا النصف في الملاح، ذيك الساعة كانوا فوق السور اكثر من مية ذالغزارة ذاليهود ذي ما كانت لهم لا عدة لا والو، بداوا كايضربوا العدو غير بالحجر، ذيك الساعة زادوا زاعوا المسلمين وجا الفرنسيس وضرب الكورة الكبيرة ذي قاست ذوك الغزارة وما بقى فيهم لا كبير ولا صغير.

151. الأصل اللغوي العربي للميعارة هو المغارة، وقد أصبح يهود المغرب يطلقون هذه الكلمة على مقابرهم.

152. حول هذا المصطلح، انظر أدناه، ص. 304.

153. الصديقيم: لفظ عبري احتفظ به يهود المغرب في لهجتهم المحلية، ويعني الأتقياء والأولياء.

ونهار الجمعة حنا جالسين في الساحل وبراخ مسلم بعلم السلطان جاز كايبيض « أليهود على أمر السلطان تمشيو لدار المخزن بكباركم بصغاركم » حنا سمعناها وحنا بدينا غير نرفدوا اولادنا فوق كتافنا ومثينا ميعادنا ميعاد دار المخزن.

حنا ذي كيف دخلنا وهما دخلونا لواحد البنيقات قدام القفوزة ذالسبوعة والنمورة، بداوا كايغمروا يديهم بالخبز والكرموس ويعليوا لنا، حنا كنا في حال الدجاج ذي كايطيروا على النقب، وكنا كانوا غير ما نعطيوا اولادنا ذي ما كانوا ما كايصبيوا باش يعتقوا روحهم واخا بجغمة ذالما، وكل نهار كانوا كايصيفطوا لنا المونة وما كنا نبيتوا غير في الروا ذالبغال ذالسلطان.

الكبار ذاليهود كانوا كايكتبوا الصارة ذبالنا ويصيفطوها للبلادات<sup>154</sup>، حنا جالسين في ديورنا واخذ النهار وهاذوا اليهود ذالبلادات صافطوا لنا ندابات، والكبار ذاليهود كانوا كايشربوا لنا الخوايج باش نتكساوا ونعتقوا روحنا.

طالت هكذاك شي شهرين وحن فينا الله وردنا الخير فاش كنا قبل من هاذ الصارة ذي جازت علينا وذي نطلبوا من ربي ما يوربها لنا شي اكثر واخا في المنام.

154. الصارة : كلمة ذات أصل عبري، وتعني الضيق يحل بالإنسان، وقد استعملها يهود المغرب للدلالة على المصاب الذي يحل بهم لسبب من الأسباب. والمراد هنا مراسلة طوائف يهود المدن الأخرى لإخبارهم بما حل بهم من مصاب.

## 3. الحماية والمراقبة الانتقائية

نص 1 : الخروج من مدينة تازة<sup>155</sup>

تخضع تازة مبدئياً لحكم السلطان، وهي في الواقع تخضع لحكم قبيلة غيائة القوية، وهي القبيلة التي جعلت من تازة أكثر المدن بؤساً على وجه البسيطة. يتوفر السلطان بالمدينة على قائد وحوالي مائة من المخازنية، ويعيش هؤلاء منعزلين داخل المشور، ولا يتجروون على الخروج منه خوفاً من غيائة. ويتمتع القائد بسلطة لا وزن لها، ليس فقط خارج المدينة، بل وحتى داخلها، إذ تقتصر وظائفه على الفصل في قضايا المسلمين واليهود. أما غيائة الذين توجد تازة فوق ترابهم، فهم يعاملون هذه المدينة كبلد محتل، إذ يأخذون بالقوة كل ما يرغبون فيه، ويقتلون في رمشة عين كل من رفض الانصياع لأوامرهم. وفي الخارج، يضع غيائة المدينة تحت حصار مستمر. فلا أحد يغامر بمغادرة الأسوار دون رفقة رجل من غيائة. وإذا ما غامر أحد بدون زطاط، ولو على مسافة مائة متر، فإنه سوف يسلب، ويعامل بعنف، وربما يقتل، إلى حد أن سكان المدينة لا يستطيعون أن يذهبوا إلى وادي تازة للمني جزارهم<sup>156</sup>، لذلك يحتكر غيائة توزيع الماء، وينقلونه إلى المدينة يوماً مقابل أجره. ويوجد أهل غيائة بكثرة داخل تازة، فأنت ترى باستمرار عدداً كبيراً منهم يطوفون في الأزقة، وتراهم جالسين أمام الأبواب، أو داخل الدور، أو فوق السطوح. ومن السهل أن تميزهم عن غيرهم من خلال هيتتهم، ولاسيما وأن رجال غيائة يحملون باسمرار سيفاً وبندقية. ويستقرون حيث يشاؤون، ويأمرون السكان بتقديم الغذاء لهم، وإذا أعجبهم شيء، أخذوه وغادروا المكان. وفي يوم السوق، يأتون بأعداد أكبر، فلا يتجرأ أحد على التجول في أزقة المدينة رفقة مركوب، وذلك خوفاً من أن يسلب منه. وبالإضافة إلى ذلك فمن حين لآخر، يخضع غيائة المدينة للنهب الشامل. لذلك حين يراكم أحد سكان تازة بعض المال، فإنه يجعل بوضعه في مكان مأمون، بفاس، أو بقصبة مكناسة. إنه لمنظر غريب أن ترى أولئك الرجال يتجولون بسلاحهم داخل المدينة، ويتصرفون بها طوال السنة وكأنهم في مدينة عدوة يوم اقتحامها. فمن الصعب أن تعبر عن الرعب الذي يعيش فيه السكان. لذلك فهم لا يحملون إلا بشيء واحد، وهو مجيء الفرنسيين<sup>157</sup>.

نص 2 : السلطان محمد بن عبد الرحمان وزمور<sup>158</sup>

فيما قبل، حين كان أهل زمور تابعين للسلطة المخزنية، تم تقسيم مجموع الكتلة الزمورية إلى خمسة أخماس، وكل خمس كان مقسماً بدوره إلى أرباع، ولم تكن هذه التسمية الأخيرة تعني

155. مترجم عن فوكو، ص. 32.

156. حول هذه الظاهرة، انظر المثل الوارد أدناه، ص. 282.

157. هذه إحدى الحالات النادرة التي يعبر فيها فوكو عن مثل هذا الموقف من جانب المغاربة، وربما تعلق الأمر بجزء من الجالية اليهودية.

158. مترجم عن :

أن «الربيع» هو ربيع الخمس، بل كان هذا الأمر نادر الوقوع. ولم يتم هذا التقسيم في إطار القيادة، بل كان يهم توزيع الجباية والكُلف، إذ كان كل خمس ملزماً بأداء خمس المقدار العام، على أن يقسم مساهمته بين الأرباع التي يتكون منها (...). وكان الكل تحت قيادة قائد واحد، وهو السي بن الغازي، من القبليين<sup>159</sup>، وهو يسكن شخصياً براس التفاوتي، بين تيفلت والخميسات. وعند وفاته، حصلت نزاعات، فانقسمت الكتلة إلى مجموعتين: تتكون الأولى من خمس آيت زكري، ويحكمها الجيلالي بن مبارك، من آيت بلقاسم، وتشمل الثانية الأحماس الأربعة الباقية، وقد ظلت تحت حكم المدعو التومي، من آيت سيبور. حمل السلطان مولاي عبد الرحمان مسؤولية ذلك للقائدين المذكورين، بدعوى أن منطقة زمور كانت عرضة لهجمات قطاع الطرق وهكذا تم إلقاء القبض على الجيلالي بن مبارك، وأرسل إلى سجن الصويرة، أما التومي، فقد توصل بالخبر في الوقت المناسب، ففرّ والتجأ عند بني احسن. وجاء مولاي عبد الرحمان بنفسه إلى بلاد زمور، واستقر قرب الخميسات، وأحرق المحاصيل الزراعية، بينما فر الأهالي إلى تافودايت<sup>160</sup>. وقد تعرضت المنطقة لهذه العمليات العقابية خلال ثلاث سنوات على التوالي، وهناك توفي مولاي عبد الرحمان بمكناس.

وقرر آنذاك السلطان الجديد سيدي محمد، المقيم بمراكش، أن يتوجه إلى عاصمته فاس. وبعد وصوله إلى الرباط، لم يتمكن من متابعة طريقه، لأن بني حسن اعترضوا على مروره بالقوة. فطلب السلطان مساعدة فرسان زمور، حيث استدعاهم، وأمرهم بخضه حتى فاس، واضطروا إلى اقتحام أبواب المدينة بالقوة<sup>161</sup>. وجزاءً لزمور على خدماتهم، أطلق السلطان سراح الجيلالي بن مبارك، وترك لزمور صلاحية تطبيق أعرافهم المحلية فيما بينهم.

وفي هذا الظرف بدأت فترة طويلة استمرت خلالها صراعات مستمرة بين مختلف فرق زمور. فقد انفصلت كل مجموعة من الكتلة، وأصبحت تدريجياً في حالة حكم ذاتي، ونصبت رئيساً للدفاع عن مصالحها. واستطاع بعض هؤلاء القواد أن يحصلوا على تزكية من السلطان بواسطة ظهير تعيين، وفي الواقع كانت لهم مجرد سلطة صورية، وكان دورهم يقتصر على التوجه عند السلطان لتهنئته بمناسبة الأعياد الدينية، بل كثيراً ما كانوا يتهاونون في القيام بهذا الواجب. لذلك كانت ثقة السلطان فيهم محدودة، وكان يحافظ داخل القبائل على علاقات مع ذوي النفوذ، وكثيراً ما كان

159. حول هذا القائد، وموقعه ضمن تطور المؤسسة القائدية، انظر رحمة بورقية، علاقة الدولة بالقبائل، ص. 59-64.

160. يبلغ ارتفاع تافودايت 936 متراً، وهو أحد المرتفعات التي تحم تراب زمور من جهة الجنوب، حيث يشكل حاجزاً مع تراب زيان. وتافودايت هضبة «كانت تكسوها الغابات وتخللها شعاب ومغاور وعرة المسالك، كانت تقع في وسط أسفلها قصبه تدعى «قصبه حريرة». ولعلها من القصبات التي كان إقامها السلطان المقدس مولاي إسماعيل. فهذه القصبه كانت واقعة في المر الوحيد الذي يربط سهل آيت أوربيل بهضبة تافودايت. ومعنى كلمة «تافودايت»: الركية أو المرتقى. فالذي سيصل ويصعد إلى قمة تافودايت يصبح مشرفاً على جميع أراضي زمور غوروان وآيت إدراسن، وكانت دائماً ملجأً للمقاومة وحصناً حصيناً لقبيلة آيت أوربيل كلما ألبأتهم الظروف إلى الثورة أو التمرد والعصيان». انظر أحمد بوبية، م، ص، ص. 40.

161. نلاحظ سكوت كتب الحوليات السلطانية عن أخبار المرحلة الانتقالية التي وقع فيها حدث خفر زمور للسلطان. انظر على سبيل المثال أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج 9، ص. 76 وما تلاها.



التشويش، وما ينشأ عن ذلك من الهرج والشنآن. وقد كتبنا لخدمنا الطالب محمد بَرِّغاش<sup>166</sup>، بأن يتكلم مع نواب الأجناس في ذلك، ليكتبوا لخلائفهم بالمراسي، بتحذير رعاياهم من الخروج للمواسم التي بها أخلاط الناس والقبائل التي لا تنالها الأحكام<sup>167</sup>، والتي يكون بها التشويش، ولا يخرجون للبادية إلا بإذن عامل البلد وموافقته على المحل الذي يتوجهون له بواسطة قونصو جنسهم. ومن أراد منهم التوجه لبعض المدن، فيعلم العامل بواسطة القونصو. فإذا وافقهم على الذهاب إليها فذاك، ويصحب معه من يصلح من المخازنية. وإلا فيبين لهم وجه عدم موافقته على الخروج، ويذكر لهم السبب. فتأمرك أن يكون عمك معهم على ذلك، وخاطبهم في ذلك على وجه الصدق والجد، لتجري الأمور على مقتضاها. واعلمهم أن من صدرت منه مخالفة بعد ذلك، وخرج بغير موافقة العامل، فدرك ما يقع عليه ولا تقبل دعواه في المستقبل<sup>168</sup>، والسلام.

في متم صفر الخير عام 1290 هـ

نص 5 : عامل وجدة وأعراب أنكاد<sup>169</sup>

بعث مولاي سليمان رحمه الله القائد أحمد الوديني عاملاً لوجدة، صحبة مائتين من الفرسان. عهد إليه أن يقبض كل من تسوق وجدة من أعراب أنكاد، لكونهم يقطعون الطريق على كل من يأتي من الصحراء قاصداً فاس. فورد القائد المذكور على وجدة، وقبض على تسعة من

166. كان عبد الرحمان برغاش من كبار رؤساء البحر، وتوفي سنة 1833 للميلاد. وتولى ابنه امحمد منصب باشا أنفا، ثم منصب أمين، وفي سنة 1859، عين نائباً للسلطان بطنجة، ومكث في هذا المنصب حتى وفاته. وحول الخط العام لتطور هذه العائلة، راجع مصطفى الشابي، النخبة المخزنية، م.س.، ص. 89.

167. هذه صيغة ترد أحياناً في المراسلات السلطانية لتفيد ضعف حضور السلطة المخزنية بمناطق معينة. ويبدو أن الصيغة المذكورة تحمل على مفهوم فقهي: فإين عرفة يميز بين «محل الأحكام الشرعية»، والمحل «الذي لا تناله الأحكام الشرعية». ويعلق البرزلي على ذلك قائلاً: «والذي استقناته من أحوال قرى القيروان حيث كنت مقيماً بها أنها لا تناله الأحكام الشرعية». راجع مقال سعد غراب، «موقف الفقهاء المغاربة من المجموعات الريفية خاصة من خلال نوازل البرزلي»، ص. 82-90، ضمن:

Université d'Oran, *Le Monde rural maghrébin. Communautés et stratification sociale*, (congrès, nov. 1983). t. 1, Alger, s.d.

168. في رسالة مؤرخة في ربيع الأول 1303 / دجنبر 1885، وموجهة من عامل الصورة الرگراگي الذوبالي إلى كافة القناصل الأوربيين، نفهم أن السلطان أصدر أمره بأن «لا ترك أحداً يسافر إلا بعد اطلاع المدول على ما سافر به وتقييمهم له، ليكون المخزن على بال من القدر النهوب له إذا زعم وقوع النهب له. ويلتزم أهل التراب الواقع له به فصاله إن ثبت وقوعه له. ومن أبي السفر على هذه الكيفية تشهد عليه الامتناع بالمدول وتتركه يسافر ليفنى كلامه ولا يسع إذا ادعى بنهب، ونوجه نسخ الامتناع لحضرة سيدنا الشريفة». انظر خالد بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، وثيقة 415، ص. 532-533.

169. مجهول، تاريخ مولاي سليمان، ورقة 67. يتعلق الأمر بأحداث سنة 1229 للهجرة (1813-1814 للميلاد). ويتضمن النص هفوات لغوية عديدة فضلنا عدم تصحيحها. وحول الفرق بين بسيط أنكاد وقبيلة أنكاد (من بني معقل، وذوي عبيد الله بالتحديد)، انظر عكاشة برحاب، شمال المغرب الشرقي، ص. 71-73. وحول أحداث قطع الطريق من طرف أنكاد في عصور سابقة، انظر بالنسبة للعصر الوسيط تحليل محمد القبلي لشهادة العبدري، في «حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر للميلاد»، ضمن الدولة والولاية والمجال، ص. 59-60. وكذا ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ج 2، ص. 11. وبالنسبة لعهد السلطان العلوي إسماعيل، انظر أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب، مخط، ج. خ. ر، ج 6، ص. 70-71. وبالنسبة لعهد سليمان، انظر الناصري، الاستقصا، ج 8، ص. 93-95.

تلك العرب، فوجد معهم بقرانهم حيات كبار مقتلعين الأضراس يقطعون بهم الطريق. وذلك أن عادتهم كلما رأوا قافلة أطلقوا عليها تلك الحيات، فيفتن معهم أهل القافلة، فيهجمون هم على أهل القافلة بغتة، فيقتلونهم وينهبون أموالهم. فلم يستطع السلطان أخذهم لبلادهم، لكونها شديدة وعرة المسالك، كثيرة الحيات والشعابين، قليلة الماء. فأنهي إليه أنه ربما ورد منهم مدينة وجدة يتسوقها، فأمر عاملها إذ ذاك بالقبض عليهم، فلم يقدر على ذلك لقوة شوكتهم. فأرسل الوديني المذكور، صحبة الخيل المذكورة للقبض عليهم، فأظفره الله بالتسعة منهم المذكورين، وأرسلهم مصفدين. فأرسلهم السلطان رحمه الله لسجن العرائش، فمكثوا فيه دهرًا طويلاً، حتى مات منهم ثلاثة، وأطلق الستة، بقصد أن يأتوه في كل عام بأسود وغور وغزال، لكون ذلك ببلادهم كثير، بعد أن عهد إليهم بعدم التعرض للقوافل وينهوا إخوانهم عن ذلك، وهددهم ووعدهم، فانصرفوا على ذلك. وبعد ثلاثة أشهر، أتوا بأشبال وغزال للقائد المذكور بوجدة، فوجه ذلك للسلطان نصره الله. ووقعت الهدنة في بلاده، حتى كان ركب الشرق يذهب على بلادهم في أمان الله لا يضرهم أحد. وبعد ذلك عزل السلطان قائد وجدة المذكور، وأمر بترحيله لطنجة، فكان أميناً بمرساها. وسبب عزله أنه يقبض من قطاع الطريق هناك مال ويستمر عليهم<sup>170</sup>، فعزله سيدنا نصره الله لأجل هذه الخيانة. وبقي هذا القائد أحمد بطنجة، إلى [أن] رغب فيه بعض بني عمه السلطان، ورده لبلاد فاس الجديد محل قرار الوداية (...).

نص 6. مجال سلطة قائد غلاوة<sup>171</sup>

إن هذه القبيلة هي التي دخلتها بعدما غادرت زاوية سيدي رحال. ويحكم القبيلة المذكورة قائد يعينه السلطان<sup>172</sup>. ويقيم القائد في إيمائين، بتلوات. إن سلطته الحقيقية تشمل غلاوة، وورزانات، مسقط رأسه. وتمتد سلطته الاسمية حتى آيت زينب. أما نفوذه فيمتد حتى تازناخت، ومزغيطة. فالمنطقة الأولى تعتبر وحدها من بلاد المخزن، فهي الوحيدة التي تقدم الجنود وتؤدي الضريبة. أما المنطقتان الأخرتان فهما من بلاد السبية. ومع ذلك، ففي الثانية تؤخذ كلمة القائد بعين الاعتبار،

170. نلتقي بحدث مماثل بقبيلة الرحامنة. ففي رسالة مؤرخة في 14 جمادى الأولى 1303 (18 فبراير 1886)، يقول القائد عبد الحميد الرحماني إن «بعضاً من العمال استهواهم الطمع، ودهمهم الهلع، حتى استحال بهم الأمر إلى أن جعلوا اليد مع شرمذة من شياطين الإنس فسدة مرده وإحداق الغصب والنهب والهجم (كذا) والاختلاس مقبلين، وعلى أموال الناس في حرزها متصلطين (كذا)، وعلى حصين الأسوار منسورين، لا يبالون برفيق، ولا يخافون سطوة قوي ناصر حكم عدل رقيب...». رسالة مذكورة في عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة، ص. 311.

171. مترجم عن فوكو، ص. 81. يسافر فوكو عبر منطقة الدير، فيتوقف بدمنات، ثم زاوية سيدي رحال. وعرض الاستمرار في اتجاه مراکش، يتعطف الرحالة فيغادر تراب قبيلة زمران، ويصعد إلى مرتفعات الأطلس الكبير، ويدخل تراب قبيلة غلاوة.

172. من المفيد أن نذكر بالبروز التدريجي لهذه العائلة القاعدية. فهناك حُمو بن عبد الصادق، الذي كان يتمتع بالبركة وبنفوذ المزوار، وقد ارتقى إلى مرتبة أمغار ثم إلى شيخ. وبعد وفاته، جاء ابنه محمد إبيبات الذي توصل سنة 1856 من السلطان عبد الرحمان بن هشام، بظهير نص على تعيينه على رأس أهل تلوات، وآيت أونبلا، وآيت تامانات. وبعد ذلك استقر هذا القائد بتلوات، وأصبح يحصل، باسم السلطان، رسوماً على السوق، وأخرى على اجتياز المر الجبلي. وتوفي إبيبات سنة 1886، وورث سلطته ابنه المدني الغلاوي الذي ارتبط اسمه بإرساء نفوذ غلاوة. انظر:

لكن على شرط أن لا يطالب السكان سوى بأشياء بسيطة لا تكلف الكثير. ولن يتجرأ القائد بالمطالبة بأكثر من ذلك، لأنه يعرف أنه سيواجه بالرفض إن فعل. ولا يتدخل القائد قط في شؤون إدارة السكان، أو نزاعاتهم، أو الحروب التي قد تندلع بينهم. ومع ذلك يحترم السكان «العناية» التي يمنحها القائد للمسافر<sup>173</sup>، وبإمكان رجال من حاشيته، سواء من العبيد أو المخزنية، أن يستخدموا كزطاطين، وبالتالي توفر حماية القائد الأمن للمسافرين. وهو ما لا يتوفر في المنطقة الثالثة، حيث لا يعترف السكان بسلطة السلطان، ولو في مستواها الصوري. فكلما يستطيع القائد فعله هو المحافظة على علاقات الصداقة مع رؤساء العائلتين الكبيرتين الجارتين، أي شيوخ تازناخت ومزغيطة. ولا يمكن للقائد أن يوفر خدمة الزطاطة فوق ترابهم، لكن رسالة توصية من جانب القائد قد تضمن استقبالا طيبا من طرفهم. وفيما وراء هذه المنطقة، لا يعرف السكان اسم القائد ولا حتى اسم السلطان.

الفصل الثاني

النظام والاختلال



## مقدمة

اهتمت الكتابات الأخبارية بتدوين حوليات الدول والسلطين، واعتمدت على العموم منظور المجاملة والإطراء، وقصت الأحداث بشكل يُلمّع ذاكرة الحكام، ويزكي مشروعيتهم، ويُسّفه الخارجين عن طاعتهم. ولم يبلغ المؤرخ أحداث اضطراب الطرق، وأخبار الأمراء المتطلعين إلى الملك، والفتن، ومواجهات الدولة مع القبائل والمدن. والواقع أن الكتابة الأخبارية لم تغيب موضوع أمن الطرق، وفي آن واحد لم تهتم به في حد ذاته. بل اعتاد الأخباريون أن يقيموا نوعاً من التلازم بين أوضاع أمن الطرق وبين أحوال الدول. إنها ثنائية الطريق الآمن والطريق المخوف. وفي كلتا الحالتين، يشكل أمن الطريق عنصراً من عناصر صورة مركبة تحيل على ثنائية النظام والاختلال.

في دراسة لعلاقة دول المغرب بالمجال في «العصر الوسيط»، كتب محمد القبلي :

«ارتسمت للحكم المعني بكل هذا التدخل صورة محكمة البناء والهيكلية. ونظراً لشدة إتقان هذه الهيكلية بالذات، فإن الصورة المشار إليها لم تكتف بالصمود في وجه الزمن وإنما ترسّخت عبر القرون لتقف سداً منيعاً في وجه عملية النقد والتمحيص كذلك. ومع هذا فإننا نسجل عناد بعض البصمات «المشوشة» وحضورها إلى جانب الصورة المهيكلية أو اختراقها للحجب المسدولة حولها في بعض الأحيان. ومعلوم أن من شأن هذه البصمات أن تعكس رؤى أخرى غير رسمية فتحيل بالتالي على بعض ما تمّ التسلط عليه أو التغاضي عنه ولو بدرجات متفاوتة من بين تلك الآثار الناجمة عن تموجات دينية واجتماعية معينة»<sup>1</sup>.

انطلاقاً من هذا التصور المنهجي، قد نعتبر أن هناك نصوصاً ساهمت في ترسيخ صور متداولة عن تأمين الطرق، ونصوصاً مغايرة تساعد على الإطلالة على ما هو خلف تلك الصور، من

1. محمد القبلي، «التموجات الدينية- الاجتماعية ومشروعية سلطان الدولة بالمغرب الأقصى الوسيط»، ضمن كتاب الدولة والولاية والمجال، ص. 104.

ممارسات ملتبسة، وأوضاع، وسياقات اقتصادية، وموازين قوة اجتماعية وسياسية. ويتعلق الأمر أحياناً بمجرد تنف واستطرادات ترد في كتب الأخبار. وفي حالات أخرى، تأتي المعطيات «غير المعتادة» في كتابات غير اسطوغرافية، مثل الرحلة، ورسائل النصح الموجهة من العلماء والأولياء إلى السلاطين. وهناك مقارنة أخرى تعمل على إعادة توظيف النص الذي عادة ما يتم الاستغناء عنه بعد ما يفضي النقد إلى ترجيح هذه الرواية على تلك. ففيما يخص تاريخ الحكم والممارسات السياسية، إذا كانت «البصمات المشوشة» تسمح بإلغاء أو تجاوز «الصور المهيكلية»، فإن هذه الأخيرة تستحق أن تصنف و تستحضر لأنها تساعد على تمثل الأفكار والأساليب التي استعملتها مجتمعات وثقافات وفئات معينة لإضفاء المشروعية على دولها وحكامها. وهكذا فإلى جانب طرح سؤال من قبيل : هل كان سلطان معين عادلاً كما يدعيه مؤرخ معين؟ نطرح سؤالاً آخر مثل : ما هي صورة الحاكم العادل عند مؤرخي حقبة معينة؟

وفي هذا الإطار نقترح فرضيتين :

- تعتبر الأولى بأن النص الأخباري يمثل نصاً يتقاطع داخله صوت المؤرخ الذي يسجل الأحداث، وصوت مؤلف الآداب السلطانية، وصوت مؤلف السياسة الشرعية.  
- وتعتبر الثانية أن الإقرار الضمني بشنائية النظام والاختلال له صلة بفكرة دائرية الحكم، بشكل يذكر بالنظرية الخلدونية<sup>2</sup>، وذلك في كتابات سردية سبقت ابن خلدون، أو تلت دون أن تتبنى أدواته النظرية.

تتنمي الكتابة الأخبارية المغربية إلى التقليد العربي الإسلامي. ومعلوم أن سرد أخبار الدول عُرف منذ مرحلة التأسيس بسماوات تكشف عن تأثير جنسيتين أدبيين، وهما «أيام العرب» و «المغازي»<sup>3</sup>. غير أن الاهتمام بموضوع أمن الطرق جعلنا نقف على حضور خطابين معياريين آخرين، وهما الآداب السلطانية والسياسة الشرعية.

ميّز محمد بن الوليد الطرطوشي بين «السياسات» و«الأحكام» بالطريقة التالية. «فأما الأحكام المشتملة على ما اعتقده من الحلال والحرام والبيوع والأنكحة والطلاق والإجراءات ونحوها والرسوم الموضوعة لها والحدود القائمة على من خالف شيئاً منها...». «وأما السياسات التي وضعوها في التزام تلك الأحكام والذب عنها والحماية لها وتعظيم من عظمها وإهانة من استهان بها وخالفها، فقد ساروا في ذلك بسيرة العدل وحسن السياسة وجمع القلوب عليها والتزام النصفة فيما بينهم على ما توجبّه تلك الأحكام. وكذلك في تدبير الحروب وأمن السبل وحفظ الأموال وصون الأعراض

2. سبق أن اقترحنا هذه الفرضية في مقال سابق :

« Présence des crises dans la chronique dynastique marocaine : Entre la narration et les signes », in dossier «Maghreb : Récits, traces, oublis », *Cahiers d'Etudes Africaines* (Paris), XXX (3), 119, 1990, pp. 237-250.

3. راجع عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، 1960، ص. 19 وما تلاها، وفرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، بيروت، 1983، ص. 29 وما تلاها.

والحرم»<sup>4</sup>.

تحيل عبارة «السياسات» على الآداب السلطانية، وعبارة «الأحكام» على السياسة الشرعية، وهما من بين أهم أصناف الخطاب السياسي في الثقافة العربية الإسلامية الكلاسيكية<sup>5</sup>. وينتمي الجنسان إلى الخطاب المعياري الذي يحدد مواصفات السلطة السياسية كما ينبغي لها أن تكون. ويتجلى الفرق في تركيز أحد الجنسين على الأخلاق والتدبير وفن الحكم، والآخر على التشريع. وفي مستوى المرجعية، ينهل الأدب السلطاني من المأثور الإسلامي إلى جانب الحكمة الفارسية واليونانية، بينما تعتمد السياسة الشرعية أحادية المرجعية الإسلامية، أي القرآن والحديث بالأساس<sup>6</sup>.

اهتمت الآداب السلطانية بالسياسة العملية. واهتمت بموضوع «أمن المسالك»، من خلال عدة جوانب تلتقي في بنية واحدة. يؤدي أمن المسالك إلى تنشيط التبادل، أي حركة استيراد الضروري وتصدير الفائض، فتتحسن أحوال الرعية، وتستفيد مالية السلطان. ويتولى السلطان حماية السبل من القطاع في إطار «سياسة الرعية»، وبذلك يقترن العدل بال عمران.

أما السياسة الشرعية فهي، على عكس «السياسة الظالمة»، تدخل في نطاق «تشريع أولي الأمر»، أي الخليفة أو الإمام<sup>7</sup>. ومعلوم أن إحداث المصطلح وتحديد معالم المذهب يعودان إلى الفقهاء الحنبلين ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية. غير أن مؤلفين سابقين مثل الماوردي وضعوا أعمالاً تهدف إلى تحقيق نفس الأغراض<sup>8</sup>.

تسعى السياسة الشرعية إلى التوفيق بين السياسة والشرع. وتنقسم مواضيعها إلى ثلاثة مجالات، وهي ضبط التنظيم الإداري (بما فيه قضايا الشرطة والجبائية)، وعمليات الزجر المرتبطة بالمحافظة على الأمن، وتفسير الأحكام.

هكذا تناول الماوردي أحكام الحراية، فانطلق من آية قرآنية مشهورة من سورة المائدة: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض)<sup>9</sup>. وعرف المؤلف الحراية، واستعرض أنواع الحدود التي أقرت لجزائها. وتظهر في نص الماوردي عدة محاور مثل أنواع العقوبات (حسب الصفات أو الأفعال)، والمقارنة بين محاربة المحاربين وبين محاربة أهل البغي، واختلاف أوضاع المولى على قتالهم. وفي جل

4. الطرطوشي، سراج الملوك، ص. 50-51.

5. راجع كمال عبد اللطيف، نظام الآداب السلطانية، ص. 13 وما تلاها.

6. حول الفرق بين الفقيه والأديب السلطاني، راجع عبد الله العروي، مفهوم الدولة، ص. 101-108. انظر كذلك عز الدين العلام، الأدب السلطاني، ص. 30-34.

7. انظر عمر الجيدي، العرف والعمل، ص. 408-409. انظر كذلك:

F.E. Vogel, art. «Siyasa», *E.I.*, 2<sup>e</sup> éd., vol. IX, pp. 722-725.

8. شهد القرنان العاشر والحادي عشر للميلاد تراجع مؤسسة الخلافة لصالح مؤسسة السلطنة، وأدى ذلك إلى قيام تنافس بين مشروعية السياسة ومشروعية الفقه. وجاءت «أحكام» الماوردي لتوسع نطاق صلاحيات السلطة السياسية، وتعتبر كتابات ابن تيمية بمثابة محاولة لإعادة الاعتبار لمشروعية الفقه في مرحلة عرفت الانهيار الفعلي لمؤسسة الخلافة.

9. الآية 33، سورة المائدة.

هذه الجوانب، يظهر بعض الاختلاف بين المذاهب الفقهية المذكورة في النص، أي الشافعية (مذهب المؤلف)، والمالكية والحنفية<sup>10</sup>.

وتناول ابن تيمية نفس الموضوع بطريقة مختلفة. فهو لم يكتف بعملية التصنيف السريع لأعمال الحراية وأشكال زجرها، بل أسهب بشكل ملحوظ في تتبع الحثيات السياسية والاجتماعية والمجالية إلى درجة أن النص يبدو أحياناً أقرب إلى وثيقة تسلط الضوء على جوانب من تاريخ مجتمعات المشرق العربي في عصر المؤلف. فقد توقف ابن تيمية، على سبيل المثال، عند مسألة احترام الحراية من طرف فئات مثل «النسر» بمصر والشام، و«العيارين» بالعراق، وجوانب الفرق «بين البنيان والصحراء»، والعلاقة بين الحراية والمكس والحفارة، وحق الخواص في قتل المحارب، والصفات المفترضة فيمن يستنبيه الإمام في «مقاومة الحرامية».

كيف تحضّر مقولات الآداب السلطانية والسياسة الشرعية في كتابات الأخباريين بالمغرب؟ وما هي أشكال التفضّل بين الخطاب المعياري وبين عملية رصد الوقائع؟ لقد اخترنا أن نقدم جزءاً من الإجابة عن هذين السؤالين من خلال حقتين محددين، وهما الحقبة الموحدية-المرينية، والحقبة العلوية بين عهد السلطان إسماعيل (1672-1727) والاضطراب السياسي الذي تلاه لمدة ثلاثين سنة (1727-1757). فعند تناول كل من هذين النموذجين، سوف نقدم نصوصاً رتبناها وفق استكشاف يُظهر على التوالي عناصر صورة أمن الطرق، ثم المعطيات الملموسة حول تأمين الطرق، ثم معطيات حول قصور الدولة في المجال المذكور.

من أجل استجلاء صورة حكام المغرب في «العصر الوسيط»، سوف نتطرق من كتاب «روض القرطاس». ومعلوم أن هذا المصنف لا يخلو من مفارقة، بين شهرته كمصدر لتاريخ المغرب في العصر الوسيط، وبين ندرة المعطيات حول المؤلف، إلى حد عدم حسم الباحثين في موضوع هوية المؤلف ابن أبي زرع، في مستوى اسمه الشخصي. والراجع أن الكتاب ألف عام 726 (1326 للميلاد)، أو بعده بقليل، وأهدي للسلطان أبي سعيد عثمان.

ويتضمن «روض القرطاس» رواية موجّهة أعادت بناء تاريخ وصول بني مرين للحكم بشكل ينقح حثيات الانطلاق، وهو ما جعل المؤلف يكيّف أخبار دولة الموحدين في اتجاه سلبي، بل ويلمع صورة المرابطين من أجل اتهام الموحدين بمهاجمة دولة لا زالت في مرحلة عنفوانها. وفي مستوى آخر، يشكل الكتاب محطة اسطوغرافية هامة لأنه جمع معطيات من مؤلفات ضاع الكثير منها، وأقام تركيباً جمع بين تاريخ دول المغرب وتاريخ مدينة فاس<sup>11</sup>. وفي هذا ما يعكس اختيارات

10. تبنى مذهب مالك طريقة أهل الحجاز القريبة من «أهل الحديث»، وساد في الجزء الغربي من العالم الإسلامي (المغرب الكبير، الأندلس، إفريقيا جنوب الصحراء). واعتمد أبو حنيفة منهج أهل العراق القريب من «أهل الرأي»، وانتشر مذهبه في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي، وفي الامبراطورية العثمانية. أما الشافعي فقد مزج بين طريقة أهل الحجاز وطريقة أهل العراق. وقد نشأ المذهب بمصر حيث هيم من ابتداء من القرن التاسع للميلاد، وانتشر في الأقاليم الشرقية من الدولة العباسية حتى الغزو المغولي (القرن الثالث عشر للميلاد).

11. حول روض القرطاس وموقعه داخل الإسطوغرافيا المغربية في «العصر الوسيط»، راجع:

الدولة المرينية، من حيث اتخاذ فاس كعاصمة، واعتماد المرجعية التاريخية الإدريسية بموازاة مع تقرب بني مرين من شرفاء فاس<sup>12</sup>.

إن «روض القرطاس» تأليف تطله الشبهات بسبب عدم وفائه للوقائع، غير أن تنميته لمرحلة طويلة من تاريخ دول المغرب مسألة قد تُفري بتوظيف خطاب ابن أبي زرع من أجل رصد موضوع أمن السبل. وهكذا تعمدنا انتقاء نصوص تتصل بلحظات معينة : الانتقال من سلطان إلى آخر، و الانتقال من عصبية حاكمة إلى أخرى. ويخضع السرد لخطاظة ضمنية تذكر بصورة الدورة الخلدونية لمسار الملك. بيد أن النصوص المختارة تنتمي إلى السرد التاريخي الذي انتقده ابن خلدون، لأنه يركز على خصال السلاطين<sup>13</sup>، ويتبنى بوضوح لهجة الإطراء، ويوحى في كثير من الأحيان بالإعادة والتكرار. وعادة ما يتجاهل المؤرخ الحديث مثل هذه المقاطع بحثاً عن الوقائع والأحداث القابلة للتحيص والتحقيق.

ترد النصوص المختارة في مستهل الحديث عن عهود السلاطين. ومن الممكن أن نصنف المعطيات الواردة فيها بالطريقة التالية :

- أوصاف السلطان الخلقية والخلقية.

- ملابس البيعة.

- القرارات الأولى التي دشنت العهد الجديد.

- انعكاس القرارات على أحوال البلاد.

- أحوال البلاد خلال مجموع العهد.

توحي النصوص بالتكرار، بحيث نجد الحدث المتفرد داخل نسيج من الصور المتشابهة التي تنتمي إلى تاريخ المخيال السياسي. وتحدثت النصوص عن أخلاق السلاطين، وبعض إجراءاتهم، والأحوال العامة للبلاد. أما الحدث المتعلق بأمن الطرق، فهو قليل من حيث الوقائع المذكورة، ومركزي من حيث الدلالات الضمنية.

كيف تنتقل من الصورة الاسطوغرافية إلى تسجيل وقائع تأمين الطرق ؟ لقد استوقفنا كتاب «المسند» لمحمد ابن مرزوق. ومعلوم أن المؤلف ولد بمدينة تلمسان سنة 711 (1311 للميلاد)، وهو ينتمي إلى بيت علم مشهور يرجع أصله إلى القيروان، وتوارث رجاله ولاية ضريح الولي أبي مدين بالعباد قرب تلمسان. وقد أقام محمد ابن مرزوق بالمشرق، وارتبط بالسلطان أبي الحسن المريني، وتولى الخطابة والكتابة والسفارة. وفي عهد أبي عنان وأبي سالم، انخرط في الصراع الدائر بين فصائل السلطة المرينية، وعرف السجن عدة مرات. وقد تعاطى كذلك للتدريس، وأخذ عنه ابن الخطيب،

12. راجع :

Herman L. Beck, *L'image d'Idris II*, pp. 54 et suiv.

13. فومن هذا الباب أيضاً ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسب ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونسائه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره... ابن خلدون، العبر، ج 1، ص. 51.

وابن قنفذ القسنطيني، وأبو القاسم البرزلي. وألف في الفقه، وخصص كتاب «المسند» للتعريف ب«مأثر ومحاسن مولانا أبي الحسن»<sup>14</sup>.

أورد هذا الكتاب جملة من المعطيات حول منجزات السلطان المذكور في مجال تأمين الطرق، ووضع سيرة السلطان دون التقييد بالتسلسل الكرونولوجي، بل اعتمد المؤلف تخطيطاً يقوم على مجموعة من المواضيع تتصل بشيم العاهل. وبالنسبة لكل شيمة، يستعرض المؤلف جملة من الأقوال المأخوذة من الكتاب والحديث ومأثور السلف الصالح، ثم يؤكد مطابقة أحوال العاهل للشيمة المذكورة، ويستعرض نماذج ملموسة من مواقف العاهل وأفعاله. فالحدث يرد إذن داخل خطاب أشبه بخطاب أدب المناقب.

لننتبه إلى تقاطع لافت للنظر. لقد وصف ابن مرزوق محاسن أبي الحسن، وكثيراً ما ذكر عدل هذا العاهل عن طريق ذكر حذفه للإجراءات الجبائية التعسفية التي سبق أن فرضها أبوه أبو سعيد عثمان. وقد توجه ابن مرزوق بكتابه إلى أبي فارس عبد العزيز، وهو نفس السلطان الذي سوف يرأسه الولي محمد ابن عباد الرندي (المتوفى سنة 792 / 1390)، وهو تلميذ ابن عاشر المعروف بموقفه الصارم إزاء أبي عنان ابن أبي الحسن. ومعلوم أن ابن عباد يُعتبر عند البعض أكبر متصوفة القرن الثامن بالمغرب (الرابع عشر للميلاد). وقد ساهم في نشر الشاذلية، وتحفظ إزاء أفكار ابن عربي، ومال إلى صوفية المحاسبي. وقد عينه السلطان خطيباً وإماماً بجامع القرويين، وظل في هذا المنصب حتى وفاته. وقد وجه إلى نفس أبي فارس عبد العزيز رسالتين تتضمنان الانتقاد والنصح، وتتعلقان بموضوع حذف ضريبة الرتب المفروضة على المسافرين في الطرقات، والتي كان تحصيلها مرفوقاً بالتعسف والإهانة.

إنه تسلسل يُحيل على ثابتين اثنين، وهما استمرار خطاب النصيحة من جانب الفقهاء والأولياء، وظاهرة التعاقب بين الضغط والانفراج من جانب السلاطين.

ثم نتقل إلى المرحلة العلوية. فقد دام عهد إسماعيل من سنة 1672 إلى سنة 1727. وبعده عرف المغرب ثلاثين سنة من الاضطراب السياسي، وهي مرحلة انتهت بوصول محمد بن عبد الله إلى الحكم. تميّز العهد الأول بتجربة متقدمة في مجال محاولة مركزة الدولة المخزنية، بالاعتماد على النموذج العثماني من حيث إقامة جيش العبيد الذي شكّل قوة عسكرية منفصلة عن الرهانات القبليّة. وبعد وفاة إسماعيل، اختلت أوضاع الحكم على يد فئة عبيد البخاري، أي نفس القوة التي اعتمدت عليها تجربة المرُكزة.

وفي مستوى الصورة الاسطوغرافية لهذه المرحلة، هناك علاقة وثيقة بين إيجابية لحظة النظام وبين سلبية لحظة الاختلال، إلى درجة أننا نتساءل: ألم تساهم صورة السلطة القوية في تشكل صورة السلطة المنهارة؟ وفي الاتجاه المعاكس، ألم تساهم صورة السلطة المنهارة في تشكيل صورة السلطة

14. بالإضافة إلى الدراسة المرافقة لتحقيق المسند من طرف ماريا خيسوس بيغيرا (الجزائر، 1981)، راجع:

القوية السابقة؟ ومهما كانت مشروعية هذين التساولين، فإن القارئ سوف يلاحظ حضور موضوع أمن الطرق في اللوحات اللامعة واللوحات القائمة.

ما هي عناصر الصورة التي تشكلت حول عهد إسماعيل؟ يرد أمن التنقل، إلى جانب الرخاء (وفرة الإنتاج ورخص الأسعار)، والعدل، وهو ما يُحيلنا على تعريف الحكم الأمثل في الآداب السلطانية. وعلى غرار بعض نصوص المرحلة الموحدية - المرينية، نلتقي بصيغ التضخيم في صورة امتداد المجال الجغرافي لحكم العاهل العلوي. أما السمات المميزة لعهد إسماعيل، فهي تتصل بطول العهد، وإنجاز تطور ملحوظ في مستوى احتكار العنف من طرف الدولة المخزنية.

لقد انتقينا بعض النصوص، وتعمدنا تقديمها وفق منظور كرونولوجي، وهي مقتطفة من المؤلفات التالية :

- «روضة التعريف» للإفراني (المتوفى بين سنتي 1154 و1157 للهجرة / 1742-1745 للميلاد).

- «نشر المثاني» لمحمد بن الطيب القادري (المتوفى سنة 1187 للهجرة / 1773 للميلاد).

- «البستان الظريف» لأبي القاسم الزياني (المتوفى سنة 1241 للهجرة / 1833 للميلاد).

- كتاب «الاستقصا» لأحمد بن خالد الناصري (المتوفى سنة 1315 للهجرة / 1897 للميلاد).

قد يساعد هذا التسلسل على تتبع التطور الذي عرفته الصورة من مؤلف إلى آخر، مع ما يرافق ذلك من نقل وتضخيم، وإعادة نظر في بعض الحالات، مثلما فعله الناصري إزاء بعض أقوال الزياني.

ما هي الإجراءات الملموسة التي قد تكمن وراء صورة العهد الإسماعيلي؟ لعل شبكة القلاع والقصبات جزء من الجواب على هذا السؤال<sup>15</sup>. وقد اقتطفنا نصاً مطولاً من كتاب «البستان الظريف» لأبي القاسم الزياني. وخلافاً لنص ابن مرزوق حول إنجازات أبي الحسن المريني، فإن نص الزياني يتميز بقدر من الدقة في المعطيات المسجلة. فقد رتب المؤلف القصبات في إطار كرونولوجي، وربط تأسيسها بعدد من الحملات العسكرية التي شنّها السلطان. وبالنسبة لكل قصب، تعرف على موقعها، وتعداد القوات المرابطة بها، وطرق تموينها، وأسماء بعض القواد المكلفين بها.

وفي إطار أهم، تستدعي ظاهرة القصبات الإسماعيلية التمييز بين ثلاثة مستويات :

- أولاً: السياق الحدوثي. يرتبط تأسيس القصبات بحملات عسكرية شنّها السلطان ضد

15. حول القلاع الإسماعيلية، راجع :

Lt. De la Chapelle, « Le Sultan Moulay Smaïl et les Sanhaja de l'Atlas Central », *op.cit.* : Magali Morsy, *La relation de Thomas Pellow.*, pp. 40 et suiv.

راجع أيضاً محمد الحيمر، جيش العبيد، ص. 175 وما تلاها.

قوى ذات طبيعة متنوعة : مدن، وقبائل، وأمراء متطلعون إلى الملك<sup>16</sup>، ومعارضون مدعومون من طرف أتراك الجزائر.

- ثانياً. التوطن المجالي. انتشرت شبكة القلاع الإسماعيلية عبر المحاور الطرقية التالية: تازة- وجدة، ومكناس- تافيلالت، ومكناس- فاس، ومكناس- مراكش، ومراكش- تارودانت. هذا بالإضافة إلى قلاع تم إحداثها بطرق الساحل الأطلنטיكي، مثل بولعوان، وسطات، ومديونة، والمنصورية، والصخيرات، وتمارة.

- ثالثاً. التدبير والوظائف. ارتبطت جل القصبات بحاميات جيش العبيد. وقد سعت الدولة المخزنية من خلالها إلى تطويق بعض المدن، ومراقبة المجموعات القبلية التي نزع منها السلاح، ولاسيما القبائل التي تقع على بعض المحاور الاستراتيجية مثل محور فاس- تافيلالت. وكانت القصبات في آن واحد أداة إدارية تيسر تحصيل الجبايات ونقل التعليمات القادمة من المركز. وإلى جانب ذلك، ساعدت القصبات على تأمين طرق المسافرين، حيث هناك علاقة بين القصبية و«المنزل» المقام لمبيت القوافل. وفي بعض الحالات تؤدي القصبية إلى إحداث سوق قد تتطور في اتجاه نواة حضرية.

ومثلما جاءت رسائل ابن عباد لتصور التعسف المرتبط بتأمين الطرق في عهد السلطان المريني أبي فارس، فقد جاءت رسالة أبي علي اليوسي إلى معاصره السلطان إسماعيل لتبين بأن انتشار وضعية الأمن الشامل مجرد صورة تتجاهل استمرار قطع الطريق في مناطق شاسعة مثل أعالي بلاد ملوية التي ينتمي إليها اليوسي، وهي التي ظلت تتعرض لغارات اتحادية آتت عطا.

بعد وفاة إسماعيل عرف المغرب مرحلة أطلق عليها مصطلح «الفترة». ولم تحظ هذه الأخيرة إلى حد الآن باهتمام حقيقي من طرف الباحثين، بل لازالت الجوانب الحدّثية تعاني من التباس يعود إلى نصوص الحوليات المتوفرة. أما الجوانب البارزة من «الفترة» فهي<sup>17</sup> :

- اضطراب السلطنة، بحيث تأرجح الحكم بين عدد من أبناء إسماعيل<sup>18</sup>، إلى درجة أن المصادر لا تتفق أحياناً على عدد المرات التي بوع فيها نفس السلطان<sup>19</sup>.

- تدخل القوى العسكرية، ولا سيما العبيد وقبائل الكيش، في تولية السلاطين وعزلهم.

- عودة بعض القبائل الجبلية إلى حركة نزوح نحو السهول المجاورة، وهي حركة عمل

16. في سنة 1089 للهجرة، قام ضد إسماعيل إخوته الثلاثة الحران وهاشم وأحمد، بالإضافة إلى ثلاثة من بني عمه. انظر الزباني، البستان الظريف، ص. 162-163.

17. حول تضمينات مصطلح «الفترة»، انظر أدناه، ص. 306.

18. عددهم سبعة، وهم : أحمد الذهبي، وعبد الملك، وعبد الله، وعلي الأعرج، ومحمد بن عربية، والمستضيء، وزين العابدين.

19. بوع أحمد الذهبي مرتين حسب الضعيف الرباطي وأبي القاسم الزباني. وبوع المستضيء ثلاث مرات حسب الضعيف. وبلغ عبد الله بن إسماعيل رقماً قياسياً في التولية والعزل، إذ بوع سبع مرات حسب الضعيف، وست مرات حسب الزباني وأكسوس. وهناك من يعتبر أن ولاية عبد الله دامت في مجملها ثلاثين سنة، «تخللتها فترات وولايات ومنازعات لبعض إخوته». انظر الضعيف، تاريخ، ص. 162.

إسماعيل في السابق على إيقافها بواسطة شبكة القصبات التي أنشأها حول منطقة فازاز. - اقتصر الحوليات على أخبار منطقة فاس ومكناس، والشمال بصفة عامة. سوف تناول هذه المرحلة من زاوية الصورة الاسطوغرافية لظاهرة اختلال الدولة، وحضور مسألة أمن الطرق في تلك الصورة. وقد رصدنا ثلاثة تصورات :

يقوم التصور الأول على الربط بين أزمة الدولة في بداية مرحلة «الفترة» على عهد أحمد الذهبي<sup>20</sup>، وبين اغتيال رجال كانوا يشكلون «أركان الملك» في عهد السلطان إسماعيل، وهم أحمد اليازغي، وعلي بن يشو، وابن الأشقر، ومرجان الكبير. ويستدعي هذا الإقرار ملاحظتين :

فمن جانب الوقائع، هناك فرق بين هذه المجموعة من «الرجال الأقوياء»<sup>21</sup>، وبين أعضاء الجهاز الحكومي الذي تتداوله المصادر بالنسبة للعهد المذكور. كما أن الظاهرة تلقي بعض الضوء على أسلوب السلطان إسماعيل.

ومن جانب تقديم الحدث، نلاحظ أن هناك نصاً قصيراً للزياني، وتكراراً لنفس السرد مع بعض التغييرات الطفيفة في كتاب «الاستقصا» للناصري<sup>22</sup>، ثم استعادة مطولة لنفس المعطيات في «إتحاف» ابن زيدان. وقد ارتأينا إيراد النص الأول والثالث معاً، لأن القارئ قد يلمس عند ابن زيدان أسلوباً لا يخلو من إسقاط لمفاهيم ومصطلحات تتصل بعصر الحماية.

وهناك تصور آخر يقوم على فكرة الاختلال المطلق، حيث يتداخل الصراع حول السلطة مع القحط والوباء، فتنشأ وضعية أقرب إلى وضعية القيامة. وتلتقي بهذه الصورة في سرد أحداث عهد محمد ابن عربية من طرف مؤرخ معاصر هو عبد الكريم الريفي في كتابه «زهر الأكم».

أما التصور الثالث فيركز على تطويق المدينة<sup>23</sup>، وما يترتب عن ذلك من انقطاع للموارد، وذلك من خلال ما عانت منه مدينة فاس على يد عامل طنجة وتطوان أحمد بن علي الريفي حين انخرط هذا الأخير في الصراع الدائر بين الأمراء حول العرش.

20. بوع أحمد الذهبي بمكناس مباشرة بعد وفاة إسماعيل (أواخر رجب 1139 / أبريل 1727) وبأمر من العبيد. وفي شعبان 1140، اتصل العبيد بأخيه عبد الملك. وعند اقتراب هذا الأخير من مكناس، دخل العبيد على أحمد، وألقوا عليه القبض، وخلعوه، وأخرجوه من قصر الملك، وجسوه بالدار التي كانت محل سكنه في عهد أبيه. الناصري، الاستقصا، ج 7، ص. 147. ويبدو أن عبد الملك المذكور «كان بوع له قبل موت أبيه بتارودانت وسائر بلاد السوس وانقبضوا عن بيعة أخيه، ووقع بينه وبين العبيد حروب ووقائع ومواقف كان يوجه بهم أخوه إليه على نهر أبي الأعوان وغيره (...) إلى أن تركوا له السوس...». القادري، نشر الماثني، ج 3، ص. 299. وتختلف رواية عبد الكريم بن موسى الريفي صاحب زهر الأكم، إذ يقول عن عبد الملك : « كان خلفه والده أمير المومنين بتارودانت وأعمالها، فلما وصله الخبر، وعظم عليه الأمر ودعا لنفسه فبايعوه بمدينة تارودانت وأعمالها، وكانت الحروب بينهما سجلاً...». انظر زهر الأكم، ص. 214.

21. نلاحظ عودة هذه الظاهرة في عهد محمد بن عبد الله الذي تولى الحكم سنة 1757 بعد انتهاء «الفترة». فهناك على سبيل المثال أبو عبد الله محمد بن حدو الدكالي، «قاتل القواد الذي كان بمنزلة الوزير»، وقد ولاه السلطان المذكور في البداية على دكالة، «ثم أضاف إليه تامسنا وتادلا مكان البوززاري الجابري عمود الدولة المحمدية رحمه الله، ولما توفي ولي السلطان مكانه ابن عمه القائل أبا عبد الله محمد بن أحمد». انظر الناصري، الاستقصا، ج 8، ص. 18-19.

22. م. ص. ج 7، ص. 114-115.

23. انظر النص الوارد أدناه، ص. 140-141.

وفي ختام هذه المقدمة، بالإمكان أن نسجل أنه بفضل هذه النظرة الاسترجاعية التي ألقيناها على الكتابة الأخبارية منذ «العصر الوسيط»، اتضح أن أوضاع القرن التاسع عشر، في ميدان تأمين الطرق، لم تكن فقط وليدة المستجدات التي أفرزها التسرب الأوربي، بل هي جزء من بنية سياسية-مجالية بعيدة المدى، كما أن صدى هذه البنية وصلنا في تعبيرات اسطوغرافية غمطية كثيراً ما تعوق معرفتنا للوقائع.

## I. سياسات وأحكام

### 1. الأداب السلطانية

نص 1 : عند الماوردي<sup>24</sup>.

وليهتم الملك كل الاهتمام بأمن السبل والمسالك، وتهذيب الطرق والمفاوز لينتشر الناس في مسالكهم آمنين، ويكونوا على أنفسهم وأموالهم مطمئنين. ولا يقتصر على حماية ما يستمده من بلاده وسواده؛ فلم يستقم أمر بلاد كانت المسالك إليها مخوفة لأنها تفتقر إلى مجلوب إليها، ومجتلب إليها، ومجتلب منها؛ ليكثر جلبهم فيما ليس لهم، وتخصب بلادهم بما ليس لهم، وتخصب بلادهم بما ليس عندهم؛ فيكون نفعهم عاماً وخصبهم داراً، ويصير رفق السلطان به أعظم من رفق رعيته، وعقباه أنفع له من أهل مملكته، لأنه ليس يعم صلاح إلا ونصيبه منه أكثر؛ لأن عوام الأموال صائرة إليه<sup>25</sup>، وصلاح الجمهور عائد عليه.<sup>26</sup>

نص 2 : عند ابن أبي الربيع<sup>27</sup>

وأما الرعية، فينقسمون أقساماً كثيرة، فمنهم :

- أ - متأهلون : هم الذين اقتصروا على العبادة والزهد، يوعظ العالم بترهيبهم وترغيبهم.
  - ب - حكماء : هم العارفون بالعلوم الحكيمة، كالطب والنجوم والحساب والهندسة، وأشباه ذلك.
  - ج - علماء : هم حملة الآثار وخلفاء الأنبياء، إليهم يرجع في التحريم والتحليل والتفسير والتأويل.
  - د - ذوو أنساب : هم أهل الشرف والجاه والقدر، كلما كثروا في المملكة كانوا أنبل، وهم عدة الملك.
  - هـ - أرباب الحروب : هم حرسة المملكة، بهم تدفع الأعداء وتؤمن غوائلهم، وبهم تفتح المدن والممالك.
  - و - عمار الأسواق : هم صنّاع وأتباع، بهم تتم أمور الناس، وينالون حوائجهم من قرب.
  - ز - سكان القرى : هم مشمرو الحرث والنسل والزرع والغرس، وماقي الناس محتاج إليهم.
- وهؤلاء ينقسمون ثلاثة أقسام :

24 . الماوردي، تهليل النظر، ص. 279.

25 . قارن مع ما كتبه ابن خلدون لاحقاً، في أن «الصنّاع وإجادتها إنما تطلبها الدولة، فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها. وما لم تطلبه الدولة، وإنما يطلبها غيرها من أهل المصر، فليس على نسبتها؛ لأن الدولة هي السوق الأعظم، وفيها نفاق كل شيء...». العبر، ج 2، ص. 218-219.

26 . تحمّل هذه الصيغة ضمنيّاً على «دائرة العدل»، لأن «صلاح الجمهور» معناه رخاء يؤدي إلى وفرة الجباية.

27 . ابن أبي الربيع، سلوك الملك، ص. 185-188.

1- أختيار أفاضل : هم محبو الخير، مبغضو الشر، يأتمرون وينتهون طوعاً، يؤثرون ما عاد بصلاح الملك والرعية ويختارونه .

وحقهم الإكرام والبر والتقديم ورفع المنزلة باختيارهم للمهمات .

2- أشرار أراذل : هم أصداد الأختيار، لأنه ليس للتأديب فيهم نفع، فهم كالسباع المؤذية طبعاً. وحقهم إذا يئس من صلاحهم. ولم تنجع العقوبة فيهم الإبعاد لهم إلى الأماكن النائية ليؤمن شرهم.

3- متوسطون : وهم أرباب المكاسب، يتكافى قولهم من محمود ومذموم، يميلون إلى الصلاح مرة وإلى الفساد أخرى.

وحقهم إصلاح فسادهم، ورد مائلهم، وطمعهم عن العادات الرديئة، بإغفال مرة وعقوبة أخرى، كتدبير الطبيب للعليل .

وصلاح هذه الأقسام المقدم ذكرها بهذه الأمور :

- 1- باستعمالهم في صناعتهم، حتى لا يجدوا فراغاً لفكر في مفسدة.
- 2- بالتقدم إليهم في كل وقت، باجتناّب الخوض في أسباب السلطان.
- 3- بالأخذ للضعفاء من الأقوياء، ويساوى الأقربين والأبعدين في السياسة.
- 4- وترك التعرض للمظلوم، وتسهيل الحجاب له، وإنصافه من الظالم.
- 5- وأن يجلس لهم في كل وقت لشكوى أو وصف حال، أو مسألة حاجة.
- 6- وأن يؤمنوا من الأعداء الخارجين عنهم بسد الثغور وإحكامها.
- 7- وليحرسهم من قطاع الطريق، لثلا ينقطع معاشهم بانقطاع ميرتهم<sup>28</sup>.
- 8- وليؤمنوا من اللصوص في منازلهم لتكون الثغور مصونة، والطرق آمنة، وأيدي الأشرار مقبوضة.

ويجب على الرعية :

- 1- أن لا يشرعوا في شيء من تعنت السلطان وتتبع أسراره.
- 2- وأن لا يدعوا النصيحة في الله تعالى، إذا أراد الإقدام على أمر غير جميل .
- 3- وليجتهدوا في تحسين العدل عنده وتزيينه، وتقبيح الجور وتهجينه.
- 4- وذلك إنما يجب على خواصهم وعلمائهم، أما غير هؤلاء فليس لهم ذلك .
- 5- وإذا عرض لهم مكروه من بعض خواصه، فلا يتعرض له دون التألم إلى سلطانهم.
- 6- وإذا اتفق له سرور أو فرح، أظهروا الاستبشار بقدر ما في طاقتهم.
- 7- وإذا عرضت بلية أو حزن، فليشاركوه في حزنه ويساعدوه على ما هو فيه .
- 8- وليجيبوه إذا دعا في ليل أو نهار، ولا يخالفوا له أمراً، وليعتقدوا ذلك ديناً.

28 . نجد توضيحاً جيداً لهذه الفكرة في نص فتوى مغربية تتصل بزجر قطاع الطرق، وتعود إلى القرن السابع عشر للميلاد. انظر أدناه، ص . 304 .

نص 3 : عند ابن رضوان المالقي<sup>29</sup>

كان من عادة ملك الهند السلطان محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة، ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته غرباء، وأنفذ أمره أن يسمى الغرباء في جميع بلاده الأعزّة، فصار لهم ذلك اسماً علماً.

وما يتأكد كثيراً الاعتناء بأمر التجار الذين يضربون في الأرض في طلب رزق الله من حلال المكاسب، وصونهم من أيدي الظلمة. وفي ذلك استمالة القلوب النازحة واستجلاب الذخائر الخطيرة، والأحجار النفيسة، والطرق المستحسنة، والأخبار الغريبة، وأمر العمال بصونهم وحياطتهم، وأن يعرف لكل ذي فضل منهم فضله.

أخبر الثقة أن [بلاد الصين آمن البلدان وأحسنها حالاً للمسافر، فإن الإنسان بها يسافر منفرداً يسير مسيرة تسعة أشهر، ويكون معه الأموال الطائلة، فلا يخاف عليها. وترتيب ذلك : أن لهم في كل منزل ببلادهم فندقاً عليه حاكم، يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين، وختم عليها، وأقل باب الفندق عليهم. فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه، فدعا كل إنسان باسمه، وكتب بذلك تفصيلاً، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل التالي له، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه، وإن لم يفعل طولب بهم، وهكذا العمل في كل منزل ببلاد الصين. وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد وخصوصاً الدجاج والأوز، وأما الغنم فهي قليلة عندهم]<sup>30</sup>.

ومن عادتهم منع التجار عن الفساد، [وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الهند، خير في النزول عند تاجر من المسلمين المستوطنين معين أو في الفندق، فإن أحب النزول عند التاجر، حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن<sup>31</sup>، وأنفق عليه منه بالمعروف. فإذا أراد السفر بحث عن ماله، فإن وجد شيئاً منه قد ضاع، أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه. وإن أراد النزول بالفندق، سلم ماله لصاحب الفندق، وضمنه وهو يشتري له ما أحب، ويحاسبه، فإن أراد التسري، اشترى له جارية، وأسكنه بدار يكون بها في الفندق، وأنفق عليهما، والجواري هناك رخيصة الأثمان، لأن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم، وليس ذلك عيباً عندهم، غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم، ولا يمتعون أيضاً منه إن اختاروه. وكذلك إن أراد التزوج تزوج، وأما إتفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه، ويقولون : لا يسمع المسلمون أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا، وهي أرض فساد وجمال فاتق]<sup>32</sup>.

29 . ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص. 314-316.

30 . المقطع الذي وضعناه بين معقوفتين منقول حرفياً عن ابن بطوطة، تحفة النظائر، ص. 632.

31 . عرفت بعض المدن المغربية أشكالا ماثلة. انظر، على سبيل المثال، ما أورده الجغرافي البكري في وصفه للميلة. ووهم يقترعون على من يدخل عندهم من التجار، فمن أصابته قرعة الرجل منهم كان تجره على يديه ولم يصنع شيئاً إلا تحت نظره وإشرافه، فيحميه عنم يريد ظلمه ويأخذ منه الأجر على ذلك ويأخذ منه الهدية لنزوله عنده. انظر المسالك والممالك، ج 2، ص. 753.

32 . المقطع الثاني الذي وضعناه بين معقوفتين منقول أيضاً عن ابن بطوطة، م. ص. نفس الصفحة.

## 2. السياسة الشرعية

نص 1 : الحراية عند الماوردي<sup>33</sup>

وإذا اجتمعت طائفة من أهل الفساد على شهر السلاح، وقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل النفوس، ومنع السابلة، فهم المحاربون الذين قال الله تعالى فيهم :

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض)<sup>34</sup>

فاختلف الفقهاء في حكم هذه الآية على ثلاثة مذاهب :

أحدهم أن الإمام ومن استتابه على قتالهم من الولاة بالخيار بين أن يقتل ولا يصلب، وبين أن يقتل ويصلب<sup>35</sup>، وبين أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وبين أن ينفيم من الأرض، وهذا قول سعيد بن المسيب ومجاهد وإبراهيم النخعي.

والمذهب الثاني : أن من كان منهم ذا رأي وتديبر، قتله ولم يعف عنه. ومن كان ذا بطش وقوة، قطع يده ورجله من خلاف. ومن لم يكن منهم ذا رأي ولا بطش، عززه وحبسه<sup>36</sup>. هذا قول مالك بن أنس وطائفة من فقهاء المدينة، فجعلها مرتبة باختلاف صفاتهم، لا باختلاف أفعالهم. والمذهب الثالث : أنها مرتبة باختلاف أفعالهم لا باختلاف صفاتهم، فمن قتل وأخذ المال، قتل وصلب. ومن قتل ولم يأخذ المال، قتل ولم يصلب. ومن أخذ المال ولم يقتل، قطعت يده ورجله من خلاف. ومن كثر وهيب ولم يقتل ولم يأخذ المال، عزز ولم يقتل ولم يقطع. وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي، وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه. وقال أبو حنيفة : إن قتلوا وأخذوا المال، فالإمام بالخيار بين قتلهم ثم صلبهم، وبين قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ثم قتلهم. ومن كان معهم مهيباً أكثر، فحكمه كحكمهم.

33. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص. 62-64.

34. وردت هذه الآية المؤسسة لحد الحراية في «سورة المائدة»، وقد تناولها الحجوي في سياق موضوع «تاريخ تشريع بعض الأحكام المنصوصة». «كان تشريعه في السنة السادسة أو السابعة، وأقامه النبي (ص) على النفر الذين حاربوا، وقتلوا راعي النبي (ص)، وسملوا عينيه، وغدروا، وارتدوا، واستاقوا ذود الصدقة. وهم من عكل وعرينة، قدموا على النبي (ص)، وهي ضعاف الأجسام بالجوع، فمضوا بحمي المدينة، فبعتهم إلى إبل الصدقة خارج المدينة يشربون ألبانها وأبوالها يستشفون بذلك. فلما شقوا غدروا وفعلوا فعلتهم هذه، فوجه النبي (ص) في أثرهم فأدركوا. ولما أتى بهم نزل قوله تعالى : «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض». فأقام الحد عليهم، واقتص للراعي بغاية الصرامة، لئلا يعود غيرهم. وكانت هذه القصة ما بين السادسة والسابعة. قال قتادة راويه في البخاري : فحدثني محمد بن سيرين، أن ذلك كان قبل أن تنتزل الحدود. زاد قتادة كما في مغازي البخاري : وقيل النهي عن المثلة. انظر الفكر السامي، ج 1، ص. 136.

35. يبدو أن الرومان والفرس استعملوا فيما قبل عقوبة الصلب. وقد كان الرومان يصلبون ويقطعون رأس قطاع الطرق والمتمردين، وهما فئتان كان من الصعب التمييز بينهما. راجع :

Joel L. Kraemer, « Apostates, Rebels and Brigands », *Israel Oriental Studies*, X, 1980, pp. 67- 68.

36. عززه لغة : لأمه، وضربه أشد الضرب، وأدبه، ومنعه وصرفه (عن الشيء). والتعزير في الفقه هو خلاف الحد، ويشتمل في عدد من العقوبات التي لا ينبغي أن تؤدي إلى الوفاة.

وأما قوله تعالى :

(أو ينفوا من الأرض)

فقد اختلف أهل التأويل فيه على أربعة أقاويل :

أحدها أنه إبعادهم من بلاد الإسلام إلى بلاد الشرك، وهذا قول مالك بن أنس والحسن وقتادة والزهري.

والثاني : أنه إخراجهم من مدينة إلى أخرى، وهذا قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله وسعيد بن جبير.

والثالث أنه الحبس، وهو قول أبي حنيفة ومالك.

والرابع وهو أن يطلبوا لإقامة الحدود عليهم فيبعدوا<sup>37</sup>، وهذا قول ابن عباس والشافعي.

وأما قوله تعالى :

(إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم)

ففيه لأهل التأويل ستة أقاويل :

أحدها : أنه وارد في المحاربين المفسدين من أهل الكفر، إذا تابوا من شركهم بالإسلام. وأما المسلمون فلا تسقط التوبة عنهم حداً ولا حقاً. وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة رضي الله عنهم.

والثاني : أنه وارد في المسلمين من المحاربين، إذا تابوا بأمان الإمام قبل القدرة عليهم. وأما التائب بغير أمان، فلا تؤثر توبته في سقوط حد ولا حق. وهذا قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والشعبي.

والثالث : أنه وارد فيمن تاب من المسلمين بعد لحوقه بدار الحرب، ثم عاد قبل القدرة. وهو قول عروة ابن الزبير رضي الله عنه.

والرابع : أنه وارد فيمن كان في دار الإسلام في منعة، وتاب قبل القدرة عليه، سقطت عقوبته. وإن لم يكن في منعة، لم تسقط. وهذا قول ابن عمر وربيعة والحكم بن عيينة رضي الله عنهم.

والخامس : أن توبته قبل القدرة عليه، وإن لم يكن في منعة، تضع عنه جميع حدود الله سبحانه، ولا تسقط عنه حقوق الأدميين. وهذا قول الشافعي.

والسادس : أن توبته قبل القدرة عليه، تضع عنه جميع الحدود والحقوق، إلا الدماء. وهذا قول مالك بن أنس. فهذا حكم الآية واختلاف أهل التأويل فيها.

ثم نقول في المحاربين إنهم إذا كانوا على امتناعهم مقيمين، قوتلوا كقتال أهل البغي في عامة

37. ورد في مادة «خدد» من لسان العرب لابن منظور : «أصل الحد المنع والفصل بين الشيئين». و«حد السارق وغيره : ما يمنعه من المعاودة». و«حدود الله تعالى : الأشياء التي بين تحريمها وتحليلها». تؤلى جانب قطع الطريق، تطبق الحدود على الزنا، والغذف، وشرب الخمر، والسرقة. وحول موقع الحدود في تصنيف الفقه للعقوبات، انظر :

أحوالهم. ويخالفه من خمسة أوجه :  
أحدها أنه يجوز قتالهم مقبلين ومدبرين لاستيفاء الحقوق منهم، ولا يجوز اتباع من ولى من أهل البغي.

والثاني أنه يجوز أن يعتمد في الحرب إلى قتل من قتل منهم، ولا يجوز أن يعتمد إلى قتل أهل البغي.

والثالث أنهم يؤاخذون بما استهلكوه من دم ومال في الحرب وغيرها بخلاف أهل البغي.  
والرابع أنه يجوز حبس من أسر منهم لاستبراء حاله<sup>38</sup>، وإن لم يجز حبس أحد من أهل البغي.

والخامس أن ما اجتنبوه من خراج وأخذوه من صدقات، فهو كالمأخوذ غضباً نهياً، لا يسقط عن أهل الخراج والصدقات حقاً، فيكون غرمه عليهم مستحقاً.

وإذا كان المولى على قتالهم مقصور الولاية على محاربتهم فليس له بعد القدرة أن يقيم عليهم حداً، ولا أن يستوفي منهم حقاً، ويلزمه حملهم إلى الإمام ليأمر بإقامة الحدود عليهم واستيفاء الحقوق منهم. وإن كانت ولايته عامة على قتالهم واستيفاء الحدود والحقوق منهم، فلا بد أن يكون من أهل العلم والعدالة لينفذ حكمه فيما يقيمه من حد ويستوفيه من حق.

وإذا كان كذلك كشف عن أحوالهم من أحد وجهين : إما بإقرارهم طوعاً من غير ضرب ولا إكراه، وإما بقيام البينة العادلة على من أنكر. فإذا علم من أحد هذين الوجهين ما فعله كل واحد منهم من جرائمه نظر.

فمن كان منهم قد قتل وأخذ المال قتله وصلبه بعد القتل. وقال مالك يصلب حياً، ثم يطعنه بالرمح حتى يموت وهذا القتل محتوم ولا يجوز العفو عنه. وإن عفا عنه ولى الدم، كان عفو لغواً، ويصلب ثلاثة أيام لا يتجاوزها ثم يحطه بعدها.

ومن قتل منهم ولم يأخذ المال، قتله ولم يصلبه وغسله وصلى عليه. وقال مالك يصلي عليه غير من حكم بقتله.

ومن أخذ منهم المال ولم يقتل، قطع يده ورجله من خلاف، فكان قطع يده اليمنى لسرقته وقطع رجله اليسرى لمجاهرتة.

ومن جرح منهم ولم يقتل ولم يأخذ المال، اقتصر منهم الجراح إن كان في مثلها قصاص. وفي أحكام القصاص في الجروح وجهان : أحدهما أنه محكوم ولا يجوز العفو عنه كالقتل، والثاني هو إلى خيار مستحقة تجب بمطالبتة ويسقط يعفوه. وإن كان الجرح مما لا قصاص فيه، وجبت دية المجروح إن طلب بها وتسقط إن عفا عنها.

ومن كان منهم مهيباً أو مكثراً لم يباشر قتلاً ولا جرحاً ولا أخذ مال عزراً أدباً وزجراً وجاز

38. الاستبراء في المصطلح الفقهي هو منع العلاقة الجنسية على الأمة غير المتزوجة حين تنتقل من سيد إلى آخر، أو يعتقها سيدها، أو يزوجه من رجل آخر. وقد يعني الاستبراء في نص الماوردي حبس الجاني إلى أن يعلن توبته أو تتضح ملبسات فعله.

حبسه لأن الحبس أحد التعزيرين، ولا يجوز به ذلك، لا قطع ولا قتل. وجوز أبو حنيفة ذلك فيه إلخافاً بحكم المباشرين معه، فإن تابوا عن جرائمهم بعد القدرة عليهم سقطت عنهم المآثم دون المظالم وأخذوا بما وجب عليهم من الحدود والحقوق، فإن تابوا قبل القدرة عليهم سقطت عنهم مع المآثم حدود الله سبحانه ولم تسقط عنهم حقوق الأدميين. فمن كان منهم قد قتل فالحيار إلى الولي في القصاص منه أو العفو عنه ويسقط بالتوبة إحتام قتله، ومن كان منهم قد أخذ المال سقط عنه القطع ولم يسقط عنه الغرم إلا بالعفو.

ويجري على المحاربين وقطاع الطريق في الأمصار حكم قطاعه في الصحاري والأسفار، وهم وإن لم يكونوا بالجراءة في الأمصار أغلظ جرماً لم يكونوا أخف حكماً. وقال أبو حنيفة يختصون بهذا الحكم في الصحاري حيث لا يدرك الغوث، فأما في الأمصار أو خارجها بحيث يدرك الغوث فلا يجري عليهم حكم الجراءة في الأمصار<sup>39</sup>. وإذا ادعوا التوبة قبل القدرة عليهم، فإن لم تقترن بالدعوى أمارات تدل على التوبة لم تقبل دعواهم لها لما في سقوطها من حد قد وجب. وإن اقترن بدعواهم أمارات تدل على التوبة ففي قبولها منهم بغير بينة وجهان محتلمان: أحدهما تقبل ليكون ذلك شبهة تسقط بها الحدود. والثاني لا تقبل إلا ببينة عادلة تشهد لهم بالتوبة قبل القدرة عليهم لأنها حدود قد وجبت، والشبهة ما اقترنت بالفعل لا ما تأخرت عنه.

نص 2 : الحراة عند ابن تيمية<sup>40</sup>

### [قتل المحارب بين حق الخواص وحق الإمام]

فمن كان من المحاربين قد قتل، فإنه يقتله الإمام حداً لا يجوز العفو عنه بحال بإجماع العلماء. ذكره ابن المنذر ولا يكون أمره إلى ورثة المقتول، بخلاف ما لو قتل رجل رجلاً لعداوة بينهما أو خصومة أو نحو ذلك من الأسباب الخاصة، فإن هذا دمه لأولياء المقتول، إن أحبوا قتلوا، وإن أحبوا عفوا، وإن أحبوا أخذوا الدية، لأنه قتله لغرض خاص. وأما المحاربون فإنما يقتلون لأخذ أموال الناس، فضررهم عام بمنزلة السراق فكان قتلهم حد الله. وهذا متفق عليه بين الفقهاء، حتى لو كان المقتول غير مكافئ للقاتل، مثل أن يكون القاتل حرّاً والمقتول عبداً، أو القاتل مسلماً، والمقتول ذمياً أو مستأمناً. فقد اختلف الفقهاء هل يقتل في المحاربة؟ والأقوى أنه يقتل لأنه قتل للفساد العام حداً،

39. حول التمييز بين البنيان والصحراء، انظر ما يقوله ابن تيمية في النص الوارد أدناه، ص. 108.

40. ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص. 78-94. ونبه القارئ إلى أننا أعدنا تركيب عدد من الفقرات المقتطعة من كتاب ابن تيمية، وذلك وفق تصميم يساعد على إبراز جوانب تهم موضوعنا العام. وفيما يخص استقبال فكر المؤلف بالمغرب، راجع محمد المنوني، «هل تأثر المغرب المريني بأفكار ابن تيمية؟»، ضمن ورقات، ص. 231-232. ومعلوم أن تأثير ابن تيمية على المالكية في المغرب الإسلامي تم عبر بعض الفقهاء، مثل ابن فرحون صاحب التبصرة. انظر:

كما يقطع إذا أخذ أموالهم، وكما يحبس بحقوقهم، وإذا كان المحاربون الحرامية جماعة، فالواحد منهم باشر القتل بنفسه، والباقون له أعوان وردّ له، فقد قيل : إنه يقتل المباشر فقط، والجمهور على أن الجميع يقتلون، ولو كانوا مائة. وأن الردء والمباشر سواء، وهذا هو المأثور عن الخلفاء الراشدين. فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل ربيثة المحاربين. والربيثة هو الناظر الذي يجلس على مكان عال، ينظر منه لهم من يجيء. ولأن المباشر إنما يمكن من قتله بقوة الردء ومعونته، والطائفة إذا انتصر بعضها ببعض حتى صاروا تمتنعين فهم مشتركون في الثواب والعقاب كالمجاهدين.

### [مجال الحراية : بين البنيان والصحراء]

ولو شهروا السلاح في البنيان - لا في الصحراء - نقطة لأخذ المال، فقد قيل : إنهم ليسوا محاربين، بل هم بمنزلة المختلس والمنتهب، لأن المطلوب يدركه الغوث، إذا استغاث بالناس. وقال أكثرهم : إن حكمهم في البنيان والصحراء واحد. وهذا قول مالك - في المشهور عنه - والشافعي، وأكثر أصحاب أحمد، وبعض أصحاب أبي حنيفة. بل هم في البنيان أحق بالعقوبة منهم في الصحراء، لأن البنيان محل الأمن والطمأنينة، ولأنه محل تناصر الناس وتعاونهم فإقدامهم عليه يقتضي شدة المحاربة والمغالبة ولأنهم يسلبون الرجل في داره جميع ماله، والمسافر لا يكون معه - غالباً - إلا بعض ماله. وهذا هو الصواب لا سيما هؤلاء المحترفون الذين تسميهم العامة في الشام ومصر النسر وكانوا يسمون ببغداد العيارين، ولو حاربوا بالعصي والحجارة المقدوفة بالأيدي، أو المقالع ونحوها، فهم محاربون أيضاً. وقد حكى عن بعض الفقهاء لا محاربة إلا بالمحدد. وحكى بعضهم بالإجماع : على أن المحاربة تكون بالمحدد والمثقل، وسواء كان فيه خلاف أو لم يكن، فالصواب الذي عليه جماهير المسلمين، أن من قاتل على أخذ المال بأي نوع كان من أنواع القتال فهو محارب قاطع، كما أن من قاتل المسلمين من الكفار، بأي نوع كان من أنواع القتال فهو حربي، ومن قاتل الكفار من المسلمين بسيف، أو رمح، أو سهم، أو حجارة أو عصى، فهو مجاهد في سبيل الله وأما إذا كان يقتل النفوس سرا، لأخذ المال، مثل الذي يجلس في خان يكره لأبناء السبيل، فإذا انفرد بقوم منهم، قتلهم وأخذ أموالهم أو يدعو إلى منزله من يستأجره لخياطة، أو طبيباً أو نحو ذلك فيقتله، ويأخذ ماله، وهذا يسمى القتل غيلة، ويسميهم بعض العامة المعرجين فإذا أخذ المال، فهل هم كالمحاربين، أو يجري عليهم حكم القود ؟ فيه قولان للفقهاء أحدهما : أنهم كالمحاربين لأن القتل بالحيلة كالقتل مكابرة، كلاهما لا يمكن الاحتراز منه، بل قد يكون ضرر هذا أشد، لأنه لا يدري به والثاني : أن المحارب هو المجاهر بالقتال، وأن هذا المغتال يكون أمره إلى ولي الدم، والأول أشبه بأصول الشريعة، بل قد يكون ضرر هذا أشد، لأنه لا يدري به.

## [الكافر والمحارب]

وقتل هؤلاء أوكد من قتل الطوائف الممتنعة عن شرائع الإسلام. فإن هؤلاء قد تحزبوا لفساد النفوس والأموال، وهلاك الحرث والنسل؛ ليس مقصودهم إقامة دين ولا ملك، وهؤلاء كالمحاربين الذين يأوون إلى حصن، أو مغارة أو رأس جبل، أو بطن واد، ونحو ذلك، يقطعون الطريق على من مرّ بهم، وإذا جاءهم جند ولي الأمر تطلبهم الدخول في طاعة المسلمين والجماعة، لإقامة الحدود، قاتلوهم ودفعوهم مثل الأعراب الذين يقطعون الطريق على الحاج أو غيره من الطرقات. أو الجبلية الذين يعتصمون برءوس الجبال أو المغارات، لقطع الطريق. وكالأحلاف الذين تحالفوا لقطع الطريق بين الشام والعراق ويسمون ذلك، النهيضة، فإنهم يقاتلون كما ذكرنا. لكن قتالهم ليس بمنزلة قتال الكفار، إذا لم يكونوا كفاراً، ولا تؤخذ أموالهم، إلا أن يكونوا أخذوا أموال الناس بغير حق؛ فإن عليهم ضمانها فيؤخذ منهم بقدر ما أخذوا، وإن لم نعلم عين الأخذ. وكذلك لو علم عينه، فإن الردء والمباشر سواء كما قلناه، لكن إذا عرف عينه كان قرار الضمات عليه، ويرد ما يؤخذ منه على أرباب الأموال، فإن تعذر الرد عليهم كان لمصالح المسلمين، من رزق الطائفة المقاتلة لهم وغير ذلك.

## [قاطع الطريق والمكاس]

وأما من كان لا يقطع الطريق، ولكنه يأخذ خفارة أو ضريبة من أبناء السبيل على الرؤوس، والدواب، والأحمال ونحو ذلك، فهذا مكاس، عليه عقوبة المكاسين. وقد اختلف الفقهاء في جواز قتله، وليس هم من قطاع الطريق، فإن الطريق لا ينقطع به، مع أنه أشد الناس عذاباً يوم القيامة، حتى قال النبي (ص) في الغامدية: «لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس، لغفر له» ويجوز للمظلومين الذين تراء أموالهم قتال المحاربين بإجماع المسلمين. ولا يجب أن يبذل لهم من المال لا قليل ولا كثير، إذا أمكن قتالهم.

## [صفات من يستنبيه الإمام لقمع قطاع الطرق]

ولا يجوز أن يرسل الإمام، من يضعف عن مقاومة الحرامية، ولا من يأخذ مالاً من المأخوذين، التجار ونحوهم من أبناء السبيل، بل يرسل من الجند الأقوياء الأمناء، إلا أن يتعذر ذلك، فيرسل الأمثل فالأمثل، فإن كان بعض نواب السلطان أو رؤساء القرى ونحوهم يأمرسون الحرامية بالأخذ في الباطن أو الظاهر، حتى إذا أخذوا شيئاً قاسمهم ودافع عنهم، وأرضى المأخوذون ببعض أموالهم، أو لم يرضهم، فهذا أعظم جرماً من مقدم الحرامية، لأن ذلك يمكن دفعه بدون ما يندفع به هذا. والواجب، أن يقال فيه ما يقال في الردء والعون لهم، فإن قتلوا، قتل هو على قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأكثر أهل العلم.

## [ذنب التهاون في الإخبار والإحضار]

فأما هذا فإنما يعاقب على ذنب نفسه، وهو أن يكون قد علم مكان الظالم، الذي يطلب حضوره لاستيفاء الحق، أو يعلم مكان المال الذي قد تعلق به حقوق المستحقين، فيمتنع من الإعانة والنصرة الواجبة عليه في الكتاب والسنة والإجماع، إما محاباة وحماية لذلك الظالم، كما قد يفعل أهل المعصية بعضهم ببعض، وإما معاداة أو بغضا للمظلوم. وقد قال تعالى «ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى». وإما إعراضاً عن القيام لله والقيام بالقسط الذي أوجبه الله، وجبنا وفشلا وخذلنا لدينه، كما يفعل التاركون لنصر الله ورسوله، ودينه وكتابه، الذين إذا قيل لهم انفروا في سبيل الله اثأقلوا إلى الأرض.

وعلى كل تقدير فهذا الضرب، يستحق العقوبة باتفاق العلماء. ومن لم يسلك هذه السبل، عطل الحدود وضيع الحقوق، وأكل القوي الضعيف. وهو من يشبه من عنده مال الظالم المماثل من عين أو دين، وقد امتنع من تسليمه لحاكم عادل، يوفي به دينه، أو يؤدي به النفقة الواجبة عليه، لأهله أو أقاربه أو مماليكه أو بهائمهم، وكثيراً ما يجب على الرجل حق بسبب غيره، كما تجب عليه النفقة بسبب حاجة قريبة، وكما تجب الدية على عاقلة القاتل وهذا الضرب من التعزيز عقوبة لمن علم أنه مالا أو نفساً يجب إحضاره، وهو لا يحضره. كالقُطاع والسُّراق وحمااتهم أو علم أنه خبير به، وهو لا يخبر بمكانه فأما إن امتنع من الإخبار والإحضار، لثلا يتعدى عليه الطالب أو يظلمه، فهذا محسن. وكثيراً ما يشتبه أحدهما بالآخر، ويجتمع شبهه وشهوته. والواجب تمييز الحق من الباطل. وهذا يقع كثيراً في الرؤساء من أهل البادية والحاضرة، إذا استجار بهم مستجير، أو كان بينهما قرابة أو صداقة، فإنهم يرون الحمية الجاهلية، والعزة بالإثم، والسمعة عند الأوباش أنهم ينصرونه وإن كان ظالماً مبطلاً على المحق المظلوم، لا سيما إن كان المظلوم رئيساً يناديهم وينأويهم فيرون في تسليم المستجير بهم إلى من ينأويهم ذلاً أو عجزاً؛ وهذا - على الإطلاق - جاهلية محضه. وهم من أكبر أسباب فساد الدين والدنيا. وقد ذكر أنه إنما كان سبب حروب من حروب الأعراب، كحرب البسوس التي كانت بين بني بكر وتغلب، إلى نحو هذا، وكذلك سبب دخول الترك المغول دار الإسلام، واستيلائهم على ملوك ما وراء النهر وخراسان، كان سببه نحو هذا.

## II. المرحلة الموحدية-المرينية

نص / تذكير : صورة مثالية للدولة المرابطية<sup>41</sup>

كانت لمتونة قوما غلبت عليهم البداوة، وكانوا مع ذلك أهل دين متين، وقام لهم بالمغرب والأندلس ملك عظيم، فعدلوا في أحكامهم، وواظبوا على الجهاد. وقال ابن جنون<sup>42</sup> : كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة وصحة مذهب، ملكوا بالأندلس من بلاد الإفرنج إلى البحر الغربي في المحيط، ومن مدينة بجاية من بلاد العدوة إلى جبل الذهب من بلاد انسودان، لم يجز في عملهم طول أيامهم رسم مكس ولا معونة ولا خراج في بادية ولا في حاضرة<sup>43</sup>، وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر، وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن، تنهى القمح في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال، والثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال، والقطاني لا تباع ولا تشتري، كان ذلك مصطحبا بطول أيامهم، ولم يكن في عمل من بلادهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشى الزكاة والعشر، وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع ولا من يقوم عليهم، وأجبههم الناس إلى أن خرج عليهم مهدي الموحدين في سنة خمس عشرة وخمسائة (1121-1122 م).

41. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 166-167.

42. لعله أبا القاسم بن جنون، ووصفه البعض بقاضي مراكش، وينسب إليه كتاب تاريخ فاس، وقد نقل عنه مؤلف اللخيرة السنية، والعمرى صاحب مسالك الألبصار، والراجع أنه عاش بين أواخر القرن السابع وأوائل الثامن للهجرة.

43. قارن مع :

Vincent Lagardère, *Les Almoravides*, pp. 207-219.

تناول المؤلف يتفصيل أنواع الجبايات «غير الشرعية» في عهد دولة المرابطين، ويميز بين أربع مجموعات من الرسوم التجارية، ومنها «واجبات المرور»، و«واجبات المعاملات»، و«حقوق الأرض». ومعلوم أن الضرائب غير الشرعية كانت من عوامل سقوط دولة المرابطين، إلى جانب العجز عن احتواء الزعامات المحلية، أو عن إحداث «بيروقراطية» ودية، وتصاعد الاستياء بالأندلس، وعدم الابتعاد الكافي عن المنطقة الأصل. انظر على سبيل المثال :

Pedro Chalmeta, art. «al-Murâbitûn», *E.I.*, 2<sup>e</sup> éd., t. 7, pp. 589-591 ; Ronald A. Messier, «Re-thinking the Almoravids, Re-thinking Ibn Khaldûn», *The Journal of North African Studies*, vol. 6, n° 1, spring 2001, pp. 72-75.

## 1. عهود وأوصاف

نص 1 : أبو يعقوب يوسف الموحي<sup>44</sup>

صفته : كان أبيض اللون تشوبه حمرة، حسن القد التام، أشعر اللحية، أجعد الشعر، أفلج، أقنى، أعسر أيسر، يعمل بيديه جميعاً، عاقلاً صالحاً ورعاً فاضلاً، متوقفاً في سفك الدماء، حليماً، حسن السياسة والتدبير، مصيب الرأي، محباً في الجهاد، لما ولي أخذ بنهج أبيه وسلك سبيله واهتدى بهديه، وسار بسيرته واقتدى بأفعاله، وجمع الأموال الكثيرة، وهو أول ملك من ملوك الموحيين جاز إلى الجهاد فغزا بنفسه، وواظب عليه، واقتنى الذخائر، واستكثر من الجيوش والجنود، ومهد البلاد، وأطاعه من بالعدوتين من العباد، وضخم ملكه، فكان ملكه من سويقة ابن مكتود قاصية بلاد أفريقية<sup>46</sup> إلى أقصى بلاد نول من أرض السوس الأقصى إلى آخر بلاد القبلة، وملك بالأندلس من مدينة تطيلة، قاصية بلاد شرق الأندلس إلى مدينة شنترين من بلاد غرب الأندلس، يجسب إليه خراج ذلك كله دون مكس ولا جور، فكثرت الأموال في أيامه وتمهدت البلاد، وتأمنت الطرقات، وضبطت الثغور، وصلاح أمر الناس في البادية والحاضرة<sup>47</sup>، وذلك لحسن سيرته الجميلة، وعدله الشامل لرعيته، وتفقده لأحوال بلاده القريبة والبعيدة ومباشرة أمور مملكته بنفسه حتى لا يغيب عنه منها شيء، ولا يدخله فتور عن النظر في أموره ولا يكلها إلى غيره.

نص 2 : أبو يوسف يعقوب<sup>48</sup>

ولما تمت له البيعة وأطاعته الأمة كان أول شيء فعله أنه أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال ففرقها في الضعفاء من بيوتات بلاد المغرب وكتب إلى جميع بلاده في تسريح السجون ورد

44 . ابن أبي زرع، م.س.، ص. 205-206. ومعلوم أن أبا يعقوب يوسف بويج ليلة وفاة أبيه عبد المومن سنة 558 للهجرة (1163 للميلاد)، وتوفي سنة 580 للهجرة (1184 للميلاد). وقد اختبره الأشياخ الموحدون، ولا سيما أبو حفص، خلال مدة سنتين قبل الاعتراف به. وعرف عهده ظاهرة عدم الاستقرار في مستوى رجال الجهاز المخزني، وذلك بسبب صعوبة التوفيق بين حركة ذات بنية أوليغارشية استنارية، وبين ملكية فردية تفرزها ضرورة الحفاظ على الامبراطورية. راجع :

Abdallah Laroui, *Histoire du Maghreb : Un essai de synthèse*, Paris, 1970, pp. 174- 175.

والملاحظ أن صاحب روض القرطاس أسهب في استعراض جوازات الخليفة المذكور إلى الأندلس قصد الجهاد.

46. في سياق استعراض أحداث سنة 603 للهجرة، توقف ابن عذاري عند الحملة العسكرية التي نظمها الخليفة الموحي الناصر بافريقية، من أجل «تهديد ما بقي من تقلقلها وخلافها». فخرج الناصر من تونس مع عسكره، ووصاروا يضربون في أرض تلك الأقاليم غرباً وشرقاً، ويتقصون آثار المفسدين بها فطراً فطراً وأفقاً أفقاً، حتى دوخوا ما وراء اطرابلس واستأصلوا بني دمر ومطماطة وما ولاها ووقفوا على آخر جبال نفوسة وجاوزوا حد عمرانها المحدود، وشارفوا سويقة بني مكود... البيان، ج / الموحدون، ص. 248.

47 . التأكيد منا.

48. ابن أبي زرع، م.س.، ص. 216-218. تولى يعقوب الخلافة سنة 580 للهجرة (1185 للميلاد) في سن السادسة والعشرين، وتوفي في سن الثانية والأربعين. وقد تميز عهده بأحداث كبرى مثل بناء رباط الفتح، وترحيل قبائل بني هلال من إفريقية إلى المغرب الأقصى، والانتصار في معركة الأرك بالأندلس (595 للهجرة / 1195 للميلاد). واشتهر الخليفة يعقوب في آن واحد بالقساوة والاستقامة وقوة المشاعر الدينية والميول الصوفية، إلى درجة أنه تحول بعد موته إلى شخصية أسطورية. راجع محمد زنيبر، «حفريات عن شخصية يعقوب المنصور»، ضمن المغرب في العصر الوسيط، الدولة- المدينة- الاقتصاد، للمؤلف، تنسيق محمد الفراوي، الرباط، 1999، ص. 215-264. وكذا:

المظالم التي فعلها العمال في أيام أبيه، وأكرم الفقهاء وراعى الصلحاء والفضلاء وأجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال، وأوصى ولاته وعماله بالرجوع إلى أحكام القضاة، وتفقد أحوال بلاده ورعيته، وضبط الثغور وشحنها بالخليل والرجال، وفرق في الموحدين وسائر الأجناد أموالاً كثيرة.

وكان ذا رأي وحزم ودين وسياسة، وهو أول من كتب العلامة بيده من الموحدين، (الحمد لله وحده)، فجرى عمله على ذلك، وهو واسطة عقدهم الذي ضخم الدولة وشرفها، وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وبنية حسنة، صنع الله عز وجل في أيامه الأمن بالمشرق والمغرب والأندلس، فكانت الظعينة تخرج من بلاد نول لمطة حتى تصل برقة وحدها لا ترى من يعارضها ولا من يكلمها<sup>49</sup>، وصنع عام الأراك المشهور، وحصن البلاد، وضبط الثغور، وبنى المساجد والمدارس في بلاد أفريقية والمغرب والأندلس، وبنى المارستان للمرضى والمجانين وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم، وأجرى الإنفاق على أهل المارستان والجذمي والعميان في جميع عمله، وبنى الصوامع والقناطر والجباب للماء، واتخذ عليها المنارات، وبنى المنازل من سوس الأقصى إلى سوقة بني مكتود، فكانت أيامه زينة للدهر وشرفاً لأهل الإسلام، ولم يزلوا فيها أعزة ظاهرين على العدو قاهرين له.

نص 3 : يحيى المعتصم<sup>50</sup>

اجتمع أشياخ الموحدين على بيعته بعد بيعتهم للمامون وقتلهم العادل، وسبب اجتماعهم على بيعته أنهم كتبوا للمامون بالبيعة وبعثوا بها إليه، ثم ندموا وخافوا لما يعرفون من شهامة المامون وشدة سطوته وكونهم قتلوا عمه عبد الواحد المخلوع، ثم أخاه العادل، فخافوا أن يطلبهم بثأر من قتلوه من قرابته، فلجأوا إلى يحيى فبايعوه لصغر سنه، فإنه كان يوم بوع ابن ست عشرة سنة، فبايعوه بجامع المنصور من قسبة مراكش بعد صلاة العصر من يوم الاثنين الثامن والعشرين لشوال سنة أربع وعشرين وستمائة (11 أكتوبر 1227م)، فامتنع من بيعته عرب الخلط وقبائل هسكورة، وقالوا قد بايعنا إدريس المامون فلا ننكث بيعته، فجهز لهم يحيى جيشاً من الموحدين والأجناد وبعثهم إلى قتالهم

49. التأكيد منا. قارن مع صيغة أخرى وردت حول نفس الخليفة في مكان آخر من كتاب القرطاس. «وكانت طاعته فد عمت بلاد الأندلس بأسرها والمغرب كله وإفريقية من طرابلس إلى بلاد نول من السوس الأقصى إلى الصحراء من بلاد القبة» (م.س.، ص 230). ومن المفيد أن نقارن كذلك مع الصيغة التي سوف تستعمل بالنسبة لمعهد السلطان العلوي إسماعيل، والواردة أدناه، ص 143. والظعينة تعني لغة الرحلة التي يرحل عليها، والهودج، والمرأة في اليهودج، وامرأة الرجل. وتوجد صورة مثيلة في مناطق أخرى من العالم. فقد عرف المغول، خلفاء جنجيز خان، بتأمينهم له «طريق الحرير». وفي هذا السياق، قيل إن عذراء يافعة، تحمل فوق رأسها كأساً من ذهب، كان بإمكانها أن تجتاز منطقة قزوين حتى بلاد كوريا الحالية دون أن تخاف على عرضها أو ثروتها. انظر :

Bernard Ollivier, *Longue marche. A pied de la Méditerranée jusqu'en Chine par la Route de la Soie*, Paris, 2000, pp. 24-25.

50. ابن أبي زرع، م.س.، ص 248-249. بوع يحيى بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور سنة 624 للهجرة (1127 للميلاد)، ودام عهده تسع سنوات، ولم يعرف الاستقرار إلا لمدة سنتين تقريباً. ويظهر من النص أن دولة الموحدين دخلت آنذاك مرحلة الضعف العسكري، والخلاف الحاد بين الأشياخ ومستشاري الخليفة. وتزامن حكم يحيى المعتصم مع حكم إدريس المامون (630-665 للهجرة / 1227-1232 للميلاد). وقد بوع هذا الأخير بالأندلس، وأعلن القطيعة مع مذهب ابن تومرت، وظل يتمتع بدعم قبائل هسكورة والخطط الهلاليين. ومعلوم أن يحيى المعتصم قتل غدرًا من طرف عرب المقل سنة 633 (1236 للميلاد).

فهزمهم الخلط وهسكورة، وهم في طاعة المامون، ورجع جل الموحدين منهزمين إلى مراكش بعد أن قتل منهم خلق كثير، وتوالت في أيامه على عساكره الهزائم والقتل والأسر وسلبت أموالهم وتبدلت أحوالهم.

ولما تمت بيعته بمراكش بعث إلى الشيخ عبد الرحمان ابن برجان وابنه عبد الله فضرب أعناقهما وأمر بتعليق رؤوسهما على باب الكحل، وطيف بجسديهما في المدينة، وأقام يحيى بمراكش شهراً من ولايته، فاضطربت عليه البلاد وغلت الأسعار وخيفت الطرق وفشا الفساد والخراب في المغرب لكثرة الفتن<sup>51</sup>، وعاد أشياخ الموحدين يعثون ببني عبد المؤمن، يبايعون وينكثون، ويخلعون ويقتلون.

نص 4 : عثمان بن عبد الحق المريني<sup>52</sup>

وفي هذه المدة ضعفت دولة الموحدين، وظهر فيها النقص وتبين أي تبين، وصارت ملوكهم ليس لهم حكم في البوادي، وإنما سلطانهم وأوامرهم في المدن الخاصة، وكثرت الفتن بين القبائل، واشتد الخوف في الطرقات والمناهل، ونبذ أكثر الناس الطاعة، وفارقوا الجماعة، وقالوا لولا أنهم لا سمع ولا طاعة، فاستوى الدنيء والشريف، وأكل القوي الضعيف، وكل من قدر على شيء صنعه، ومن أراد شراً ابتدعه، وليس لهم سلطان يكفهم، ولا أمير من غيهم يردهم ويصدهم<sup>53</sup>، وكانت قبائل فازاز من جناتة وقبائل من العرب والبربر يقطعون الطرقات، ويغيرون على القرى والمجاشر مع الأحيان والأوقات.

فلما رأى الأمير عثمان بن عبد الحق أن الملوك الموحدين، قد ضعفت دولتهم، وضيعوا حرمتهم، وأهملوا رعيتهم، واعتكفوا في قصورهم، واحتجبوا عن مهمات أمورهم، واشتغلوا بالخمور والغواني، وتلذذوا باللهو وسماع الأغاني، ورأى أن ضلالهم قد تبين، وغزوه على من له قدرة قد تعين، وخلصهم من أوجب الواجب، لعجزهم عن القيام بالحق الواجب، جمع أشياخ مرين، وندبهم إلى القيام بأمر الدين، والنظر في مصالح المسلمين<sup>54</sup>، فوجدهم إلى ذلك مسرعين، فسار بجيوشه الوافرة، وجنوده المنصورة الظاهرة، في بلاد المغرب وقبائله، وجباله وأوديته ومناهله، فمن سارع إلى بيعته ودخل في طاعته، أمنه ووضع عنه الخراج، وتركه آمناً منيعاً، ومن حاده ونايذه أباده نهياً وقتلاً وغادره صريعاً، فكان من بايعه من قبائل المغرب هواره وركارة، ثم تسول ومكناسة، ثم بطوية وفشتالة، ثم صدراتة وبهلولة ومديونة، فوضع عليهم الخراج، وأخرج لهم الحفاظ، وصالح أهل مدينة فاس ومكناسة

51 . التأكيد منا.

52 . ابن أبي زرع، م.س.، ص. 288-289. تزعم عثمان بن مرين سنة 614 للهجرة (1217 للميلاد)، على إثر مقتل الأمير عبد الحق وابنه إدريس في حربهما ضد عرب رباح (من بني هلال) المقيمين بسهلي الهبط وأزغار. لذلك سوف تكون محاربة هؤلاء من أولويات العاهل الجديد. وقد دام عهده زهاء ثلاث وعشرين سنة، ودبر ابن وانودين الموحد اغتياله سنة 638 للهجرة / 1240 للميلاد.

53 . التأكيد منا.

54 . ينسب النص مشروعاً سياسياً لبني مرين في هذه المرحلة، بيد أن هؤلاء كانوا في الواقع أداة استعملتها دولة بني حفص ضد الموحدين الذين حاولوا توظيف قبائل بني هلال لزعة نظام حكام تونس. راجع :

Mohammed Kably, *Société, pouvoir et religion*, pp. 38-39.

ورباط تازة وقصر عبد الكريم على أموال معلومة يؤديونها إليه في كل سنة على أن يؤمن بلادهم ويرفع عنهم الغارات، ويدفع عنهم أذى من كان يؤذيهم من القبائل<sup>55</sup>.

نص 5 : أبو بكر بن عبد الحق<sup>56</sup>

وفي آخر شهر ربيع الأول من سنة ست وأربعين (الخميس 23 يوليو) المذكورة ملك أبو بكر مدينة فاس ودخلها صلحاً عن رضى من أهلها، فبعث إليه أشياخها فأتاهم فبايعوه بالرابطة التي بخارج باب الشريعة، وكان أول من بايعه الشيخ الفقيه الصالح عبد الله الفشتالي، ثم الفقهاء والأشياخ، وأخرجوا السيد أبا العباس من القصبه بعياله وأولاده فأمنه الأمير أبو بكر وأعطاه خمسين فارساً يبلغونه إلى وادي أم الربيع، ودخل الأمير أبو بكر مدينة فاس يوم الخميس قرب الزوال السادس والعشرين من ربيع الآخر من السنة المذكورة (18 غشت) وذلك بعد موت السعيد بشهرين، فاستقامت له الأمور بالمغرب وتمهد له الملك وقدمت عليه الوفود للبيعة والتهنئة وتهندت البلاد وتأمنت الطرقات وكثرت الخيرات، وتحركت التجارة، وأمر القبائل بسكنى الأوطية وعمارة القرى والمداشر الخالية والاستكثار من الحرث، فرخصت الأسعار وصلح أمر الناس<sup>57</sup>، وأعطى رباط تازة إلى أخيه يعقوب مع جميع ملوية، وأقام بمدينة فاس سنة كاملة، والوفود تقصد إليه من كل ناحية.

نص 6 : يوسف بن يعقوب<sup>58</sup>

بويغ له بالخلافة بالجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس يوم وفاة أبيه، وكان غائباً ببلاد العدو فأخذ له البيعة الوزراء والأشياخ وبعثوا إليه فاتصل به الخبر وهو ببعض أحواز مدينة فاس فجد السير إلى طنجة فوجد الأسطول هنالك ينتظره، فجاز إلى الجزيرة وبها جمع قبائل مرين وقبائل العرب فجددت له البيعة بها واجتمع على بيعته كافة قبائل مرين وقبائل العرب وجميع من بالعدوة والأندلس من المسلمين، وذلك في غرة صفر من سنة خمس وثمانين وستمائة (الجمعة 29 مارس 1286 م) وسنة

55. في سياق استعراض أحداث سنة 636 للهجرة (1236-1237 للميلاد)، ذكر ابن عذاري انتصار بني مرين على عرب رباح، وسيطرتهم على «بلاد الغرب»، ثم قال : «فأمنوا السبل وسدوا الخلل، فانسعت أحوالهم وانبسطت أعمالهم، فصار أهل تلك البلاد يعظموهم غاية الإعظام، ويعاملونهم بالبر والإكرام، ويعظونهم مالا معلوما في العام، فكانت السبل آمنة والحاضرة والبادية هادئة، ونفوس أهلها بالغاية ساكنة...» الليان، (قسم الموحديين)، ص. 235.

56. ابن أبي زرع، م. ص. 293-294. سمت بعض المصادر نفس العاهل أبا يحيى. وقد بويغ في أوائل سنة 646 للهجرة (1248 للميلاد)، بعد مقتل أخيه أبي معرف بن عبد الحق، وتوفي سنة 656 (1258 للميلاد). وقال عنه ابن أبي زرع : « هو أول ملك في بني مرين جند الجنود، وضرب الطبول ونشر البنود، وملك الحصون والبلاد». وقد قسم تراب المناطق المزمع احتلالها بين قبائل بني مرين، على أساس انفراد كل قبيلة بمدخيل جباية المنطقة التي أسندت إليها. وتميز عهده بمهادنة الخليفة الموحد السعيد، وتحركات يغمراسن حاكم تلمسان، وتقدم الزحف العسكري المريني في اتجاه منطقة «الغرب» وسجلماسة ودرعة. راجع :

Mohammed Kably, *op. cit.*, pp. 48- 52.

57. التأكيد منا. ومن المفيد أن نتأمل الترابط الذي يقيمه النص بين عدد من المجالات.

58. ابن أبي زرع، م. ص. 375-376. بويغ يوسف سنة 685 للهجرة (1286 للميلاد). وعرف عهده عددا من ثورات الأمراء المتطلعين إلى الملك (مثل ابن عمه محمد بن إدريس بن عبد الحق). ودشن يوسف خطة التوسع في مستوى المغرب الكبير. ففي سنة 1295 بدأت المواجهة مع مملكة بني عبد الواد، وتمكن العاهل المريني من احتلال المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر. ودام حصار تلمسان ثمان سنوات، وكاد أن يصيب هدفه لولا اغتيال يوسف داخل قصره سنة 706 للهجرة (1307 للميلاد).

يوم ببيع خمس وأربعون سنة وثمانية أشهر.

ولما تم له الأمر واستقامت له الخلافة فرق الأموال على جميع قبائل مرين والعرب والأندلس والأغزاز وسائر الأجناد، وأحسن إلى الفقهاء والصلحاء، وأخرج الصدقات إلى الضعفاء، وسرح السجون في جميع بلاده، وتصدق بترك الفطرة على الناس، وقال من وجب عليه أداؤها يتصدق بها لنفسه حيث شاء، ورفع الأتزال عن ديار الرعية، وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس، وأزال المكوس، وأمر بهدم المروس، وقمع البغاة، وأباد الطغاة، وأمن الطرقات<sup>59</sup>، وأزال أكثر الرتب والقبالات التي كانت بالمغرب إلا ما كان منها بالبلاد الخالية، والمفازات العالية، فخضعت مرين تحت قهره وصلح أمر الناس في أيامه<sup>60</sup>.

صفته : كان رحمه الله أبيض اللون حسن القدم مليح الوجه أفتى الأنف، مهيباً لا يكاد أحد يبتدئه بالكلام من مهابته، ذا أناة وسياسة، فإذا عزم بطش، وإذا أخذ أفتى، يستبد برأيه دون وزرائه، قاهراً في سلطانه، إذا أعطى أغنى، وإذا صال أفتى، شقيقاً بالضعفاء، متفقداً لأحوال رعيته وبلاده، غليظ الحجاب، لا يكاد يوصل إليه إلا بعد الجهد.

59 . في رمضان من سنة 686 للهجرة، خرج يوسف من مراكش «لغزو العرب ببلاد قبلة درعة الذين كانوا يقطعون في طريق سجلماسة». وبعد بلوغ «القبلة بما يلي الصحراء»، قتل عددا كبيرا من رجال القبائل المستهدفة، «وأمر بقطع رؤوسهم وحملها إلى مراكش وفاس وسجلماسة وتعليقها في الأسوار». ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 378.

60 . التأكيد هنا. والملاحظ أن ابن خلدون أعاد أهم العناصر الواردة في هذه الفقرة. «وقبض أيدي العمال عن الظلم والاعتداء والجور على الرعايا، ورفع المكوس ومضى رسوم الرتب، وصرف اعتناؤه إلى إصلاح السابلة». العبر، ج 13، ص. 436.

## 2. إجراءات

نص : أبو الحسن المريني في «مسند» ابن مرزوق<sup>61</sup>

[في تمهيده طرق المسافرين]

لا خفاء أن تأمين السبل وتمهيد الطرق من أفضل الأعمال كما أن إخافة السبل من أقيح المعاصي، وهذا مما لا يحتاج إلى تمهيد الدلائل عليه.

كان هذا العمل عند إمامنا المرحوم من أهم الأعمال وأكد ما تنصرف همتهم الشريفة إليه، فرأى أن يعمر طرق المسافرين من حضرته بفاس إلى مراكش وإلى تلمسان إلى سبتة وغيرها من البلاد بالرتب (وهي خيام)، يأمر بسكنائها على مقدار اثني عشرة ميلاً يسكنها أهل الوطن ويجري لهم على ذلك إقطاع من الأرض يعمرونها على قدر الكفاية ثواباً على سكنى المواضع المذكورة، يلزمون فيها ببيع الشعير والطعام وما يحتاج إليه المسافرون من الأدم على اختلافها والمرافق التي يضطرون إليها، هم وبهائمهم ويحرسونهم ويحوطنون أمتعتهم، فإن ضاع بينهم شيء تضمنوه فلا يزال المسافر كأنه في بيته وبين أهله، في ذهابه وإقباله<sup>62</sup>. وقد جرى هذا النمط واستمر والحمد لله في بلاد المغرب (فإنه يعظم أجره ويجزل ذخره بمنه وفضله).

61. ابن مرزوق، المسند، ص. 397-399، 409-429.

62. لاحظ ما نقله من هذه الفقرة بشكل حرفي (مع تغيير طفيف لبعض التعابير) المؤرخ أحمد بن القاضي في ذكره لأثر العامل السعدي أحمد المنصور. «اعلم أن مخدومنا أولى ما صرفت إليه همته تمهيد الطرق على المسافرين بمنازل وخيام أمر بسكنائها على الطريق، بين المنزلة والمنزلة ما يقرب من أربعة وعشرين ميلاً، يسكنها أهل البادية، فقد أجرى لهم على ذلك من إقطاع الأرض ما يكفيهم ثواباً لهم على سكنائهم هنالك وأمرهم ببيع الشعير، والطعام، واللحم، والعلل، وغير ذلك مما يحتاج إليه المسافر ودوابه، وفي بعض المنازل من يصنع أطعمة جيدة ويبيعها ممن يستحقها، وإن باتت لديهم قافلة يحرسونهم طول الليل، ويحوطنون أمتعتهم، وإن ضاع شيء فيما بينهم ضمنوه لربه حتى لم يبق له درهم واحد، وإن كان ضياعه فيما بين المنزلتين ضمنه أقربهما منه أي من كان ذلك في حدوده المألوم، فتجد المسافر في حال ذهابه وإيابه كأنه في بيته وبين أهله». انظر المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، 1986، ج 2، ص. 827-828. أما عن الإنجازات المموسة في عهد أحمد المنصور، فقد ذكرت بعض المصادر ظاهرة «دور أم السلطان»، ومن بينها دار قرب مكناس، بالموقع المعروف حالياً ب«الشعبة السعيدة». وقد ورد ذكرها في معرض إحدى حركات الحسن الأول، انظر ابن زيدان، الإنحاف، ج 2، ص. 263. وعابن أطلالها محمد بوبية (المتوفى سنة 1978 للميلاد) صاحب كتاب يتضمن تاريخاً محلياً وسيرة ذاتية، وعنوانه قبائل زموور والحركة الوطنية. ويبدو من خلال تعريفه أن وظائف هذه الدور تماثل وظائف «النازل» التي أسسها أبو الحسن المريني. انظر ص. 113 - 115. وتعود تسمية «دار أم السلطان» في الواقع إلى مسعودة أم

أحمد المنصور (المتوفاة في 27 محرم 1000 للهجرة). وهي بنت الشيخ أبي العباس الوركنتي الوركزاتي. وقد اشتهرت كأمارة صالحة، أنشأت المسجد الجامع بحومة باب دكالة بمدينة مراكش. ويوضح الناصري في الاستقصاء، ج 5، ص. 118 : «المرقوم على رخامة قبرها أنها بنت جسر بن بلطف التشنية وترزع العامة أنها بنت المسجد المذكور كفاية لما انتهكته من حرمة رمضان وذلك أنها دخلت بستاناً من بساتين قصورها وهي في حالة الوحم فرأت به خوفاً ورماتاً فتناولتهما وأكلت منهما في نهار رمضان ثم ندمت على ما صدر منها وقبعت أفعالا كثيرة من باب الرجاء أن يتجاوز الله عنها، ومنها الجامع المذكور، ولا زال النساء والصبيان يسجعون بقصبتها إلى الآن فيقولون: عودة أكلت رمضان بالخوخ والرمان. (...) ولفظعة عودة مخفف من مسعودة على طريقة البربر في مثل هذا والله تعالى أعلم».

## [في إنشائه الزوايا]

في ثواب هذه الأعمال .

لا شك أن الثواب بقدر الأعمال والأجور على حسب الإنفاق وتعدد المنافع ولهذا أصول

في الشرع .

أما اتخاذ الزوايا فقد استدل غير واحد من علمائنا على أن الأصل في استعداد الزوايا والخواتق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألزم فقراء أصحاب الكون في الصفة، وهو موضع معروف بالمدينة حذاء مسجده صلى الله عليه وسلم . وقد زعم كثير من المتصوفة أن هذا هو الأصل في إطلاق هذا اللقب على المتصوفة . ولأئمتنا رضي الله عنهم في ذلك كلام متسع (...).

وهذه الزوايا هي التي يطلق عليها في المشرق الربط والخواتق<sup>63</sup>، والخانقات علم على الربط وهو لفظ أعجمي، والربط في اصطلاح الفقهاء عبارة عن احتباس النفس في الجهاد والحراسة . وعند المتصوفة عبارة عن الموضع الذي يلتزم فيه العبادة . وعن الإمام سري السقطي رضي الله عنه «اصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» (...).

قلت : والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين<sup>64</sup> . وأما الربط على ما هو المصطلح عليه في المشرق فلم أر في المغرب على سبيلها ونظها إلا رباط سيدي أبي محمد صالح<sup>65</sup> والزاوية المنسوبة لسيدتنا أبي زكرياء يحيى بن عمر (نفع الله بهم) بسلا غربي الجامع الأعظم منها<sup>66</sup>، ولم أر لهما ثالثاً على نحوهما في ملازمة السكان وصفاتهم وشبههم بمن ذكر نفع الله بهم .

63 . في سياق أخبار إقامته بمدينة مصر (القاهرة)، يتوقف ابن بطوطة عند ظاهرة الزوايا فيسهب في تعريفها . «وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخواتق، واحدها خانقة . والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء، وأكثرهم الأعاجم؛ وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف .» ثم يصف المؤلف طقوس الاستقبال والإيواء والإطعام وقراءة القرآن والذكر بالزاوية، وعدداً من الجوانب التي تهتم بتنظيم الحياة اليومية بهذه المؤسسة . راجع تحفة النظر، ص. 56-57 . وحول تحديد الفرق بين الزاوية والرباط والخانقاه بالمشرق، راجع :

Donald P. Little, « The Nature of Khanqahs, Ribats, and Zawiya under the Mamluks », in Wael B. Hallaq & Donald P. Little. *Islamic Studies Presented to Charles J. Adams*, Leiden, 1991, pp. 91-105.

64 . كانت إحدى أهم زوايا مدينة سيطة الزاوية التي أسسها أبو عنان ابن أبي الحسن، «وأعداها هناك للغرباء ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار وغيرهم». انظر محمد بن قاسم الأنصاري، اختصار الأخبار هما كان بشعر سبته من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1983، ص. 23.

65 . هو رباط أسفي الذي أسسه الولي أبو محمد صالح المتوفى سنة 638 للهجرة . وقد عرف بعدة جوانب من بينها تأسيس طائفة، والدعوة إلى الحج بعدما أفتى كبار الفقهاء بإسقاطه، وتأسيس ركب الحاج . راجع الكتاب الجماعي أبو محمد صالح : المناقب والتاريخ، وكذا أدناه، ص 149.

66 . نزل بها الولي أحمد ابن عشر بعد وفاة شيخه الياقوت بالرباط (انظر حول الاثنين أدناه، ص 170، هامش 3). وكان يدبرها آنذاك محمد بن عيسى السلاوي، وهو تلميذ الشيخ أبي زكريا . وقد زارها ابن قنفذ صاحب كتاب أنس الفقير . ومن أشهر الزوايا بنفس المدينة، «زاوية النساك» التي بناها أبو عنان خارج سلا مقابلة ضريح أبي العباس .

## [في إنشاء المحارس والمناظر في جميع بلاد السواحل وهي مواضع الرباط]

لا خفاء بفضل الرباط والحراسة في سبيل الله. وقد روينا في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله ». وعن سلمان رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رباط يوم في سبيل الله وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » (رواه مسلم). وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر » (رواه أبو داود و الترمذي. وقالوا : حديث حسن صحيح). وعن عثمان رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » (رواه الترمذي. وقال : حديث حسن). والأحاديث والآثار في الباب كثيرة، والرباط والحراسة في سبيل الله من أفضل الأعمال.

أنشأ هذا المولى رضي الله عنه من المحارس والمناظر ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصار. وحسبك أن مدينة أسفي وهي آخر المعمورة إلى بلد الجزائر، جزائر بني مزغنان آخر وسطى الغرب وأول بلاد إفريقية، محارس ومناظر، إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحواً من شهرين، وفي كل محرس منها رجال مرتبون، نظار وطلاع، يكشفون البحر، فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين، إلا والتنوير يبدو في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم، فأمنت السواحل في أيامه السعيدة، ما كان يستمر فيها من أسر أهل البوادي وتصبيحهم والاستيلاء على كثير من أهل العمود الذين يأوون إلى البلاد الشطية والسواحل.

من أعجب ما أنشأه من هذا النمط رضي الله عنه، الأبراج التي اجتمع أهل الخبرة بالمباني وعرفاء العمارة قبل أن تنشأ لا يتصور بناؤها على الوجه الذي قدره وأورده، فجاءت على أتم الوجوه من الإحسان. فمنها برج الماء الذي أنشأه داخل البحر ووسط الأمواج ببحر بسول من ساحل سبتة، وقد حضرت إنشائه، وكان قد اجتمع الملاء على عدم إمكان بنائه هنالك، فنقلت الصخور التي هي كالروابي والأحجار التي لا يتزحزح مثلها إلا بهندسة وإحكام وعجل، فالتقيت في تلك التروش وضم إليها أمثالها حتى صارت جزيرة في وسط البحر، فأقام عليها ذلك البرج المشيد المعروف هناك. ثم أمر بعمل جسر يمر من الساحل إلى هذا البرج، بحيث يتمكن مشي البهيمة عليه واتصال مشاه من البر إلى البرج. صان ذلك البرج جميع المرسى، فلا يتهدأ لأحد من المراكب الدخول لذلك المرسى إلا أن يكون صديقاً، وإلا فهو يشرف على جميع ما يدخل تحته وهو من

أعاجيب معمّورات المعمورة.  
ومنها البرج الذي يلي المشحن أيضاً من المدينة المذكورة، وأخران من هذا النمط بالجبل  
المحروس<sup>67</sup>.

---

67. بدأ بناء المحارس بسببنة منذ عهد دولة المرابطين. فقد شيد هؤلاء «طالع سببنة الذي بأعلى جبل ميناها المعروف عند الناس  
بالتاور...». محمد بن قاسم الأنصاري، م.س، ص. 3-2-33.

## 3. بين التأمين والابتزاز

نص : رسالة ابن عباد إلى أبي فارس عبد العزيز<sup>68</sup>

(...) وقد طالت غيبتكم عنا واستوحشنا لمنال قربكم منا، ووددنا لو أن الله تعالى ظفركم، وسهل لكم الأمر ويسر عليكم العسر ورجعتم إلينا سالمين غائمين فرحين بنعمة الله تعالى عليكم من النصر والظفر، ولكن الأمر بيد الله ولكل أجل كتاب (...).

كان وقع من التنبيه لكم تطريحا وتلويحا في غير كتاب أن لا وصول إلى ذلك إلا بتقواكم الله تعالى، ودفع المظالم وإبصال الحقوق، وأخبرتكم أن هذا من الأمور القطعية التي لا يمكن وقوع خلافها، لما دل عليه من نصوص الكتاب والسنة وأحوال السلف الصالح رضي الله عنهم.

فلما رأيت الآن في أمركم بعض التعسر المرجو تسيره عن قريب إن شاء الله تعالى، دلنا ذلك على أنكم لم تبالغوا فيما طلبناه منكم بما ذكرناه كل المبالغة، بل اعتمدتم في ذلك على أسباب خارجة لا تأثير لها في حصول مقصودكم، فلما تحققت ذلك سقط في يدي، وأيقنت بخيبة سعبي، وفقد قرة عيني من حصولكم إلى نهاية السعادة في الدنيا والآخرة مع تمكنكم من ذلك لأيسر شيء، وكربت لذلك كربا شديدا، وليس ذلك بغريب مع ما جبلت عليه من محبتكم، وإرادة الخير لكم، وشدة شفقتي عليكم، ولكن الرجاء في فضل الله تعالى في أن يوفقكم ويسدكم ويلفكم أفضل ما نحن أملون له فيكم لم ينقطع عنا، والحمد لله، وهو الذي أوجب تكرار الكتب إليكم وتجديد الوصية لكم بعد طول المدة وبعد المشقة.

وقد كنت طلبت منكم -في آخر كتاب كتبته لكم- أن تزيلوا مظالم الرتب التي أحدثت بطرق المسافرين<sup>69</sup>، وأخبرناكم بما شاهدنا فيها من المفاصد المشينة لحسن دولتكم، والمكدره صفاء حالكم، فلم تسعفوا طلبنا بذلك، وشاء الله بقاءها.

وأنا -الآن- أجد الرغبة إليكم في ذلك والأخبار بحالها، فاعلم -يا أمير المؤمنين- أن من تولى ذلك من أهل الفساد والشر قد انتشروا في بسيط الأرض، وقطعوا طرقاتها على المساكين والمستضعفين، وحازوا منهم من الأموال الحرام بالتهب والغصب ما استعانوا به على ارتكاب الكبائر والفواحش، حيث لا تتألم أحكامكم، وهم أراذل الناس وسفهاؤهم، لم يدينوا الله بدين لا دخلوا

68. السلمي، رسائل مرينية، ص. 358-362. سبق لمحمد المنوني أن نشر جزءاً من الرسالة المذكورة في ورقات، ص. 227-229. وقد فضلنا اعتماد البحث الجامعي المرقون لرشيد السلمي، رسائل مرينية، حيث يرد تحقيق مجموع النصين المتوفرين لرسالتني ابن عباد. وقد حذفنا من نص الرسالة فقرات طويلة أورد فيها ابن عباد استشهادات من القرآن والحديث، وبعض الأقوال المأثورة حول شروط العدل واختيار العمال والولاية. وحول جوانب السياق التاريخي، راجع :

Mohammed Kably, *Société, pouvoir et religion*., pp. 224-226.

وفي مستوى اللغة والخطاب، قارن مع «رسالة الفصول» التي وجهها الخليفة الموحد عبد المومن إلى «جميع الطلبة الذين بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة». انظر نص الرسالة الوارد في كتاب ابن القطان، نظم الجمان، ص. 188-195. 69. التأكيد منا.

في غمار المسلمين، ولو رأيتهم - يا أمير المؤمنين - حالي معهم عند قدومي من فاس، وما كنت فيه من الذلة والمسكنة بين أيديهم، وكنت أعدى عدو لكم - والعياذ بالله - لأدرتكم شفقة الإيمان على كل من يبتلي بها، حيث لا ناصر له ولا معين.

وما كنت ذكرتكم في ذلك الكتاب، من أن السلطان أبا الحسن والدمك - رحمه الله - كان قد قطعها، فهو شيء سمعته من بعض الناس صدقته فيه، لما اشتهر في زمانه من العدل والقيام بالحق، وإزالة السنة القبيحة<sup>70</sup>، وأردنا منكم الاقتداء به في ذلك، فلما بان خلاف ذلك، وصح أن السلطان أبا عنان - رحمه الله - فعل ذلك أنفنا لكم أن ينفرد أخوكم بمثل هذه المنقبة دونكم<sup>71</sup>، وأن يحظى بفعل حسن يدفع به عن أبيكم سوء عاقبة هذه السنة السيئة في دنياه وآخرته، بل أردت منكم أن تكونوا من أعظم حسناته التي يلجأ إليها يوم القيامة عند شدة فقره وفاقته، وما أعظم هذا شرفاً لكم في دنياكم وأخراكم حقق الله أملاًنا في ذلك بمنه وكرمه، فإن أردتم كل الشرف والفخر، والفوز بأعالي درجات البر بوالدمك، وأن تدخلوا عليه في قبره من المسرات ما تقر به أعينكم، فأعرضوا سيره مدة خلافته على مقتضى الدين والشرع، فما رأيتم من ذلك موافقاً فأقروه واحمدوا الله على توفيقه له ولكم، وما رأيتموه مخالفاً فأزبلوه واستغفروا له ربكم واحمدوا الله على ما ألهمكم، ولا تحملوا حاله كله على الإصابة والموافقة فتتبعوه من غير نظر فيما ذكرناه فإن العصمة من الخطأ مستحيلة على غير الأنبياء عليهم السلام. ولا حجة بكم عند ربكم (؟) رقا منكم (؟) كم إذا انكشف له الغطاء، وشاهد ما ينفعه وما يضره (...)<sup>72</sup>.

وعليكم أن تتفقدوا أعمالكم، وتعتقدوا ذلك من صالحات أعمالكم، وما يجب لرعيتمكم عليكم، فإنه قد ظهر منهم الغش وعدم النصيحة لكم ولرعيتمكم، وحاصل أمرهم أنهم تمكنوا من الرعية كل التمكّن، وأحدثوا سنناً غير مشروعة وفعلوا عليه ما يوافق أغراضهم مما يكسبهم المال والجاه، وتوصلوا بذلك إلى جباية أموالهم، والاستيلاء على رقابهم بالجبر والقهر، واشتروا رضى أنفسهم بسخط الله تعالى، ولم يراقبوا فيكم ولا فيهم إلا ولا ذمة، وصار في ذلك لهم ولأتباعهم وأشياعهم مأكل وتوسعات لم ينالوها بكد ولا تعب، وتوسلوا بها إلى معاصي الله تعالى وارتكاب مساخطه، غير مكترئين لكم، ولا حامدين ولا شاكرين لكم، وأعظم المصائب سؤال الله لكم عن ذلك، ودعاء المظلومين عليكم، وقد ورد في الحديث: «إن دعوة المظلوم مجابة وإن كانت من كافر».

70 . جاء في الرسالة الأولى لابن عباد : «المراد منكم أيضا، بلغ الله أمالكم، أن ترفعوا مظلمة الرب التي أحدثها أمراء الجور في طرقات المسافرين، وتفعلوا ما فعله السلطان أبو الحسن فإنه قطعها أم قطع، وكذلك فعل السلطان أبو عنان في مدته. فاسلكوا أيديكم الله مسلكما في ذلك وامحوا آثار هذه السنة السيئة، ولا تدنسوا دولتكم السعيدة بتبقيتها وتقريرها، فإن المستضعفين من المسافرين يلقون من أصحابها أذى كثيراً وسلباً ونهباً، ويتولى ذلك أقوام لا يعرفون ديناً ولا مذهباً، وما يأخذون منهم يستعينون به على الفجور والفسوق حيث لا تنالهم أحكامكم وقد رأينا ذلك وشاهدناه عياناً.» انظر نص الرسالة في ر. السلمي، وثائق مرينية، ج 2، ص. 353-354.

71 . في الفصل الذي خصصه ابن بطوطة لموضوع «فضائل أبي عنان»، يقول صاحب الرحلة : «وأمأ رفعه للمظالم عن الرعية، فمنها الرب التي كانت تؤخذ بالطرقات أمر أيده الله بحو رسمها. وكان لها مجبى عظيم فلم يلتفت إليه، وما عند الله خير وأبقى.» انظر تحفة النظر، ص. 671.

72 . استعملنا الفوسين ثلاث مرات في هذه الجملة للإشارة إلى وجود بياضات في الأصل، على غرار بقية النص.

واعلم يا أمير المؤمنين أن العدالة مشروطة في كل ولاية - كائنا ما كانت - لا بد للمستولي من الاتصاف بها وهي : أن يكون صادق اللسان، ظاهر الأمانة، عفيفاً عن المحارم، متوقياً للمآثم، بعيداً من التهم والريب، مأموناً في الرضى والغضب، مستعملاً لخصال المروءة الدينية والدينيوية، فهذه الخصال هي التي ذكر العلماء أن باجتماعها تكون العدالة في الولاية، فإذا تكاملت فيهم صحت ولايتهم، ونفذت أحكامهم، وإن انخرم منها وصف لم تمض له ولاية، ولا ينفذ له حكم، فعليكم أن تولوا أعمالكم من اجتمعت فيه هذه الخصال، وملاك ذلك أن لا يتولى طالب لها ولا راغب فيها، وهذا هو شأن أكثر عمال هذا الزمان، إلا ما عساكم تتداركونه فحسن.

فعليكم يا أمير المؤمنين أن تتصفحوا أحوالكم، وتتفقدوا عمالكم، وتكفوا أيديهم، وتستخرجوا منها ما خانوكم فيه أنتم ومن تقدمكم، وذلك بأن تعرفوا مقدار ما كان يملك أحدهم من العمال قبل الولاية، وتأخذوا ما زاد عليه وتجعلوه في بيت مال المسلمين كما كان يفعله الخلفاء الراشدون (...). أيمانهم، ومع المتقين من عمالهم، فما ظنكم بهذا الزمان الذي عم فيه الجهل، واستولى الفساد والظلم، ولاشك أنكم تملؤون بذلك بيوت الأموال، وتستغنون بذلك الاستغناء التام عما أحدث من المظالم والمراسم والمغارم الضارة برعييتكم، والعائد ضررها عليكم في الدنيا والآخرة، أعاذكم الله من ذلك (...).

## III . المرحلة العلوية

نص / تمهيد : خروج الرشيد من الدلاء<sup>73</sup>

وحدثني بعض الفقهاء الثقات عن والده، وأعرفه من الثقات، وقد أدرك هذا الزمن، أن مولانا الرشيد لما نزل بالزاوية الدلائية<sup>74</sup> أقسم له بعض أولاد الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائية أن لا يقيم بها وأن يسرع بالخروج، وأخبره بما هو شائع عندهم أن مولانا الرشيد هو الذي يخلي زاويتهم، استفادوا ذلك عن بعض أهل الكشف وغيرهم من أهل الحدائق، تخوفاً عليه من أحد رؤسائهم بسبب ما عندهم من العلم به، فتلحق منهم إذاية لآله (ص). وقد كانت لأهل الدلاء زيادة محبة في آل البيت عن غيرهم من أهل وقتهم وبلادهم.

فخرج مولانا الرشيد من الزاوية فصادف قافلة خارجة منها، فطلبوا منه حمايتهم إلى محلهم الذي يريدونه، لأن الوقت وقت نهب، ففعل، فتعرض لهم خيل في الطريق من بعض أهل تلك البوادي يريدون نهب القافلة، فأخبرهم مولانا الرشيد بأنهم استجاروا به وقبل جوارهم وهم في حماه [إذ تلك كانت عادة أسلافه في حماية القوافل وغيرها]<sup>75</sup>، فلم يعبؤوا به وأرادوا نهبهم، فتجرد لقتالهم وحده، ولم يكن معه إلا ما كان له من رقيق السودان، ويبد كل واحد منهما مكحلة، فأخذ المكحلة من يد أحدهما وحمل على القوم على فرسه فأصاب واحداً منهم، ورد المكحلة للمملوك وأخذ الأخرى من يد الآخر فحمل كذلك فأصاب رجلاً آخر، وما رد المكحلة حتى وجد المملوك الآخر ملأ الأخرى فأخذها من يده واستمر على فعله كذلك كلما حمل أصاب واحداً حتى استوفى ثلاث عشرة حملة أصاب منهم ثلاثة عشر رجلاً مع حفظ الله إياه حيث كان، إذا رمى أحدهم ينعطف إلى مملوكه الآخر ليأخذ من يده المكحلة المملوءة ليرمي بها من تبعه منهم، حيث كانوا إذا أبصروه رمى يتبعه منهم جماعة، فلما رأى القوم كثرة من مات منهم وما رزقه الله من النصر عليهم فروا منه وتركوا الخيل التي أصيب أهلها، فاستولى عليها وأخذها وسلب ركابها الذين أصيبوا، ونجا أهل القافلة من

73. القادري، نشر المثنائي، مخط، ص. 215-216 (نبه إلى أن هذه هي إحالتنا الوحيدة على النص المخطوط، وما عدا ذلك فنحن نحيل على النص المحقق (انظر البيبلوغرافيا).

74. يوضح محمد حجي أنه بعد وفاة الشريف بن علي (1069 للهجرة / 1659 للميلاد)، «خرج ابنه الرشيد من تافيلالت فاراً من أخيه السلطان محمد بن الشريف، لمنافسة كانت بينهما. وظل الرشيد ينتقل في جبال الأطلس الكبير والتوسط إلى أن وصل إلى الزاوية الدلائية، وأقام بها أياماً (...). ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي حل فيها الرشيد بن الشريف بالزاوية الدلائية، فقد سبق له أن أقام بها مدة يدرس العلم أيام الطلب وزارها مدة أخرى مع إخوته عندما سجن أبو حسون السملالي أباهم الشريف بن علي بسوس، وكانوا يرغبون في وساطة الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائية لإطلاق سراح والدهم الأسير». انظر الزاوية الدلائية، ص. 226-228.

75. استعملنا المعقوفتين لإبراز جملة لم ترد في تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، (انظر السياق في ج 2، ص. 102-103)، بيد أنها وردت في إحدى النسخ المخطوطة والموجودة بالخزانة العامة بالرباط، ونقلها المؤرخ الضعيف الرباطي في تاريخ، ص. 43، وكذا ابن زيدان في الإنحاف، ج 3، ص. 33.

النهب<sup>76</sup>. ثم حمل على كل فرس رجلاً من اختار لتابعته، وأعطاه سلاح صاحب الفرس. فكان ذلك القتال لأولئك القوم البغاة الذين يسعون في الأرض فساداً هو المقدمة لما أراد الله تعالى بأهل المغرب خيراً، وأنقذهم مما نزل بهم من النهب والبغي وتبطلت الحقوق وولاية البغاة عليهم، فلما سمع بذلك المستضعفون من أهل المغرب تشوفوا إليه، وأكثروا من الطلب إلى الله في توليته عليهم، راجين من الله أن ينقذهم من ولاية الفئة الباغية عليهم. فاستجاب الله دعاءهم، وولاه عليهم. فكان لهم خليفة رشداً ومرشداً.

## 1. صورة الأمن الشامل

نص 1 : من كتاب روضة التعريف للإفراني<sup>77</sup>

دُوِّخ مولانا إسماعيل نصره الله بلاد المغرب الأقصى كلها، وملك سهلها ووعرها، ودان له قريبتها وبعيدها، واستولى على تخوم بلاد السودان وبلغ منها ما لم يبلغه ملك قبله<sup>78</sup>، وقد وصلت جيوشه إلى بحر النيل من جهة بلاد فرغانة<sup>79</sup>، ودخل في طاعته كثير من عمائر أطراف السودان، وامتدت مملكته من جهة المشرق إلى قرب بلاد بسكرة من قرى بلاد الجريد، وما تمهدت له البلاد إلا بعد محاربة طويلة ومقارعة فظيعة، وبعد أن قاسى مع أهل المغرب والثوار من الحروب ما هو أدهى وأمر (...).

ومن سعادته نصره الله أنه ما ثار عليه نائر، ولا نبغ عليه قائم، إلا مكّنه الله منه وغلبه عليه، فدانت له كافة القبائل الغربية، ولم يبق من ينازعه في أمر من الأمور، وساعده الدهر على ما يروم (...).

وأما عدله نصره الله فأمر مشاع في البوادي والحواضر، وخبر سرحت في روضه التواظر، ولو لم يكن فيه نصره الله إلا خصلة واحدة لكفت في عدله، وذلك أنه لا يحتجب عن الناس بداره

76. راجع :

Pierre de Cénival, «La légende du juif Ibn Mech'al et la fête du sultan des tolba à Fès», *Hesp.*, vol. V, 2<sup>e</sup> trim. 1925, pp. 137-218.

يبدو أن المؤلف لم ينتبه لأبعاد هذا النص حين قال إن قضية انتصار الأمير العلوي على قطاع الطريق «أمر ممكن، ودون أهمية تاريخية على أية حال».

77. الإفراني، روضة التعريف، ص. 52، 56، 63-64. وقد اقتطفنا الفقرات التالية من الفصلين : «في تمهيد البلاد، ونصره على أهل البغي والعداء»، وفي ذكر ما كثر ببركته، من الخير وأهله في مدته». ونشير إلى أن الإفراني أنهى تأليف الكتاب في شهر محرم 1133 للهجرة (وتوفي إسماعيل في رجب 1139).

78. هذه مقارنة أفصح الإفراني عن مضمونها في كتاب نزهة الحادي، حيث يقول عن نفس السلطان : «انتشرت دولته في بلاد السودان وبلغ في ذلك ما لم يبلغه السلطان أبو العباس أحمد الذهبي المنصور، ولا أحد قبله». انظر تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء، 1998، ص. 430.

79. نتساءل : هل هو أسلوب التضخيم، أم هو تعبير عن جهل للجغرافيا ؟ فقد ورد في هامش لناشر الكتاب (الرباط، المطبعة الملكية، 1962) : «كثيراً ما يخلط المؤرخون والجغرافيون المغاربة بين نهر النيل وبين نهري النيجر والسنغال، ولا شك أن المؤلف يعني هنا أحد النهرين الأخيرين، وقد حصل مثل هذا الغلط للرحالة الكبير ابن بطوطة» (ص. 52).

كما كانت عادة من قبله من عظماء الملوك يحتجبون عن الرعية بشهواتهم، ويقطعون جل الأوقات في لذاتهم، كان المتظلم يمكث بباب الأمير الأشهر الكثيرة والليالي ذوات العدد يرتقب خروج سلطانه إليه فلا يجد إليه سبيلاً، وهو نصره الله يبرز في كل وقت وفي كل يوم حتى يصل إليه من أراذه قوياً أو ضعيفاً، شريفاً أو مشرُوفاً، من غير حاجب يحجبه ولا صاد يصدّه. وسمعت جماعة من أشياخنا من علماء فاس وغيرهم يقولون هذه المنقبة بما اختص به مولانا إسماعيل، واكتسى بها من بين الملوك شرفاً وفخراً (...).

وبالجملّة فلا ينكر فضل هذه الإيالة الشريفة إلا جاهل، ولا يجحد ما ظهر في أيامها من الخصب والرخاء والبسط الدائم إلا ضعيف العقل. فقد اتسع فيها الرخاء ورخصت الأسعار إلى أن بيعت خبزتان كبيرتان بقميراط، وهذا من الشهرة بمكان وقد أضربنا في هذا السمط عن أخبار كثيرة طلباً للإيجاز والاختصار<sup>80</sup>.

نص 2 : من كتاب نشر المثاني للقادري<sup>81</sup>

بويص صاحب الترجمة بعد وفاة أخيه الخليفة مولانا الرشيد في يوم الأربعاء خامس عشر ذي الحجة عام اثنين وثمانين وألف من الهجرة النبوية (13 أبريل 1672) بفاس. وكانت ثورة أهل فاس القديم عليه بين عشاء يوم الخميس (أول يوم من جمادى الأولى) عام ثلاثة وثمانين وألف (24 غشت 1672). وفي آخر يوم من جمادى الثانية لجؤوا إليه ورجعوا لديه فوجدوا فيه كل خير لم يظنوه وهو معدنه وأصله، فعفا عنهم وصفح ولم يمن عليهم في ذلك. فاستكثر الله له الخير ووقع الصلح بينهم، ورحل عنهم في ضحوة الثلاثاء التاسع عشر من رجب عام أربعة وثمانين وألف (29 أكتوبر 1673). وتمهد له ملك المغرب من أقصى الظهراء، إلى أقصى وادي نون والساقية الحمراء، ومن البحر إلى أقصى الصحراء قبله<sup>82</sup>. فكثرت عمارته جداً، وجدد الناس لأيام العلوم عهداً، فكانت أسواق العلم في خلافته عامرة، ونجوم أفلاكه نيرة زاهرة.

توفي - رضوان الله تعالى عليه ورحمته - يوم السبت ثاني وعشرين من رجب عام تسعة وثلاثين ومائة وألف (15 مارس 1727). وكان ابتداء مرضه في ثاني يوم من شهر جمادى الأولى من عام الترجمة (1139 للهجرة). فحجبه صاحبه وصفيه الخصي مرجان<sup>83</sup>، فلم يره أحد منذ مرض إلى أن مات. فغسله الفقيه العلامة سيدي أحمد بن سيدي سعيد العميري، وصلى عليه العلامة سيدي الحسن بن رحال المعداني، وأدخله قبره ليلاً. وكان الناس في حياته يغبطون به غاية ويتخوفون موته لما

80 . السمط هو الفصل من الكتاب.

81 . القادري، نشر المثاني، ج 3، ص. 290-291.

82 . سوف ترد نفس الصيغة في تاريخ الضعيف (انتهى تأليفه سنة 1833 للميلاد)، ص. 58. تشير فقط إلى تغيير في تسمية وادي نون (في نشر المثاني)، وقد أصبح وادي نون عند الضعيف.

83 . سماه صاحب زهر الأكم «مرجان الصغير»، وذكر أنه تولى الحجابة بعد عنبر الذي خلف بدوره أبا الخير. انظر ص. 149-150 . وحول اغتياله في عهد أحمد الذهبي، انظر أدناه، ص. 135، 137.

يرتقبون بعده من الفتن. وكثير منهم يطلب الله تعالى أن لا يدرك موته وأن يموت في حياته لما شهدوا في أيامه من عيش الضعفاء والأيتام، وإقامة الناس لإحياء الضائعين أتم قيام، وإذا تتبعنا أخباره ومآثره فلا يسعها مجلد. وتقدم ذكر بعض حوادث الأعوام في أيامه.

نص 3 : من بستان الزباني<sup>84</sup>

واشتغل السلطان إسماعيل ببناء قصوره، وغرس بساتينه، والبلاد في أمن وعافية. تخرج المرأة والذمي من وجدة إلى وادي نول، ولا يجدان من يسألهما من أين أو إلى أين<sup>85</sup>، والرخاء المفرط، لا قيمة للزرع ولا للماشية. والعمال تحبب الأموال، والرعايا تدفع بلا حساب. وصار أهل المغرب كفلاحي أهل مصر، يخدمون ويدفعون في كل جمعة.

ومن نتج فرساً، إذا أدرك الركوب يدفعه للعامل ويدفع قيمة السرج من عنده عشرة مثاقيل. وإذا نتج أنثى، تبقى له، ويدفع للعامل مثقالاً.

ولم يبق بأرض المغرب، سارق ولا قاطع<sup>86</sup>، ومن ظهر عليه شيء وهرب، يؤخذ في كل قبيلة مر بها وفي كل قرية. وكل من بات مجهول الحال بحلة أو قرية يثقف بها إلى أن تتبين براءته. وإن تركوه، فإنهم يؤاخذون به، ويؤدون ما سرقه واقترفه من الجرائم كالقتل وغيره.

وكانت أيامه رحمه الله، غزيرة الأمطار، كثيرة البركة في الحراثة والفلاحة والتجارة والأمن والرخاء والخصب<sup>87</sup>. لم يقع غلاء، طول أيامه إلا مرة واحدة، بلغ القمح فيها ست أواق للمد، والشعير ثلاث أواق، ورأس الضأن ثلاث أواق، ورأس البقر من المثقالين إلى المثقال، والسمن والعسل رطلين بموزونة، والزيت أربعة أرتال بموزونة.

نص 4 : من استقصا الناصري<sup>88</sup>

وفي سنة ثلاثين ومائة وألف (1717-1718 م) ورد كتاب من السلطان إلى فاس يتضمن تحرير أهل فاس من الكلف كلها، ثم ورد عقبه كتاب آخر يوبخهم فيه ويخيرهم بين أن يكونوا جيشاً أو نائية، فقال رجل منهم يدعى ولد الصحراوي : «إنما يكون الكلام أمام السلطان» فقتل وأصبح مصلوباً، فبلغ ذلك السلطان فقبض على أبي علي الروسي وأصحابه، وولى على فاس حمدون الروسي، ثم بعد ذلك عمد حمدون الروسي إلى عبد الخالق بن يوسف فقتله، فقبض السلطان عليه وعلى أخيه مسعود، وولى على فاس حمو قصارة، ثم بعد أيام قدم أبو علي الروسي والياً على فاس. وفي هذه

84. الزباني، البستان الظريف، ص. 185-186.

85. قارن مع الصيغة التي استعملها ابن أبي زرع في حديثه عن الخليفة الموحد أبي يوسف يعقوب، والواردة في النص أعلاه، ص.

125. وحول اعتراف مصادر يهودية بأوضاع أمن الطريق في ذلك العهد، انظر :

Magali Morsy, *La relation de Thomas Pellow*, p. 131, n. 279.

86. التأكيد منا.

87. انظر تمقيب الناصري في النص الوارد أدناه، ص. 128.

88. الناصري، الاستقصا، ج 7، ص. 96-103.

السنة ورد الخبر بموت المولى أبي مروان بالمشرق، وفيها عزل السلطان أولاده من الأعمال كلها و لم يترك إلا ولي العهد المولى أحمد بتادلا. ثم بعث ولده المولى عبد الملك إلى مراکش وولاه قطر السوس، واستقامت الأمور وسكنت الرعية وهدأت البلاد، واشتغل السلطان ببناء قصوره وغرس بساتينه والبلاد في أمن وعافية، تخرج المرأة والذمي من وجدة إلى وادي نول فلا يجدان من يسألهما من أين وإلى أين<sup>89</sup>، مع الرخاء المفرط فلا قيمة للقمح ولا للماشية، والعمال تجبي الأموال والرعايا تدفع بلا كلفة، وصار أهل المغرب كفلاحي مصر يعملون ويدفعون في كل جمعة أو شهر أو سنة، ومن نتج فرساً رباه حتى إذا بلغ أن يركب دفعه إلى العامل وعشرة مثاقيل معه ثمن سرجه، هذا إذا كان المنتوج ذكراً فإذا كان أنثى ترك له، ويدفع للعامل مثقالاً واحداً، ولم يبق في هذه المرة بأرض المغرب سارق ولا قاطع طريق ومن ظهر عليه شيء من ذلك وفر في القبائل قبض عليه بكل قبيلة مر عليها أو قرية ظهر بها، فلا تقله أرض حتى يؤتى به أينما كان، وكلما بات مجهول حال بحلة أو قرية ثقف بها إلى أن يعرف حاله، ومن تركه ولم يحتط في أمره أخذ بما اجترحه وأدى ما سرقه أو اقترفه من قتل أو غيره. وكانت أيامه رحمه الله غزيرة الأمطار كثيرة البركة في الحراثة والتجارة وغيرهما من أنواع المعاش مع الأمن والخصب والرخاء المحتد بحيث لم يقع غلاء طول أيامه إلا مرة واحدة، فيبلغ القمح في أيامه ست أواق للمد والشعير ثلاث أواق للمد، ورأس الضأن ثلاث أواق، ورأس البقر من المثقال إلى المثقالين سائر أيام الرخاء، والسمن والعسل رطلان بالموزونة، والزيت أربعة أرتال بالموزونة هكذا نقله صاحب «البستان» وهو مخالف لما سيأتي في الحوادث من أن الجذب والغلاء قد بلغا مبلغهما أعوام التسعين وألف<sup>90</sup> ولعل ما ذكره صاحب «البستان» كان في آخر دولة السلطان المذكور حسبما هي عادة الله تعالى في مثل ذلك غالباً والله تعالى أعلم (...).

كانت أيام أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله على ما ذكرنا من الأمن والعافية وتام الضبط حتى لم يبق لأهل الذعارة والفساد محل يأوون إليه ويعتصمون به ولم تقلهم أرض ولا أظلمهم سماء سائر أيامه، فقد كان خليفة و نائباً عن أخيه المولى الرشيد سبع سنين، وسلطاناً ومملكاً مستقلاً سبعاً وخمسين سنة، حتى كان جهلة الأعراب يعتقدون أنه لا يموت. ويقال: إن البعض من أولاده كانوا يستطيعون موته ويعبرون عنه بالحي الدائم، وهذه المدة التي استوفها المولى إسماعيل في الملك والسلطان لم يستوفها أحد من خلفاء الإسلام وملوكه سوى المستنصر العبيدي صاحب مصر<sup>91</sup>، فإنه أقام في الخلافة ستين سنة، لكن لا سواء، فإن المولى إسماعيل رحمه الله استوفى مدة الخلافة بشمرتها، وتلاها بكامل لذتها، لأنه وليها في إبان اقتداره عليها واضطاعه بها بعد سن العشرين كما مر، لا في

89. التأكيد منا.

90. عرف هذا العام «تفانم الرباء وتوالي المطر، وتهدمت الدور به لغاس، ومات به أقوام». القادري، نشر المثاني، ج 2، ص. 267.  
91. هو المستنصر بالله، الخليفة الفاطمي الثامن، خلف أباه علي الظاهر سنة 427 للهجرة (1036 للميلاد)، وتوفي سنة 487 للهجرة (1094 للميلاد). وقد اشهر عهد المستنصر كأطول عهد عرف تاريخ الحكام المسلمين، وخلالها بدأ تحرك قبائل بني هلال في اتجاه الغرب (440 للهجرة / 1048-1049). انظر:

مدة النيابة ولا في مدة الاستقلال، ولم يكن عليه استبداد أحد، ولا نغص عليه دولته منغص سوى ما كان من ثورة ابن محرز وابنه المولى محمد العالم، ومن سلك سننهم من القرابة، وكلهم كان يشغب في الأطراف، لم يحصل منهم كبير ضرر للدولة<sup>92</sup>، بخلاف المستنصر العبيدي فإنه ولي وهو ابن سبع سنين فكان في صدر دولته تحت الاستبداد وحدث في أيامه الغلاء العظيم (...).

وكان في سجونهم من أهل الجرائم كالقاتل والمحارب والسارق نحو الثلاثين ألفاً تظل في العمل مع أسرى الكفار وبيتون في السجون والأهراء تحت الأرض، ومن مات منهم دفن في البناء حتى لم يبق بالمغرب من أهل الفساد عرق ينبض.

## 2. إجراءات

نص: القلاع الإسماعيلية<sup>93</sup>

[انتشار الوباء بالمغرب]

وفي محرم عام تسعين وألف (فبراير- مارس 1679 م)، وقع الوباء بالمغرب. فكان العبيد يعترضون بسبب على الطرقات، ويردون الناس عن مكناسة، وكذلك كانوا يتعرضون بسايس. وكل من يأتي من فاس يقتلونه. وانقطعت السبل.

[تأديب السلطان لبني يزنان]

وفيه أنقل عرب الشبانات ووزارة قوم كروم الحاج من الحوز لما كانوا عليه من الظلم والجور لأهل الحوز<sup>94</sup>، فأنزلهم بوجدة ثغر المغرب، وكتبهم في الديوان، وقيد عليهم العياشي بن الزوغر الزراري، وأمره بالتضييق على بني يزنان، إذ كانوا شيعة الترك، فكانوا يغيرون عليهم، ويمنعونهم من الحرث في بسائط أنجاد.

92. تقر هذه الصيغة بأن حدوث العصيان بالأطراف أمر لا يتناقض مع صورة الأمن الشامل. حول أبعاد هذه الفكرة، راجع أدناه، ص. 292-294.

93. الزياتي، البستان الظريف، ص. 163-171.

94. استفاد عرب الشبانات من مصاهرة أحمد المنصور. فقد ولد زيدان من أم شيبانية، لذلك ساندته أخواله، فكلفهم مهمة السهر على أمنه الشخصي، وسار بقية الملوك السعديين بعده على نفس النهج، مما جعل الشبانات يتحكمون في واقع السلطة. انظر:

Bernard Rosenberger & Hamid Triki, « Famines et épidémies au Maroc au XVIe et XVIIe siècles », *Hesp.-Tam.*, vol. XV, 1974, p. 79.

## [السلطان يأمر ببناء بعض القلع]

وأمر أن يبنى عليهم قلعة بطرف بلادهم من ناحية الساحل ضد وجدة برقادة، وأمر العياشي أن ينزل بها خمسمائة من الخيل من أصحابه تمنعهم النزول والحرب ببسيط تريفة. ثم أمر أن تبنى قلعة ثالثة بطرف بلادهم بالعيون، و ينزل فيها ابن الزوغر خمسمائة من الخيل من إخوانه. وأمر أن تبنى قلعة رابعة بطرف بلادهم على ملوية، ويجعل بها خمسمائة فارس من إخوانه، وجعل للعياشي بن الزوغر النظر في القلع الثلاث، وهو بوجدة في ألف فارس. وكانوا في الدفتر بألفين وخمسمائة.

## [السلطان يخضع قبائل بني يزناسن]

وفي عام واحد وتسعين وألف (1680-1681 م)، خرج السلطان في العساكر لبني يزناسن حين تمادوا على العصيان، فدخل جبلهم وهتك حرمتهم ونسف نعمتهم وخرب قراهم وحرقها، وقتل رجالهم، وسبى أولادهم، فطلبوا الأمان، فأمن باقيهم على أن يدفعوا الخيل والسلاح الذي عندهم. فدفعوها عن يد، وقاموا بدعوته على رغم أنوفهم، ثم نزل ببسيط أنجاد ومعه قبائل الأحلاف وسقونه، فأرجلهم وأخذ خيلهم وسلاحهم، وكلف أشياخهم أن يجمعوا ما بقي منها بحلتهم ففعلوا. ثم فعل بالمهاية وحَمَيَانْ كذلك، ورجع.

## [السلطان يأمر ببناء قلع أخرى]

ولما نزل «صا»، أمر ببناء قلعة تَأُورِيْرْت التي بناها بنو مرين<sup>95</sup>، فجددها وأنزل بها مائة من الخيل بأولادهم من عبيده.

ولما نزل بوادي ملوية، أمر ببناء قلعة غَرْسِيْف، وأنزل بها مائة من الخيل من عبيده بأولادهم.

ولما نزل بوادي مُسُون، أمر أن تبنى بها قلعة، وأنزل بها مائة من الخيل من عبيده بأولادهم، وقيد عليهم منصور بن الرامي<sup>96</sup>، أنزله بتازة في ألفين وخمسمائة من العبيد.

وجعل نظر القصابي التي بين «تازة» إلى وادي «صَا» لمنصور بن الرامي. وعين لكل قبيلة قلعته التي تدفع بها زكاتهم وأعشارهم لِعَوَلَةِ العبيد وعلف الخيل، وهم حراس الطريق، فمن وقع شيء في تراه يعاقب عليه قائد القلعة.

ولما بلغ الكور، أمر أن تبنى به قلعة، وأنزل بها مائة من الخيل من عبيده بأولادهم. ولما بلغ لفاس، أنزل بقصبة الحميس التي بنى سورها السلطان رشيد، خمسمائة من الخيل بأولادهم من

95 . نجد وصفاً لتاوريرت، المسماة كذلك «قصبة مولاي اسماعيل»، عند الرحالة شارل دو فوكو السالف الذي مر بالموقع المذكور. انظر م. س. ص. 251-252. ومن بين القصبات الاسماعيلية الأخرى التي وصفها فوكو، نذكر ببلاد ملوية قصبة وطاط (ص. 243)، والقصابي (ص. 236)، وببلاد تادلا قصبة تادلا (ص. 57-59)، وقصبة فشتالة (ص. 59-60)، وقصبة بني ملال (ص. 63-64).

96 . يلقب أحيانا ب«الباشا»، ويسمى أحيانا «منصور الرامي». وقد ولاه السلطان على تازة ونواحيها إلى تلمسان، وتوفي سنة 1112 للهجرة، في سياق حروب السلطان إسماعيل ضد أتراك الجزائر. انظر عبد الكريم بن موسى الربيعي، زهر الأكم، ص. 151، هامش 341.

شراكة الذين أتى بهم الرشيد من العرب والبربر، فمن العرب بنو عامر والشجع، ومن البربر مديونة وبني سنوس، وجعلهم قبيلة واحدة<sup>97</sup>.

ثم أمر ببناء قلعة بالمهدومة وأخرى بالجديدة، وأنزل بكل واحدة مائة من الخيل من وصفاته بأولادهم لحراسة الطريق، وبكل قلعة، فندق لمبيت القفل (...).

### [حركة مولاي إسماعيل لجبل فازاز]

وفي الحجة عام أربعة وتسعين وألف (نونبر- دجنبر 1683)، خرج السلطان بالعساكر لجبل فازاز لحرب البربر من صنهاجة الذين به، فلما سمعوا بخروجه، انهزموا ورجعوا للملوية.

### [السلطان يأمر ببناء قلعة أخرى]

فاختط قلعة بعين اللوح بسفح جبلهم.

ثم نزل على عين أزرو، فأمر ببناء قلعة بها بسفح الجبل، ثم تبع آثارهم إلى أن دخلوا جبل العياشي.

وتربص بملوية إلى أن دخل فصل الشتاء، وقصده بذلك المقام، إتمام بناء سور القلعتين. ولما رجع، أنزل بقلعة أزرو ألف فارس، وبقلعة عين اللوح خمسمائة فارس، فاستراح من عيئهم بطريق سايس.

### [دخول قبائل فازاز في طاعة السلطان]

ولما قلت عليهم الأقوات، قدم عليه وفدهم لمكناسة تائبين، فأمنهم على دفع الخيل والسلاح والاشتغال بالحرث ونتاج، فدفعوها عن يد، وهم آيت إدراسن<sup>98</sup>، ودفع لهم عشرين ألفاً من الغنم، كلفهم بحراستها ورعايتها، وأسقط عنهم الوظائف.

فصلحت أحوالهم، وفي كل عام، يزيدهم الغنم، إلى أن كان عندهم ستون ألفاً، يدفعون كل عام صوفها وسمنها (...).

### [حركة مولاي إسماعيل للملوية]

وفي عام ستة وتسعين وألف (1684-1685م)، خرج السلطان لحركة ملوية، وجعل طريقه على صفرو، ففرت قبائل البربر لرؤوس الجبال، وهم آيت يوسي وسغروشن وسليم وأيوب وعلاهم و قادم وحيون ومذيون ومكود.

97 . حول تشكيل شراكة، انظر أدناه، ص. 131.

98 . حول هذا التحول الهام الذي عرفته العلاقة بين اتحادية آيت إدراسن وبين الدولة الملوية، انظر أدناه، ص. 271 - 272.

## [السلطان يأمر ببناء قلع أخرى]

فأمر ببناء قلعة بأعليلٍ وأخرى على وادي كيجو من أسفله، وقلعة على وادي سُكورة، وثالثة على وادي تَشوكت. وخرج للملوية، وفرت القبائل لجبل العياشي، وتفرقوا في شعباه. فأمر ببناء قلعة بدار الطمع، وقلعة بتاميوست، وقلعة بقصر بني مطير، وقلعة بوَطاط، وقلعة بالقصابي.

وأقام على نهر ملوية بيت سراياه للبربر سنة كاملة، والخدمة في القلع، إلى أن أكمل أسوارها، وأنزل بكل قلعة أربعمائة من الخيل بأولادهم من وُصفانِه، وجاءه وفود قبائل البربر تائبين طائعين، فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح، فدفعوها. وصفاله هذا الربع الشرقي من جبل درن (...).

## [رجوع السلطان من حركة سوس]

وفي عام تسعة و تسعين وألف (1687-1688م)، رجع السلطان من السوس، ودخل مكناسة، وبعث لفاس أن يخرجوا أهل الريف الذين كانوا بها لسكنى تَارْدَانْت.

## [حركة السلطان لفازاز]

ثم تهيأ لحركة فازاز، وخرج له، وطلع من الناحية الغربية. فأول من قدم عليه من برابرة بالطاعة، زمور وبنو حكم، ولم يحاربوه. فولى عليهم كبيرهم بأيشي القبلي<sup>99</sup>. فاستصفى منهم الخيل والسلاح وزاد للأموال، ولحق السلطان وهو ببسيط أدخسان، فدفع له الخيل والسلاح والمال، فأنكر عليه ذلك، وقال له :

- « ما حملك على ما فعلت ؟

- فقال له : « يا مولانا السلطان، إن كان غرضك في صلاحهم وفلاحهم، فهو الذي فعلت لك ولهم، وإن سرت معهم بغير هذا، أتعبوك وأتعبوا أنفسهم. إنما طهرتهم من الحرام، ويشغلوا بالتكسب من الحلال، فإنه ينمو ويزكو».

فاستحسن قوله، وأقام إسماعيل بأدخسان يحارب آيت أمالو سنة، حتى أكمل بناء قصبة أدخسان الجديدة بمحل القديمة التي بنى يوسف بن تاشفين وخرت.

ولما دخل فصل الشتاء، ترك بالقصبة ألف فارس وخمسمائة فارس من عبيد أهل دكالة الذين كانوا بوجه عروس، أنقلهم من مكناسة بأولادهم، أنزل بزاوية محمد الحاج، ألف فارس وخمسمائة فارس من عبيد الشاوية الذين كانوا بوجه عروس، أنقلهم بأولادهم لحصار البربر، ومنعهم من النزول للمرعى (...).

99. حول سياق بروز هذه العائلة القائدية، انظر أدناه، ص. 271.

## [عدد جيش العبيد و القلع]

فبلغ هذا العسكر البخاري مائة وخمسين ألفاً ؛ ثمانون ألفاً مفرقة في قلع المغرب لعمارتها، وسبعون ألفاً بالمحلة.

وعدد القلع التي بنى إسماعيل بالمغرب، ستاً وسبعين قلعة، لا زالت قائمة بأفاق المغرب ظاهرة العين والأثر، يعرفها الخاص والعام.

وقفت على هذا في كناش كاتب الدولتين الرشيدية والاسماعيلية، سليمان بن عبد القادر الزرهوني<sup>100</sup>، مات برُدَانَة، عام ثمانية و ثلاثين و مائة وألف (1725-1726 م)، وكان عنده دفتر العساكر كلها، السواد الأعظم و المتفرقون في قلع المغرب (...).

## [رأي المؤلف في القلع التي بناها مولاي إسماعيل]

فرحم الله مولانا إسماعيل الذي جند هذه الجنود، وبنى لها في كل مسافة حصناً لحفظ الوفود. وذلك شيء لم يقع مثله في دولة من الدول في جميع المعمور، ولا خلفه سلطان في سالف الدهور، وغاية ما شاهدناه في ممالك الأتراك، بناء فندق في كل مرحلة. ينزله أهل ذلك المحل يبيعون للرفاق المرافق من علف وتبن ودجاج وخبز، يسمونه المنزل، لا يبيت الرفاق وأبناء السبيل إلا به صيانة لأرزاقهم، وليس به عسكر ولا حارس، وهذا خاص ببلاد الترك. وأما بلاد العرب، فلا أثر لذلك، ولا بد في سلوك مفاوزها وأماكن الخوف بها من إعطاء الخفارة.

100. وصفه القادري صاحب نشر المثنائي ب«الكاتب الأسمى، صاحب القلم الأعلى، كاتب الدولتين الرشيدية والاسماعيلية، المطلع على سر الحضرتين...». انظر ج 2، ص. 337-338. وقد كان من رواد الزاوية المعنية وشيخها أحمد بن عبد الله معن. انظر حول هذا الأخير النص أدناه، ص. 226-230.

## 3. حدود التأمين

نص : من رسالة اليوسي إلى السلطان إسماعيل<sup>101</sup>

وأما قول الكتاب : أي موضع تقطع السبل وتنهب فيه القوافل إلا تلك المواطن الخ... أقول : أما رعية السلطان فليس فيها من يرفع يده إلى رأسه لا من أهل البلاد ولا من أهل ملوية. وأما قطع الطريق، فإنما كان في آيت عطا وذاك ديدانهم في قديم الزمان<sup>102</sup> : شنشنة أعرفها من أخزم. وما تركوا ذلك قط، ولا دخلوا في الطاعة دخول غيرهم، وإنما يخادعون تارة على التمر، وتارة على الزرع، وسراياهم سارية (في كل أرض) من هاهنا إلى درعة لا في هذه الأرض وحدها، وما تحركوا هنا حتى قضوا الغرض في الصحراء فقتلوا الفقراء «أولاد من يخاف» خارج النخل، واستباحوا تلك البلد كلها كما بلغكم، فلا يسافر أحد إلا على خطر وكم أغنام نهبت لأهل الرتب وغيرهم وكم قافلة وكم جريح وكم قتيل، وأما هذه البلاد فلم يتحركوا فيها إلا نحو ثلاث مرات أو أربع في ناحية هذه القبيلات الضعاف الذين لم يعرفوا قط بمنعة ولا نجدة، أيام كانت لهم العدة والخيل، فكيف اليوم وهم عزل مَحَاوِيحُ لا طاقة لهم على دفاع ولا امتناع<sup>103</sup>، وليس هؤلاء المحاربون كالسباع، فإن السبع يختل الماشية في الغابة معها صبية، فإذا صاحت الصبية هرب. ولا ترى قط سباعاً تتقدم إلى الأحياء لتأكل أموالها وتفترس رجالها. وأما هؤلاء فيتقدمون بالعاكر، ويتنزلون للطعن والضرب. ولو كانوا يتحركون نهاراً لأمكنتم الناس مدافعتهم ولكن يكمنون في قنة الجبل حيث لا يعثر عليهم راع ولا صياد. فإذا ألبوا نزلوا. فلو تقدموا إلى دوار أو أكثر لامتَحَقوهم نهياً وقتلاً، فإن الدوار تكون فيه أربعون رجلاً بين قوي وضعيف وشيخ هرم بلا سلاح، وهؤلاء يأتون بالستين والسبعين وأكثر وأقل، كلهم رماة يقفزون في الهواء ويتضاعفون بالرعب<sup>104</sup>، فهذه القبائل تبقى في حيرة عظيمة إن هرموا وجلوا عن بلادهم، ضاعوا وضاعت المطالب السلطانية، ثم لا يتركون لذلك، وإن بقوا فإن عقدوا مع هؤلاء الظلام هدنة إلى أمد ما، أنكروا الخدام ذلك وسعوا به إلى السلطان وأنهم اتفقوا مع البيعة فيأمر بعقوبتهم، وإن بقوا بلا شيء أهلكهم اللصوص، فينهبون كل ليلة دواراً، فلا بد للسلطان أن ينظر في أمرهم كيف يصلح، فإنهم رعيته. وهذا الكلام لا مدخل لنا فيه وإنما ذكرناه حيث ذكر في الكتاب تبصرة ونصحاً للسلطان ونصحاً للرعية والله المستعان.

101 . ف. خليل القبلي، رسائل اليوسي، ج 1، ص. 21-22.

102 . حول تاريخ اتحادية آيت عطا وامتداد منطقة نفوذها، راجع أدناه، ص. 267 وما تلاها.

103 . حول سياق نزع السلاح من القبائل، راجع أدناه، ص. 271.

104 . أوردنا في الفصل الثالث نصاً منقياً يحكي كرامة ينتمي سياقها إلى المناخ الذي وصفه اليوسي. انظر أدناه، ص. 165-166.

## 4. مناخ الاختلال المطلق

نص 1 : حول أحمد الذهبي (رواية الزياني)<sup>105</sup>

فأعرض [أحمد الذهبي] عن ذلك كله<sup>106</sup>، ولم يجب عنه، ودخل داره واعتكف على لهوه، وترك الناس وشأنهم، بفعل كل واحد ما أراد، ولم يول ولم يعزل، ولم يسمع من أحد شكوى، ولم يلتفت إلى شيء من أمور الدولة، ولا عرج عليه. فانحل نظام الدولة بقتله لرجالها الذين كانوا قائمين بأمر الرعايا.

فقد كان علي ويشي أمير البربر وغيرهم وعامل العمال<sup>107</sup>. وأحمد بن علي اليازغي عامل جبال مرموشة وبني وراين وغياته والحياينة والجبال<sup>108</sup>، رديفا لعلي ويشي، ويضاهيه في جلب الأموال والأحكام. وابن الأشقر أمير الزراهنة<sup>109</sup>، وعلى يديه أعشار القبائل كلها من أهل الغرب وبني حسن رديفا لهما. ومرجان صاحب بيوت الأموال<sup>110</sup>، ويده دفتر الداخل والخارج منها، وعارفا بما يدفعه العمال في كل سنة.

فلما ماتوا، استخفت الرعية بمنصب الملك، واستراحوا من يحول بينهم وبين الفساد، ويزجرهم عن القبيح، خصوصا البربر، فقد كانوا في أقماع النحاس، فخرجوا منها بموت علي ويشي، واشتغلوا بشراء الخيل واقتناء السلاح، ورجعت هيف إلى أديانها فكأنما كانوا على ميعاد.

فامتدت أيدي النهب في الطرقات، وكثر العيث من البربر في اطراف المدينة، إذ لا وازع لهم ولا زاجر، وكثرت الشكايات بباب السلطان، فما وجد الناس من يسمع منهم ولا من ينصفهم ويرد مظالمهم، هذا بمكناسة.

وأما فاس، فإن الوداية قاموا بأمره، ونابوا عن البربر في العيث في أطرافه وطرقاته، ولم يكلوه إلى غيرهم.

105. الزياني، البستان الظريف، ص. 215-216.

106. المراد هنا ثورة أهل تطوان ضد الباشا أحمد بن علي الريفي، وهو حدث قابله أحمد الذهبي بالامبالاة. حول الباشا المذكور، انظر أدناه، ص. 160.

107. سماه صاحب الاستقصا : «علي بن يشي القبلي أمير البربر»، والراجع أن علي المذكور هو ابن بايشي، الذي سبق أن عينه السلطان إسماعيل على رأس قبائل زموور وحكم. انظر أعلاه، ص. 149.

108. أحمد بن علي أمير الأعمال الفاسية وما اتصل بها من بلاد الهبط. «كان عند موت إسماعيل في السجن، قدس عليه بن يشي من ذبحه» (الاستقصا، ج 7، ص 115) توفي سنة 1139 للهجرة. وتذكر محققة زهر الأكمل أن اليازغي كان عاملا على بني وراين ومرموشة وغياته، وأن صاحب عبد الكرم بن موسى الريفي ذكر أن وفاته كانت سنة 1134 في عهد إسماعيل. انظر ص. 150، هامش 339.

109. ورد ذكره في الاستقصا، مع لقب «الباشا». انظر ج 7، ص. 115.

110. ورد ذكره في النص أعلاه، ص. 141.

نص 2 : حول أحمد الذهبي (رواية ابن زيدان) <sup>111</sup>

ولما رأى العبيد أن الملك لا زال قائماً تسوسه سياساته المهرة الذين حنكتهم التجارب وأثمرت غروس الإخلاص والصدق للملك في قلوبهم ونبذهم مخازي الشهوة والأغراض الشخصية وراءهم ظهرياً طبق حال تنظيم المملكة أيام والد المترجم أظلم الجو في أعينهم حيث حيل بينهم وبين ما يشتهون من نهب بيوت الأموال وجعل الإمرة ألعوبة بين أيديهم وكبر ذلك عليهم وعلموا أنه لا سبيل لتحصيلهم على أغراضهم الفاسدة ما دامت المناصب عامرة بأربابها ذوي النجدة والأفعال السديدة والآراء المصيبة والسياسة المؤسسة البنیان، على تقوى من الله ورضوان، واتفق رأي كبارهم على أن يوسوسوا للسلطان في أركان الملك ويختلقون لهم معائب يلصقونها بجنبهم ويدسون لهم دسائس حتى يوغروا قلب السلطان عليهم ويبالغون جهدهم وطاقتهم في إغرائه على قتلهم وتظافروا على ذلك : فصار كل من اجتمع منهم مع السلطان يبدي له دسائس في قوالب نصائح ويقول له يا سيدي إن ملكك لا زال إلى الآن لم يتم ولا يؤمن عليك من هؤلاء العمال والوزراء والكتاب الذين كانت بيدهم مقاليد الملك أيام والدك فإنهم لا يرونك شيئاً وأنت محجوب بهم عن الرعية ولا بد من قيامهم عليك وتقديم غيرك من إخوانك وترشيحه للملك دونك وكان المترجم يميل إليهم كل الميل لضعف فكرته عن السياسة. وتدبير أمر الملك والرئاسة. أي وبكونه مغلوباً على أمره يخاف بأسهم ولا يرى رأياً إلا رأيهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ولما تمكنوا منه وأوغروا صدره على من بيده الحل والإبرام من ولاة أمره وأمر والده من قبله أغروه أي بعد أن أقاموا له الحجج على الفتك بأركان السياسة الذين هم للملك عماد كأبي العباس أحمد بن علي البيازغي وكان عامل الجبال كلها سهلها ووعرها نافذ الحكم فيها يرسل رسولا واحداً في قضايا متعددة فتنفذ الأوامر كلها وفق ما أمر في أقرب الأوقات ويأتي الرجل الواحد إليه بالمساجين العديدة من صياصي الجبال والقبائل العظيمة من غير قيد ولا يحدث أحد نفسه بالهروب لعلمه بنفوذ كلمته وطول يده في طول البلاد والعرض وأنه لات حين مناص وقد كان هذا العامل ناصحاً للسلطان يجمع المال من وجوهه ويودعه في خزائن السلطان يبذل النصح ولا يعرف غشاً ولا خديعة وكان السلطان مولانا إسماعيل يعرف أمانته وصدقه وينزله منزلته ويقدره قدره ولا يسمع فيه مقالة طاعن. وعلي بن يش وكان قائد أهل الديوان وعامل البربر ورئيس العمال وكان من ذوي الرأي والتدبير والعقل الراسخ لا يقدر أحد من البربر أن يملك فرساً ولا مكحلة ولا يحوم حول ذلك وبسبب ذلك صارت رؤوس الجبال البربرية الصعبة المسالك تمر فيها الأطفال وضعاف النساء في أمان واطمئنان لا يلحقهم أدنى مروع ولا مشوش. وابن الأشقر وكان عاملاً على جبل زرهون وعلى يده أعشار البوادي والحواضر من زروع ومواشي وزبوت وغير ذلك وكان عليه مدار الجيوش وإليه مرجع أمرها ذا رأي مصيب وثبات ونصح وإخلاص وتيقظ وحزم وعزم وحاجبه المملوكي الخنصي مرجان الكبير وكان بيده دفتر الداخل والخارج لا يطلع على ذلك غيره قريب أو بعيد وكان العارف

بالعوائد الجارية في الصلات مسانئة ومشاهدة وما يدفع للجيوش وغيرهم في الأعياد والمواسم وغيرها لا يعرف ضبط ذلك وتحقيقه غيره وقد كان محور شؤون الدولة على هؤلاء الأربعة يدور لتحقيق متبوعهم صدقهم وأمانتهم وسياستهم وكياستهم وعلمهم من أين تؤكل الكتف بعد السبر والامتحان والاختبار.

وبموت هؤلاء الأربعة اختل النظام وضربت الفوضى والاستبداد الإطناب ووقع من العامة استخفاف عظيم بأمر الملكة واشتد النهب في الطرقات وأغلقت المسالك. ولم يأمن المسافر من الوقوع في المهالك. وحصل أهل الزيغ على غاية مناهم وكثرت الشكوى بباب السلطان والسultan داخل قصوره ضاربا صفحا عما وراء بابه لا يسمع شكوى ولا ينتصر لظلم من ظالم أي لكونه أسند الأمر لرؤساء العبيد المتعصبين وذوي السلطة ومن لا ينفذ له أمر دونهم.

ومن جملة من قتلوه وصلبوه الفقيه العلامة القاضي الوزير السيد محمد بن العياشي الذي كان بيده دواوين الخراطين.

ثم نظروا فيمن بقي شجى في نحورهم يحول بينهم وبين تمام مرادهم فلم يجدوا غير الحاجب الملوك الخصي مرجان الصغير فقتلوه ثم قتلوا عامل مكناس ابن عدو ثم أشاروا بقتل من بقي يشار إليه بجودة الرأي وحسن التدبير، والنصح للأمير، حتى خلا لهم الجو واتسع الخرق على الرمق: فبموت أحمد بن علي اليازغي ثار أهل الجبال وأضرمت نيران العتو والفساد ورفضت الأوامر السلطانية وانقطعت الجبايات وانتشر العيث والنهب في الطرق واتبعت الأهواء.

وبموت علي بن يشو خرج البرابر من السلاسل والأغلال وتنافسوا في اشتراء الخيل والسلاح ورجعوا لحالتهم الأولى من سفك الدماء وقطع الطرقات ولم يبق لهم زاجر ولا رادع. وبموت ابن الأشقر كف الزرانة عن الأداءات وتحصنوا بجبلهم خوفاً من البربر وصمموا على قتال من أتاهم وضاعت أعشار القبائل وزكواتهم ولم يعرف منها نكير ولا قطمير. ويقتل مرجان الكبير جهل الخارج ولم يدر قدر الداخل وأحرقت الدفاتر الحافظة لذلك وبسبب ذلك نال العبيد مناهم وحصلوا على ضالتهم المنشودة.

ولما اختل النظام وتفاحشت المظالم وأكل القوي الضعيف واضطربت الأحوال. واشتبكت الأحوال. وثارت الثوار بسائر النواحي خرج المترجم من دار الملك وأفاض المال وزاد للعبيد فوق المعتاد فلما منه أن ذلك يجدي في رتق ذلك الفتى العظيم ثم رجع لقصوره أي حيث رأى أنه لا سبيل له لأكثر مما فعل.

نص 3 : حول عهد محمد بن عربية<sup>112</sup>

أمه عربية من الشاوية<sup>113</sup>، اتفقوا على بيعته من اليوم العاشر من جمادى الثانية عام 1149. بويغ بحضرة فاس العتيق وأهل فاس الجديد، وتبعهم رؤساء جيش العبيد ودخل إلى مكناسة يوم الجمعة في الحادي والعشرين من جمادى الثانية من عام تسعة وأربعين ومائة وألف المذكورة (26 أكتوبر 1736)، وهناك جددت له البيعة، وسار أخوه السلطان مولاي عبد الله إلى جبل فزاز فاعتصم به مع جموعه من البرابر وخاصته من أصحابه، وقد كان زحف إلى مكناسة مع حشوده من البرابر وأصحابه، فنهب أحوازها كما مر، وفيها مات أخوه مولاي الرشيد ورئيس العبيد ابن النويني بعده بسبعة أيام<sup>114</sup>، وتولى بعد النويني الخوات، والأمر يشتد في جميع الجهات. وفي تلك السنة كان ابتداء القحط الشديد<sup>115</sup>، وخرج الناس إلى الاستسقاء في حضرة مكناسة وفي فاس البالي والجديد.

وفي السنة المذكورة قبض سيدي محمد ولد أعرب على كثير من الناس<sup>116</sup>، وفرض عليهم الأموال الثقيلة ونهب ديارهم وأموالهم إلى أن ساء حال المدينة وحتى لم يبق للناس لا زرع ولا درهم ولا متاع، ومات كثير من الناس بالجوع، وأدبر من الخير ما كان مقبلاً، وأقبل من الشر ما كان مدبراً، وكان وبالاً على مدينة مكناسة وفاس وعلى زهون ومن جاورهم من الناس.

وفي التاسع عشر من ذي القعدة الحرام موافق لعشرة خلعت من مارس العجم كان اللقاء بين جيش السلطان سيدي محمد ولد أعرب ورئيسهم العباس بوزمّانة مع جموع أمير المؤمنين مولاي عبد الله بسايس، فكانت بينهم حروب شديدة ووقعة كبيرة بعد الظهر إلى أن جاز العصر بساعة، واشتد النزال وعظمت الأحوال، وكانت الهزيمة على بوزمّانة وجموعه، وتركوا جميع أثقالهم وأموالهم ومضاربههم والمحلة بأسرها، لولا أن حال الظلام بين الفريقين لم تبق منهم باقية، ولم يترك السيف منهم فرقة ناجية. وفرت فرقة منهم إلى حصن فاس وأخرى لمكناسة حفاة عراة. وفي عيد الأضحى من العام المذكور قام بعض الغوغاء بفاس الجديد من الوادي وكان بينهم شنتان، ونهض سيدي محمد ولد أعرب فسكن تلك الثائرة ورجع لحضرته مكناسة في اليوم الرابع من العيد والأمر بعد ذلك يزداد،

112. عبد الكريم الريفي، زهر الأكم، ص. 245-254.

113. إن ذكر الهوية القبلية لأم السلطان مسألة كانت تكتسي أهمية بالغة في تلك الظرفية، لأن هذا المعطى «الجزئي» يساعد على فهم خريطة النفوذ والتحالفات وطبيعة المجموعات التي تتحكم في دواليب الحكم. ولهذا السبب ذكرنا المصادر أهمية خناتة بنت بكار المغافرية (نسبة إلى المغافرة، من قبائل الأودية). انظر دقة ذكر أصول أمهات أبناء السلطان إسماعيل في كتاب عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، ص. 209، 213.

114. سبق لابن النويني أن غادر مشرع الرمل على رأس قوات العبيد لمحاربة عبد الله بناحية مكناس. انظر الضعيف، م. ص. 122.

115. حول مظاهر هذه «المسغبة العظيمة»، وعلاقتها بالصراع على السلطة، راجع محمد الأمين البراز، م. ص. 41-52.

116. ورد هنا اسم «ولد أعرب»، مع أن «ولد عربية» هو الاسم الذي تداولته جل المصادر. انظر على سبيل المثال الزياتي، البستان الظريف، ص 263. وورد كذلك لقب «الغابلا» الذي أطلق على نفس السلطان، ربما بسبب «القحط الشديد» الذي ورد ذكره آنفاً في هذا النص.

وكثر أهل الفساد في الحاضر والباد، وعم جميع المغرب الغلاء وعظم البلاء، وأكل القوي الضعيف، وصارت أموال الناس غنيمة ولا بقي في الناس عهد ولا نية، وكثرت المنكرات واشتد الخوف في الطرقات وغلت الأسعار في جميع الأمصار ولا سيما مدينة مكناسة وفاس، وكانتا محصورتين من كل جهة من الناس<sup>117</sup>، وكثر في المدينتين الخراب، وضيق عليهم من كل جهة البرابر والأعراب، وتواتت في أيام السلطان سيدي محمد ولد اعريب الهزائم على العساكر، وضعف الجند في دولته في البادية والحاضرة.

وفي أيامه كثر الثوار في جميع الأقطار. فأخوه مولاي عبد الله استولى على الصحراء وسوس ومراكش وعلى البرابر، والحوات في الرمل على العبيد وعلى بني مالك وسفيان وعلى اطلينج والخلط وما بين ذلك من البلدان. والباشا أحمد بن علي الريفي، استولى أيضاً على الفحص وعلى بلاد اغمارة كلها، وما بين ذلك من القرى والقبائل، وعلى مدينة تطاون والقصر وعلى جميع تلك المعامل وعلى بلاد الريف وكارت وجبالها وقلوعها إلى ناحية أجرسيف. والقائد محمد الكعبيدي اليازغي في بني يازغة. واشتعلت الفتنة في كثير من البلاد، وكثر في الأرض البغي والفساد (...).

وفي تلك السنة ماتت عامة الناس بالجوع وعجزت الناس عن دفن موتاهم وكانوا يرمونهم في الأزقة والمزابل، وغير ذلك، نسأل الله السلامة والعافية بئنه (...).

وفي الشهر من صفر الخير نهض الباشا الحوات من الرمل بالجوش، وزحف إلى بني احسن الذين كانوا يقطعون الطرقات وينهبون الناس في جميع الجهات، ولا سيما مختار وأولاد غيات وحجاوة الأشرار. فأوقع بهم الحوات في بلادهم وأكلت المحلة زروعهم، ونهبت أموالهم ورضخت المدينة بأموالهم وزروعهم.

وفي صبيحة يوم الأربعاء التاسع والعشرين من صفر الخير من العام المذكور، خلع الباشا الحوات السلطان سيدي محمد ولد اعريب، وقبضه وثقفه في الحديد واعتقله بالقصبة لأنه عجز عن القيام بأمر الخلافة في الحاضرة والبادية<sup>118</sup>.

وكانت أيامه لا تمثل من كثرة النهب والخراب، وأحواز المدينة وجهاتها طعمة للأعراب، وأضر بالمدينة بني احسن والبرابر، وكذلك فعلوا بزروهون وأحوازه وسيدي قاسم، حتى انتقم الله منهم، وسلط الله عليهم جيش الوصفان، ونهبوهم وقتلوهم في كل مكان وذلك الجزاء لأهل الفساد والظلم، «أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من في البلدان، ذلك لهم

117. انظر إدريس أبو إدريس، المغرب في النصف الأول من القرن الثامن عشر. مساهمة في دراسة إشكالية أزمة الدولة المركزية، رسالة مرقونة، فاس، 1987، ص. 250. بصدد محاصرة مكناس من طرف «القبائل البربرية»، كتب المؤلف: «وقد لاحظ ذلك مرة أبو مدين الدرعي عندما غارت خيول هذه القبائل على المدينة وأخذن مواشيها. ولم يكن بإمكان أحد خروج من المدينة إلا ومعه «الزطاطة» التي أصبحت الحرفة الوحيدة التي لا تعرف الكساد، يقول ابن حمادوش عندما كان يريد التنقل من مكناسة إلى فاس في قافلة كبيرة، «ومعها ثلاثة برابر يعدونها ويأخذون الزطاطة عشر موزونات لكل بهيمة».

118. قارن مع ما ورد في كتاب نشر المثاني، ج 4، ص 14. «... اتفق العبيد على خلع سيدي محمد بن عربية لأنه لم يجد ما يعطيهم من المرتب لهم في كل سنة (...) ولم يجدوا ما ينهبون بها (دار الملك)، لأن سيدي محمدا كان أسقط الضروب والكوس عن سائر المغرب، فانقطعت الجبايا والهدايا عن دار الملك من سائر بلاد المغرب إلا ما يأتي من مراسي البحر أو ما يقبض من أهل الذمة».

خزي في الدنيا وفي الآخرة عذاب النيران»<sup>119</sup>(...).

وكانت دولته عاماً وسبعة أشهر وعشرين يوماً وكلها في شدة ونزاع، وعامة الناس كلهم جياع (...).

وكانت أيامه لا يأمن أحد على نفسه، وعلى فلسه من كثرة الجور والظلم، واستولى على أمره أرادل القوم، وكان سفاكاً للدماء مسلطاً على المساكين واليتامى، وفوض جميع أموره إلى أصحابه، فأكلوا الأموال أكلاً لماً، وماتت في أيامه أكثر الناس جوعاً وغماً (...).

وكانت دولة السلطان سيدي محمد كما مر سنة وثمانية أشهر غير أيام، في غاية من الغلاء والجوع والفتنة عمت جميع المغرب، إلى أن تدارك الله البلاد والعباد لتولية أمير المؤمنين مولاي المستضيء بالله فقمع أهل الفساد، وقتل جملة من أهل العناد، فأمنت الطرقات وكثرت بوجوده الخيرات، ورجع إلى بلاده من كان بقي بالحياة وتولى بعد أخيه محمد.

نص 4 : مدينة فاس وانقطاع الطرق<sup>120</sup>

ورجع سيدي محمد (ابن عربية) لمكناسة واستقر بها وانقطعت الطرق بالكلية، وارتفعت الأسعار فبلغ القمح نحو ثلاث أواق ونصف قديمة للصاع النبوي، وجعل للصوص يهجمون على الناس في ديارهم ليلاً ويقتلونهم ويستغيثون فلا يغاثون . وبلغ النهب في النهار إلى باب الدور التي بأطراف المدينة، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن وادي عدوة الأندلس ولا عن باب القصبين ولا عن الحفارين من فاس القرويين . وانعدم الحطب من فاس فأكثر الناس الهدم في الدور لأخذ الخشب لطبخ ما يتقوتون به، وخلا من السكنى نحو الثلثين من فاس بالجوع والفرار عنها، وتخرب أكثر من ذلك من دورها وحوايتها وغير ذلك ، وأخرج العدو الكافر الزرع من بلاده للمسلمين من البحر في تطاون ونواحيها، فخرج أهل فاس لجلبه إليهم فاشتروه منهم، فكان والي تلك البلاد الباشا أحمد بن

119. قارن مع نص الماوردي، المتخلف من كتاب الأحكام السلطانية، والوارد أعلاه، ص. 104 - 107 .

120. القادري، نشر المثنوي، ج 3، ص. 404-405. في مرحلة لاحقة من الصراع المذكور (سنة 1156 للهجرة)، زحف أحمد بن علي الريفي (إلى جانب المستضيء) على فاس ونزل بقرطبة سبو، وبذلك بمساعدة العبيد وقوات من الريف والفحص والجليل، وسوف تفشل المحاولة لأن السلطان عبد الله نجح في تشكيل حلف موسع ضم أهل فاس، والوداية، والحياينة، وشراكة وأولاد جامع، وأيت إدراسن. انظر الزياتي، البستان الظريف، ص. 309 وما تلاها.

علي بن عبد الله الريفي<sup>121</sup> يباطن البداوة<sup>122</sup> وغيرهم من أهل الإبل الذين يحملون في الطرق بأن لا يحملوا لأهل فاس شيئاً، وفي الظاهر يأمرهم بالحمل إلى فاس وينصح في ذلك بلسانه، فتعذر على الناس جلب الزرع لفاس وطال بعد ذلك نحو ستة أشهر حتى وصل للريف أن أكثر من بفاس الذين لهم عيال كثيرون لا يقدرّون على حملهم لبلاد أخرى من قلة الزاد والتناول وحفظ المروءة ماتوا عن آخرهم بالجوع، فسر بذلك في الباطن، ولا أغنى الناس مال ولا متاع، فعرف كثير من الناس من أهل الأموال ضاعوا، وكل من حفظه الله ونجا من أهل فاس فعن مشقة، وبلغ سوم القمح في هذه المدة ست أواق للصاع النبوي، ودخل الركب النبوي لفاس فلم يشعروا به إلا بعد وصوله لدور فاس، وأتى بزروع معه من طرابلس فانحط القمح إلى نحو سبع موزنات للصاع النبوي، وسار أهل فاس بإبليهم إلى تطوان فحملوا عليها الزرع وأتوا به لفاس حيث تحقّقوا ما بطنهم به الريفي، وأخبرهم البداوة بذلك، وتدارك الله تعالى عباده باللطف الخفي المرجو بعد الشدة وبقي الأمر كذلك إلى تمام عام خمسين<sup>123</sup>.

121. ينتمي أحمد بن علي الريفي إلى سلالة آيت حدو التي بنت مشروعية نفوذها على الجهاد ضد الوجود الاسباني بسبته، وجمع عدد من رجالها بين السلطة الجهوية الواسعة، والمهام الدبلوماسية، والقوة التجارية. فعند وفاة أحمد بن حدو، عين علي بن عبد الله قائداً على الشمال وكلف في آن واحد بالعلاقات مع أوروبا. وعند وفاة هذا الأخير (1713 للميلاد)، خلفه ابنه أحمد الذي استقر بطنجة وكانت علاقته مع تطوان مطبوعة بالتوتر، وهو ما يفسر ثورة هذه المدينة ضد ابن علي الريفي غداة وفاة السلطان إسماعيل. وخلال مرحلة «الفترة»، تدخل القائد في الصراع بين الأمراء، وتحالف مع العبيد وانحاز إلى المستضيء. ودخل في مواجهات مسلحة مع عبد الله، وتوفي سنة 1743 خلال معركة دارت بالقرب من مدينة القصر الكبير. وقيل إنه ترك ثروة «قارونية». راجع محمد داود، تاريخ تطوان، ج 2، تطوان، 1953، ص. 57 وما تلاها، وكذلك :

Jamil Abu Nasr, *History of the Maghrib*, pp. 232-233.

122. قد نحيلنا هذه الكلمة للوهلة الأولى على معنى البدو. غير أن شارل دو فوكو (م.س. 13) يذكر، في طريقه من طنجة إلى فاس، قبيلة «البداوة» التي كانت تقطن داخل «إقليم العرائش»، ويذكر سوقاً أسبوعياً يسمى «سوق أربعاء البداوة»، ولعله يطابق موقع مدينة سوق أربعاء الغرب الحالية.

123. تلمس في النص أن السرد يتضمن لحظتين تذكرا ببنية «الفرج بعد الشدة». حول هذا المفهوم، انظر الطروشني، م.س.، ص. 469 وما تلاها.



## الفصل الثالث

### مناقب ومواقع



## مقدمة

تعرفنا في الفصل الأول، من خلال بعض النماذج والمشاهد، على الدور الذي تلعبه الزوايا وبيوتات الشرفاء في مجال حماية المسافرين في القرن التاسع عشر. فالزاوية والشريف ينتدبان رجالاً يخفرون المسافر أو القافلة، كما أن الزاوية توفر للقوافل محطة استقبال تماثل دور النزلة. وفي بعض الحالات، كان تأمين المحاور الطرقية أحد عوامل ترسيخ سلطة الزاوية في مناطق معينة. سوف نتنقل الآن من الظاهرة التاريخية إلى الأدب التاريخي، لنتناول أشكال حضور قضية أمن السفر في أدب المناقب<sup>1</sup>، أي الجنس الذي كان يؤرخ للصلحاء والأولياء والزوايا. وعلى غرار تاريخ الحكام والدول، فإن كتب المناقب كانت تتخذ منظور الإطراء والتمجيد والتبجيل تجاه رجال الصلاح والولاية.

حين نقرأ كتب المناقب، فإننا نلاحظ حضوراً لافتاً لموضوع السفر. قد يصاغ الكتاب في قالب أدب الرحلة، فنكون أمام «رحلة زيارية»، مثل كتاب «أنس الفقير وعز الحقيير»، الذي ألفه ابن قنفذ القسنطيني. لكن بغض النظر عن البناء العام لكتب المناقب، يخترق موضوع السفر والتنقل سير الأولياء التي تهّم مدينة، أو منطقة، أو تخصص لذكر مآثر أحد الأولياء. وربما جاز القول أن التأليف المنقبي يولي للمجال عناية أكبر من العناية التي يوليها للزمن.

تتعدد أشكال السفر. فالسياحة والابتعاد عن العمران يشكلان إحدى وسائل الارتقاء نحو الولاية. والولي يسافر كذلك للحج وزيارة الديار المقدسة بالشرق، وهو بدوره يتلقى زيارة المريدين والراغبين في التبرك أو الباحثين عن الطريق. ومن الناحية التعبيرية، كثيراً ما يستعير التصوف

---

1 . راجع محمد مفتاح، الخطاب الصوفي، ص. 81، وعبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، لندار البيضاء، 1989، ص. 117-121.

لغة السفر، فتتردد مصطلحات مثل «الطريق»، و«المنهاج»، و«المذهب». ويتم التمييز بين «السالك» و«المجذوب»<sup>2</sup>. وينعت الشيخ ب«رفيق الرحلة»، ويقال إن «المريد يصحب الشيخ في الطريق». وعند الحديث عن درجات المجاهدة والارتقاء الصوفي، ترد كلمات مثل «المراحل»، و«المراتب»، و«المقامات»، و«المنازل»<sup>3</sup>.

تمثل الكرامة أهم عنصر يميز الكتابة المنقبية<sup>4</sup>، مثلما تتميز كتابة التراجم بإلحاحها على موقع الفقيه أو العالم داخل سلسلة النسب والشيوخ والرواية. ولا تخص الكرامة ما يسمى ب«التصوف الشعبي»، في مقابل تصوف «عالم» يستغني عن موضوع خرق العادة. اعتاد البحث في التاريخ الاجتماعي للتصوف والزوايا أن يركز على تنقيح المعطيات الواردة في أدب المناقب، من أجل الاحتفاظ بالوقائع وإسقاط العناصر التي تستعصي على التصديق. بيد أننا تبيننا قراءة تحاول أن تتجاوز ثنائية ما يُصَدَّق وما لا يُصَدَّق. ومعناه أننا نسعى إلى استثمار المادة المنقبية بطريقة تجعل من المعطيات التخيلية عناصر تفيد التاريخ الثقافي، ويمكن أحياناً من التعامل مع الرمز باعتباره أحد عناصر الفعل الاجتماعي.

وقد انطلقنا من التمييز بين نوعين من الكرامات :

- قد تؤدي الكرامة إلى الإخلال بقواعد الطبيعة، فيتحدى الولي مقتضيات المجال، وتصوره الكرامة وهو يطوي الأرض ويختصر المسافات، أو يمشي فوق الماء ويطأ سطحه كما نطأ الأرض الصلبة، أو يطير في السماء ويتجاهل جاذبية الأرض.

- وقد تؤدي الكرامة إلى مواجهة مشاق السفر ومخاطره، فيحصل خرق العادة في التغلب على قاطع الطريق، أو التغلب على الخوف، أو الحصول على الماء والغذاء في غير مكانهما. حين نقارن نصوص كرامات السفر بما تحتويه مقدمات كتب المناقب، أو بتعريف مفهوم الكرامة في الأدبيات المؤسسة لعلم التصوف، يتبين لنا أن سرد الكرامة يحيل على تصورات ثقافية معينة.

أولاً - الكرامة والقصة النمطية

تتناسل كرامات الأولياء على منوال معجزات الأنبياء، وهو أمر لا نتوصل إليه فقط عن

2. راجع أحمد الوارث، الأولياء، ص. 44-63.

3. راجع :

S. de Laugier de Beaurecueil, « Le langage imagé du livre des étapes de Hwaga Abdullah Ansari, mystique hanbalite du Ve / XIe siècle », *Bulletin des Etudes Orientales* (Damascus), XXX, 1978, pp. 33- 34.

4. راجع :

Louis Gardet, art. « Karâma », E.I., 2è éd., t. 4, pp. 639- 641.

وحول بعض جوانب السجال الذي دار حول موضوع حقيقة الكرامة، انظر :

Maribel Fierro, « The Polemic about the Karâmât al-Awliyâ' and the Development of Sufism in al-Andalus (Fourth / Tenth – Fifth / Eleventh Centuries) », *B.S.O.A.S.*, n° 55, 1992, pp. 236- 249.

طريق مقابلة النصوص<sup>5</sup>، بل يُعلن أحياناً كمبدأ مقبول<sup>6</sup>. وهناك تصنيفات تنسب أنواعاً معينة من الكرامات لأنبيا محددين. فالأدبيات الصوفية تذكر تصنيفاً يجعل من المشي على الماء كرامة الولي العيسوي (نسبة إلى النبي عيسى)، ومن الطيران في الهواء كرامة الولي المحمدي<sup>7</sup>. وبصدد طي الأرض، يُستشهد بحديث نبوي يدعو فيه الرسول عند إقدامه على السفر قائلاً: «اللهم اطوي لنا الأرض وهون علينا السفر». وفي لفظ آخر، «اللهم أزو لنا الأرض»<sup>8</sup>. ومن التعريفات التي اقترحتها المتكلمون لطبي الأرض، أنه «اجتماع ما له طول ومساحة منها»، أو أن «الطي للنبي والولي إنما معناه أن يخلق الله سرعة حركة وقلة لبث في الأماكن مثل الطائر لأن الطائر أقل لبثاً في الأماكن من الفرس، والبرق أقل لبثاً في الأماكن من الطائر»<sup>9</sup>.

#### ثانياً - الكرامة والمكافأة.

تُقام في بعض الأحيان علاقة محددة بين أشكال معينة من التقوى ومجاهدة النفس، وبين أشكال معينة من الكرامات. فقد صنف ابن عربي الكرامات حسب علاقتها بتقوى مختلف أعضاء الجسم. فمن كرامات تقوى البصر، «رؤية الزائر له قبل قدمه على مسافة بعيدة أو من خلف حجاب» «كثيف»، و«رؤية الكعبة عند الصلاة حتى يتوجه إليها». ومن كرامات تقوى اليد، «تبع الماء من بين الأصابع كما كان هذا لمحمد (صلعم)». ومن كرامات تقوى البطن «أن يشبع القليل من الطعام الرهط الكثير». ومن كرامات تقوى القدم «المشي على الماء وطى الأرض والمشى في الهواء»<sup>10</sup>. وفي مستوى آخر، تنتظم الكرامات، بشكل متدرج، وفق تدرج مراحل المجاهدة والارتقاء الصوفي التي يمر بها الولي<sup>11</sup>.

5. انظر النصين الواردين أدناه، ص. 171، حيث يشق الولي النهر نصفين، أو يوقف السيل، وهو ما يذكر بمعجزة النبي موسى.  
6. انظر على سبيل المثال أبو العباس العزقي، دعامة اليقين، ص. 28. وكذا المهدي الوزاني، المعيار الجليدي، ج 11، موضوع: «ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي»، ص. 283-285.  
7. علي شوكيفيتش، الولاية والنبوة، ص. 82. ويبدو أن ثقافات عديدة منحت قيمة كبرى للصور المبنية على الارتفاع والصعود و«المنمط العمودي» (verticalité). وحول الأبعاد النفسية والشعرية لهذا الجانب، راجع:  
Gaston Bachelard. *L'air et les songes : Essai sur l'imagination du mouvement*, chap. 1-2, « Le rêve de vol ». « La poésie des ailes ».

8. ابن تجلات، إثم العينين، ج 2، ص. 276.

9. ن. م.، ص. 277.

10. ابن عربي، مواقع النجوم، ص. 58-126.

11. في استعراضه لدرجات ارتقاء الأولياء، يذكر عبد الحق البادسي، نقلاً عن أبي الحسن علي بن محمد المراكشي، ثلاث طبقات. يخفي رجال الطبقة الأولى ولا يتهم، ويتولون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما رجال الطبقة الثانية فهم قوم لا يسكنون إلى أحد ولا يهدأون عن الانتقال من بلد إلى بلد، لا يشتغلون بمكسب (...) ولا يكون لهؤلاء الأولياء مأوى إلا المساجد المهجورة التي لا يصلي فيها أحد. وإذا وصل الولي إلى الطبقة الثالثة، فإنه «يخرج من العمارة حتى يصير كالوحش لا يأوي إلى أحد، فيقع في بحر التوكل على الله تعالى، فيأكل من نبات الأرض، ويركن إليه الوحش». ولا يبالي بالقيظ والبرد. ثم «يزيده الله المسير في الهواء، والمشى على الماء». انظر كتاب المقصد الشريف، ص. 20-25. وبالنسبة لهذا التصور، نلاحظ تشابهاً لافتاً مع ظاهرة القديسين المسيحيين في العصر البيزنطي. راجع:

Evelyne Patlagean, « Ancienne hagiographie byzantine et histoire sociale », *Annales ESC*, janv.-fev. 1968, pp. 106- 126.

قد يجوز أن نعتبر أن المضامين الثقافية تهيمن أكثر في نصوص الكرامات القائمة على نفي إكراهات الطبيعة، على غرار الخطوة والمشي على الماء والطيران في الهواء. وحين تنتقل إلى مشاهد الكرامات التي تحكي أشكال مواجهة مشاق السفر، فإننا نلمس بعض أشكال التفاعل بين الصورة والعلاقة الاجتماعية. فالولي يتدخل لإغاثة المسافر الذي يواجه الخوف. ومعلوم أن هذا الشعور كان ملازماً للسفر بسبب المصاعب والمخاطر التي كانت تحيط بالطريق<sup>12</sup>. ومن جانب آخر، كان الخوف أحد المرتكزات التي تقوم عليها هيبة الأولياء ونفوذهم الاجتماعي<sup>13</sup>. فقد كان الولي ملاذ الإنسان الذي يشعر بالخطر، وهنا يتراجع واجب ستر الكرامة، ويساهم انتشار أخبارها في إثارة الخوف لدى الفئات التي تهدد أمن الإنسان، ومن بينها قطاع الطريق.

والملاحظ أن العلاقة بين الولي وقاطع الطريق لا تنحصر في إنقاذ المسافر ومعاقبة المحارب. ففي مستوى السياق التاريخي، اعتُبرت الولاية كرد فعل ضد العنف، ولا سيما عنف قاطع الطريق. وقد أقامت أبحاث حديثة علاقة سببية بين تيار الولاية وبين انتشار قبائل بني هلال وبني معقل ابتداء من القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد)<sup>14</sup>. وفي مستوى المضمون الثقافي للنص المنقبي، يتردد موضوع التوبة<sup>15</sup>، وتتردد القصة التي تحكي كيف تحول قاطع الطريق إلى ولي صالح<sup>16</sup>.

لقد تبين لنا أن موضوع كرامة السفر ينطوي على امتدادات منهجية تُهم إعادة الاعتبار للتصورات في كتابة التاريخ الاجتماعي. يمكن أن نعتبر التصور كجزء من الواقع الاجتماعي، إذ أنه يساهم في توجيه الممارسة الاجتماعية<sup>17</sup>. وفي هذا الإطار، كان اهتمامنا بدور المقدس والرمز في تأطير بعض أشكال السلوك الجماعي المرتبطة بتأمين الطريق والحد من ظاهرة العنف. وهكذا سوف نتناول ثلاثة جوانب، وهي المكان والزمن والقلائد.

قد يساهم الرمز في إضفاء الحياد على المكان. وتلتقي هذه الفرضية مع بعض الاجتهادات التي سلطت أضواء جديدة على تاريخ إنشاء المدن المغربية. ففي جل الحالات تواتر ذكر روايات معينة عبر الموروث الأسطوغرافي، وهي في الغالب تربط إحداث المدينة بانجاز سلطان معين. ثم

12. حول التلازم بين الخوف من السفر والخوف من الغريب، وما يرتبط بذلك من معتقدات وطقوس في المجتمعات التقليدية، راجع:

Edmond Doutté, *Merrakech*, p. 31.

13. انظر نعلي سلامة العامري، الولاية والمجتمع: مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي، تونس، 2001، ص. 310-315.

14. من الدراسات المؤسسة لهذا المنظور، نذكر مقال جاك بيريك، «في مدلول «القبيلة» بشمال إفريقيا»، ضمن عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق (ترجمة)، الأنثروبولوجيا والتاريخ، ص. 122-124.

15. انظر النص الوارد أدناه، ص. 165.

16. انظر النص الوارد أدناه، ص. 164.

17. انظر على سبيل المثال:

تكشف التحريات عن واقع أقرب إلى التمدين التدريجي<sup>18</sup>. وقد تناولنا نموذج مراكش، فانطلقنا من كتاب «الاستقصا» لأنه مؤلف متأخر يساعد على رصد سلسلة من الروايات التي رسخت صورة معينة حول تأسيس عاصمة دولة المرابطين<sup>19</sup>، وهي صورة لا تختلف كثيراً عن الروايات المتواترة التي تهم تأسيس عواصم ومدن مخزنية أخرى مثل فاس ورباط الفتح. ثم أوردنا نصاً من كتاب «المعجب» لعبد الواحد المراكشي، ذكر فيه المؤلف قضية نزول لتونة ومسوفة بـ«رحبة مراكش». وأشارنا في الأخير إلى الفرضية التي اقترحها أحمد التوفيق، ومفادها أن اسم مراكش يدل على أن المكان سبق أن وضع تحت حرمة الرب كوش. فالملاحظ إذن أنه باستثناء ربط إحداهن المدينة بيوسف ابن تاشفين، فإن بعض الروايات لا تلغي بعضها البعض، بل هي تتكامل، وتحيل على قضية أمن الطريق، وصياغة حياد الموقع في إطار بنية قبلية تعتمد على المقدس من أجل صياغة أشكال التعايش والتبادل.

فيما يخص حياد الزمن، فقد توقعنا، من خلال نص من «طبقات الحضيكي»، عند حالة الولي محمد بن المبارك الأفاوي، الذي تعود شهرته إلى الرواية المتواترة التي جعلت منه رمزاً لدعم الوسط الصوفي للسعديين عند انطلاقهم نحو السلطة. فقد تحدث الحضيكي عن «أيام عافية المرابط»، وهي أيام كان يمنع فيها القتال وحمل السلاح، وذلك من أجل الحد من «الفتن بين القبائل»، وقد شاع آنذاك أن كل من خرق هذا المنع يعرض نفسه لعقاب الولي.

أما القلائد، فهي أدوات تتصل بالسفر والولاية. وقد أثار اهتمامنا حضور موضوع القلائد في كتاب «المنهاج الواضح»، الذي ألفه أحد أحفاد أبي محمد صالح مؤسس رباط أسفي. وقد انتبهنا إلى العلاقة الموجودة بين مجموعة من الجوانب<sup>20</sup>، وهي:

- موقع رباط أسفي داخل سيرورة مؤسسة الحركة الصوفية بالمغرب، إذ يبدو أن الرباط المذكور لعب دوراً هاماً في بروز ظاهرة «الطائفة»، ويتجلى ذلك على سبيل المثال في ابتكار مصطلحات مثل «الفقراء»، و«الخدم»، و«المقدم»<sup>21</sup>.

- دعوة أبي محمد صالح إلى الحج، وتأسيس «ركب الحاج الصالح» الذي شكل نواة الركب الرسمي في عهد الدولة المرينية<sup>22</sup>.

- حضور لافت لكرامات السفر في كتاب «المنهاج الواضح».

18 . حول هذا الموضوع، راجع عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، ص. 27-34.

19 . يحيل صاحب الاستقصا على «صاحب كتاب التبراس»، و«صاحب المغرب»، بالإضافة إلى روض القرطاس، وابن خلدون، والمقري، وابن الخطيب. حول المؤلفين الأولين، انظر أدناه، ص. 170.

20 . راجع أعمال الندوة المنشورة، أبو محمد صالح: المناقب والتاريخ، وكذا:

Vincent J. Cornell, *Realm of the Saint*, pp. 138-141.

21 . انظر مساهمة محمد القبلي في ندوة أبو محمد صالح، م.س.، ص. 94 وما تلاها.

22 . حل «الركب الفاسي» محل الركب الصالحى انطلاقاً من مبادرة قام بها السلطان يوسف بن يعقوب سنة 703 للهجرة (1303 - 1304 للميلاد). وعرف المغرب أيضاً الركب السجلماسي، والمراكشي، والناصري. انظر محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، وكذا مقال أحمد عمالك، م.س.

- تفرّد الكتاب بتناوله المفصل لموضوع القلائد، وعددها ست، وهي المرقعة، والحلاق، والشاشية، والعصا، والركوة، والسيحة<sup>23</sup>.

عرّف صاحب «المنهاج الواضح» بالقلائد بشكل عام. وفيما يخص كل قلادة على حدة، اهتم المؤلف بالشرح اللغوي، وذكر نصوصاً من المأثور، ولا سيما من الكتاب والحديث وأقوال السلف. وقد وضع المؤلف الفائدة العملية للقلائد، واستدل على جواز اتخاذها. ويلمس القارئ نبرة دفاعية واضحة، تدل على أن اعتماد القلائد المذكورة لقي معارضة من لدن بعض الأوساط الدينية. وسوف يلاحظ القارئ أن القلادة تظهر في هذا السياق كعلامة خارجية تحمل دلالات رمزية، وتشير داخل مجال السفر إلى الانتماء لهوية جماعية تتصل بسلطة صوفية<sup>24</sup>، وفي أن واحد تشتغل العلامة كأداة حماية للمسافر.

إن موضوع القلائد يكتسي أهمية لا تقتصر على دور الأولياء والزوايا في تأمين الطريق، بل هي تمتد في الواقع إلى طقوس أعراف السلم والتضامن والحماية في الوسط القبلي<sup>25</sup>، كما أنها تشمل بعض رموز السلطان، مثل استعمال السُّبحة للإعلان عن منح الأمان.

23 . يبدو أن جل القلائد المذكورة من تأثير التصوف الشرقي، والشاشية من تأثير خراسان، بيد أن تبني السبحة كان من اجتهاد أبي محمد صالح . انظر :

Vincent J. Cornell, *op.cit.*, p. 140.

24 . بصدد علاقة القلائد بالسفر وموضوع فعالية الرمز، نشير إلى أن الكلمات التي تستعمل للدلالة على الرمز في اللغات اللاتينية والأغلويسكونية (مثل symbole, symbol) تنحدر كلها من مصطلح يوناني (symbolon) وهو مفرد، جمعه : symbola)، ومعناه في الأصل المادة الناقصة (قد تكون قُصْبِيًّا، أو عَظْمِيَّة، أو لُوثِيَّة، أو قطعة نقدية)، والتي ينبغي تقريبها من أخرى لتكتسب دلالتها الكاملة، وهي تستعمل للتأكد من هوية الغريب عند دخوله لمدينة أخرى. ويُعتبر هذا الإجراء الشكلي محطة هامة في التطور القانوني الذي عرفته العلاقات بين المدن- الدول اليونانية في القرن الخامس قبل الميلاد. ويفضل الاتفاقيات الجديدة (المسماة كذلك : سِيْمَبُولَا symbola)، أصبح مواطن إحدى المدن - الدول اليونانية يتمتع بحقوقه القانونية في المدن الأخرى . راجع :

Philippe Gauthier, *Symbola : Les étrangers et la justice dans les cités grecques*, chap. 2.

25 . انظر أدناه، ص. 184.

## I. الكرامة ونفي إكراهات المجال

### 1. طي الأرض

نص 1: الخطوة والحج<sup>26</sup>

أخبرنا القاسم بن عبد العزيز الهسكوري قال : حدثني يوسف بن أبي عمر الهسكوري وكان رجلاً صالحاً قال : حدثني الشيخ الصالح الصوفي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الهسكوري قال : كان بأغامت وريكة رجل أسود لا تعرف أحواله وكنا نتوسم فيه الخير وكان يحضر معنا. فلما أهل شهر رمضان أتاني شيخ من أهل أغامت فقال لي : عسى أن تظفر عندي مع أصحابك في هذا الشهر وعسى أن يكون معكم ذلك الرجل الأسود. فأجبتة إلى ذلك. فكنا نظفر عنده إلى أن انصرم شهر رمضان فبقي معنا ذلك الأسود إلى أن وصل الحجاج. فسلموا على ذلك الأسود فستلوا عنه فقالوا : إنه حج معنا العام الأول. فنظرنا في مغيبه عنا في العام الأول فتحققنا أنه لم يقب عنا إلا في شهر ذي الحجة من العام الذي حج فيه<sup>27</sup>. فلما استشعر أنا علمنا بذلك غاب عنا فلم نره بعد ذلك<sup>28</sup>.

نص 2 : الخطوة رفقة الشيخ<sup>29</sup>

وحدثني أبو عمران موسى بن عمران قال : حدثني عثمان بن سعيد قال : سمعت أبا مهدي يقول : أول ما ظهر لي من بركة أبي عبد العزيز في ابتداء أمري أنني صليت معه المغرب والعشاء الآخرة. فخلوت لنفسي وشرعت في صلاة وردي فصليت ركعتين فأتاني أت وقال لي : يا وين السلامة، اتبعني. فلم أدر أجنبي هو أم إنسي، فاتبعته وأنا أمشي خلفه إلى أن قال لي : هذه أغامت وريكة. ثم كلما مررت ببلد سماه لي. فكأنني كنت في المنام إلى أن قال لي : هذه الكعبة المشرفة. فشاهدتها على الصفة التي يصفها الناس ورأيت الناس يطوفون بها ولمست الحجر الأسود بيدي وشربت من ماء زمزم. ثم قال لي ذلك الأتي الذي أتاني : ارجع بنا. فتحول وتبعته ولا أدري حيث يسير إلى أن أوصلني المكان الذي كنت أصلي فيه وردي. فسمعت نداء الصبح. فذهبت إلى أبي عبد العزيز وصليت معه الصبح. فلما صلينا قال لي : رأيت الكعبة، يا وين السلامة، تحفظ من الشيطان لا يفرنك (...).

26. ابن الزيات، التشوف، ص. 139. ونلاحظ في النص حضور النسبة الهسكورية، وإسناد الرواية على طريقة أهل الحديث.  
27. هناك تنويعات في إيقاع هذا النوع من الحج. فهذا أبو موسى ويعزان بن مخلوف الصادي، من هسكورة، حج أربعاً وعشرين مرة دون أن يعلم بذلك أحد (التشوف، ص. 386-387). وهذا أبو إبراهيم إسحاق ابن ويعزان، من رباط تاسماط، كان يحج في كل عام (ن.م، ص. 35-36). أما المجذوب الملامتي عبد المجيد البادسي، من منطقة الريف، الذي استوطن فاس وعاصر أحمد المنصور السعدي، فقد كان «لا يصلي صلاة إلا بمكة أو المدينة (...)». فكان لأجل ذلك لا يراه أحد بغاس يصلي في مساجدها أبداً. الكتاني، سلوة الأنفاس، ج 3، ص. 107-108.  
28. يحل رد فعل الولي على واجب ستر الكرامة، وهو مبدأ متداول في الأدبيات الصوفية. انظر أبو العباس العزفي، دهامة اليقين، 1989، ص. 7-8.  
29. ابن الزيات، التشوف، ص. 260-261.

نص 3 : الخطوة من القنادسة إلى فاس<sup>30</sup>

ومنهم الولي الصالح، ذو الرهان الواضح، الشائع الكرامات، والمناقب والآيات، سيدي الحاج عبد الكريم الكرّزازي<sup>31</sup>. كان رحمه الله من كبار الأولياء، وصدور الأصفياء، صَوَاماً قَوَاماً ذاكراً جوالاً. وكان من أهل الخطوة والإخبار بالمغيبات. غاب مرة عن فاس مدة كبيرة. ثم إن جماعة من أهلها خرجوا في زمن الخريف لجنان من أجنة لمطة وباتوا فيه. فبينما هم نائمون ليلاً واذ صاح بهم. فقاموا، وخرجوا إليه، وقالوا له : ما جاء بك هذه الساعة ؟ فقال : هذه رجلي من القنادسة بعدما صليت العشاء بها<sup>32</sup>. رأيتم هاهنا وجئت عندكم. وبقي هناك معهم ليلة أو ليلتين. ولما رجعوا إلى المدينة، سألوا عنه، فلم يجدوا له بها خبراً.

30. محمد الكتاني، سلوة الأنفاس، ج 3، ص. 181.

31. نسبة إلى كرزاز الواقعة شمال غرب توات، على وادي الساورة، شمال واحة القصابي. وحول الزاوية الكرّزازية، راجع كتاب : Louis Rinn, *Marabouts et khouan*, pp. 342 et suiv.

وقد توفي عبد الكريم الكرّزازي في سنة 1155 للهجرة (1742-1743 للميلاد)، «قتيلاً ظلماً على يد حاكم البلد بفاس».

32. حول زاوية القنادسة، الواقعة بالجنوب الشرقي، انظر أعلاه، ص. 55-58.

## 2. المشي على الماء

نص 1 : «شبه سحابة» قادمة من ميناء سبتة<sup>33</sup>

وحدثني عنه بعض أصحابنا قال أبو يعلى : قعدت يوماً على حجر في وسط البحر أتفكر في المشي على الماء، فنازعتني نفسي إلى ذلك، فقسست ذلك، فغرقت وخرجت وقعدت مغتماً، فرأيت شبه سحابة قد أقبلت من ميناء سبتة، فما كان إلا قليلاً حتى وصل إلي رجل، فمشى على الماء حين قاربني حتى وصل إلي وقال : يا أبا يعلى، هكذا يكون المشي على الماء، فقضيت العجب من ذلك...

نص 2 : اجتياز وادي سلا<sup>34</sup>

وحكى بعض الموثوق بهم من أصحاب سيدي أبي العباس بن عاشر هو وآخر مثله، أنهما رأياه وقد جاز عشية من وادي سلا من هذه العدوة إلى تلك الأخرى من غير قارب في أسرع وقت، قالوا : ولا علمنا كيف صنع، هل مشى على الماء، أو خطا خطوة من هذه العدوة أو انطوى له الفضاء (...)<sup>35</sup>.

وقال سهل بن عبد الله : ما عبد الله تعالى بمثل مخالفة الهوى، وقد قيل : إنما طاروا في الهواء ومشوا على الماء لمخالفتهم الهوى<sup>36</sup>.

نص 3 : سيدي رحال بأمر الربيع<sup>37</sup>

وكان ظهر مع وجود سيدي عبد الله الغزواني وبعد صيته وكثرة أتباعه، فحرك إليه سيدي عبد الله فلما أشرف عليه قال لهم ارجعوا، فإن العبد قدره غليانة، ثم حرك إليه ثانية، فقضى فيه

33. البادسي، المقصد الشريف، ص. 109-110.

34. الحضرمي، السلس العذب، ص. 89-90.

35. هناك كرامات أخرى تربط بين اجتياز ابن عاشر لوادي أبي رقرق، وبين حضوره لدروس شيخه عبد الله الياقوبي. ويحكى أن ابن عاشر كان يقصد الرباط بواسطة المراكب. وحدث مرة أن تأخر عن الدرس، فزود الشيخ مريده بحجاب يسهل المشي على الماء. وذات يوم، قبل ابن عاشر أن يسمح لإبليس برؤية الحجاب فمزق إبليس الحجاب، ووعد ابن عاشر بصنع حجاب أكثر فعالية، فاطمأن الشاب بسداجة لوعده إبليس، وكاد أن يفرق لولا أن تدخل الياقوبي وزوده بحجاب آخر. انظر:

Louis Brunot, *La mer dans la tradition et les industries indigènes de Rabat*, 1920, pp. 52-53.

وحول عبد الله الياقوبي، المتوفى في أوائل القرن الثامن للهجرة، راجع عبد الله الجراري، ورقات في أولياء الرباط وساجده وزواياه، الدار البيضاء، 1399 (هجري)، ص. 24-27.

36. نلاحظ هنا نموذجاً من بنية يقوم عليها مؤلف السلس العذب، وهي تقوم على الربط بين أنواع معينة من الخصال وبين أنواع معينة من الكرامات.

37. المهدي الفاسي، تمتع الأسماع، ص. 49.

غرضه، وقد تقدم ما قال له، وما أجابه به الآخر، ويحكى أن صاحب الترجمة قصد زيارة سيدي محمد بن داود<sup>38</sup>، فلما بلغ نهر أم الربيع وجده حاملاً لا يعبر، فقال عليه كلاماً متغنياً به فانشق النهر نصفين، وصار بينهما طريق يبس، فعبر هو وأصحابه، فكوشف بمجيئه سيدي محمد بن داود، فجاء يتلقاه متغنياً بكلام آخر رضي الله عنهما ونفعنا ببركاتهما.

نص 4 : أبو المحاسن بوادي لكوس<sup>39</sup>

ومنها أن نهر القصر وهو وادي لكسوس<sup>40</sup>، جاء بسيل عظيم لم يعهدوا مثله، وطفى الماء، فدخل المدينة دخولاً منكرًا وهو في زيادة، والأمطار منسجمة. فجاء الناس إلى الشيخ مرتاعين، واستغاثوا به. فقام الشيخ إلى أن وصل المواضع التي وصل إليها الماء وهو في حال الزيادة، وقوة الجرية، وغزارة المادة. فركز هناك عكازه، وقال : إن كنت مأمورًا، فأنا مأمور. فما زاد الوادي على ذلك شيئًا، وأخذ في الرجوع، وخبر ذلك شائع وذائع.

### 3. الطيران في الهواء

نص 1 : أبو يعزى والسير في الهواء<sup>41</sup>

وحدثني السيد الماجد الفاضل السري الحسن المشاركة في علم الباطن والظاهر أبو إبراهيم أخوهما، أعز الله الإسلام بنصرهم وطيب في الملاء الأعلى سامي ذكرهم، عن زوج الشيخ الصالح أبي يعزى أم العز، وما رأيت أعبد منها، كانت لا تنام الليل صلاة وبكاء، قالت : أخذ الشيخ بيدي وقال لي : سيري معي . فقلت حتى أخذ ركتي، تعني القصبية أو العود التي يلقي عليها الكتان أو الصوف فيغزل، قالت : فتركني وطار في الهواء وأنا أنظر إليه حتى غاب عني . فلما رجعت إلي، لآمني وقال : من يخرج إلى الله تعالى يتخلف أو يتأخر لركة أو لغيرها. ثم قال لي السيدان الفاضلان أبو محمد وأبو إبراهيم : وقد حدثنا الشيخ الصالح المرید البياني بأنه شاهده يسير في الهواء، وأنه سار معه، وسئل كيف كان يجد الهواء تحت قدميه فقال كالموطئ الصليب الثابت الذي يتهباً للناس المشي عليه.

38. كان محمد ابن داود من مشايخ القرن العاشر، وهو من أولاد بورزق ثم أولاد بوزمري من الشاوية، دفن أزراق من تادلا... . وقد أخذ عن عبد العزيز التياح. انظر محمد المهدي الفاسي، تمتع الأسماح، ص. 49-50. وتلتقي بابن داود المذكور في نص الكرامة الواردة أدناه، ص. 164.

39. محمد العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص. 82. ويروي النص كرامة لأبي المحاسن يوسف الفاسي، وهو عالم ولي من أصل أندلسي، يعتبر مؤسس الزاوية الفاسية، وينسب إليه بيت الفاسيين الفهريين، وهو بيت لعب دوراً هاماً في الحياة العلمية بفاس. وقد ولد أبو المحاسن بمدينة القصر الكبير سنة للهجرة (1530 للميلاد)، وأخذ عن الولي عبد الرحمن المجذوب (ت. 1569/976).

40. كذا، ويتعلق الأمر بوادي لكوس. ومعلوم أن أبا المحاسن تنقل كثيراً بين مدينتي فاس والقصر الكبير.  
41. العزفي، دعامة اليقين، ص. 49.

نص 2 : ركوب الدابة<sup>42</sup>

حدثني أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن محمد قال : حدثني أبو الحجاج يوسف بن  
 علس الزناتي قال : حدثني رجل أيلاني، سماه، فنسي أبو القاسم اسمه عن مخبر أخبره قال :  
 سمعت برجل كان بأغامت أيلان، وذكر اسمه، وذكر لي عنه أنه يحج كل عام. فأتيته وقلت له :  
 سمعت أنك تحج كل عام وأريد أن أذهب معك فلعلي أحج. فأجابني إلى ذلك. فلما قرب شهر الحج  
 أتته فقال لي : أخبر أهلك أنك تسافر سافراً قريباً واستعد. فلما قرب الوقت قال لي : إذا صليت  
 العتمة فأخرج من مدينة أغامت أيلان واقعد في المقابر. فلما صليت العتمة خرجت إلى المقابر أنتظره.  
 فلما رأيته بعدت عنه يسيراً وجلست وحدي ساعة فناداني. فدنوت منه. فرأيت شيئاً أبيض كالطائر  
 العظيم أو الدابة العظيمة إلا أنني لم أتحقق صورته من ظلام الليل<sup>43</sup>، فلما رأيته ذلك الحيوان نفر مني  
 وبعد ذلك الرجل يتملقه ويتلف به ويقول له : يا مبارك، يا لله إلا قربت مني. فإن هذا صاحبي  
 ومؤمن من أصحاب الأوراد والخير والاجتهاد وقد رغب مني أن يحج معي. فصار يبعد والرجل يدنو  
 منه إلى أن وقف. فناداني فأتيته فقال لي : تحفظ واثبت وافعل ما أمرك به، فإذا ركبت فاركب خلفي.  
 ثم قرأ آيات من القرآن فسمعته يقرأ : «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين». فركب وركبت  
 خلفه ولم أشعر أن ذلك الحيوان يعلو بنا في الهواء إلى أن أحسست بالسماة وهي قريبة منا ونحن في  
 مخترق الرياح. فهالني الأمر وأفزعني وحصلت في أمر عظيم. فلما مرت برهة من الليل ضعف قلبي  
 ضعفاً شديداً وكدت أسقط. فقال لي صاحبي : اثبت. فقلت : إني هالك وأخاف السقوط. فسمعته  
 يرغب أن يحطني. فأحسست به وهو ينزل بنا إلى الأرض. فقال لي صاحبي : انزل ههنا وأقم فإذا كان  
 مثل هذا الوقت فاحضر ههنا. وذهب هو. فلما طلع الفجر علي رأيت مدينة. فدخلتها. فلقيت بها رجلاً  
 فسألته عنها. فتعجب من سؤالي وقال لي : هذه مدينة مصر. فتأملت ما كنت أسمع من صفات نيلها  
 وآثارها. فلما جن الليل أتيت إلى المكان الذي نزلت فيه. فقعدت إلى الوقت الذي نزلت فيه. فإذا  
 ذلك الحيوان قد نزل جواربي. فقلت ما كنت سمعت صاحبي يقول وقرأت الآيات التي سمعته يقرأ  
 وركبت عليه. فسار بي يسيراً وحطني عند صاحبي فقال لي : لب في هذا الميقات. فلبيت وأحرمت  
 وقضيت حجي. فلما فرغنا من وظائف الحج أتانا ذلك الحيوان وركبنا عليه وقويت بعد ذلك نفسي  
 وذهب عني ما كنت أجده من الروح. فاستعلى بنا في الهواء وسار ساعة فانحط بنا في المكان الذي  
 ركبنا منه بمقابر أغامت أيلان.

42. ابن الزيات، التشوف، ص. 142-144.

43. تذكر صورة الدابة هنا بموضوع البراق. ففي تفسير الطبري، وصف البراق بأنه «دابة بيضاء (...) فوق الحمار ودون البغل، يقع  
 خطوه منتهى طرفه». انظر جامع البيان، ج 9، ص. 3. وجاء في لسان العرب لابن منظور، ضمن مادة «برق»، أن البراق «دابة يركبها  
 الأنبياء، عليهم السلام، مشتقة من البرق، وقيل : البراق فرس جبيل». وسُمي البراق كذلك «لنصوع لونه وشدة بريقه، وقيل :  
 لسرعة حركته شبهه فيها بالبرق». وحول أدبيات الإسراء والمعراج، راجع :Jamel Eddine Bencheikh, *Le voyage nocturne de Mahomet*.وحول الفرق بين المعراج النبوي والمعراج الصوفي، من خلال نموذج كتابات ابن عربي، راجع الإسراء إلى المقام الأسرى، نو كتاب  
 المعراج، تحقيق سعاد الحكيم، بيروت، 1988، ص. 19-33.

نص 3 : مشهدان من المشرق والمغرب<sup>44</sup>

حدثني رحمه الله تعالى قال : لما رجعت من مكة إلى المدينة، جئنا على طريق المشيان وكان لي رفيق، فوردنا على بعض المياه فبتنا عليه، فلما صلينا الصبح، تزودنا وسرنا إلى أن اعتدلت الشمس في كبد السماء، فنظرت فرأيت سواداً شبه طائر في الهواء قاصداً إلينا، فوقفنا أنا ورفيقي نظراً إليه، فكلما قرب منا قرب من الأرض، حتى وازانا في الهواء، فرأينا رجلاً عجيباً مخلوق الرأس، له لحية عظيمة، وعليه مسح من شعر، وهو جالس في الهواء مربعا يقرأ القرآن، فسلم علينا فرددنا عليه، فقال لنا : أي وقت وردتم الماء ؟ فقلنا له : عليه صلينا الصبح، فقال : وعليه أصلي أنا الظهر إن شاء الله، ثم خلفنا وسار في الهواء، فوقفنا ننظر إليه حتى غاب عنا رضي الله عنه.

وحدثني أيضاً قال : صليت الظهر بمنزلي هذا -يعني المسجد الذي كنا فيه بمقربة من داره- قال : فخرجت لأسوق شيئاً من الديس في الجبل الذي فوق داري المشرف على الوادي الهابط إلى أبي سكور، قال : فرأيت على أعلى الجبل شيئاً شبه نسر، فلما قربت منه وجدت رجلاً عليه ملحفة خلقة، فلما أحس بي طار في الهواء إلى جهة الوادي.

نص 4 : رجل يصلي على البحر<sup>45</sup>

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين، رضي الله عنه، الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري وهو من كبار تلامذته وكثير الرواية عنه. حدث فقال : «كنت ليلاً ببجاية برباط الزيات مع أبي علي منصور الملياني من تلامذة الشيخ، رضي الله عنه، في ليلة مقمرة وقد قام كل واحد منا إلى أوراده بالليل. فسمعت حسناً كحس طائر طار بشدة. فرفعت بصري فإذا بشخص ظاهر على البحر يصلي. فكتمت ذلك عن أبي علي الملياني ثم قال لي أبو علي : «هل ترى ما أرى؟» فقلت له : «رأيت أنه حين انزعج وستررت ذلك عنك». فقال لي : «هو فلان الذي يحضر معنا مجلس الشيخ أبي مدين<sup>46</sup>، رضي الله عنه».

44. البادسي، المقصد الشريف، ص. 122-123.

45. ابن قنفذ، أنس الفقير، ص. 37.

46. ولد أبو مدين بالأندلس حوالي سنة 520 للهجرة (1126 للميلاد)، وتوفي في سن الخامسة والثمانين بتلمسان. وقد عاش أحياناً في ظروف لا تخلو من الفسادة. وعاصر دولة الموحدين، وأخذ عن الولي أبي يعزى، وأصبح بعد ذلك من كبار متصوفة المغرب الكبير في العصر الوسيط. وقام تصوفه على مبدأ «التوكل». وقد التحق بسببته، ثم مراكش، ثم الأطلس المتوسط. وهو من كبار متصوفة المغرب الكبير في العصر الوسيط. ونذكر من بين من أخذوا عنه، ابن عربي، وولي أسفي أبو محمد صالح. راجع :

Halima Ferhat, « Un maître de la mystique maghrébine au XIII<sup>e</sup> siècle. Abu Madyan de Tlemcen », in *Le Maghreb*, pp. 55-78.

## II. الكرامة ومواجهة مشاق السفر

### 1. العطش والجوع

نص 1 : إغاثة النائه في الصحراء<sup>47</sup>

«وحدثني علي الأندلسي المؤذن قال : قلت له هل رأيت الخضر ؟ فقال لي أظن رأيته<sup>48</sup>، فأبني تهت يوماً في صحراء، وسقطت من الجوع والعطش، فأتاني رجل بركوة ماء وتمر، فشربت وأكلت، ودلني على العمارة، فحلصني الله به، ولم أساله من هو، فوقع لي أنه الخضر - عليه رضى الله - والله أعلم».

نص 2 : الجوع في الصحراء<sup>49</sup>

ومنهم أبو علي مالك ابن تماجورت الهزميري .  
من بلد نفيس، مات بمراكش عام عشر وستمائة وحمل إلى بلده ودفن فيها . شيخه عبد الخالق بن ياسين وكان عبداً صالحاً ومن كبار المشايخ وكان الشيخ أبو يعزى يقدمه للصلاة به، مات أبو علي وقد زاد على المائة؛ زرته ببلده، فلما دخلت عليه رفع صوته وقال : الناس سكارى من حب الدنيا، فلا يصحون من سكرتها إلا في يوم القيامة .  
سمعت أبا عبد الله محمد بن أحمد الزناتي يقول : سمعت أبا علي يقول : توجهت من المغرب إلى مكة وكنت أوصل يومين وليلتين<sup>50</sup>؛ فضلت بصحراء عذاب عن الركب<sup>51</sup>. فأقمت

47. البادسي، المقصد الشريف، ص. 107.

48. خصص البادسي فصلاً للتعريف بالخضر، انظر المقصد الشريف، م. س، ص. 44-48. ويدل اللون الأخضر على الحياة والتجدد. وقد أشار القرآن إلى الخضر دون أن يسميه، وهو يمثل العبد الذي تولى الله تعليمه العلم اللدني أي علم الباطن، أو علم الولاية. انظر سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص. 398-400. راجع كذلك :

Halima Ferhat, « Réflexions sur al Khadir au Maghreb médiéval. Ses apparitions et ses fonctions », in *Le Maghreb*, pp. 41-53.

49. ابن الزيات، التشوف، ص. 422. يورد النص كرامة نسبت لولي معاصر لأبي يعزى. ونلاحظ أن موضوع إنقاذ المسافر من الجوع في القفر يرتبط بموضوعي الحج والمواسلة.

50. المواسلة معناها هنا المواسلة بالصوم، أي الانقطاع عن الأكل طيلة أيام متتالية. ويقال إن النبي نهى عن ذلك. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة «وصل». ويكثر ذكر المواسلة في كتب المناقب. انظر على سبيل المثال الماجري، المنهاج الواضح، حيث يذكر المؤلف أن أبا محمد صالح «طوى الأربعين كلها من غير أكل»، وذلك اقتداء بالنبي موسى الذي واصل نفس المدة بأمر من الله. انظر ن. م، ص. 216.

51. كانت عذاب ميناة نشيطاً على ساحل «بحر جدة»، تنزل به مراكب الحجاج. غير أن الركوب من جدة إلى عذاب كانت آفة للحجاج عظيمة إلا الأقل منهم من يسلمه الله عز وجل، وذلك أن الرياح تلقيهم على الأكثر في مراس بصحاري تمتد منها بما يلي الجنوب، فينزل إليها البجاة، وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال، فيذرون منهم الجمال ويسلكون بهم غير طريق الماء. فرما ذهب أكثرهم عطشا وحصلوا على ما يخلفه من نفقة أو سواها. وربما كان من الحجاج من يعسف تلك الجهلة على قدميه فيفضل ويهلك عطشا. والذي يسلم منهم يصل إلى عذاب كأنه منشتر من كفن، شاهدنا منهم مدة مقامنا أوقاما قد وصلوا على هذه الصفة في مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة، آية للمتوسمين. انظر رحلة ابن جبيرة، بيروت / حلب، د. ت، ص. 40-41.

طاولاً يومين وليلتين وأنا مع ذلك أسير سيراً ضعيفاً من الجوع. فاشتد ضعفي في اليوم الثالث فأقمت كذلك يومين وليلتين. فسقطت قواي وبقيت في الصحراء، طريحاً لا أبصر شيئاً من شدة الجوع ويشت من الحياة. فجالت يدي فوقعت على طعام دفتي. فعالجت يدي إلى أن قربتها من فمي فلعلقت أصابعي وفعلت ذلك مرة ثانية وثالثة فتقويت وفتحت عيني فأبصرت ثم قعدت لأنظر الصحيفة التي تناولت منها الطعام، فلم أر شيئاً. فقامت ومشيت فإذا بي قد سبقت الركب. فلما أدركوني سرت معهم.

وحدثني أن أبا علي قال : حججت أربعين حجة وما فيها حجة يعرفها الناس إلا الحجة التي مشيت فيها على قدمي.

نص 3 : مشاهد في الطريق بين المغرب ومصر<sup>52</sup>

قال مؤلف هذا لما وصل الشيخ سيدي أبو يعقوب إلى الموضع الذي بات فيه ورجع المودعون له، سافر هو وأولئك القوم الذين خرجوا معه من بادس برسم الحج، وكانوا أناساً قليلين فبلغهم الخبر في كرت أن الركب قد رحل من تلمسان منذ أيام، فخاف من كان مع الشيخ فبينما هم كذلك يتحدثون في أمر الركب إذا برجل عليه زي الطلبة قد وقف إلى الشيخ، وقال له لعلك تغيرت من فوات الركب، لا تخف، ولا يكن نظرك إلا إلى مكة، فإنها في قبضتك قال ثم صار الرجل إذا رحل الشيخ ومن معه يتقدم أمامهم، فإذا نزل يغيب عنهم، فما زال معهم كذلك حتى لحقوا الركب في جهة بجاية، وذكر لي عن الشيخ أنه كان يقول أنه الخضر عليه السلام.

حدثني الشيخ أبو زكرياء يحيى الشاكري خديم الشيخ سيدي أبي يعقوب في طريق الحجاز قال ما ترك الشيخ سيدي أبو يعقوب شيئاً من أوراده كلها لا صلاة وبل صوماً ولا قراءة القرآن ولا شيئاً مما كان يفعله وهو مقيم، قال الحاج الصالح أبو زكرياء يحيى المذكور وما نزل في بلدة ولا قرية ولا مفازة لا يكون فيها عمران، إلا ويبعث الله تعالى له رجالاً صالحين يتبركون به ويضيفونه ويسعون في قضاء حوائجهم، وأما هو فما كان يحتاج لأحد في شيء غير الماء والمأوى، ولم يزل كذلك ماشياً وجائياً.

قال الحاج يحيى المذكور لم أزل في برقة ولا في طريق الحجاز ومكة والمدينة أحمل ركوة الشيخ في يدي<sup>53</sup>، وأسير معه ومهما احتاج إلى الوضوء ينزل عن ظهر البعير ويتوضأ، وإذا سألتني أحد أن يشرب من الركوة أعطيته يشرب منها، لكون الشيخ أمرني بذلك، وما فقدت الماء من تلك الركوة قط.

قال مؤلف هذا، رأيت في كتاب «مناقب الأولياء» لسيدي أبي الحسن المراكشي قال سرت

52. الأوربي، وسيلة المرغوب، ص. 335-337.

53. حول دلالات الركوة، انظر أدناه، ص. 179.

يوم إلى سياحة فتبعني شاب اسمه يوسف، وكان يواصل خمسة عشر يوماً فلما رأيته قلت له ارجع إلى الفقراء خير لك، فلم يفعل فرغبني وبكى فتركته، وكنت أريد أن أصل إلى أسوان إلى رجل يعرف بعبد الله الهرغي فمشى معي الشاب ومعه الإبريق وكنت أردت أن أمشي على الأقصور، فسقتنا طريق فتهنا في صحراء، ومشينا النهار كله وبتنا الليل ثم أصبحنا، ونحن نصلي بالتيمم، ثم مشينا إلى وقت الزوال، فقعنا إلى الأرض واشتد علينا الحر، وحميت علينا الشمس، والإبريق بيد الشاب، وأنا أقول يا يوسف أصابني العطش، فقال لي يا سيدي اقعد مكانك، فتوارى عني وراء تل رمل فأتاني والإبريق مملوء بماء، فنظرت إليه ونظرت إلى الإبريق فكان العطش لم يصبني من شدة ما وجدت من الشاب فقلت له والله لا شربت من هذا الإبريق شيئاً حتى تعرفني من أين هذا الماء، الذي جئت به في الإبريق، فقال لي يا سيدي إني أعرف في هذا الموضع مكان الماء فقلت له يا ولدي لنا يومان تائهان في هذه الصحراء، وما عرفت الطريق فكيف تعرف موضع الماء، ثم قال يا سيدي أقول لك الصدق لولا أنني أعتقد فيك ما عرفتك بحدِيثي، كما لم أعرفه أحداً غيرك، فقلت له عرفني، قال نعم يا سيدي هذا الإبريق له عندي خمس سنين، وأنت تعلم أنني متجلد على الوصال، فإذا أردت أن أدخل إلى الصحراء برسم الحج، أخذ هذا الإبريق معي، فإذا أصابني العطش أدخلته تحتي فأسمع الماء ينزل فيه بأذني، ولا أعلم من حيث هو فأشرب وأتوضأ به وأقوى على الصحراء، قال فقلت له إن كان قولك حقاً فاهرق الماء الذي في الإبريق، واجعل ما ذكرت، فهرق الماء من الإبريق حتى لم يبق فيه شيء، ثم قام واقفاً وأدخله تحته ثم قرب مني وقال اسمع بأذنك إلى الإبريق، فجعلت أذني عند عنقه فبالله الذي لا إله إلا هو لقد كنت أسمع نزول الماء إلى الإبريق كأنه ينصب من ميزاب، ثم أخرجه من تحته مملوءاً بالماء، فقلت أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً وأنه فعال لما يريد، فتناولت الإبريق من يده وقلت له يا ولدي يا يوسف ومن هذا الماء ينبغي أن يشرب لقربه من الكون، فشربته ماء أحلى من كل ماء وابتدر من الثلج، حتى رويت ثم ناولته أن يشرب فامتنع، ثم قال لي توضع فتوضأت وتوضأ منه وصلينا الظهر، ثم قعدنا في الموضع حتى صلينا العصر، ثم مشينا إلى المغرب فبتنا تلك الليلة ونحن لا نعلم حيث نحن، فلما أصبحنا صلينا الصبح ثم مشينا مع البحر فرأينا النخيل فلما قربنا منها عرفنا البلد وإذا الأقصور، فبتنا تلك الليلة عند الشيخ أبي الحجاج الأقصوري، ثم مشينا إلى أسوان، وكان قريب العيد الكبير، ثم أراد الشاب أن يمشي، فتركت سبيله وهو الآن بمكة، ويبعث لي السلام مع كل من يعرفني، فخروج الشاب يوسف معي لتصرفه نفع الله بهم أجمعين.

## 2. الخوف

نص 1 : يهودي يستغيث بأبي العباس السبتي<sup>54</sup>

ولقد حضرت عند ولي الله تعالى على التحقيق وهو الشيخ الحاج الزاهد الورع الصالح أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي بمدينة سلا في عام ثلاثة وستين وسبعماية . سأله أحد الفقهاء عن هذا الفضل . فأنكر عليه سؤاله وقال : « لا تنقطع الكرامة بالموت ! انظر إلى السبتي ! » يشير إلى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبي العباس السبتي المدفون بمراكش وما ظهرت عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات<sup>55</sup> . سمعت بمراكش يهودياً يلهج ببركته وينادي باسمه عند أمر أصابه لا مع المسلمين . فسألته عن سبب ذلك فأخبرني أنه وجد بركته في غير ما موطن . فسألته عما رأى له في أقرب وقت، فقال لي : « وحق ما أنزل على موسى بن عمران أني أذكر لك إلا ما اتفق لي في قريب . وهو أني سرت بالليل مع قافلة في مفازة وبين يدي دابة . فخرجت لي وما شككت في قتلي وسلب مال . فجلست وبكيت وبيني وبين الناس بعد . فقلت يا سيدي أبا العباس خاطرك ! قال لي : والله ما أتممت الكلام إلا وأهل القافلة أصابهم سبب ووقفوا وضربت دابتي وخف عرجها وزال واتصلت بالناس . » فقلت له : « لم تسلم ؟ » فقال : « حتى يريد الله تعالى . » وعجبت كون ذلك من يهودي . وهذه شهادة عدو في الدين .»

نص 2 : الاستغاثة بالولي في الفلوات المخوفة<sup>56</sup>

كان رحمه الله أول أمره بمدينة تازا، مقيماً للعبادة في خلوة بجوامع الزيتونة منها، ويحكى أنه كان مع ذلك كثيراً ما يشاهد بمكة . ثم إنه قدم على فاس، فصارت له خير كناس . وكان من جملة من صحبه بها، وسكن إليه، وانحاش إلى جانبه، وعول عليه، الفقيه الفاضل، الشريف الواصل، أبو العباس سيدي أحمد بن محمد الصقلي الحسيني، أبو السادات أهل رحبة الزبيب<sup>57</sup> . فقال له صاحب الترجمة بعد مدة، عندما قرب أجله : إذا كنت أنت أو واحد من أولادك في شدة، فادعوني أخلصكم

54. ابن قنفذ، أنس الفقير، ص . 7.

55 . ولد أبو العباس بمدينة سبتة التي نسب إليها . وغادرها سنة 540 ( 1145 - 1146 للميلاد) ليلتحق بمراكش وهي تعيش الأسابيع الأخيرة من الحصار الموحدوي . وانخرط في البداية في سلك «طلبة الحضرة»، ثم أثار الانتباه بانتقاده لمظاهر الفقر، وأقام مذهبه الصوفي على مفهومي «الصدقة» و«الإحسان». وقد توترت علاقته بالحكام في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف . وانهزم فقهاء العاصمة بالزندقة . وتوفي سنة 601 (1204 للميلاد). وذاع صيته بعد وفاته، وألف التادلي ترجمة ساهمت في شهرته، ونسب إليه كرامات عديدة، وعند تأسيس ظاهرة «سبعة رجال» في عهد الدولة العلوية، سوف يتصدر «الرجال» المذكورين، ويصبح بمثابة ولي مراكش . راجع :

Halima Ferhat, «Abu-l-Abbas : Sainteté et contestation», *Al-Qantara* (Madrid), 13, 1992, pp. 181-199 ; Vincent J.Cornell, *Realm of the Saint*, pp. 79-92.

56 . الكتاني، سلوة الأنفاس، ج 1، ص . 302-303.

57 . لعله الشيخ الصوفي أبو العباس أحمد بن محمد الشريف الصقلي الحسيني . كان «يتسبب في العطر ويطلب طريق النصف ويطالع كتب القوم». انظر حوله القادري، نشر المثاني، ج 4، 1986، ص . 156-157.

منها. ولا زالت عنايته فيهم عند الأزمات واضحة، ولا برحت هذه منقبة لهم من متاجر الرابحة. فمما شاع من ذلك، أن أخوين من أبناء هذا الشريف خرجا مسافرَيْن، في زمن قل فيه أمن السبيل لتوالي الفتن. فاستقبلهما الليل في بعض القلوات المخوفة، والوقت نهاية في اشتداد الظلمة، بتراكم السحاب وانهمار الأمطار. فذهبا في طلب العمران كل مذهب، فلم يجدا أثراً للإنسي بحال. فوقعا في شدة عظيمة، تذكرا معها مقالة صاحب الترجمة لأبيهما. فحينئذ دعياه: يا سيدي الحسن الصنهاجي، مرتين أو ثلاثاً، وكان قد توفي لسنتين. فبينما هما قد فرغا بدعائهما، أبصرا خيمة في القرب منهما، بمحل كانا قد مرا به مختبرين قبل ذلك، فلم يكن به شيء. فذهبا إذ ذاك إليها، فإذا هي مفروشة بحصير. فحطبا بها رحلهما، ووجدا من أنفيهما الأنس الذي لا خوف معه. ثم بعد ساعة، أتاهما رجل بعشاء طيب من طعام الحاضرة، لا يعهد مثله في البادية، سيما في ذلك المحل. فأكلا وعليهما النوم. فلما استيقظا عند أسفار الصبح، حملا أثقالهما، وأرادا الانصراف عن الخيمة وما فيها. فبقيا في رجاء رب الخيمة، فركبا في طلبه ظهر كل شومة، فلم يقفالا على خبر ولا أثر. فلم يمكنهما إلا ترك الخيمة وما فيها من الحصير وإناء الطعام و الشراب، عن يقين بأن ذلك إنما أتيج لهما من عناية صاحب الترجمة، تحقيقاً لما قاله لوالدهما.

نص 3 : الاستغاثة بالولي عند ركود الريح<sup>58</sup>

قال المؤلف رضي الله عنه : وما ظهر من كرامات الشيخ الصالح بعد موته ما سمعت الفقيه أبا الصبر يحدثه غير مرة، وحدثني به الشيخ الرئاس المشهور أبو عبد الله الغلاطي ولفظه أكمل، وكان رئاس المركب المسمى بالمخلوف، قال الرئاس المذكور : ركب معي الفقيه أبو الصبر حاجاً في المركب المذكور، قال : فانتبهنا إلى بر جراحي وهو من ناحية قصير اسفاقاس. وهو مع ما اتصل به يسمى جون زديك وطرفه من ناحية المشرق يدعى بطرف أوثان، ومن جازة مشرقاً قيل له عدى، فغلبت علينا الرياح، يعني ركدت، وأشفقنا من ذلك، وطالت علينا الأيام، والعادة مستقرة أن من نشب في ذلك الجون ولم تساعده رياح مؤتاة له مسخرة، ربما حال عليه فيها الحول. قال الرئاس المذكور : فبينما أنا في فرشة المركب يعني غرفته إذ صعد إلي الفقيه أبو الصبر من طارمته، يعني مسكنه في المركب، وقال لي : ما رأيتك في بركات الصالحين ؟ فقلت : رأي جميل وصالح. فقال لي عندي جبة الشيخ الصالح أبي يعزى أعطانيها في سفر من أسفاري إليه، فعلقها في الجناح لعل الله يرزقنا ما يبلغنا ويوافقنا من الرياح. قال الرئاس : فأخذتها من يده وطلعت بها حتى كسوتها جناح المركب الأيمن ثم شدتها بحبل احتياطاً. قال الرئاس : فما هو إلا أن جلست مجلسي فدارت الرياح أجد دورها في قفائي لذلك الحين. قال لي الرئاس : فقلت للبحريين خدمة المركب : خذوا كذا، خذوا حبل كذا، وخذوا حبل

كذا مما هو من صنعهم. قال : فوالله ما فترت عنا ريح حتى عدينا وأرسينا بالاسكندرية<sup>59</sup>، قال لي الفقيه أبو الصبر : أعطيت هذه الجبة بغير الاسكندرية للشيخ الصالح أبي عمران الفران، وكانت من تليس مصلع رقيق يشبه الأكسية الغلاظ.

نص 4 : الاستغاثة بالولي عند هيجان البحر<sup>60</sup>

ومنهم الولي الجليل أبو محمد سيدي عبد العزيز المدعو عزوز بالله، بتشديد الدال كما ينطق به العامة، ومعناه الذي لله. قال في «المقصد»<sup>61</sup> : دفن رأس الجنان من فاس القرويين. كان رحمه الله بهولاً مولهاً ساقط التكليف، ملائماً تشير حاله إلى الغيبة في التوحيد. وكان من أهل الإغاثة والحظوة، وله مكاشفات وكرامات، لقيه سيدي قاسم الخصاصي مراراً، توفي في شهر ربيع الثاني سنة إحدى وثلاثين وألف ولم يتزوج، وقبره ظاهر يزار. مجرب لقضاء الحاجة. انتهى كلامه في «المقصد».

قلت : ودفن بروضته القديمة في جواره جماعة من أعمامنا رحمهم الله لكونهم هم المالكين للدور المشتملة عليهم الروضة المدفون بها صاحب الترجمة، والمولين قبض صدقاته. وبقي ذلك بأيدي من بقي من أولادهم وأعقابهم وأهلهم إلى الآن. قال عم والدنا حسبما رأيت بخطه : حدثني بعض الفضلاء من أصحاب الشيخ سيدي محمد بن عبد الله معن أنه ذهب مرة إلى بلاد تطاون بقصد التجارة<sup>62</sup>، فنزل بها داراً مع أناس بها، فلما حضر وقت الأكل قدم إليهم بعض الفاسيين كان هناك مسافراً صحناً من الكسكس، وجعل يتحدث معهم وقال لهم : أقص عليكم خبر هذا الدقيق الذي صنع منه هذا الكسكس، إنه من بلاد العناب. فقالوا له فكيف ذلك : فقال قدمنا من مدينة الجزائر في سفينة في البحر إلى سبتة، فلما أشرفنا عليها هبت علينا ريح صاعقة أزالتنا من مكاننا ورددتنا إلى الموضع الذي منه أتينا، وارتج البحر علينا بالأموح حتى أشرفنا على الغرق وقاسينا من ذلك مقاساة عظيمة، فجعل من في السفينة ينادون بصالحي بلدهم فجعلت أنا أقول يا سيدي عزوز، أكرهها، يعني سيدي عزوز دفن رأس الجنان، وكان إذ ذاك حيّاً. قال : وإذا به قد أتى على الهيئة التي أعرفه عليها بجلابة في يده وتاكرة مقلوبة على رأسه، وكانت عادته أن يفعل ذلك، حتى وصل إلى السفينة وردها

59. في إحدى الكرامات الواردة في المقصد الشريف، يتحكم الولي في الريح لمعاينة قارب توقف يمرسى بادس دون أن يؤدي ما اعتادت القوارب أن تؤديه لعراطة البحر هناك. وقد كان المركب قادماً من إشبيلية في اتجاه وهران، ومحملاً بالتين والزيت. انظر البادسي، م.س.ص. 106.

60. القادري، نشر الثاني، ج 1، ص. 240-241.

61. حول كتاب المقصد الأحمد، المخصص للولي الفاسي أحمد بن عبد الله معن، انظر دراستنا : «في الكرامة والهيئة»، مجلة المناهل، ملف «الأدب الشعبي المغربي»، عدد مزدوج 64-65، نوفمبر 2001، ص. 425-445.

62. هو محمد بن عبد الله معن الأندلسي، المتوفى في جمادى الثانية من سنة 1062 (ماي - يونيو 1652 للميلاد). صحب الولي أبا المحاسن يوسف الفاسي السالف الذكر، ثم بعد وفاته ابنه عبد الرحمان الفاسي. وبعد وفاة هذا الأخير، بنى محمد بن عبد الله زاويته التي عرفت بالزاوية المعنية. وقد خصه المهدي الفاسي (صاحب مجمع الأسماع) بتأليف يحمل عنوان : عوارف المنة في مناقب سيدي محمد بن عبد الله محيي السنة. وسوف يشتهر ابنه أحمد بن عبد الله معن. وحول هذا الأخير، انظر كتاب عبد السلام القادري، المقصد الأحمد، م.س.

بيده فسكنت إذ ذاك وزال ما بنا، ومررنا ببلاد العناب حيث ألقانا البحر، فاشترينا منه هذا الدقيق الذي صنع منه هذا الكسكس. قال لي المحدث المذكور : فلما سمعت هذه القضية أضمرت في نفسي أنني إذا وصلت إلى فاس أعطيه مُزُونَةً، وذهبت للبردعيين من باب السلسلة، إذا به أتاني وقال : أعطني مُزُونَتِي<sup>63</sup>، ولم يكن اطلع على ذلك أحد إلا الله تعالى، فأعطيته إياها ومضيت انتهى.

63. بصدد ظاهرة المكاشفة، يحكى أن أبا شعيب عاب على أبي يعزى «كشفت أسرار المسلمين»، و«هتك أسرارهم»، فقال أبو يعزى : «إنما هو شيء يلقى إلي وأؤخذ بقوله، ويقال : إنما أنت آية من آيات الله تعالى، والمراد منك أن يتوب الخلق على يدك». انظر العزفي، دعامة اليقين، ص. 63-64.

## 3. قاطع الطريق

نص 1 : بين الغرب والشاوية<sup>64</sup>

يحكى أن سيدي بنداؤد، وهو الولي الذي ينتمي إليه أولاد سيدي بنداود إحدى قبائل الشاوية<sup>65</sup>، ومولاي بوعزة من الغرب<sup>66</sup>، كانا من كبار قطاع الطريق قبل أن يبجلهما الناس ويعتبروهما من الأولياء الصالحين<sup>67</sup>. فحين كانا يلحان اقتراب مسافر أو مسافرين معزولين، كان بنداود يتمدد على الطريق، ويتغطى بلحاف، فيقول بوعزة للمارين الذين جرهم سوء حظهم إلى ذلك المكان : «لقد مات هذا الرجل قبل قليل . ساعدوني على نقله إلى أقرب قرية». وبهذه الطريقة يوجه المسافر إلى مكان خال، وهناك يستفيق الميت في الوقت المناسب، ليساعد شريكه على تدبير فعلهما الإجرامي . وذات مرة، شئت الصدفة أن يعترض اللسان لمولاي بوشعيب الذي كان يسافر بدون رفيق<sup>68</sup>. فبعدما طلب منه بوعزة أن يساعده على نقل الميت، أجابه مولاي بوشعيب : «لنتأكد في البداية من وفاة الرجل». فرفع بوعزة للحاف، لكنه تراجع إلى الوراء من فرط الذعر الذي أصابه، إذ رأى أن الدود أتمى على جسد بنداود. ومنذ ذلك اليوم، أصبح بوعزة خديماً لمولاي بوشعيب. فقد أخذه هذا الأخير إلى ضاية (...). وأمره بأن ينتظره هناك. وظل الآخر ينتظر طيلة سنة دون أن يغادر ذلك المكان، إلى درجة أن طحالب نبتت فوق كتفيه. وكان يكفي بأكل أعشاب صغيرة كانت تنبت قرب قدميه. وبعد مرور سنة كاملة، عاد مولاي بوشعيب، وسر بالطاعة التي أبان عنها خديمه الجديد، فأخذه معه إلى أزموور، حيث عاشا بعد ذلك معاً. وفي الوقت الحاضر يبجل الناس سيدي بنداود لأنه لقي الموت على يد مولاي بوشعيب<sup>69</sup>، ويُبجلون مولاي بوعزة لأنه كان خديماً لولي أزموور (...).

64. مقتطف و مترجم عن :

Edmond Douitté, *Merrakech*, pp. 120- 122.

65. انظر أدناه، ص. 317، في سياق تعريفنا بقبائل الشاوية. ويبدو هنا نوع من الالتباس الزمني. إذ هناك مسافة حوالي أربعة قرون تفصل بين سيدي بنداود وبين الوليين الآخرين، أي مولاي بوشعيب ومولاي بوعزة.

66. حول صورة أبي يعزى في الذاكرة الشعبية، انظر :

Victorien Loubignac, « Un saint berbère : Moulay Bou 'Azza, histoire et légende », *Hesp.*, t. XXXI, fasc. unique, 1944, pp. 15-34.

67. حول العلاقة بين اللوصية والولاية كموضوع أدبي، راجع :

Jean Genet, *Journal d'un voleur*, Paris, 1949.

أشار المؤلف إلى الإله ميركور Mercure الذي كان يعتبر إله السراق في التراث القديم (ص. 224). وكتب في مكان آخر : «إن الولاية هي أن توظف الألم، وترغم الشيطان على أن يكون هو الله» (ص. 224). «أحس أنني أتقوى في إرادتي في أن يتحول بؤس الماضي لأغراض لها صلة بالفضيلة. إنني أحس بأنني أمتلك القوة الضرورية لذلك.» (ص. 65).

68. أبو شعيب أيوب ابن سعيد الصنهاجي، الملقب بالسارية (المتوفى سنة 156 للهجرة (1166 للميلاد)، هو ولي شهير تنتسب إليه مدينة أزموور. وقد ولد بالقرب من وادي أم الربيع، وأخذ، برباط إليسكاون، عن أبي النور أحد أكبر أولياء دكالة (والإيه تنسب مدينة سيدي بنور الحالية)، ثم بأغمات، عن عبد الجليل بن ويحلان. وقد ذكر عن أبي شعيب وقوفه إلى جانب دكالة ضد العسف الجبائي لدولة المرابطين، ثم وقوفه ضد قتل المرابطين من طرف دولة الموحدين. انظر ابن الزيات، الشوف، ص. 187-192.

69. يبدو أن شخصية قاطع الطريق الذي يتحول إلى ولي موضوع معروف في الأدب الشفوي الأمازيغي. راجع :

Henri Basset, *Essai sur la littérature des Berbères*, Alger, 1920, pp. 285-286.

نص 2 : قاطع الطريق والتوبة<sup>70</sup>

وحدثني أبو الحسن الكواب قال : حدثني الشيخ الفقير إلى الله تعالى، أبو العباس أحمد الغماري قال : حدثني الشيخان الصالحان : أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الهَزْرَجِي قدس الله روحه وخدم الشيخ : مخلوف، قالوا : سمعنا الشيخ رحمه الله يقول : ما فاتتني قط صلاة الفريضة في اليوم في الوقت المختار إلا يوماً واحداً قال : وذلك أنني كنت في بلاد السوس إذ لقيت سبعة من العرب، فقالوا لي : انزع ما عليك من الثياب<sup>71</sup>، فجردت الجبة، وأعطيتها إليهم ثم تحايلت، وبقيت في التشامير والسروال، فقالوا لي : لا بد أن تنزع التشامير، فجردته وبقيت في السروال، فانصرفوا عني ثم رجعت إلي واحد منهم فقال لي : انزع تلك السروال، فقلت ما أمر الله أن أكشف عورتني، فقال لي لا بد من زواله، فقلت له : لا أزيله إلا أن تقتلني فحرك فرسه ليضربني، فأخذت الأرض قواسم فرسه إلى الركب، فلما رأى أنها لا تتحرك نزل عنها فلما نزل عنها ابتلعت الأرض إلى الركب فصاح بأصحابه، فلما رأوا ما نزل به وبفرسه ترجلوا كلهم وأخذوا يستعطفونني ويعتذرون إلي، وقالوا نحن تائبون إلى الله عز وجل فقلت لهم وإنما تتوبون من ترك الصلاة، والزنا، وشرب الخمر وقطع الطريق، فقالوا كل ما اشترطت علينا نوفي به، إلا ما ذكرت من قطع الطريق، فليس لنا حرفة نعيش بها أولادنا غيرها<sup>72</sup>، فقلت لهم : إن الله قادر على أن يرزقكم، ويرزق أولادكم من غير سبب ولا حرفة والرزق لا يستجاب بمصيبة، وإنما يستجاب بطاعة الله عز وجل فما زلت أحوالهم، وأعظهم حتى حسنت توبتهم، وزاد في هذه الحكاية أبو محمد الزواوي، إنهم أول من تاب على يد الشيخ.

نص 3 : الولي والمحاربون والقرية<sup>73</sup>

ومن كرامته أيضاً -رضي الله عنه- الواقعة المشهورة الغربية التي وقعت له مع المحاربين، وذلك أن منزله كان قرية صغيرة في بعد من المدن، واختارها للتفرغ للعبادة والبعد عن كثرة ملاذ الدنيا، وكان محل تلك القرية وهو ملوية، موالياً لجبال القبائل التي عادت حرفة الحراية لا سيما في أوقات الغلاء<sup>74</sup>، إلا أن ملوية تكون معمورة بقبائلها من غير وقت شدة البرد، وفي وقت شدة البرد ينزلون إلى جهة السواحل فرارا من ثلوجها وبردها<sup>75</sup>، ثم إن فرقة من قبيلة بالجبل يسمون آيت ستيري قتلت فرقة أخرى ففرت عن أولياء المقتول إلى حمى قرية الوالد -رحمه الله-، فأواهم إليه

70. ابن تيمية، إثم العينين، ج 1، ص. 213.

71. حول عادة نزع اللباس في سياق قطع الطريق، انظر أعلاه، ص. 77.

72. كتب الحسن الوزان (ليون الإفريقي)، عند وصفه لجبل دادس الواقع ببلاد درعة : «الرجال غادرون متصلصون سفاكون يقتلون الرجل من أجل بصلة، فتتسبب بينهم خصومات عنيفة لأدنى سبب. (...) والتجار لا يقصدون هذا البلد لأن أهله يعيشون في بطالة، ولا يمارسون أية صناعة، وينهبون المسافرين.» انظر وصف إفريقيا، ج 1، ص. 189.

73. الولايلي، مباحث الأنوار، ص. 270-272.

74. التأكيد منا.

75. حول ظاهرة «التكامل العمودي» بين سكان السهل وسكان الجبل، انظر أدناه، ص. 293-294.

لانتطاعهم له، وقطع لهم قطعة من أرضه يحرقون فيها و يحيون مواتها، وبقوا هنالك سنين مستندين إلى رحمته، وقد حال بينهم وبين إذاية قبائل ملوية. فلما اصطلحوا مع أولياء المقتول، رجعوا إلى الجبل -وقد خالطوا أمور قرية الوالد وعرفوا شأنها- فذهب منهم واش إلى بني عَط من قبائل الجبل الذين هم أصل قبيلتنا الولالية كما تقدم<sup>76</sup>، فقال لهم : ها هنا قرية لأهلها مال كثير، وهي أهون من نسج العنكبوت، لأن أهلها ضعفاء لا شوكة لهم عدداً ولا عدة، وقاتلهم ينزلون عنهم في وقت الشتاء وحولهم قرى بعيدة عنهم لا يصل إليهم خبرهم إذا وقع فيهم أحد حتى يفوز أخذهم ببلوغ المتمنع، وقال لهم ذلك الواشي : وأنا أذهب معكم إن غزوتم حتى أوقفكم عليهم فتربص بنو عط إلى وقت الشتاء، فلما دخل وعرفوا أن قبائل ملوية انفصلوا عنها، أتوهم مع ذلك الواشي -على أن يكون عينا لهم- بمائة وخمسين رامياً لا تكاد تسقط له رصاصة بالأرض، فلما قاربوا القرية كمنوا في الغابة إلى الليل، وعزموا على أنهم يتفرون على دور القرية وهي قليلة متفرقة، فيكون على باب كل دار نحو ستة أو سبعة، فإذا خرج صاحبها لصلاة الصبح أخذوه وأوثقوه قيذاً أو منعه من الصراخ، حتى إذا جمعوه في القيد، فعلوا في القرية ما شاؤوا وأخذوا أموالهم فيذهبون في الغابة على مهل . ثم إن من لطف الله تعالى لتصديق ما أخبر به الوالد، وهو أن الصالحين تكفلوا له بحفظ تلك القرية وأنه لا يأخذ ساكنوها، أن ذهب ثلاثة من أهل القرية ليصطادوا في الغابة، أحدهم ولد الوالد وهو أخونا عبد السلام، وثانيهم ولد بنته، وثالثهم مولى يأوي إليهما، فتوجهوا نحو مكمن المحاربين من غير قصد، فلما قاربهم وعرف المحاربون أن الكلاب تقع عليهم و ينتذرون بها، قالوا فيما بينهم : قوموا لنحيط بهؤلاء الثلاثة فنحبسهم معنا إلى الليل لئلا يندروا أهل القرية، فقاموا ليحيطوا بهم فنذروا بهم فقروا، فتلفت الإثنان وحبس المولى، فلما عرفوا أن الاثنين ناجيان تبعوهم في الحين، وقالوا : نأخذهم الآن فنفوز بأموالهم وندخل بها الغابة قبل أن ينتذر أهل قرى ملوية، فتبعوا أثرهم .

فلما بلغ الاثنان القرية وجدوا الوالد خارجاً من المسجد وقد صلى العصر، فقالا له : المحاربون عليكم وهامم بإثرتنا، وقصا عليه الخبر، فلم يتما الكلام حتى انكب عليهم المحاربون ورموهم بالمدافع حتى صار الرصاص بين أيديهم ومن خلفهم مثل البرد، ولم يحضر مع الوالد في القرية إلا نحو اثني عشرة رجلاً، و الباقي غاب لجهة القبلة ليأتوا بالشمز منها، وكان من عادتهم السفر لسجلماسة للآتيان بالتمر، ثم إن من حضر معه مات منهم ثلاثة وجرح واحد جرحاً منعه من التحرك، فعظم الأمر على الوالد فتوجه نحوهم ويده عصا يتوكأ عليها، فرموه ولم يصيبوه بأذى، فدعا الله تعالى فانهزموا عند العشي بين يدي تلك الشردمة الحاضرة مع الوالد، مع أن جلهم ليس له مدفع، وإنما بيده سيف أو رمح، فتبعوهم إلى الغروب فلم يزالوا يهربون طول الليل حتى أصبحوا بقرية في الجبل بينها وبين قرينتنا نحو مسيرة يومين. وأخبروا عن أنفسهم بعد ذلك أن الخيل لم تزل تتبعهم طول الليل، وما بالقرية من خيل ولا رجل، ولكن الله تعالى نصر عبده وحفظه من هتك الحرمه .

76. المراد هنا قبائل اتحادية آيت عطا. والملاحظ أن في هذا النص المنقبي صدى لما يرويه أبو الحسن اليوسي في رسالته إلى السلطان إسماعيل. انظر أعلاه، ص. 134.

ولما وقعت له هذه الواقعة و تعجب من أمرها الحاضرون، سأله بعضهم بأي اسم دعا عليهم، فقال : والله ما قلت حينئذ إلا نحو ما قاله أهل الغار حين انحطت عليهم الصخرة ففرج عليهم كما في «صحيح البخاري»، وذلك أني قلت : يارب إن كنت عملت عملاً ابتغاء وجهك فلا تفضحني في النساء والصبيان بهؤلاء المحاربين .

نص 4 : الولي والركب<sup>77</sup>

ومنهم شيخ الرحال أحد الأولياء الأبدال، وأهل الكرامات التي لا تخطر على بال، أبو عبد الله محمد الزيتوني، من أشياخ الشيخ أبي العباس أحمد زروق<sup>78</sup>، وقد مر ذكره في ترجمته، وكان هذا الرجل رجلاً أسود اللون أعمى مجاب الدعوة، يسمونه (كذا) أهل التصريف من الصوفية بالحية العمياء التي لا تعتق من لسعته لسرعة إجابة دعوته، وكان يحمل الأركاب من المغرب لحج بيت الله الحرام وزيارة نبيه محمد عليه السلام، وكانت عرب أنكاذ<sup>79</sup> والزاب وإفريقية على جراتها وتمرداها لا تتعرض لركائبه بسوء، لما رأوا من خرق العوائد التي أجراها الله سبحانه على يده، حدثني بعض الفضلاء ممن سافر معه مرة قال : نزلنا مع الشيخ في بعض أسفاره إلى الحج منزلاً بالزاب، فجاءتنا خيل المفسدين من العرب من كل ناحية لتنهب الركب، فلجأنا إلى الشيخ وأخبرناه بذلك فقال : من أي جهة أتوا ؟ فقلنا من كل جهة، فأخذ حفنة من التراب ورمى بها يمينا ثم بأخرى يساراً ثم بأخرى أماماً ثم بأخرى خلفاً، فخرج من ذلك التراب كالسيل من النحل فشردت خيل العرب حتى غابت عن أعيننا<sup>80</sup>، فرأى الناس العجب، فلما كان آخر النهار أتى العرب على أرجلهم بالبقر والغنم، وأهلهم وأولادهم بين أيديهم يتبركون بالشيخ ويستعطفونه، وذكروا عظيم الهول من تلك النحل. وكان رحمه الله شديد القبض ممن تمكن في المقام النوحى، وكانت العرب تحدث أنهم يأتون إلى الركب الذي يكون فيه الشيخ فيجدون عليه سوراً لا يقدر أحد على صعوده.

فائدة ذكرها تلميذه الشيخ زروق رحمه الله، ذكرتها للمناسبة، قال : يجمع صاحب الركب أو القافلة ركباً أو قافلته، ويتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم يقرأ سورة القدر ويدور بالركب حتى يختمها حيث ابتداء بقراءتها، فإنها أمان من السارق والطارق، وإن الله يجعل على الركب سوراً لا يستطيع السارق صعوده ولا نقبه، وذلك مما لا شك فيه لمشاهدته بالترار في كل حين، توفي الشيخ

77. ابن عسكرو، دوحة الناشر، ص. 71-72.

78. هو شهاب الدين أبو العباس أحمد البرنسي الفاسي (المتوفى سنة 899 للهجرة / 1493 للميلاد). ولد بفاس وتوفي بناحية طرابلس الغرب. وهو فقيه مالكي ومتصوف ينتمي إلى الطريقة الشاذلية.

79. حول قطع الطريق بصحراء أنكاد في أواخر القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد)، انظر محمد القبلي، «حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى...»، ضمن الدولة والولاية والمجال، ص. 59-60. وقد كتب الحسن الوزان (ليون الإفريقي) عن نفس المنطقة أنها «أمرى لعصابة لصوص من الأعراب على استعداد دائم للفتك بالمارين من هناك، حيث الطريق المؤدية من فاس إلى تلمسان. ولقما بنجو التجار من شرهم، لا سيما في فصل الشتاء...». انظر وصف إفريقيا، ج 2، ص. 11.

80. هذه كرامة عظيمة. فقد وردت ضمن أخبار الغزوة الثانية للمهدي ابن تومرت ضد «الجسمين»، أي المرابطين. فلما التقى الجمعان كبر المعصوم فيهم وقال لنا الله ينصركم عليهم، ثم قبض قبضة من تراب ورمأها في وجوههم فانهزموا وتركوا الخيل والبغال والذخائر والسلاح، وانقلبوا خاسرين...». البيهقي، أخبار المهدي، ص. 35.

المذكور أول المائة رحمة الله عليه ورضوانه .

نص 5 : إخفاء المسافرين عن نظر القطار<sup>81</sup>

ومنها أنه في سنة سبع وسبعين وستمائة (1278-1279 للميلاد)، أو بعدها ببسير، خرج مع جماعة من أصحابه، منهم الفاضل سيدي جابر بن مخلوف الرياحي، والفقيه سيدي محمد بن الحسن العربي الشاوي وغيرهما، قاصداً لزيارة أولياء الله تعالى. فبلغ مراكش، وزارني بها. ولما كانوا في بلاد دكالة عند الجبل الأخضر، رآهم قوم من قاطعي الطريق فقصدوهم. فلما وصلوا إليهم، عموا عنهم، إلا فرس الشيخ، وكانت أنثى، رأوها صخرة، فأروا الحجر حجراً، فطمس الله أعينهم<sup>82</sup>، فذهبوا وكفى الله أولياءه .

نص 6 : القُطارُ وهيبة الولي<sup>83</sup>

ومن كراماته، يعني الشيخ سيدي أحمد ابن ناصر رضي الله عنه، وأحدث به الشيخ البركة الفقيه الرحالة سيدي الحاج علي السوسي أحد أحفاد الولي الصالح سيدي أحمد بن موسى السملالي رضي الله عنه قال، يعني الشيخ رضي الله عنه، في كابر كبير توجه لبلاد السودان بقصد التجارة : فلما وصلنا بعض مياه عرب يقال لهم أولاد دليم<sup>84</sup>، نزلنا على الماء، فما شعرنا أن جاءونا خيلاً ورماء، وأرادوا نهب الكابار، وتزلوا بخيامهم على بعد منا. وخاف الناس على أنفسهم خوفاً شديداً، ودخلهم الرعب، وعولنا على القتال معهم، إذ كان معنا في القافلة ما يزيد على ألف مدفع<sup>85</sup>، وهم أكثر منا بعدد كثير. فأخذ الناس في الخزم والتأهب. وأخذتني سنة نوم خفيفة وقت القافلة، فإذا أنا بالشيخ سيدي أحمد ابن ناصر رضي الله عنه قائماً علي، ليس عليه إلا قشابة من كتان، وعلى رأسه كرزية صوف فيها حناء، ويده عكاز في رأسه حديدة<sup>86</sup>، فضربني بها في صدري، فوجدت بردها داخل أحشائي، وقال لي : اذهب إلى خديمتنا الشيخ فلان، من أشياخ أولئك العرب، وقل له : والله إن ضاع من هذه القافلة شيء حتى نرميه، أو قال نجليه حيث كذا. فاستيقظت مرعوباً، وكان معنا إذ ذاك الشريف البركة مولاي هاشم الحسني، من أهل القصابي<sup>87</sup>. فقلت له : أبشر بالفرج إن شاء الله الآن. قد رأيت الشيخ رضي الله عنه وقال لي : كذا وكذا. فبشر الناس، وندبهم بالصدقة. فما

81. محمد العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص. 83.

82. انظر كرامة مماثلة في أحمد الولاوي، مباحث الأنوار، ص. 245.

83. نص من كتاب محمد الحسن بن محمد المعداني (المتوفى سنة 1180 للهجرة / 1766 للميلاد)، الروض اليناع الفاتح في مناقب سيدنا ومولانا أبي عبد الله المدعو بالصالح، وقد أورده أحمد الناصري في كتاب طلعة المشتري، ج 2، ص. 105-106.

84. أولاد دليم هم لمن بني معقل، وينتمون إلى مجموعة ذوي حسان التي استوطنت في القرن الثالث عشر منطقة تمند من وادي درعة إلى المحيط الأطلنطيكي، ثم انتقلت إلى الصحراء الغربية إلى جانب الأودايا والبرابيش والرحامنة وأحمر. انظر :

Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, t. 1, pp. 238 et suiv.

85. حول القوافل المسلحة، انظر نصوص فوكو الواردة أعلاه، ص. 74.

86. حول رمزية المكاز، انظر أعلاه، ص. 198.

87. لعلها «قصابي الشرفاء»، ببلاد ملوية العليا، والتي زارها فوكو. انظر م، ص. 236-237.

لبشنا إلا يسيراً، وإذا نحن بأربعة فوارس من أولئك العرب، وهم يشيرون إلينا على بعد، ويقولون لنا : أعطونا من تتكلم معه منكم . فما حضر لنا أمان فيهم . ثم إنني أخذت مدفعي، وتقدمت إليهم، فجال بيننا وبينهم كلام . فإذا الرجل الذي ذكر لي الشيخ جاء بنفسه، وأولاده معه . فذكرت لهم ما رأيت فقال لي : الآن رأيت الشيخ في النوم على الحالة التي رأيت أنت عليها، وخاف أنه إن ضاع شيء من القافلة حتى يفعل بي كذا وكذا، وأنتم لا بأس عليكم، ولا تخافوا من شيء إلا إذا مت وإخوتي وهم أربعمائة فارس، نقاتل دونكم كل من أرادكم . ثم ذهب إلى العرب، وجال الكلام بينهم مدة حتى هموا بالقتال وتهيئوا له، ثم غلبهم ذلك الشيخ، وسلموا كلهم، وطلبوا منا أن نسقيهم الماء، لأننا كنا سبقناهم إليه، ففعلنا . وسلمت القافلة والحمد لله ببركة الشيخ وحمایته بالله تعالى، وفرضوا مائتي دينار ذهباً صدقة للشيخ رضي الله عنه، قبضتها من عندهم معجلة، والتزموا أخرى مؤجلة<sup>88</sup>، ولكن لم نقبضها للافتراق الذي وقع بيننا . ثم لما رجعت إلى زاوية الشيخ بدرعة، ودخلت بقصد السلام عليه، قال لي بديهة، من غير أن يسبق له إعلام من أحد بذلك، ولا جاءه أحد : هات الأمانة التي لنا عندك . فقلت : ها هي يا سيدي . وأخرجتها من تحتي، ودفعتها إليه رضي الله عنه انتهى .

نص 7 : الولي والسباع والقطاع<sup>89</sup>

ومنها أن رجلاً من كبراء فشتالة كان يحمل الغنم إلى درعة فينزل بالزاوية فتهدده بعض المتلصقين يوماً بنهبه وكانت له أموال عريضة فبعث إليهم صاحب الترجمة يعني الشيخ سيدي أحمد بن ابراهيم لينكفوا عنه فلما طال مقامه بالزاوية أمره الشيخ سيدي أحمد بن ابراهيم بالسفر فقال له الرجل يا سيدي أخاف على نفسي من أولئك القوم فقال له إنك من الأمنين فسار الرجل فلما كان ببعض المواضع خرج عليه أولئك القوم وأحاطوا به وبمن معه فبينما هم كذلك إذا سبع عظيم مشوه الحلقة حمل عليهم وشتتهم شذر حتى فر كل واحد منهم بنفسه وحده ولم يعهد في ذلك الموضع سبع قط فأحیی الله الرجل على رغم منهم<sup>90</sup>.

88. نلاحظ في هذا النص كيف تحولت قافلة الولي من طرف معرض للخطر إلى طرف سائد، وكيف تحول قاطع الطريق إلى تابع يؤدي إلى الولي صدقة هي أقرب إلى الجباية.

89. أحمد الناصري، طلعة المشتري، ج 1، ص. 142.

90. في الكرامات التي تحكيها كتب المناقب، لا يحضر الأسد كمنصر خطر في الطريق، بقدر ما يحضر ضمن صورة الحيوان المفترس الذي يدجنه الولي . وقد تكرر حضور الأسد في مشاهد من سيرة الولي أبي يعزى السالف الذكر . انظر على سبيل المثال أبو العزفي، دعامة اليقين، ص. 52-53، 54، 55-56، 61، 62-63 . ومن الواضح أن قصص الولي مع الأسد تنتمي إلى مجال الرمز . انظر مقال محمد مفتاح، «السياسة الحيوانية : قراءة في كرامات أبي يعزى»، ضمن عبد الأحد السبتي (تنسيق)، التاريخ واللسانيات : النص ومستويات التأويل، الرباط، 1992، ص. 67-87.

## III. الرمز وفعاليته الاجتماعية

## 1. المكان

نص 1 : روايات في تأليف متأخر<sup>91</sup>

لما دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة (1062-1063 للميلاد) كان أمر يوسف بن تاشفين قد استفحل بالمغرب جداً ورسخت قدمه في الملك وعظم صيته فسمت همته إلى بناء مدينة يأوي إليها بحشمه وجنده، وتكون له حصناً له ولأرباب دولته فاشترى موضع مدينة مراکش من كان يملكه من المصامدة.

وقال صاحب «المغرب»<sup>92</sup> : « كان ملكاً لعجوز منهم ثم نزل الموضع المذكور بنخيام الشعر وبنى مسجداً لصلاته وقصبة صغيرة لاختران ماله وسلاحه ولم يبن على ذلك سواً ».

وقال أبو الخطاب بن دحية في «كتاب التبراس»<sup>93</sup> : « إن موضع مدينة مراکش كان مزرعة لأهل نفيس فاشترى يوسف منهم بماله الذي خرج به من الصحراء ».

وفي كتاب «المغرب» : « إن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراکش بموضع كان يسمى بذلك الاسم -ومعناه بلغة المصامدة امش مسرعاً- وكان ذلك الموضع مكنناً للصمصام فكان المارون فيه يقولون لرفقاتهم تلك الكلمة فعرف الموضع بها وضبط هذه الكلمة بضم الميم وفتح الراء المشددة بعدها ألف وبعد الألف كاف مكسورة ثم شين معجمة<sup>94</sup>. ويقال كان في موضعها قرية صغيرة في غابة من الشجر وبها قوم من البربر فاختمها يوسف وبنى بها القصور والمسكن الأنيقة. وهي في مرج فسيح وحولها جبال على فراسخ منها، وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذي يعدل مزاجها وحرها ».

وقال ابن خلدون : « اتخذ يوسف بن تاشفين مدينة مراکش لنزوله ونزول عسكره وللمترس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم منها في جبل درن، إذ لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم قوة ولا أكثر جمعاً ».

وفي «القرطاس» : « لما شرع يوسف بن تاشفين في بناء مسجد مراکش كان يحتزم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعاً منه لله تعالى. قال : «والذي بناه يوسف من ذلك هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراکش جوقاً من جامع الكتبيين منها، ويعرف اليوم بالسجينة،

91. أحمد الناصري، الاستقصا، ج 2، ص. 24-26.

92. لعلة أبو يحيى البسعي بن عيسى بن حزم الغافقي الجبلي المعروف بابن البسعي (المتوفى سنة 575 للهجرة / 1179 للميلاد)، صاحب كتاب المغرب في أخبار محاسن أهل المغرب، وهو مصدر مفقود. وقد تولى ابن البسعي خطة الكتابة لدى المستنصر بن هود أمير شرق الأندلس، ثم انتقل إلى مصر، حيث اشتهر في وسط العلماء، وقربه صلاح الدين الأيوبي.

93. لعلة كتاب التبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، لأبي الخطاب بن دحية الداني ثم السبتي، المتوفى سنة 633 للهجرة. حققه ونشره عباس العزاوي بالعراق سنة 1946، ولم تتمكن من الاطلاع عليه.

94. حول موقع مراکش كَمَكَنَ للصمصام، راجع كذلك ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7، ص. 113.

ولم يكن بالموضع ماء حفر الناس آباراً فظهر لهم الماء على قرب فاستوطنوها وبنوا بها (...).  
 وفضل مراكش أشهر من أن يذكر لا سيما ما اشتملت عليه من مزارات الأولياء ومدافن  
 الصلحاء الكبار والأئمة الأخيار، حتى قال الوزير ابن الخطيب في «مقامات البلدان» عند ذكره مدينة  
 مراكش: «هي تربة الولي وحضرة الملك الأولى». وعبر عنها أبو العباس المقري في «نفح الطيب»  
 (ببغداد المغرب) حرسها الله وصانها من ريب الزمان، وطوارق الحدثان.

نص 2 : «رحبة مراكش» بين لمتونة ومسوفة<sup>95</sup>

وفي إمارة المعتضد بالله نزل لمتونة ومسوفة - قبيلتان عظيمتان من البربر - رحبة مراكش ؛  
 فتخيروا دار ملكهم لتوسطها البلاد ؛ وكانت إذ نزلوها غيضة لا عمران بها، وإنما سميت بعبد أسود  
 كان يستوطنها يخيف الطريق اسمه مراكش ؛ فاستوطنها البربر كما ذكرنا، وقدموا عليهم رجلاً منهم  
 اسمه تاشفين بن يوسف .

وكان المعتضد في كل وقت يستطلع أخبار العدو : هل نزل البربر رحبة مراكش ؟ وذلك  
 لما كان يراه في ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعه أو خالعه أو ولدته ومخرجه من ملكه<sup>96</sup> : فلما  
 بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينظر إليهم مصعباً ومصوباً ويقول : يا ليت شعري من تناله مرة هؤلاء  
 القوم، أنا أو أنتم ؟ فقال له أبو القاسم من بينهم : جعلني الله فداك وأنزل بي كل مكروه يريد أن ينزله  
 بك . فكانت دعوة وافقت المقدار .

وكان نزول لمتونة ومسوفة قبيلتي المرابطين رحبة مراكش، في صدر سنة 463 (1070م)،  
 وانفصالهم عنها جملة واحدة في وسط سنة 540 (1145-1146 للميلاد) ؛ فكانت مدة إقامتهم في  
 الملك منذ نزولوا رحبة مراكش إلى أن انفصلوا عنها وأخرجهم منها المصامدة، نحواً من ست وسبعين  
 سنة .

ثم توفي المعتضد بالله في شهر رجب من سنة 464 (1072م)، واختلف في سبب وفاته،  
 فقيل إن ملك الروم سمه في ثياب أرسل بها إليه؛ وقيل إنه مات حتف أنفه، فالله أعلم .

من الرواية التاريخية إلى الطوبونيميا :

كتب أحمد التوفيق مجموعة من الدراسات الموجزة حول دلالات أسماء بعض المدن  
 المغربية: فاس، طنجة، أسفي، وجدة، ومراكش<sup>97</sup>. وتساؤل هذه الدراسات الطوبونيميا،  
 وفق منظور يعتمد طبقات مدلول الأسماء، بالمعنى الجيولوجي للكلمة.

95. عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص. 148-149.

96. الملحمة جنس أدبي إسلامي يتضمن عنصر التنبؤ وقصص القيامة.

97. انظر على سبيل المثال «حول معنى اسم طنجة» ضمن طنجة في التاريخ المعاصر (1800-1956)، جماعي، الرباط / طنجة،  
 1991، ص. 33-14. ونحيل هنا بشكل خاص على مقال «حول معنى اسم مراكش»، ضمن مراكش من التأسيس إلى آخر العصر  
 الموحد (أعمال ندوة منشورة)، مراكش، 1989، ص. 16-19.

وفيما يخص مراكش، اقترح أحمد التوفيق فرضية تقوم علي أن الاسم يتكون من عنصرين : أمر أو امر ومعناه «الحماية أو الحمى أو الحرم»<sup>98</sup>، وكُش أو أكش، ومعناه الرب عند الأمازيغ الأقدمين.

أمر هو «الحماية أو الموضع المتمتع بها كأن يكون حمى أو حرماً أو رعاية أو داخلاً في شروط تحمل الفرقاء من القبائل وغيرها على أن يضمّنوا الأمن والأمان بعضهم لبعض في مجال معين يكون عادة سوقاً أو مكان انعقاد موسم أو مرعى أو غير ذلك، وكثيراً ما تتم هذه الحماية بضمان أشخاص مبعجلين أو رؤساء مقتدرين، وتحيط بها هالة من التقديس، وهذه الكلمة واردة ينسب إليها آيت إيمور القبيلة المعروفة<sup>99</sup>، وإنما سميت بذلك لأنهم كانوا محميين أو حماة لغيرهم من القبائل في جهات ملوية العليا قبل أن ينتقلوا إلى جهات تادلا ثم إلى حوز مراكش».

«ولا شك أن الذي استدعى التسمية هو ما ظل يستدعي إلى وقت قريب منّا لدى القبائل إقامة عهود الحماية والتكفل أو الرعاية أو تائساً<sup>100</sup>، وهي مقتضيات الحدود بين المجموعات المتبادلة للمصالح كأهل الجبل وأهل السهل، وبهذه المقتضيات ترتبط الأسواق والرباطات والمواسم وغيرها».

98. حول أمور كأحد أنواع أعراف الحماية، انظر أدناه، ص. 202-205.

99. حول آيت إيمور كنموذج للقبيلة المرحلة، راجع :

Paul Pascon, *Le Hhouz de Marrakech*, t. 1, pp. 217 et suiv.

100. حول هذا التعاقد العرفي، انظر أدناه، ص. 198 وما تلاها.

## 2. الزمن

نص : أيام الولي<sup>101</sup>

محمد بن مبارك الأفاوي السوسي من قبائل المصامدة المشار إليه بالولاية الكبرى<sup>102</sup>. والخصوصية العظمى. كان رضي الله عنه أعجوبة من عجائب الدهر في التمكن. سريع الإجابة والانفعالات. كثير البكاء. وله من الكرامات ما لا يعرف به اللسان. وكان رضي الله عنه يبعث إذا هاجت الفتن بين القبائل بالكف عن القتال. فمن تعدى أمره عجلت عقوبته في الوقت. وكان رضي الله عنه جعل لهم أياما معلومة يسمونها أيام سيدي محمد بن مبارك. لا يحمل فيها أحد سلاحاً<sup>103</sup>. ولا يهيج فيها أحد عدوه. ولا يقدر فيها على المشاجرة. ويجتمع فيها الرجل بقاتل أبيه أو ولده. ولا يقدر أن يكلمه<sup>104</sup>. وذلك شائع في بلاد سوس عند العرب والعجم.

قال صاحب «الدوحة»<sup>105</sup> : أخبرني السيد الفقيه الفاضل أبو القاسم بن يحيى المصمودي : قال أخيره والده وكان ثقة أنه كان مع أمه في نخيل له. فذهب يتوضأ. وبقيت المرأة. فرأت عرجونا أي عنقوداً في نخلة شاهقة سحق صعبة جدا. فقالت يا سيدي محمد بن مبارك خاطر لك أن يرزقني الله من يقطع لي ذلك العنقود. فإذا رجل مر وراءها قد مد يده لرأس النخلة. فطأطأت النخلة رأسها إليه. فقطع العنقود. فطرحة بإزاء المرأة وقال : كلي واشكري الله. وأطعمي زوجك. ثم غاب عنها كلمح البصر. ورجعت النخلة إلى حالها. وبقيت المرأة باهتة متعجبة - فجاء زوجها الوالد المذكور. فقال لها: مالك؟ فقالت : رأيت العجب. فقال لها: ما صفة الرجل؟ فوصفته له. فقال لها : ذلك سيدي محمد بن مبارك ورب الكعبة. وكان عرفه. ومناقبه كثيرة لا تحصى.

وهو الذي أمر قبائل سوس بالانقياد إلى السلطان الشريف أبي العباس أحمد. وأخيه أبي عبد الله محمد الشيخ وأمرهما بالعدل والجهاد في سبيل الله. لما رأى النصارى تغلبوا على سواحل

101. الحُصَيْبِيُّ، طبقات، ج 1، ص. 203-204.

102. بخصوص آقا التي ينتسب إليها ابن المبارك، فقد مر بها الرحالة ابن طوير الجنة (انظر النص أعلاه، ص 47-49)، وزارها شارل دو فوكو (انظر م. ص. ص. 151-152). وحول أولياء آقا، راجع :

D. Jacques-Meunié, *Le Maroc saharien des origines à 1670*, Paris, 1982, t.1, pp. 428 et suiv.

103. في سياق وصف إقليم كُزُولَة، يذكر الرحالة الإسباني مارمول أن سوقا سنوية تعقد بالمنطقة، مدتها شهران، وأن «مرابطاً» أحدث هدنة أسبوعية تدوم ثلاثة أيام من أجل تيسير التبادل التجاري داخل وسط قبلي يعرف التوتو المستمر. راجع :

C.Marmol, *L'Afrique*, Paris, 1867, t.2, pp. 75-77.

104. عرفت أوروبا المسيحية ظاهرة مماثلة في العصر الوسيط، وهي حركة «سلم الله»، أو «هدنة الله»، وذلك وفق صياغة بدأت في العقد الثالث من القرن الحادي عشر للميلاد. وقد بدأ التقنين بـ«سلم يوم الأحد»، ثم شمل أيام الخميس والجمعة والسبت من كل أسبوع. وكان رجال الكنيسة يسهرون على احترام مبدأ الهدنة، تحت قيادة البابا، ويعاقبون كل من انتهك الهدنة بالتكفير والطرده من جماعة المسيحيين. وكان الملوك يستثنون من واجب احترام الهدنة باعتبارهم حماة النظام. انظر :

Georges Duby, *Le dimanche de Bouvines*, pp. 104 et suiv.

105. ابن عسكر، دوحة الناشر، ص. 114.

تلك البلاد. فكان من أمرهما ما هو معلوم<sup>106</sup> - توفي رحمه الله في صدر العشرة الثانية من القرن العاشر (العشر الأولى من القرن السادس عشر للميلاد).

وما فشا وذاع في الناس من كراماته عن الثقات من ذريته وغيرهم أنه بلغه تحدث الناس بأمره. وقولهم ما علامة هذا الرجل أنه صالح. وما برهان كونه ولياً كما يقول الناس - فلما أطلعه الله على ذلك أمر الخدام في الزاوية أن يجعلوا قفاف الخوص على الكوانين - أي مواقد النار - ويوقدوا تحتها. ويصنعوا فيها العصيدة للناس. ففعلوا فعجب الناس. وأيقنوا عند ذلك أنه من أكابر أولياء الله المخصوصين. فاعتقدوه واحترموه.

وكان رضي الله عنه جعل للقبائل ثلاثة أيام في كل أسبوع. وفي كل شهر. كما تقدم أن لا يتعرض فيه أحد لأحد من خلق الله. حتى الحيوانات والحشرات. فصاد أعرابي يربوعاً في يوم من تلك الأيام - فقال بعض أصحابه أطلقه. فإن هذا اليوم من أيام عافية المرباط<sup>107</sup>. فعدا عليه بكسر رجليه. فصاح الأعرابي : رجلي مكسورة عند ذلك. فلامه أصحابه في تعديه. ومنها أن عكازه رضي الله عنه متى وضعه على شيء أو في مكان لا يتعداه أحد إلا أصابته

106. انظر الإفرائي، نزهة الحادي، ص. 41-44. وحول غطية الرواية المتداولة، راجع :

Mercedes Garcia-Arenal, «Mahdī, murābit, sharfī : L'avènement de la dynastie saādiennne». St. Isl., LXXI, pp. 77-114.

نلمس جوانب التماثل «السردى» بين بروز دولة المرابطين وبين بروز دولة السعديين. ومعلوم أن المؤرخ أبا القاسم الزباني ذكر رواية أخرى يتضح من خلالها حضور موضوع أمن الطرق في أحداث بروز سلطة محمد بن عبد الرحمان السعدي (المعروف بالقائم بأمر الله) بسوس، في سياق انحطاط حكم بني وطاس. «ولما اجتمعوا عنده بزوايته، أطعمهم وتكلم إليهم في أمر السوس وفساده، وما صار إليه حال الناس، وأن ملك المغرب عجز، وقصرت يده عن الامتداد لبلادنا، فضاعت الحقوق، وانقطعت السبل، وتعطلت الأحكام منه. فلا ينبغي لكم إهمال هذا الأمر، فعينوا رجلاً يقف في إصلاح بلادكم، ويرفع ظالمكم عن مظلومكم، ويصرف واجب زكاتكم وأعشاركم على المجاهدين، إذ أراحكم الله من المخزن وجوره». فتكلموا بينهم في ذلك إلى أن اتفقوا على تقديمه، فترجوه له وقالوا : - أما إذ دعوتنا لهذا الأمر فليس له غيرك.

- فقال : على شرط أن تعينوا لي عشرة رجال من أعيان كل قبيلة يقومون لقيامي ويقعدون لعودي حتى أمهد الطرقات، وأقبض الواجب الشرعي لا غير، ومنه تكون نفقة إخوانكم، وما يفضل يصرف في الجهاد». وهكذا تمت البيعة سنة 915 للهجرة (1509-1510 للميلاد). انظر البستان الظريف، ص. 33-34.

107. «العافية» تعني السلم، والكلمة تحيل كذلك على نوع من العقود التي كانت تقيم الهدنة وعدم الاعتداء بين القبائل في بعض مناطق المغرب. انظر نموذج العقد الذي تم إبرامه في صفر 1269 (1851 للميلاد) بين آيت زولي وآيت محلي، وهما مجموعتان تكونان قبيلة آيت إحيا التي تنتمي إلى اتحاد آيت سدرات بمنطقة دادس. وقد وردت صورة للنص المخطوط، مع ترجمة فرنسية، في :

Abd el-Aziz Touri & Mohammed Hammam, « Frontières et rapports tribaux au Maroc présaharien. Le cas d'Al-Afiya des Ayt Ihya du Dadès ». in *Castrum 4. Frontière et peuplement dans le monde méditerranéen au Moyen Age*, Ecole Française de Rome / Casa Velasquez, 1992, pp. 189-197.

انظر كذلك محمد سالم ابن حبيب بن الحسين بن عبد الحفي، جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تحقيق مصطفى ناعمي، الرباط، 1992. وقد تم تأليف المخطوط في سنة 1359 للهجرة (1940 للميلاد)، ووردت فيه أخبار بعض المواجهات المسلحة التي حدثت بين الرقيبات وأولاد دليم في أواسط القرن الثالث عشر للهجرة. ونلاحظ استعمال المؤلف لعبارات مثل : «طلب العافية»، و«التراعد على العافية»، و«التوافق على العافية»، و«إعطاء العافية»، و«حصول العافية».

مصيبة<sup>108</sup>. فيهاب الناس ما وضع عليه عكازه. ولا يقربه أحد في حياته وبعد مماته. وغير ذلك مما لا يعد.

---

108. هناك حالة معبرة، تعود إلى القرن السادس عشر للميلاد، نجد فيها علامة طوبونيمية سجلت فعالية عكاز الولي وعلاقته بالتحكيم بين القبائل. عرفت منطقة جبل الزيب، بجبال غمارة، صراعا بين قبيلتي مصمودة وبنو مسارة. ويقال إن الولي علال الحاج الأغصاوي (المتوفى سنة 981 للهجرة / 1574 للميلاد) «طلب من القبيلتين الصلح فجمعهم بالنهر الساكت غرب جبل العش بقبيلة مصمودة وركز عكازه بموضع هناك، لا زال يعرف إلى اليوم بالعكاز». انظر أحمد الوارث، الأولياء، ج 2، ص. 439-440.

## 3. القلائد

نص : أبو محمد صالح والقلائد<sup>109</sup>

## [القلائد على العموم]

فأقول وبالله التوفيق : قد أنكرت جملة وافرة من طلبة العصر وفقهاء المصر، تمييز الفقراء أنفسهم بلبس المرقعة والحلاق<sup>110</sup>، والشاشية، والعصا، والركوة، والتقليد بالتسبيح. وزعموا أن ذلك رياء وسمعة، وإظهار زي خارج عن الناس وشنعة. فهم مغرورون عندهم أو مجانين، متقلدين سبيلاً غير سبيل المؤمنين. ولا وجه لهذا الإنكار إلا عسف متعسف قد غلب حسده جهله، وناقض قوله فعلة (...).

فأما استعمال ذلك على الجملة دون التفصيل، واتخاذها له وجه من الدليل، فموجود في آيتين من الكتاب، ولا بد من شرحه كي يتبين القول الصواب من القول المرتاب.  
الآية الأولى : قوله تعالى : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد). وجه الاستدلال بهذه الآية : أن الله تبارك وتعالى أعلمنا على وجه التنبيه والإيقاظ والتذكير والإحسان والامتنان، بأنه تعالى هو العليم بتفاصيل أمورنا من فسادها وصلاحتها، والخير بمآل أحوالنا من فوزها وإجحاحها، قبل خلقها وإيجادها، ومن بعد حدوثها وإبرازها وإنفادها. فمن الحكمة البالغة، والنعمة السابعة، أن وظف للأنام وظائف جعلها قياماً للناس طراً، أمناً أو خائفاً، تقوم بجميع مصالح العباد عند طلب المنافع، ووجود الموانع، عند التوجه في أقطار البلاد. ثم جعل ذلك عبادة، من حيث لا يتطرق إلى المتلبس بها دواعي الشر وظنون الفساد. فجعل الكعبة قواماً، والهدى قواماً، والشهر الحرام قواماً.

قال أبو محمد عبد الحق بن عطية : جعل الله هذه الأشياء أموراً تقوم للناس بالأمان عند طلب منافعهم كما جعل الملك قواماً للرعية وأماناً من بعضهم لبعض وذلك مما سنه تعالى لهم ودعاهم إليه، وألزمهم ذلك الفعل وحرصهم عليه، وشرعه لهم وارتضاه فكانت العرب متى رأوا محرماً علموا أنه في عبادة وأنه غير محارب ولا مضارب فلا يؤذونه، وإذا رأوا هدياً مشعراً علموا أن سائقه في عبادة وكان أمناً لمن يسوقه.

ثم جعل الشهر الحرام وهم اسم الجنس إذ هي أربعة أشهر ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الأصم وسمي بذلك لأنه كان لا يسمع فيه صوت الحديد فكان دخوله أمناً لجميع الناس ثم عظم ذلك في نفوس العرب وكل من هو من أهل الشر والحرب ومكن ذلك في قلوبهم حتى أنه لا يقدر غير متلبس بحج

109 . الماجري، المنهاج الواضح، ص. 183 - 188.

110 . حول معارضة بعض الفقهاء للحلاق، راجع محمد مفتاح، الخطاب الصوفي، ص. 144.

أو إحرام أن يقلد شيئاً خوفاً من الله تعالى فهذا الذي تضمنته هذه الآية وذكره المفسرون<sup>111</sup>.  
وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله - إلى رضواناً) قال ابن عطية هذا خطاب متوجه لجميع المؤمنين مفروض على الأعيان ألا يتعدوا حدود الله في أمر من الأمور المذكورة.

قال والشعائر جمع شعيرة وهو ما أشعر الله تعالى بها أنها حد من حدوده وطاعته وهي المعالم، والهدى عام في جميع أنواع الهدى وكل ما أهدى قرية.  
والقلائد ما كان الناس يتقلدونه أمناً لهم وذكره تعالى منة وتأكيداً ومبالغة في التنبيه على الحرمة في التقليد قال قتادة : كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من السمر قلادة فلا يتعرض له أحد بسوء، وقال عطاء وغيره : بل كان الناس إذا خرجوا من الحرم في حوائج بهم تقلدوا من شجر الحرم ومن لحاته فيدل ذلك على أنهم من أهل الحرم أو من حجاجه فيأمنون بذلك فنهاهم تعالى عن استحلال من تحرم بشيء من هذه المعاني.

وقوله تعالى (ولا أمين البيت الحرام) معناه تحلوهم فتغيرون عليهم. وقال ابن جريج : هذه الآية نهى الله تعالى فيها عن الحجاج أن تقطع عليهم سبلهم.

وقوله تعالى (يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً) قال ابن عطية : قال فيه جمهور المفسرين : معناه يبتغون الفضل من الأرباح في التجارة ويبتغون مع ذلك رضوانه. قال سعيد بن جبير : جعل الله تعالى هذه الأمور للناس في الجاهلية وهم لا يرجون جنة ولا يخافون ناراً، ثم شدد ذلك في الإسلام.  
قلت : يتخرج لنا من تفسير هاتين الآيتين دليل واضح على جواز تمييز أهل الدين والعبادة في الطرقات والمخاوف بسمة وعلامة من كل ما يستوجبون به من أهل الشر على أنفسهم وأموالهم من أمان وسلامة. وقد يجوز لمن قصد بذلك نجاة نفسه وماله عادة فكيف بمن هو له عبادة ولما كثر فساد الزمان، وانخلع جل الناس من ربة الإيمان، فتركوا أشياء كانت مستعملة أولاً عوناً على العبادة وزهدوا في الدين بطلب الدنيا كل الزهادة، تميز أهل الدين عنهم فتمسكوا بالطريقة القديمة، والوقوف دون الرخص على حد العزيمة، فبانوا عن غيرهم من بني الدنيا بلبس المرقعات، واتخاذ عصي يتكثون عليها في الطرقات واستعملوا ركاوي لا يفارقونها حفظاً لأوقات الصلوات، واستنبطوا تسايح تذكرهم عند الغفلات والهفوات.

### [السبحة]

في جواز استعمال السبحة واتخاذها والتقليد بها، لطلب المآرب في بلوغها وإنفاذها، فنقول وبالله التوفيق : لفظ السبحة مشتق من التسبيح وهو تفعيل من السبح الذي هو المحيي والذهاب لأن لها في اليد مجيئاً وذهاباً، وإقبالاً وإدباراً، عند تصرفك في حوائجك، وأصله في اللغة سرعة

111. انظر :

الذهاب. يقال فرس سابح، إذا كان شديد العدو، وقال الشاعر :

أَبَاحَ لَكُمْ شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا      ففِيهَا لَكُمْ يَا صَاحِبِ سَبِيحٍ مِنَ السَّبِيحِ

وفيها إعانة للمتعب على العبادة، لأنها محرّكة عند اللغوب، طلباً للزيادة، فاتخاذها عبادة، واستعمالها إفادة وإرادة، إذ هي مذكرة لمن عي في يديه، ولا يحمله على السهو والغفلة وجودها ليديه، فهي كالذكر للغافل، وكالتنبه للذاهل، والمعلم للجاهل (...).

وجه الاستدلال به : أن النبي عليه السلام ندب الناس إلى عبادة مخصوصة بذكر المعبود، وأمرهم فيها بإحصاء الذكر المحدود، ولا بد من الإحصاء امتثالاً للأمر وطلباً للأجر فهذه عبادة مركبة من أربعة أجزاء، ولا يحصل بدونها الأجزاء، عد، وعاد، ومعدود، وما به يحصى العدد، والذي يحصى به مجمل في الحديث فلا بد من تأويله، والعمل به لعد توجيهه وتعليله (...)<sup>112</sup>.

وأما جواز التقليد بها فهو مأخوذ مما ورد في الآيتين المشروحتين إذ هو من فعل القلائد وهو أرجح من لزومها في اليد ولا سيما عند التوجه في الطرقات كما يفعله فقراء العرب ولأن العنق محل الطهارة دائماً بخلاف اليد فربما تكون اليد غير طاهرة فتعرق فيها السبحة فيدركها من الأذى ما تمنع به صحة الصلاة، فالتقليد أرجح لهذا السبب (...).

### [العصا]

في جواز لزوم العصا واتخاذها إذ هي عون ولا سيما عند من تعلم اعتيادها كالشيخ الكبير، فإنها عونه وعليها توكؤه واعتماده، كما قال الشاعر :

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِّي      لُزُومَ الْعَصَا تَحْنِي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ  
أَخْبِرُ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ      أَدَبٌ كَأَنِّي كَلَّمَا قُمْتُ رَاكِعٌ

قوله ورائي يريد أمامي. فاتخاذ العصا، والتوكؤ عليها سنة من سنن الأنبياء عليهم السلام، من آدم عليه السلام إلى محمد (ص). وقد ورد أن شعيباً عليه السلام كان له بيت فيه عصى الأنبياء. وقال ابن عباس : التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء. وكان لرسول الله (ص) عصا يتوكأ عليها، ويأمر بالتوكؤ على العصا. وفي حديث معاذ بن جبل قال : قال عليه السلام : «إن اتخذت منبراً فقد اتخذته إبراهيم، وإن اتخذت عصاً، فقد اتخذتها موسى»، صلوات الله عليهم أجمعين.

112. تناول الونشريسي موضوع : «السبحة والتعدد بها يرجع أصلها إلى التعدد بالأصابع والنوى والحصى الوارد في الأحاديث». راجع المعيار، ج 11، ص 5-6.

وورد أن موسى عليه السلام كان يوم الزينة متوكئاً على عصاه ويده في يد أخيه. وفي التنزيل (وما تلك بيمينك يا موسى؟ قال هي عصاي). وقد ورد أنها عصا آدم عليه السلام. وفي اتخاذها معنى آخر، وهو ما ذكره بعض الفضلاء من الزهاد. وقد سئل فقيه له مالك تمشي بعصا ولست بكبير في السن ولا ضعيف في الجسم؟ فقال: لما تيقنت أنني مسافر ولست بدار إقامة، أخذت العصا تذكرة تذكرنني متى غفلت، لأنها آلة المسافر وعدة للسفر (...).

### [الركوة]

في جواز اتخاذ الركوة. وهي أفضل ما سنته القدوة، إذ هي عون على الدين، وقلما يستغني عنها أحد من المتعبدين. فاتخاذها عبادة، واقتفاؤها قرينة وإرادة. وتسمى مطهرة، كما ورد في حديث عمير بن سعيد في جواب عمر بن الخطاب حين سأله ما معه من الدنيا. وتسمى تورا كما ورد في الحديث، فيما رواه شعبة عن حصين عن سالم عن جابر أنه قال ﴿كنا مع رسول الله (ص) بالحدبية، فأصابنا عطش حتى جهشنا إليه، فأتى بتور من ماء، فجعل يده فيه، فجعل الماء يفرور من بين أصابعه كأنها العيون. وقد فسر ذلك بالركوة، وقد ورد بهذا اللفظ، وهو ما خرجه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال:

عطش الناس يوم الحدبية، والنبي (ص) بين يديه ركوة يتوضأ إذ جهش الناس نحوه قال عليه السلام ما بالكم؟ قالوا: ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب إلا ما بين يديك. فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفرور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشرينا وتوضأنا<sup>113</sup>. فاتخاذ الركوة في السفر سنة وعبادة، وهي للفقراء قرينة وعبادة معتادة، وكل ما يتوصل به إلى العبادة فهو عبادة. قال الجنيد رحمه الله: إذا رأيتم الفقير يسافر بلا ركوة، فقد عزم على ترك الصلاة. وفي قول آخر عنه: فاشهدوا له بترك الصلاة، فهذا في التعريض أشد على التحريض.

مَقَالَةٌ ذِي نُصْحٍ وَذَاتُ فَوَائِدٍ      إِذَا مَنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ كَانَ اسْتَمَاعَهَا  
عَلَيْكُمْ بِأَثَارِ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ      مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الرَّشَادِ اتِّبَاعَهَا

113. في هذه القصة النمطية، هناك علاقة بين المعجزة والفریضة (الركوة / الصلاة)، مثلما لاحظنا، في مشاهد منقبة أخرى، تلازماً بين طي الأرض والحج، أو بين إحضار الطعام والمواصلة.



## الفصل الرابع

### حدود وأفاق



## مقدمة

صوّر الرحالة شارل دو فوكو الزطاطة كممارسة عرفية ملازمة لـ «بلاد السبية»، وهو ما يعني ضمناً أن «بلاد المخزن» تشكل موطن الشرع. ومعلوم أن البحث الاجتماعي الفرنسي المرتبط بالمرحلة الاستعمارية ساهم في ترسيخ هذا التصور، لأسباب ترتبط بأهداف سياسية معروفة. سوف ننطلق في هذا الفصل من إطلاق صفة المؤسسة على الزطاطة، بناء على بعض الاجتهادات النظرية التي أنجزت في مجالي الاجتماعيات والتاريخ الاجتماعي. ماذا يعني مصطلح المؤسسة؟ تتّصّ التعريفات المتداولة على مجموعة من العناصر، مثل وجود جهاز، وعملية التدبير، و شيوع قيم معينة وسلوكات منمطة. وتتسم المؤسسة ببعض المعايير العامة مثل الكونية، والديمومة، والالتزام، وممارسة طقوس رسختها العادة. بيد أن مارسيل موس اعتبر أن المؤسسة ظاهرة تاريخية لا تخلو من حركية، وأنها في الواقع عبارة عن «مجموعة من الأفعال والأفكار، يجدها الأفراد جاهزة أمامهم، وتفرض نفسها عليهم إلى هذا الحد أو ذاك. فليس هناك ما يبرر عادة تخصيص هذا المصطلح للترتيبات الاجتماعية الأساسية. لذلك فنحن لا نحصر هذا المصطلح في الدساتير السياسية والتنظيمات القانونية الأساسية، بل نعني به أيضاً العوائد والمواضات، والأحكام المسبقة والمعتقدات الخرافية. إن كل هذه الظواهر لها طبيعة واحدة، ولا تختلف إلا من حيث درجة كل واحدة منها. وبالتالي تمثل المؤسسة في المستوى الاجتماعي ما تمثله الوظيفة في المستوى البيولوجي. وكما أن علم الحياة هو علم الوظائف الحيوية، فإن علم المجتمع هو علم المؤسسات وفق التعريف الذي حددها»<sup>1</sup>.

وأبرز كورنيليوس كاستورياديس أهمية عنصر التخيل في تشكل المؤسسة. فكل مؤسسة

---

1. راجع :

تحيل على أسئلة تطرحها المجموعة على نفسها. «من نحن كمجموعة؟ كيف تتحدد هوية البعض عند الآخرين؟ أين نحن، وداخل أي مجال نعيش؟ ماذا نريد، ما هي رغباتنا؟ وماذا ينقصنا؟»<sup>2</sup>. إنها صياغة ثقافية لهوية المجموعة وحاجياتها، بواسطة أسئلة لا تظهر للباحث بشكل مباشر، بل يتبينها من خلال الأجوبة، أو الممارسات الفعلية للمجموعات المعنية.

كيف تمت صياغة مؤسسة الزطاطة في مستوى النص القانوني؟ تنتمي الزطاطة في الأصل إلى شبكة من الأعراف التي تهم العلاقات بين الأفراد والمجموعات<sup>3</sup>، وهي تتصل بالبيئة القبلية أساساً، ويمتد مفعولها أحياناً إلى المدينة والدولة المخزنية.

وإذا اعتبرنا مضمون الأوقاف ومقاصدها، فمن الممكن أن نتطرق من تمييز مؤقت بين ثلاث

وظائف رئيسية، وهي :

- السلم وعدم الاعتداء. ويتجلى مثلاً في أعراف الرُفود<sup>4</sup>، والعافية<sup>5</sup>.

- التضامن. ويتجلى مثلاً في اللف<sup>6</sup>، وتاضاً<sup>7</sup>.

- الحماية. وهي أقرب الوظائف إلى الزطاطة وحماية المسافر.

يقوم هذا التويب على بعض الأفكار المؤطرة مثل التدرج في العلاقة بين الطرفين المتعاقدين، وثنائية التساوي والتفاوت. والأهم هو أننا نكتشف أن حماية المسافر تدخل في إطار بنية اجتماعية تنظم حماية الغريب الطارئ على القبيلة، وحماية الرُّحل لسكان الواحة في البيئة شبه الصحراوية، وحماية القبيلة المنتجة التي تسعى إلى تجنب قساوة الصيف أو الشتاء.

لقد اخترنا أن نركز على أعراف الحماية، من خلال أعراف، وهي تَأْكَمَات، والذبيحة،

وتأيساً، وأمور، والمزراگ. وانتقينا نصوصاً ووثائق تنتمي في غالبيتها إلى نوعين :

وحول مناقشة المنظر الوظيفي لمفهوم المؤسسة، راجع :

Mary Douglas, *Ainsi pensent les institutions*, Paris, 1989.

2. انظر :

Cornelius Castoriadis, *L'institution imaginaire de la société*, pp. 221-222.

3. حول هذا التمهيد، وتراجمه خلال القرن العشرين بالنسبة لشبكة تجارية جهوية، انظر :

Clifford Geertz. *Le souk de Sefrou : Sur l'économie du bazar*, pp. 75-79.

4. انظر رحمة بوقرية، علاقة الدولة بالقبائل، ص. 102-104.

5. انظر النموذج الوارد في :

Abd el-Aziz Touri & Mohammed Hammam. « Frontière et rapports tribaux au Maroc présaharien : Le cas d'Al-Afiya des Ayt Ihya du Dadès ». *op. cit.*

6. راجع المشرفي، الحلل البهية، ج 3، ص. 695-697، وكذا :

Abderrahmane Lakhsassi & Mohammed Tozy. « Segmentarité et théorie des leff-s : Tahuggwat – Taguzult dans le sud ouest marocain », *Hesp.- Tam.*, vol. XXVIII, 2000, pp. 183- 214.

7. راجع :

Cne Coursimault, « Ttata ». *A.B.*, 2, fasc. 3, 1917, pp. 261-264.

وانظر كذلك النص الشفوي بالدارجة المغربية، الوارد في :

Victorien Loubignac, *Textes arabes des Zaers*, p. 206 ( avec trad. fr. pp. 293-294).

- الدراسات الميدانية التي أنجزها باحثون مرتبطون بشكل أو آخر بسلطات الحماية الفرنسية. ولا تخلو هذه الدراسات من دقة في التقاطها للعوائد والمصطلحات المحلية. غير أنها تصفي طابع التقنين الثابت على علاقات اجتماعية تتسم بالمرونة، وتصفى طابع الخصوصية «البربرية» على أعراف نلتقي بها كذلك عند مجموعات «عربية»<sup>8</sup>.

- وثائق محلية كشفت عنها دراسات حديثة تبنت منظور التاريخ الاجتماعي. وقد انتقينا بعض النماذج من تافيلالت ودرعة، وهي تتميز بلغة عربية تحمل بشكل واضح تأثير العامية المغربية والأمازيغية، وتعكس ثقافة الفقيه الذي يعيش داخل البيئة المعنية بتلك الأعراف<sup>9</sup>.

يجسد العمل عملية الانتقال من العرف إلى الفقه. وهكذا يتكيف الفقه مع العادة<sup>10</sup>. وباسم «المصلحة» و«ضروريات الحال»، يبرز العمل مخالفة «المشهور»، وذلك ما حدث بالنسبة لمجموعة من الأعراف المغربية، مثل الخماسة، وشهادة اللفيف، والبشارة، والزطاطة<sup>11</sup>.

عرف فقه العمل بالمغرب تنوعات جهوية: فألى جانب العمل الفاسي، هناك عمل تطوان، وعمل الرباط، وعمل سجلماسة، وعمل سوس. ويعود تأليف «العمل الفاسي» إلى عبد الرحمان الفاسي، الذي ولد عام 1040 / 1631، وتوفي عام 1096 / 1685. وهو ابن وتلميذ عبد القادر بن علي الفاسي. وقد تعاطى الأب للتدريس بالأساس، وأصبح مضرب المثل، إذ قيل عنه: «عبد القادر الفاسي، مؤل العلم والكراسي». أما الابن فقد عكف على التأليف الغزير إلى درجة أنه لقب ب«سيوطي عصره».

يقول جاك بيرك أن نص «العمل الفاسي»، في مستوى الإيجاز، يُماثل بالنسبة ل«معيار» الونشريسي، موقع «مختصر» خليل بالنسبة ل«مدونة» سحنون<sup>12</sup>. وقد وظف عبد الرحمان الفاسي الرجز كشكل أدبي يساعد على الحفظ.

8. من خلال بعض الأبحاث الميدانية، نكتشف مصطلحات عربية تتصل بأعراف الحماية عند بعض القبائل التي تنحدر من مجموعة بني معقل. ففي المغرب الشرقي، عرفت قبيلة السجع أعراف «المزراك»، و«عشا الضيف»، و«حق العشير»، و«حق الجاني». انظر: M. Bonjean, *Une tribu bédouine au milieu des Berbères: Les Sejau*, mémoire C.H.E.A.M, Paris, 1936, n° 66.

وحول حضور عرف تافًا عند بني احسن (من بني معقل) في منطقة الغرب، انظر:

Jean Le Coz, *Le Rharb*, t. 1, pp. 350- 351.

9. من المفيد أن تنبه القارئ إلى بعض نتائج الاختيار الذي تبنيناه هنا في مستوى النصوص. فبالنسبة للنوع الأول، اعتبرنا البحث «الإداري» بمثابة وثيقة، وبالنسبة للنوع الثاني، تجنبتنا شحن النص بهوامش تخصص اللغة والأعلام، وهو عمل أقرب إلى التحقيق في إطار اهتمام بالتاريخ المحلي.

10. في طور نشأة الفقه، شملت عملية الاحتواء أعرافاً تنتمي للمجتمع البدوي، ومن بينها أعراف الحماية، مثل الاستجارة. راجع: Joseph Chelhod, « La place de la coutume dans le fiqh primitif et sa permanence dans les sociétés arabes à tradition orale », *S.I.*, LXIV, 1986, pp. 19-37.

11. انظر عمر بن عبد الكرم الجيدي، العرف والعمل في المذهب المالكي، وكذلك:

L. Milliot, *Droit musulman*, pp. 167-178.

12. راجع:

Jacques Berque, *Al Yousi. Problèmes de la culture marocaine au XVIIIe siècle*, La Haye, 1958, pp. 80-81.

كان «العمل الفاسي» موضوع عدة شروح. ويتكرر ذكر ثلاثة مؤلفين، وهم السجلماسي، وأبو سعيد عثمان العميري<sup>13</sup>، والمهدي الوزاني صاحب «المعيار الجديد»<sup>14</sup>. وإلى جانب هذه الأسماء الثلاثة التي تذكر في جل الدراسات حول الموضوع، هناك عبد الصمد گنون<sup>15</sup>. كان هذا الأخير وليد فاس حيث تلقى تكوينه، ثم درس وخطب وأفتى. وعند بداية عهد الحماية، قرر الهجرة إلى المشرق، لكن ظروف الحرب العالمية اضطرت له للمكوث بمدينة طنجة حيث استقر حتى وفاته. وهو أب العالم المشهور عبد الله گنون.

من هو السجلماسي؟ هو محمد بن أبي القاسم السجلماسي الفيلاي العيشاوي نسبة إلى ابن عائشة البجدي المدعو الرباطي (ت 1214 للهجرة / 1800 للميلاد). أخذ على عدد من الشيوخ، من بينهم أبو العباس الهلالي، وعلي بن رحال المعداني. وكان له اعتقاد كبير في شيخه المعطي بن صالح. واستوطن السجلماسي مدينة الرباط مدة طويلة، وتعاطى للتدريس والإفتاء. وعُرف بورعه. وأخذ عنه رجال مشاهير، من بينهم الأديب محمد بن التهامي بن عمرو، والفقير المفتي المكي بناني، والمؤرخ محمد بن عبد السلام الضعيف. وعمل السجلماسي مستشاراً للسلطان محمد بن عبد الله، وكان من بين أساتذة السلطان سليمان. وترك إنتاجاً غزيراً من الفتاوي، منها ما ضمنه في بعض تأليفه مثل كتاب «العمل المطلق»، ومنها ما ورد في ملف ضخم جمعه بعض تلامذته، ومنها وما ورد في مؤلفات فقهاء آخرين مثل المكي بناني والمهدي الوزاني<sup>16</sup>. وتظهر شهرة شرح السجلماسي للعمل الفاسي من خلال تعدد الطباعات الحجرية.

حين نقرأ «شرح» السجلماسي، يلفت انتباهنا العدد الكبير للفقهاء والمفتين الذين يحيل عليهم المؤلف. أما النقط التي دارت وتعارضت حولها أقوال المفتين، فهي:

- جواز تعويض الخفير الذي يحمي المسافر بشجاعته أو بجاهه. وتعدد الأقوال حول الحماية بواسطة الجاه، بين الجواز بإطلاق، والكراهية، والتحریم بإطلاق، والتفصيل.
- قضية تحديد الحصص عند تعويض الحامي: على الأحمال، أو على الرؤوس.
- قضية الفرق بين الإجارة والجعل.
- قضية التعويض في حالة تعرض المحمي للأذى.

وفي مستوى الشكل، الملاحظ أن المقطع المتعلق بالزطاطة في «شرح العمل الفاسي» لا يؤم سوى بيتين اثنين من أرجوزة عبد الرحمان الفاسي. ويتسم نص السجلماسي بالتكرار، ويورد المؤلف فتاوي كاملة تتصل بالموضوع، وتقولاً تتداخل أحياناً إلى حد يصعب معه التمييز بين استشهد وأخر. ومن خلال إحالات المؤلف يمكن أن نتعرف على الأبواب المتعددة التي يرد فيها الحديث عن الزطاطة

13. وهو أقل شهرة، وتوفى سنة 1178 / 1764، وقد ألف العمليات الفاشية في شرح العمليات الفاسية، مخط، خ ع ج، د. 1089.

14. توفى سنة 1342 / 1925، وألف شرح عمليات عبد الرحمان الفاسي، فاس، ط ح، 1332 هجرية.

15. توفى سنة 1352 / 1934، وقد ألف جنبي زهر الأس في شرح نظم عمل فاس، القاهرة، دت.

16. حول السجلماسي، انظر محمد بوجندار، الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، نشر عبد الكرم كرم، الرباط، 1987، ص. 126-134.

في كتب الفقه، ومن بينها أبواب الجعل، والإجارة، والأكرية، والبيع، والوديعة، والعارية، والجهاد، والمغارسة، والصلح. وفي بعض الأحيان، يسهب السجلماسي في بعض الجوانب اللغوية والمعجمية. عندما ناقش بعض كبار الفقهاء موضوع عرف الزطاطة، ومسألة جواز أداء المقابل لمن يحمي المسافر ويساعده على اجتياز الطرق غير الآمنة، واجهوا السؤال التالي: هل يجوز أداء «ثمن الجاه»؟ وناقش الفقهاء بعض القضايا من قبيل: هل يعد «ثمن الجاه» رشوة؟ وهل يجوز أداء الرشوة في بعض الحالات؟ ومن المفيد هنا أن نعيد طرح أسئلة أخرى مثل: ما معنى الجاه؟ وما معنى الرشوة في الثقافة العربية الإسلامية؟

لقد سبق لابن خلدون أن تناول مفهوم الجاه في معرض تحليله لمجتمع الأمصار<sup>17</sup>. فالجاه:

- هو نوع من التحكم في الآخر.
- وهو جزء من النسق السلطاني، ولذلك فهو يخضع لتراتب يبدأ بشخص السلطان، ويتسلسل من الأعلى إلى الأسفل عبر هرم الدولة.
- وهو يعبر عن وضعية يتحكم فيها المستوى السياسي في المستوى الاقتصادي. فطبقة تجار المدينة تحتاج إلى حماية ذوي الجاه لمراكمة المال. وفي المقابل، يساعد الجاه على استثمار مواقع السلطة، وتتحول الإمارة إلى أحد أنماط المعاش، إلى جانب الزراعة والاتجاع.

- وهو ينقسم إلى جاه دنيوي وجاه ديني. وينتج أحياناً عن سلوك الزهد والورع، ويجعل من التراكم المادي ثمرة للتراكم الرمزي.

من الواضح أننا أمام تحليل اجتماعي لا يخلو من حدائقة. ومن الجائز أن نتساءل بدورنا: لماذا اكتفى ابن خلدون باستحضار موضوع الجاه بالنسبة لمجتمع الأمصار، حيث يغيب الجاه، أو يحضر بصفة غير مباشرة؟

حين نتبنى تصور ابن خلدون للجاه، فقد تصحح الرشوة بالضرورة مؤشراً لنسق أعم. أما التصور السائد للرشوة، فهو تصور أخلاقي يقوم على الإدانة المطلقة<sup>18</sup>. وقد بدا لنا أنه من المفيد أن نتنقل مرة أخرى من التجربة المغربية إلى الخلفية العربية الإسلامية بشكل عام. ومن ثم كان اهتمامنا بحضور موضوع الرشوة في المأثور الذي يعود إلى عصر التأسيس، ويُحيل على شخصيات، وأقوال، وصفات، وقيم.

وهكذا انتقينا فقرات تهم موضوع الرشوة من كتاب «حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك»،

17. انظر العير، بيروت، د.ت، ج 2، ص. 693 وما تلاها.

18. من الكتابات المتميزة في هذا المجال، نذكر محمد بن الحسن الحجوي الذي جعل من الرشوة أحد عناصر التطور الذي عرفه طور «الكهولة» في تاريخ الفقه، وفق منظور يتبنى بوضوح المصطلح الذي استعمله ابن خلدون في وصف مراحل «عمر» الدول. وبناء على تحليل الحجوي، فقد دخل الفقه طور الكهولة خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، حيث شاع التقليد واضمحل الاجتهاد المطلق. وكان انتشار الرشوة من نتائج اتباع أسلوب «الضمان» في مجالات القضاء والحسبة والشرطة. انظر كتاب الفكر السامي، ج 2، ص. 142-144.

لمحمد الموصللي الشافعي<sup>19</sup>، الذي تناول فيه «فضل العدل والإحسان»، و«السياسة الشرعية بما يصلح الراعي والرعية». ثم قدمنا فقرات أخرى من كتاب «تبصرة الأحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام» لابن فرحون<sup>20</sup>، حيث يتركز الحديث حول أشكال تجنب الرشوة والهدية من جانب فئة القضاة.

ولاحظنا بعد ذلك أن سيرة بعض الرجال تُصوّر على أنها تشخيص حربي لذلك المأثور. وفي هذا السياق سوف نعود إلى كتاب «المقصد الأحمده»<sup>21</sup>، الذي خصصه عبد السلام القادري للتعريف بالولي أحمد بن عبد الله معن. وقد أثار هذا النص اهتمامنا لعدة أسباب. ففي مستوى السياق، تم تأليف كتاب «المقصد» قبل وفاة الولي، ويشير القادري أحياناً داخل النص إلى زمن وقوع عدد من الأحداث (سنة 1091 / 1680 - 1681 للميلاد). ورغم ما يشوب الكتابة المنقبية من تحوير للوقائع، فإن نص القادري يصور مشاهد من الحياة اليومية بزواية حضرية، داخل مناخ مدينة فاس في أواخر القرن السابع عشر للميلاد<sup>22</sup>. وفي مستوى الخطاب، يظهر الولي بمظهر الرجل الذي يشخص بشكل حربي المثل التي وردت في خطاب المأثور المؤسس. ويصف القادري تلك النماذج السلوكية بواسطة مصطلحات العصر. والملاحظ أن الزاوية المعنية تقدم صورة المؤسسة الصوفية التي تعطي ولا تأخذ، وهو ما يتعارض مع النموذج المتداول الذي يقوم على الأخذ وإعادة التوزيع<sup>23</sup>. ولا تخلو كل هذه الجوانب من فائدة لها صلة بالهدية كمفهوم أنثروبولوجي<sup>24</sup>.

وفي المقابل، تظهر في بعض لحظات التوتر والأزمات أصداء الممارسات الاجتماعية المسكوت عنها، وذلك من خلال نصوص لا تؤرخ للأحداث، بقدر ما هي نصوص منخرطة في صلبها.

شهدت مرحلة أواخر عهد السلطان سليمان موجة من المواجهات المسلحة بين الدولة المخزنية وبين مجموعة من القوى القبلية والحضرية والدينية. وجاءت هذه المواجهات في ظرفية عانى فيها المغرب من القحط والمجاعة والوباء. ففي سنة 1234 للهجرة (1819 للميلاد)، كانت وقعة زيان بفازاز، حيث انهزمت جيوش السلطان أمام آيت أومالو<sup>25</sup>، إذ حصل هؤلاء على دعم زمور وقبائل أخرى كانت تنحاز فيما قبل إلى جانب المخزن، وانتقادوا لزعامه الولي أبي بكر مهاوش. وقتل القائد

19. يعرف بابن الموصللي. ولد سنة 669 للهجرة (1270 - 1271 للميلاد) بمدينة بعلبك، وتوفي سنة 774 للهجرة (1372 للميلاد) بدمشق. تولى الخطابة والتدريس والتحديث، وألف في التفسير والفقه، واحترف نسخ الكتب وبيعها. وقد ألف حسن السلوك استجابة لحاكم معاصر.

20. هو برهان الدين إبراهيم بن علي بن فرحون. ازداد حوالي سنة 760 للهجرة (1358 للميلاد)، وتوفي سنة 799 للهجرة (1397 للميلاد). وكان ينتمي لبيت علم ذي أصول أندلسية. وهو فقيه مالكي وعالم عرف بزهد. رحل إلى مصر والشام، وتولى القضاء بالمدينة المنورة مسقط رأسه. ومن بين مؤلفاته، نذكر الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، وهو كتاب هام في التراجم، يعرف جيدا بالحياة الثقافية بالأندلس والمغرب.

21. انظر أدناه، ص. 226-230.

22. حول بعض ملامح الزاوية المعنية، راجع مقالنا «في الكرامة والهيبة»، مجلة المناهل، ملف «الأدب الشعبي المغربي»، م. ص.

23. حول هذا الجانب، انظر :

Paul Pascon, *La Maison d'Illigh*, p. 44.

24. انظر أدناه، ص. 237.

25. حول السياق العام لهذه المواجهة، انظر أدناه، ص. 271-272.

أحمد بن المبارك المعروف بـ «مُولُ أُنَائِي». وبذلك «تهدم جانب عال من مُلك السلطان»، حسب تعبير المؤرخ أكنسوس<sup>26</sup>.

في هذا السياق، ثار أهل فاس على عامل المدينة محمد الصفار<sup>27</sup>، فسانده أهل عدوته. ووقع انقسام وصراع مسلح على مستوى المدينة. وتمرد العسكر السلطاني. وكان العاهل آنذاك بمكناس، وبمجرد أن توصل بخير الحدث، بادر بتوجيه رسالة إلى أهل فاس<sup>28</sup>. وفي هذه الرسالة يستعمل سليمان استعارة «الأكل» كي يصنف سلوك العمال في علاقتهم مع الارتشاء. فمن خلال هذه الوثيقة تكشف لغة السلطة عن ممارسات وجزئيات يغيب الحديث عنها في لحظات الاستقرار، وبالتالي ينقلت خطاب الممارسة المسكوت عنها، ليحل محل خطاب المعيار.

26. أكنسوس، الجيش العرمرم، ج 1، ص. 307.

27. سبق أن عين الصفار سنة 1233 للهجرة. والملاحظ أنه ثالث عامل لفاس ينتمي إلى نفس العائلة، إذ يذكر الناصري بصدد سنة 1179 للهجرة، على عهد السلطان محمد بن عبد الله: «وفيها مات عامل فاس الحاج محمد الصفار، فولى السلطان على فاس ابنه العربي بن محمد الصفار». انظر الاستقصا، ج 8، ص. 28. وحول انتفاضة فاس، راجع: محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص. 293 - 347.

28. كانت هذه الرسالة موضوع شرح ألفه محمد بن عبد الرحمان اليازغي الشهير بابن هنو. وهو «فقيه علامة مشارك موتق مؤلف»، تعايط خطة الشهادة بفاس، وتولى قضاء الجماعة بمكناس. انظر ابن زيدان، الأتحاف، ج 4، ص. 172 - 175. وقدم الزباني النص المذكور قائلا: «ثم شرحها الفقيه الأديب السيد محمد اليازغي وتتبع ألفاظها بما يناسب كل مقام من الإعراب واللغة وشواهد العرب وأي القرآن وحديث الرسول (ص) ...». راجع الروضة السليمانية في ملوك الدولة الاسماعيلية، مخط، خ. ع. ر. د. 1275، ص. 193 / أ - 201 / ب.

## I. أوفاق الحماية

## 1. تَأْكَمَات

نص : تَأْكَمَات عند قبيلة إد براهيم، من اتحادية تكنة<sup>29</sup>  
تتبنى العلاقة مع الأجانب، على أساس تَأْكَمَات، أو عقد الأخوة.  
سوف ندرس في البداية تقنية هذه العقود، ثم نتناول سياسة إد إبراهيم، والنتائج المترتبة عنها.

كثيراً ما تدفع الضرورات التجارية الأجنبي لارتداد سوق الخميس بتاغجيشت. وهو يضطر للإقامة مؤقتاً ببلاد إد إبراهيم، بسبب متطلبات الانتجاع، أو بسبب خلافات حادة مع أعضاء قبيلته<sup>30</sup>. وقد يصبح ملاكاً عند إد إبراهيم نتيجة لعلاقة مصاهرة أو إرث.

ينظم عرف القبيلة بدقة علاقات إد إبراهيم فيما بينهم، لكنه لا يهتم بالأجنبي، مما يجعل هذا الأخير مهدداً باستمرار في ممتلكاته وحياته، اللهم إذا أصبح أحاً لهم بالتبني (گما)، بواسطة عقد أخوة (تَأْكَمَات) مع أحد رجال القبيلة، فيتولى هذا الأخير حمايته.

من اللازم على المستفيد أن يذبح بطريقة طقوسية، رأساً من الماشية قرب مدخل منزل الرجل الذي تطلب منه الحماية. ثم يدق على الباب ويطلب الضيافة : «إينبكيويه ربي»<sup>31</sup>. وبحضور رب البيت، أو زوجته في حال غيابه، يقول الذابح : «إيوي أغدس دارون تَأْكَمَات ن سيدي ربي، أن زيكيوزغ لهناغ تقييلتون»<sup>32</sup>.

آنذاك يدعى الذابح مع رفقائه لتناول الغذاء وشرب الشاي مع أصدقاء وأتباع العائلة الذين يدعون بهذه المناسبة. وفي هذه اللحظة، عادة ما يتحدث «الذابح» عن الأسباب التي دفعته إلى إقامة علاقة «الأخوة»، وغالباً ما يقبل طلبه أمام الحاضرين.

لكن إذا ما تطلب الحماية ضد أبناء قبيلته الذين عمدوا مثلاً إلى نفيه عقاباً له على أعمال بالغة الخطورة، ومنحت له الحماية، فإن حاميه يلتزم ضمناً بأن يعمل على حل الخلاف المطروح، على

29. مقتطف ومترجم عن :

Capitaine de la Ruelle, *Les Tekna berbérophones du Haut Oued Seyed : Les Id Brahim et leurs tributaires*, pp. 90- 103.

وحول اتحادية تكنة، انظر أعلاه، ص 308. ويشكل إد براهيم مع الأنصاف مجموعة تدعى آيت النص، وهي تنتمي إلى لف آيت عثمان الذي كان يعيش في الجزء الشرقي من تراب الاتحادية. راجع :

F. de la Chapelle, « Les Tekna du sud Marocain : Etude géographique, historique et sociologique », II, *Afrique Française*, n° 11, 1933, p. 635.

30. حول دور عرف «الخاوة» في التفسير النهائي للولاءات داخل آيت باعمران، انظر علي المحمدي، آيت باعمران، ص 41. «يمكن اعتبار التبرم من سياسة القائد أو من موقف لجماعة القبيلة من بين العوامل التي كانت تؤدي إلى انتقال كوانين أو فرضات من قبيلة إلى أخرى».

31. ومعناه : «ضيف الله».

32. ومعناه : «فادتني عنكم الأخوة في سبيل الله، وأجول داخل قبيلتكم في سلام».

شرط أن لا تتطلب هذه المبادرة وسائل مادية ومالية تتجاوز إمكانياته. ففي هذه الحالة سوف يرفض أن يستجيب لطلب تَأْكَمَاتٍ، حيث يتقدم ببعض عبارات المجاملة، ثم يرد لطالب الحماية حيواناً ماثلاً للحيوان الذي ذبح أمام داره.

آنذاك يقصد الأجنبي رجلاً آخر من الأعيان. ونادراً ما يعجز في النهاية عن الحصول على حام داخل القبيلة.

وإذا كان يرغب في إقامة علاقة تَأْكَمَاتٍ مع مجموع القبيلة، ولا يريد أن يكتفي بأحد الأعيان، فإنه يذبح في السوق، أمام جامع أكادير مقورن، وهما المكانان الوحيدان اللذان يشكلان ملكاً لمجموع إد إبراهيم. وحيث يبعد أكادير مقورن عن تَأْكَمَاتٍ، وهي أقرب قرية، فإن طالب تَأْكَمَاتٍ يذبح ثم يطلق ببندقيته رصاصتين من أجل إشعار السكان، فيبادر هؤلاء إلى مغادرة مساكنهم.

ثم تتولى الجماعة تنفيذ الإجراء في اجتماع مستعجل، وتقتضي العادة أن تعلن اتفاقيات تَأْكَمَاتٍ بواسطة براح السوق.

«إبراح فلان إس إكا أكماس ن فلان»<sup>33</sup>.

تعقد تَأْكَمَاتٍ بواسطة الطلب من جانب، والقبول من الجانب الآخر. لكن على غرار مجموع العقود التي تبرم عند إد إبراهيم، تنتهي العملية عادة بتحرير عقد مكتوب [...] . لا تقتصر الاستفادة من تَأْكَمَاتٍ على البالغين المسلمين، بل تستفيد منها النساء أيضاً، والطفل بمساعدة ولي يضمه.

ويستفيد اليهود من نفس العملية، غير أن هناك اختلافاً في المصطلح المستعمل، فهم يسمون حاميهـم «سيدي» عوض غما [...].

ويبدو أن الفخدة هي أهم مجموعة يمكنها أن تطلب تَأْكَمَاتٍ لأنها تتوفر على ما يكفي من الانسجام كي يتفق أعضاء جماعتها على فائدة القيام بمثل ذلك الطلب.

ويختلف الأمر بالنسبة لتلك القبيلة. فعالباً ما تلجأ كل فخدة إلى اختيار حام مختلف، سعياً منها للحفاظ على مصالح قد تكون متنافرة. وعلى أية حال، فإن الموروث الشفوي والمكتوب الذي احتفظ به إد إبراهيم لا يذكر وجود علاقة تَأْكَمَاتٍ مع قبيلة كاملة. بيد أن تلك العلاقة تقام من طرف الأفراد والعائلة والفخدة. ولا يحرم من الاستفادة من تَأْكَمَاتٍ سوى العبيد.

33. ومعناه : «يربح فلان أنه أخ فلان».

## 2. الذبيحة

نص 1 : شارل دو فوكو في منطقة جبل باني<sup>34</sup>

إذا كانت الأعراف تحمي كل فرد ضد مواطنيه، إلى هذا الحد أو ذاك، داخل القصور وبين قبائل الرحل، فليس هناك ما يحمي الغريب على الإطلاق. فكل شيء مباح ضده، إذ يمكن أن يتعرض للسرقة، أو النهب، أو الاغتيال. ولن ينصب أحد نفسه للدفاع عنه<sup>35</sup>. وإذا واجه الغريب الاعتداء بالمقاومة، فإنه سوف يهاجم من طرف الجميع. فكل المبادلات التجارية والمعاملات تغدو مستحيلة لو لم يتم إحداث عادة خاصة لمعالجة هذا الوضع. وهذه العادة، العريقة في القدم، والتي تكاد توجد في كافة مناطق المغرب، هي ما كان يسميه العرب القدامى بالجيرة<sup>36</sup>، وما يسمى هنا بالذبيحة، وهي تعني الفعل الذي يضع بواسطته الإنسان نفسه تحت الحماية الدائمة لرجل معين أو قبيلة معينة<sup>37</sup>. فهي عناية تمتد مفعولها في الزمن. لتتصور حالة محددة. يدخل غريب قصراً أو مخيماً لمجموعة من الرحل : وقد وصل هناك مع رجل من القرية أو القبيلة، رافقه كزطاط، بعد ما منحه العناية، المسماة أيضاً بالمزراگ. فإذا كان الأجنبي مجرد عابر، فإن هذه الحماية كافية لضمان سلامته. لكن إذا كان يريد الإقامة، فإن تلك الحماية تفقد مفعولها : فالعناية أو المزراگ هما ضمانتان مؤقتتان، تم إحداثهما لفائدة المسافرين بالأساس. وإذا رغب المرء في الإقامة بعض الوقت، ولو لمدة شهر واحد، فإنه ملزم بأن يبحث لنفسه عن حماية من نوع آخر. فهو يطلب الحماية الدائمة من أحد رجال القبيلة، فيقال إنه «ذبح عليه». ويرجع أصل هذا التعبير إلى عادة قديمة، لم تعد تمارس حالياً إلا في الحالات الخطيرة، وهي تقضي بذبح خروف في عتبة الرجل الذي تطلب منه الحماية. قبل الرجل غالب الأحيان، يؤتى آنذاك بمرباط، ويحرر هذا الأخير، في عين المكان، عقداً يشهد على أن المسمى فلاناً ذبح على فلان، من القبيلة الفلانية، وأنه أصبح تحت حمايته (...). وعادة ما تمنح هذه الحماية، كما رأينا، مقابل إتاوة سنوية ضئيلة، ويرفض بعض كبار الأعيان التوصل بأي مقابل، وهو موقف يثير الاعتزاز. ويفهم من مضمون العقد، أنه بعد القيام بالإجراء المذكور، لا يعود هناك أي مبرر للخوف من رجال قبيلة السيد الحامي. يمكن للمحمي أن يتنقل بينهم بدون أن يلحقه أي مكروه. فإذا هاجمك أحدهم، فكأنما

34. مترجم عن فوكو، م. ص.، ص. 130-134.

35. هذا حكم يتسم بقدر من المبالغة. انظر على سبيل المثال :

Nehilil, «L'Azerf des tribus et qsour berbères du Haut-Guir». *Archives Berbères*, 1915-1916, fasc.3, pp. 205-232.

تقتطف مثلاً من عرف قصر تولال : «من ارتكب، داخل القصر، سرقة على حساب ضيف غريب، فعليه 5 مثاقيل، بالإضافة إلى إرجاع الشيء المسروق. وإذا كان الأمر مجرد تهمة، فعليه أن يقدم خمسة من أقرب أقاربه ليحلفوا بأنه بريء» (بند 5). إذا أقام الغريب داخل القبيلة أكثر من ثلاثة أيام، فهو يعامل مثل السكان العاديين (من زاوية تطبيق قواعد أزرف) (بند 17).

36. يستعمل مصطلح الجوار بنفس المعنى. انظر :

Georges Marçais, *Les Arabes en Berbérie*, pp. 242-243.

37. الملاحظ أن طقس الذبيحة يوظف كذلك لإقامة علاقات حماية من نوع آخر مثل تاگمات، أو المزراگ، أو الزطاطة.

هاجم الرجل الذي يحميك، وكل القوانين التي تحميه تحميك كذلك، إذ توفر لك الذبيحة حماية تلك القوانين، فكأنما جعل منك هذا الطقس عضواً من أعضاء القبيلة. وإلى جانب الأعراف، هناك قانون الغلبة الذي يفرض نفسه في جل الأحيان، لذلك فالمصلحة تقتضي البحث عن حماية رجل ذي جاه، من عائلة قوية، وله طبع يتسم بالأنفة والبسالة، ومعنى ذلك أن مزاجه يجعله لا يقبل بأن يس أحد بالأشخاص الذين هم في ذمته. وينبغي كذلك أن يكون الحامي رجلاً أميناً، لأن الذبيحة تضمن ضد رجال قبيلة الحامي، ولا تضمن ضد الحامي نفسه. فتادراً ما يخون سيد تابعه، وإذا ما فعل ذلك، فهو يتعرض لاحتقار الجميع، ولن يسانده أحد ولو من بين إخوانه<sup>38</sup>.

حين يرغب المرء في الإقامة بعض الوقت في أحضان قبيلة معينة أو قرية معينة، أو يرغب في امتلاك عقارات أو إقامة مستودعات للسلع، ينبغي عليه القيام بذيبة. لذلك يقوم كبار التجار بذيابح عديدة. وفي قبائل الرحل، تطلب حماية رؤساء العائلات الرئيسية. وفي القصور، تقتضي العادة بأن يقصد طالب الحماية الشيخ. وتصبح عقود الذبيحة جزءاً من التركات، فتستمر نفس الصلة بين أبناء الأسياد وأبناء الأتباع. ولا تلغى علاقة الذبيحة إلا إذا لم يعد المحمي يؤدي واجبه، أو في حالة ما إذا خان الحامي محميه.

وتقيم الذبيحة علاقة معينة بين الخواص، أو القبائل. فإذا ما قررت قبيلة أن تضع نفسها تحت حماية قبيلة أخرى، فهي تلجأ إلى إحدى وسيلتين: فهي إما تذبح على أحد أعضاء القبيلة، أو تذبح على القبيلة بكاملها. وتؤدي الويلتان إلى نفس النتيجة، إذ تجمع علاقة التضامن بين كافة الأفراد على أساس مبدأ الأخوة. وعادة ما يلجأ الأفراد والمجموعات الصغيرة، كالقصور المعزولة، إلى طلب حماية رجل واحد، وعلى عكس ذلك، تذبح قصور الواحات والفرق الكبرى على قبائل بكاملها. وهكذا يتمتع قصر تيسينت بحماية مجموع إذا أوبلال، على خلاف طااطا حيث يتمتع كل قصر على حدة بحماية عضو من هذه القبيلة. وتعلن قبيلة أيت جلال عن لانها لمجموع إذا أوبلال، بينما جعل هؤلاء أنفسهم تابعين لمجموع البرابر. ونستعمل في هذا السياق عبارات من قبيل الولاء والاصطناع، غير أن ذلك لا يعني، مرة أخرى، أي علاقة سيادة أو تدخل في شؤون القبيلة المحمية. إذ يقتصر مفعول الذبيحة على ضمان أمن أعضاء القبيلة المحمية فوق تراب القبيلة الحامية. فبناء على موالة أيت جلال لإدا أوبلال، يكون هؤلاء ملزمين بأن يحترموا، أينما حلوا، أشخاص وأملاك الأولين الذين يستطيعون أن ينتقلوا بذلك أن ينتقلوا فوق أراضي حمايتهم. وبفضل ذبيحة إذا أوبلال على البرابر، فهم يستطيعون أن ينتقلوا آمنين في الأراضي التي يسكنها هؤلاء. وإذا نهب سلع القبائل التابعة من طرف الأسياد خطأ، أو العكس، وجب أن تعاد المسروقات إلى أصحابها بمجرد أن يسجل الخطأ المرتكب. وهكذا تنشأ الحاجة إلى الذبيحة عند فئتين اثنتين بالأساس، وهما مجموعات التجار الذين تحتاز قوافلهم تراب قبائل أجنبية، أو تخشى هجمات هذه القبائل، والمجموعات الضعيفة التي

38. قارن بين هذه الاعتبارات وبين أسلوب اختيار الرجل المناسب لعملية الزطاطة. انظر النص المكتطف من كتاب فوكو، والوارد أعلاه، ص. 44-45.

تعيش في مناطق يجتازها جيران أقباء. وتؤدي مقابل الضمانة الموفرة إتاوة سنوية تختلف قيمتها حسب أهمية المجموعة المحمية، ومستوى علاقاتها مع أسيادها. ويضطر بعض الأفراد والقبائل إلى إقامة علاقات ولاء مع عدة حماة في آن واحد.

تتيح الذبائح إمكانية التجارة والسفر، ويتيسر هذان النشاطان أكثر، وبدون أي خطر، لو تم احترام عقد الذبيحة. غير أن هذا الاحترام ليس هو القاعدة : فنادرًا ما يتم خرق العلاقة بين الخواص، بينما تحرقه القبائل بدون حرج كبير. وهذه نماذج من أشكال الخرق التي تحصل أكثر. فقد يتعرض للاغتيال أو النهب أحد أتباع رجل من القبيلة من طرف رجال من قبيلة الحامي، فإذا كان اللصوص أو القتلة قد تصرفوا عن جهل، وعبروا عن أسفهم ووعدوا بأداء الدية وإرجاع المسروقات، فعادة ما تقبل هذه العروض، ويتوقف الأمر عند هذا الحد. لكن، في بلد يعرف فيه الفرد كل الآخرين بالاسم، من الصعب أن يصرح المرء بأنه تصرف عن جهل. فغالبًا ما يتصرف الفرد وهو على علم بنتائج الأفعال التي يقترفها. يشكل الاعتداء إذن إهانة لولي الضحية، ويفرض عليه العِرض أن يبادر إلى الانتقام بطريقة تفرض احترام الجميع. لذلك يستدعي ولي الضحية أقباءه الذين قد تتسع دائرتهم إلى حد كبير، ويلتمس منهم العون من أجل تدبير عملية الانتقام. وإذا كان الرجل قويا، تمكن من تعبئة جزء هام من القبيلة. في اليوم الأول، سوف يهاجم الأفراد الذين أهانوه ويقتلهم، مما يؤدي إلى سقوط ضحايا جدد، وسوف يثير هؤلاء دورة جديدة من عملية الأخذ بالأثر : فسواء كانت قرابتهم وفرقتهم من الأغنياء أو الفقراء، من ذوي النفوذ أو غيرهم، فهم لا يستطيعون أن يتخلوا عن الانتقام للاغتيال الجديد، وإلا أصابهم العار. وهكذا يحمل المعنيون السلاح، وتندلع حرب أهلية سرعان ما تشارك فيها القبيلة بكاملها. ولا تدوم هذه الحروب في القصور مدة طويلة، وقد تدوم سنوات عديدة بين قبائل الرحل، وهو الوسط الذي يسود فيه هذا النوع من الاقتتال. لنأخذ على سبيل المثال حالة أحد الأعيان الذي اضطر إلى الانتقام من خصوم أقل بأساً منه. فإذا كان للحامي المهان ما يكفي من القوة ليجمع حوله معظم رجال القبيلة، فسوف يعاقب كذلك مدبري الاغتيال، ولن يتجرأ أقباءه هؤلاء على مواجهته، بل سوف يكتفون بالمطالبة بالدية<sup>39</sup>، وغالبًا ما يحصلون عليها، وربما تمهلوا في انتظار الفرصة المناسبة للانتقام لعرضهم، فينصبون آنذاك فخًا لعدوهم أو لرجل من قرابته. وسوف يدبرون الأمر في الوقت المناسب، وقد يغادرون المنطقة بعد ذلك خوفاً من الانتقام. وهناك احتمال ثالث يحدث أكثر. يكون الحامي ضعيف النفوذ، فإذا كان ينتمي إلى فرقة شديدة التلاحم، وكانت لهذه الأخيرة فيما قبل صورة سلبية عن المعتدين، فسوف تعتبر أن الإهانة تمسها بكاملها، وأنذاك سوف تتبنى القضية بشكل جماعي، ويتطور الصراع على غرار الحالة الأولى. وإذا كانت الجماعة منقسمة، ويشتكى من أناس لهم فيها أصحاب، فسوف يتضامن معه أفراد قلائل. وإذا كان يواجه فرداً ضعيفاً مثله، سوف يكون قادراً على الانتقام. وإذا كان خصمه قويا، فسوف يقبل وضعية العار.

39. حول الدية، راجع :

وإذا كانت له أنفة، سوف يفر بعد أن يباغت بالاعتتيال عدوه أو أحداً من قرابته. هذه هي الوقائع التي تحدث عندما يمس أحد الخواص من طرف أحد رجال قبيلته في شخص رجل محمي، وسواء كان هذا المحمي فرداً أو مجموعة أو قصراً بكامله، فإن الأمر يتطور على نفس المنوال. فباستثناء حالات خاصة، يسفك الأسياد لأخذ الثأر حين يتعرض أحد تابعيهم للاعتيال، لأن القضية تهم سمعتهم وعرضهم. لذلك تفضل جماعات هامة، أو قصور بكاملها، أن تحتمي بفرد واحد بدل أن تحتمي بقبيلة كاملة. وعادة ما تكون حماية القبيلة أقل فعالية. ماذا سوف يحدث إذا ما اعتدى رجال أو قوى مسلحة على أناس من جماعة تابعة لجماعتهم؟ يستحق الاعتداء في حد ذاته التنديد. ومن واجب مجلس القبيلة الحامية أن تحكم لصالح الأتباع المظلومين. لكن في مثل هذه الحالة، لن يعتبر أحد أن الأمر يمس بمصلحته الشخصية، ولن يأخذ الأمر مأخذ الجد، بل على العكس. ما هو موضوع التظلم؟ شنت مجموعة ما غزواً، وتم اختطاف قافلة، وقد ينهب بعض الرجال مسافراً معزولاً. فضمن أعضاء المجلس، قد يوجد عدة رجال ينتمون إلى الجماعة المغيرة. فسوف يكون الحكم الصادر مكلفاً إلى حد كبير إذا ما طولبوا بإرجاع ما نهب، خاصة إذا كانت القافلة محملة بسلع ثمينة. أما الذين لم يستفيدوا من عملية الاختطاف، فهم يحسون أنهم قد يجدون أنفسهم في وقت لاحق في وضعية ماثلة، وبالتالي كيف يحاسبون أبناء قبيلتهم حول تصرف سوف يتهمون به فيما بعد؟ ومن جانب آخر بالإستيلاء على فريسة مُغرية هو في واقع الأمر انتصار يثير اعتزاز مجموع القبيلة. فإذا كانت الفرقة المشتكية قوية يحسب لها حساب، فمعناه أن إقدامها على الانتقام أمر وارد، وبالتالي من الأفضل أن يتم تنفيذ ما تقرر بدون تأخير. لكن المعنيين يكثرون من الماطلة والتسويق، ويستعملون كل الذرائع الممكنة لإرجاع أقل قدر ممكن مما نهوه. وإذا كانت القبيلة المشتكية ضعيفة، وبعيدة، ولا ينتظر منها الانتقام، فلا يسارع المعتدون لإرجاع ما نهب، ولا يرجعون إلا القليل. لذلك حين يسافر أعضاء الفرق المحمية فوق تراب حمايتهم، فإنهم يطلبون الزطاطة من أحد هؤلاء على سبيل الاحتياط. وحين تعقد الذبيحة بين قبيلتين، وتخل إحداهما بما التزمت به، فمعناه خرق العقد المبرم، واندلاع الحرب بين الطرفين. قد تتم المواجهة بين المستقرين والرحل، أو بين طرفين ينتميان معاً إلى فئة الرحل. في الحالة الأولى، يأتلف الرحل في تكتلات واسعة، ويتحركون في اتجاه القصور، فيحاصرونها، ويخربون جنائنها. وإن لم يستجد السكان برحل آخرين، فإن تجنب تخريب القصور يقتضي طلب الأمان ودفع ذعيرة للإفلات من الاعتداء. وإذا قامت الحرب بين الرحل، فإنها تأخذ مجرى آخر، إذ تقوم على المباغتة، وتقل فيها المواجهات الحقيقية، ويكتفي فيها الطرفان بعمليات نهب محدودة. يفاجئ المهاجمون خيام الخصوم ومواشيهم، إذ يعتبر الاستيلاء على الغنيمة أهم من الاقتتال في حد ذاته. وكثيراً ما تدوم مثل هذه الحروب عدة أجيال.

في قصر معين أو قبيلة معينة، حين تحدث السرقة أو النهب، أو يقتل رجال من فرقة متاخمة، ويرفض المعتدون تعويض الطرف الآخر، فإن ذلك يؤدي إلى نشوب حرب حقيقية. ويختلف الأمر عندما ينتمي المعتدى عليهم إلى قبائل بعيدة. فهناك عادة كونية، تقضي بأن الصراع بين مجموعات متباعدة يأخذ شكل عمليات عقابية. لناخذ بعض الأمثلة على سبيل التوضيح. تم اغتيال فرد من

قصر إيمي ن تلس من طرف رجال ينتمون إلى قصر أكادير ن تيسينت. سوف يقتل سكان إيمي ن تلس أول فرد وجدوه في طريقهم من بين سكان أكادير. ومن جهة أخرى لنتصور زناغياً وجد نفسه بأكادير ن تيسينت، وتعرض للنصب في أحد الأسواق على يد أحد سكان القصر، ورفض النقاليس أن يحكموا لصالحه. آنذاك سوف يتم اعتقال أول فرد من أكادير دخل تراب زناغة، ولن يطلق سراحه إلا بعد أن يؤدي مقدار ما سلبه رجال قصره من الزناغي المظلوم. وإذا لم يكن يحمل معه المقدار المطلوب، فإنه يلزم بأن يكلف أحداً بإحضاره، ويظل رهن الاعتقال إلى أن يستكمل دفع التعويض المذكور. ويتبع نفس الأسلوب لمعالجة قضايا أخرى. إنه القصاص : كلما كانت الفرصة مواتية، يسترجع المرء ما سرق منه. وبناء على هذا العرف، أمر الأرضيفي بأن أوضع في السجن باعتباري من رعية السلطان<sup>40</sup>، لأن رجالاً من قبيلته كانوا مسجونين بمدينة مراكش.

نص 2 : الذبيحة في بلاد تكنة<sup>41</sup>

من المعلوم أن عملية ذبح حيوان بمدخل قرية أو دوار أو قبيلة، أو بباب منزل أو خيمة، تعد في جل جهات المغرب، وسيلة توفر لمن أقدم عليها حق الحماية من لدن تلك القبيلة أو ذلك الفرد. هذا هو المبدأ العام، وفيما يخص الحقوق والواجبات المتبادلة بين الطرفين، هناك اختلاف كبير في التطبيق حسب المناطق والمجموعات.

في بلاد تكنة، حين ترغب قبيلة معينة في ولوج تراب قبيلة أخرى بشكل منظم، إما لمجرد عبور ذلك التراب، أو لارتياح أسواقه، أو لاستعمال مراعيه، فإذا لم تكن تشعر أن لها ما يكفي من القوة لتدافع عن نفسها وتفرض احترامها على المجموعات الأخرى، فهي «تذبح» على رئيس أو لفرقة قادرين على أن يضمنوا لها استرجاع ما قد يسلب لها من أمتعة وممتلكات، والملاحظ أن آيت الجمل لا يضمنون سوى السرقات التي قام بها أفراد من آيت الجمل، وآيت بلا لا يضمنون سوى السرقات التي قام بها أفراد من آيت بلا، الخ... بل إذا كان المحمي يتوفر على حماة من عدة قبائل من لف آيت الجمل، فإن كل واحدة من هذه القبائل لا تعتبر مسؤولة إلا عن السرقات التي اقترفتها هي بالذات. لنأخذ على سبيل المثال ذبيحة تمت عند قبيلة آيت لحسن وحدها، فهي تساعد على استرجاع ما سرق من طرف إزرگيين، وآيت موسى أو علي، الخ. وإذا ما تمت الذبيحة عند آيت لحسن وآيت موسى أو علي، فإن القبيلة الأولى لا تضمن ما سرقه أفراد من القبيلة الأخرى، والعكس صحيح. وفي المقابل، سوف يستفيد المحمي من مساعدة القبيلتين معا للتغلب على المشاكل التي قد يواجهها مع إزرگيين.

40. الأرضيفي هو من الأعيان الذين ذكروهم فوكو، في سياق سفره من تازناخت إلى تيسينت. انظر فوكو، م. س. ص. 110-111.

41. مقتطف ومترجم عن :

F. de la Chapelle, «Les Tekna du Sud marocain : Etude géographique, historique et sociologique», *L'Afrique Française*, n° 12, 1933, p. 797.

كلما زاد ضعف القبيلة، أو زاد ترحالها، كلما زادت حاجتها إلى حماية الآخرين. وهكذا يتوفر الرغيبات على حماة عدة من تكنة. وفي شمال غرب تامانارْت، تتمتع كافة قرى آيت حَرْبِيل بحماية كل من إد بُراهيم ومَجَّاط، وآيت أو مَرْبِيط.

تتم الذبيحة مبدئياً مرة واحدة، ويسري مفعولها بصفة دائمة، وهي لا تلزم المستفيد منها بدفع إتاوات سنوية. ومع ذلك فمن المقبول -على سبيل اللياقة لا على سبيل الواجب فيما يبدو - أن تدفع للحامي هدية من حين لآخر، عيناً أو نقداً، ومن المقبول كذلك أن يُستقبل الحامي ويكرم كلما مر بخيمة تنتمي إلى المجموعة المحمية. ولا يطالب المحمي دائماً بتقديم المساعدة العسكرية من حاميه في حالة تشوب حرب، لكن لا يسمح له بحمل السلاح ضده. وهكذا فإن محمد ولد خليل، الرئيس السابق لأولاد موسى (رغيبات الساحل) وجد نفسه في حالة حرب ضد أولاد دَلِيم، وسبق لهؤلاء أن «ذبحوا» لآيت موسى أو علي الذين أصبحوا حلفاء لهم. لذلك اضطر ولد خليل المذكور أن يفكك جيشه كي لا يضطر لمحاربة أولاد دليم.

وفي الختام، ينبغي أن نوضح أن الذبيحة لا تعني بالضرورة سقوط الذابح في وضعية التبعية، لأن هذه الأخيرة ترتبط بدونية الأصل، أو الانتماء إلى ذرية المرابطين، أو أصل أقرب إلى وضعية القنانة. وقد تسقط القبيلة في علاقة التبعية إذا ما ضعف جانبها بشكل كبير. لذلك ففي بعض الحالات يتم تبادل الذبيحة بين مجموعات قبلية، كأن يتم ذلك بين تكنة وأمراء أذْرَار، لأن كل مجموعة تعودت على ارتياد الأسواق الواقعة في تراب المجموعة الأخرى.

نادراً ما ترتاد مواشي آيت عثمان مراعي واقعة فوق تراب آيت الجمل، وهي على سبيل المثال حالة الانصاص. آنذاك يتخذ هؤلاء حماة من آيت لحسن، ويسمون إَغْفِيرُن ومفردتها: أَعْفِير، أي الرهينة<sup>42</sup>. فكلما حلت مجموعة من خيام آيت عثمان، كلما رافقتها خيمة تنتمي إلى آيت لحسن. وتحصل هذه الأخيرة على مقابل قيمته خروف واحد لكل خيمة من خيام المجموعة المحمية.

42. استعمل المؤلف كلمة ôtage، وهي ترجمة غير ملائمة، إذ تدل كلمة أَعْفِير على الحامي والخفير. انظر الدراسة المعجمية أدناه، ص. 280.

## 3. تايّسا

نص 1 : بين الرحل والزواية ( تافيلالت، ق 17 للميلاد)<sup>43</sup>

الحمد لله.

اتفقت قبيلة أيت يَف المان : أيت مرغاد، وأيت يزدي وأيت يحيى، وأعطوا لأولاد القطب السيد ابي يعقوب نفعنا الله به أمين الحملاء في مالهم، وأنفسهم، وزروعهم، ودوابهم ومشياتهم، وبلدهم، ورجالهم ومن سكن معهم في بلادهم.

فَمِنْ حُمَلَاءِ أيت مرغاد تحمّل لهم الشيخ مسكور أَعْمَزْ بِأيت وَحِي وما أسند إليهم من القبائل، وتحمل لهم الشيخ مسكور أَعْنَمْ بِأيت محمد وما أسند إليهم [من] القبائل، وتحمل لهم الشيخ بَسُو أَسْخُ بِأربيا وما أسند إليهم من القبائل، وتحمل لهم الشيخ عبد الواحد أَعْبُ الههروري بقبيلة أيت خُدَدْ وما أسند إليهم من القبائل، وتحمل الشيخ بُلْمَانْ بقبيلة أيت سعيد أَيْوَسْفْ أيت يحيى وما أسند إليهم [من] القبائل، وتحمل لهم الشيخ أطرطور بقبيلة أيت إِيُوبْ وما أسند إليهم من القبائل، وتحمل الشيخ الرميقي بقبيلة الصباح وما أضيف إليهم من القبائل، وتحمل لهم الشيخ خِي أَوْصَافْ بقبيلة ايت إزدي وما أسند إليهم من القبائل، وذلك ياذن القبائل لإخوانهم إلى أن يرث الله الأرض ومن علي[ها] وهو خير الورثين<sup>44</sup>. قصدوا بذلك وجه الله العظيم، وثوابه الجسيم، والدار الآخرة، والله لا يضيع أجر من أحسن. وقصدوا أيضا بذلك تعظيم حرمة جدّهم السيد أبي يعقوب.

وتنتقل الحملاء من أب إلى والد، ومن ولد إلى ابن، ومن ابن إلى فخذ. والتزموا ذلك لأنفسهم، وأولادهم، وأعقابهم، وأعقاب أعقابهم ما تناسلوا وامتدت فروعهم، ولهم ما قاله المصطفى صل الله عليه وسلم : «من أقال عشرة مو[من]، أقاله الله عشرته يوم القيمة». والتزموا الرعات المذكورون لأولاد السيد أبي يعقوب أن من تعد عليهم بالتعدي كالقتل، والجرح وغير ذلك كالسرقة، وأكل الأموال، ودخول الديار، فإنهم يفاصلونهم بالشرع. ومن ادعا على أحد فيما يساوي مثقال، وأنكره فعليه خمسة حلاف إن لم تكن البينة، ومن ادعا على أحد (...). فعليه عشرة حلاف، ومن ادعا على أحد بالقتل، فعليه أربعين حلاف في

43. وثيقة مؤرخة في عام 1055 للهجرة (1645-1646 للميلاد)، وقد وردت في :

Labri Mezzine, *Le Tafilalt*, pp. 94 - 95.

أما الطرفان المتعاقدان فهما اتحادية أيت يافلان (انظر أدناه، ص. 309)، وأولاد سيدي بويقوب. ومعلوم أن هذا الأخير ولي اشتهر في الجزء الأعلى من وادي غريس، في السفح الجنوبي من الأطلس الكبير. وقد استخدم نفوذه لدعم سياسة العلويين الأوائل، ولا سيما السلطان إسماعيل، في نقل بعض المجموعات القبلية المشاغبة من الجنوب إلى السفح الشمالي للأطلس المتوسط، على امتداد خط يقع بين بني ملال وملوية العليا. راجع :

Labri Mezzine. « Société et pouvoir dans le Maroc présaharien au XVIIe siècle : Réflexion à propos de la « tayssa » de Sidi Abd al-Ali », *Hesp.-Tam.*, 1985, pp. 43-44.

44. التشديد منا، والمبارة غطية في لغة الأوقاف الماثلة، وهي تدل على اعتماد تعاقد غير محدود في الزمن.

مقام السيد محمد بن يوسف .

شهد عليهم بذلك من أشهدوه منهم على أنفسهم وعرفهم، وهو بحال كمال وتاريخه في خمس وخمسين وألف .  
ووضعه واسمه احمد بن عبد الله الفلال ءامنه الله في الدارين . أمين .

نص 2 : بين الرحل والزاوية (درعة، ق 18) <sup>45</sup>

الحمد لله وحده                      وصلى الله على سيدنا محمد وءاله

لما اتفقت جماعة المرابطين أهل زاوية سيدي علي بن محمد نفعا لله به وهم من ذرية القطب الرباني سيدي علي بن محمد الشيخ . نخص منهم سيدي عبد الله بن محمد وسيدي محمد بن الحسين وسيدي محمد بن اعلي بن يحيى وكافة المرابطين وطلبوا الروحي (الروحة) السفلات على أن يكسوا الزاوية المذكورة<sup>46</sup>، لكون فساد الزمان وكثر النهب وغير ذلك . وطلبوا الكسوة منهم فكسوا لهم الزاوية كل من سكنها من حراطين وغيرهم وتحملوا على أنفسهم كل ضرر يلحقهم من الروحي (الروحة) وغيرهم وكل من أتاهم بفضيحة أو تعدية وغيرها فهم خصمائهم في كل حاجة ومن حضر يجزي الآخر منهم وأولادهم وأولاد أولادهم ما تناسلوا ومن تحمل بذلك .

- من أولاد منصور بن يعنى الشيخ محمد بن عبو ومحمد بن علي بن دحان .

- ومن أولاد الحسين عيسى بن لغزال، علي بن أحمد من أولاد عيد، ومحمد بن دوا وابراهيم بن محمد، ودحان من أولاد كروم . وعبد الله بن محمد من أولاد لعكيد .

- ومن أولاد رزوك يعيش بن محمد، ومن أولاد العكيدان سعيد بن عبد الله وسيدي محمد بن الفقير وبلال بن عبد الله بن أعراب ويو جمع وعبد الكريم بن ديدي من أولاد عبد الله، ودحان بن موسى والخضر وأولاد عتو محمد بن جابر وسعيد بن عبو، وسعيد بن عبو، ومن الحاجج أحمد بن محمد بن دحان ومبارك بن جابر ومحمد بن العربي ومحمد بن القطيب ومحمد بن علال .

45. نص وارد في أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، ص. 174-175. ويتعلق الأمر باتفاقية تكلفية مؤرخة في شوال 1189 (1775)، وقد عقدت بين طرفين :

- مرابطو زاوية سيدي علي بن احمد الشيخ، الواقعة في خمس فزواطة بمنطقة تامگروت، ويرجع تأسيسها إلى بداية القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد)، وقد عرفت بعلاقتها مع الدولة السعدية .

- قبائل الروحة السفلات، وهي تتكون من عشرة عظام، وقد عانت طيلة القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد)، من استمرار المواجهات المسلحة مع قبائل آيت عطا التي تمكنت في النهاية من بسط سيطرتها على قصور الروحة السفلات المذكورين .

46. حول العلاقة بين الكساء والحماية، راجع الدراسة المعجمية أدناه، ص. 281.

كلهم تحملوا بالكسوة التامة سواء طال الزمن أو قصر، وتكفلوا بذلك تكفلا لازما لأنفسهم ولأولاد أولادهم ما تناسلوا. وبه كتب من شهد بذلك وهم على الصحة والطوع والجواز وفي الرابع من الأيام من شوال وبتاريخ عام 1189 هـ [1775 م].  
عبيد ربه تعالى علي بن عبد الرحمان بن علي بن محمد بن إبراهيم لطف الله به ءامين .

نص 3 : بين قصر حراطين وقبيلة رُحَل (درعة، ق 19) 47

الحمد لله

أشهدونا جماعة بني هنيث وهم المدني بن اعلي أبراهيم ومحمد ابن با حفيظ، ولحسن بن الجيلالي، والجيلالي بن حيوط كل واحد ينوب عن إخوانه أو فرقته، أنهم أعطوا لقبيلة أيت حسو ربع ما يملكون من الأرض والنخيل والدور والأملاك المرهونة والأراضي الميتة والحية والبهائم والأثاث والمنازل الموجودة داخل قطة قصر بني هنيث أو خارجها من حدود أملاك نصرراط إلى حدود أراضي خسوان ويستثنى من ذلك أملاك الشيخ محمد بن الشيخ عبد الملك بما في ذلك ما يملكه بقطة نصرراط، وأملاك الجهابلة التي لنصرراط بعد انضمامهم إلى سكان بني هنيث، وأملاك المختار بن حفصة بابني حيون ويقسم هذا الربع على أيت حسو هكذا :  
قسمتان لأيت خردوي وقسمتان لأيت بوداوود.

والقسمة الثانية مناصفة بين أيت يز وأوزايكن وقد أعطت قبيلة بني هنيث هذا الربع من أملاكها لأيت حسو رعيا لمصلحة البلاد وحماية القبيلة من أعدائها ويتعاون البربر والعرب ودرأوة في رد الأعداء.

واشترط سكان قصر بني هنيث على أيت حسو أن تبقى لهم خمسة وثلاثون تاكورا من الربع المذكور إلى أن يختار أيت حسو عتبة أخرى تجنبها لأي خصام أو مشاجرة.  
ومن شروط رسامة أيت عطا [يقصد أيت حسو] أنه إذا أراد أحد من أيت حسو بيع بعض الأملاك وغيرها فإنه يدللها ثلاث جمع وتنزل على أقرباء الرسامة وجيرانه. أما إذا لم يرد الرسامة شراءها فتباع لسكان بني هنيث ولا تباع أبدا للبراني. ومن شروط أيت حسو أيضا أن سكان بني هنيث لا يتدخلون في أمورهم داخل العتبة ولا يعطون من عشور الشعير أكثر من حلاب لكل من يسكن داخل العتبة. والذين يسكنون داخل العتبة يعطون حلاب للقبيلة إلى أن يبنوا العتبة الجديدة

47. وثيقة واردة في أحمد البوزيدي، م.س.، ص. 189-190. والنص هو في الواقع إعادة ترجمة إلى العربية لنص اتفاقية تكفلية على أساس تفويت الأرض، عقدت بين قبيلة قصر بين هنيث بكتاوة وقبيلة أيت حسو، وهي من أقوى قبائل خمس أيت واحليم، التابع لامتدادية أيت عطا. وقد سبق نشر ترجمة فرنسية للنص الأصلي من طرف بيير أزام Pierre Azam الذي شغل، في عهد الحماية، منصب ضابط الشؤون الأهلية بمنطقة تاگونيت (واحة كتاوة). ويعتبر أحمد البوزيدي أن هذا النص يمثل النموذج الوحيد المتوفر من «الاتفاقيات التكفلية على أساس تفويت الأرض بين الحراطين وقبائل أيت عطا». والوثيقة مؤرخة في رمضان من عام 1314 / 1897.

ويخرجون من القديمة.

وإذا اختار المتعاقدون مكاناً للبناء، فليس من حق أي واحد أن يمنعهم من البناء ولا يؤدون للقبيلة إلا الثامنة وقد وافق الكل على هذه الشروط.

ويبقى لسكان بني هنيث ربع الرعية، ولا يأخذ سكان بني هنيث شيئاً من تاكورتى أيت خردى. وتتخذ ثلاث تاغورات من جهة حسيان بني هنيث.

وقد وافق المتعاقدون على هذه الشروط بحضور أعيان أيت حسو وهم من أوزليكن : محمد أويدير، ومن أيت يز : باسو أوشي من أيت يشو. ومن أيت خردى : عمرو أوباقسو، محمد أوغلي، أحمداد أوباسو، محمد اويدير نايت لقازي، ومن أيت موداود موحا أوحمو أو سعيد نايت خردزي، احماذ أمحمد أو فاسكا نايت بن حمو. وقد قبض أيت حسو الربع المذكور، وأدوا علينا بقبول هذه الشروط ورضوه رضاء تاماً. وكل واحد ينوب عن إخوانه. وهم بحال كمال يتم به الإسهاد. وكتب في شهر رمضان المعظم عام 1314 هـ [1897]. عبيد ربه سبحانه محمد بن سالم بن صالح المحجراوي.

## 4. أمور

نص : عند قبائل «المغرب الأوسط»<sup>48</sup>

أمور هي الكلمة التي تستعملها الأمازيغية للدلالة على الحماية التي تُمنح للضيف، أو اللاجئ، لمن وضع نفسه في عهدة شخص معين، أو لمن يوجد في مكان يتمتع بمنزلة الحرم<sup>49</sup>. إنه إذن مرادف للعناية المعروفة عند القبائل بالجزائر. وتطلق كلمة أمور على الجزء الواقع بين الكتف والأذن. ومن المحتمل أن طلب الحماية كان يتم في الأصل وفق الصيغة التالية : «س أمور ن ك»، «بعنقك [أحمني]». فيجيب الحامي : «بعنقي، لن يقع لك مكروه». أو يقول : «سوف أحملك على عنقي، كما أحمل أطفالي، وقد أصبحت الآن من بينهم، إذ أصبحت أتولى حمايتك». وقد يقول : «إذا حصل لك مكروه، فإنني سوف أعطي عنقي كمن لعنقك».

حلت الكلمة العربية مُزْرَاك (الرمح) أكثر فأكثر مكان الكلمة الأمازيغية أمور. قد يُمنح أمور طوعاً، أو يكون مرتبطاً ببعض الأماكن والأشخاص بقوة القانون بمقتضى العرف.

## 1- أمور الممنوح طوعاً

عادة ما يستعمل الشخص الذي يطلب الحماية الصيغة التالية : «أناشدك أمورك». فيجيب الحامي : «إني أحملك».

وابتداء من تلك اللحظة، يصبح الحامي (بُو أمور<sup>50</sup>)، وبالعبارة مَوْل المَزْرَاك) ملزماً بمساعدة صاحبه وإغاثته، سواء أرفق هذا الأخير طلبه بالعار أم لم يرفقه. إن احترام عهد أمور مسألة مقدسة، ويترتب عن انتهاكه حق الانتقام لفائدة المحمي الذي كان ضحية الانتهاك. وهو انتهاك قد يتسبب في نشوب حرب : فعار القبيلة أو المجموعة يقتضي، عند الضرورة، اللجوء إلى السلاح لاسترجاع الحق المنتهك.

48. مقتطف ومترجم عن :

H. Bruno & G.-H. Bousquet, «Contribution à l'étude des pactes de protection et d'alliance chez les Berbères du Maroc Central », *Hesp.*, t. XXXIII, 1946, pp. 357- 361.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على معطيات جمعها برونو في سنة 1916 بقبيلة بني مَكِيلْد، بالإضافة إلى معطيات أخرى سجلها الضابط-الترجمان طرينكا. ومن الدراسات التي نشرها هذا الأخير، انظر :

Trenga, « Les Branès : Notes pour servir à une monographie des tribus berbères de la région de Fès », *A.B.*, 1915- 1916, fasc. 3, pp. 302- 320 ; fasc. 4 , pp. 399- 436.

49. وفي أمازيغية جنوب شرق المغرب، تعني كلمة أمور «النصيب» في القسمة.

50. عند آيت عطا، تستعمل كلمة أوتْمُوْرْت للدلالة على المحمي. ويبدو أن هذا المصطلح الأمازيغي يستعمل إلى جانب أربعة مصطلحات أخرى لتسمية الحراطين، وهي أحرطان (إحالة على اللون)، وأسوقي (بمعنى الدونية المتصلة بارتداد الأسواق)، وأخماس (أخماس بالبرية) وأودْرَا (دراوي بالبرية، ومعناه المنتمي إلى وادي درعة). انظر :

David M. Hart, *Dadda Atta and his Forty Grandsons : The Socio-political Organisation of the Ait Atta of Southern Morocco*, Wisbech, 1981, p. 213.

ومن الناحية المبدئية، لا يجوز للحامي أن يتملص من الطلب الذي قدم إليه. لكن إذا ما لاحظ الحامي في وقت لاحق، أنه منح حمايته لشخص لا يستحقها، فمن حقه أن يصرح أمام الجماعة أنه يضع أموره، وهي عملية تسمى *أسروسن ن أمور*، ومعناه حرفياً: «وضع أمور». وبذلك، يتخلص الحامي من أي التزام تجاه محميه.

وطالما لم يعد الحامي إلى وضع أموره بشكل علني، فهو مطالب بالوقوف إلى جانب محميه في كل الظروف. لكن إذا ما رفض مساعدته، فإن المحمي يقصد جماعة أخرى أو دواراً آخر، ويذبح ليطلب الحماية ضد حاميتها الذي تهاون في القيام بواجبه. آنذاك ترافق جماعة الدوار المطلوب المحمي عند حاميه، فيجمع المحمي قبضة يده ويمدها أمام حاميه ويرفع سبائته نحو السماء، وينطق بالعبرة التالية: «أحاسبك على أمورك، وأناشد مجموع القبيلة».

هذا هو ما يعرف بانتهاك الحماية: *تيرزي ن أمور*. آنذاك تفرض الجماعة على الحامي أن يعرض المحمي على الضرر الذي لحق به، فينفذ الحامي ذلك الأمر.

يولي البربر أهمية خاصة للحركة التي يقوم بها المحمي عندما يمد قبضته نحو حاميه، إذ يعني ذلك، حسب قولهم، أن *بو أمور* (الحامي) يهدد بإقامة «كركور» من شأنه أن يعلن عن خيائته أمام الملأ<sup>51</sup>.

وفي بعض الحالات النادرة، يصاب المحمي بضرر قد يتسبب فيه الحامي ذاته، وهو ما يسمى *أتوتي ن أمور*، أي سقوط أمور، حيث يتخلى الحامي عما التزم بحمله، ويؤدي أتوتي ن أمور إلى نفس النتائج التي يؤدي إليها تيرزي ن أمور.

ويلزم بو أمور بأن ينتقم للمحمي الذي تعرض للاغتتيال. ويمكن للقاتل أن يعرض نفسه للإعدام إذا ما تم التعرف على هويته، خاصة إذا حصل الاغتتيال بحضور الحامي (أمور أزوغار). وفي حالة فرار القاتل، وبعد أن تجددت الهدنة عدة مرات، يتوصل الشرفاء إلى صياغة اتفاق يرضي كافة الأطراف، فإن القاتل ملزم بأداء دية الضحية، وتعويض خسارة الحامي. ويسمى هذا التعويض *تيوزغيموين*، وتختلف قيمته من قبيلة إلى أخرى، فهي تزيد إذا ما تضررت زوجة المحمي أو أحد أطفاله. ويتم تحديد قيمة التعويض انطلاقاً من القيمة العادية التي يحددها عرف كل فخذة، ثم يضاعف العدد حسب عدد أوتاد الخيمة التي تستفيد من الحماية.

وإذا لم يتابع الحامي الشخص الذي اغتال محميه، فإن ذلك التقصير يعتبر من قبيل السلوك المشين الذي يسيء لسمعته وسمعة ذويه. فالعرف قد يسمح بأن يتهاون الحامي إذا ما اغتيل أحد أبنائه، لكنه لا يسمح بأن يتهاون في الانتقام من اغتال محميه. وإذا ما تجنب الحامي التدخل، أو صدر نفس السلوك عن عائلته أو أعيان دواره أو من الدوار نفسه، فإن سكان الدوار المجاور يقصدونهم ويلحون عليهم كي ينتقموا للإهانة الحاصلة. وإذا تشبث الحامي وذووه بنفس الموقف السلبي، فسوف

51. حول مختلف دلالات «الكركور»، راجع:

يعلن للجميع أنه سوف «يحفر قبر فلان الذي لا يحترم عهده، والذي مات». وبالفعل، يتم حفر قبر بالمقبرة إيسونْدَال، أو على جانب إحدى الطرق الكبرى، أْبْرِيد أختار، وبذلك يذاع خبر الخيانة التي ارتكبها بُوْ أمور. ومُملأً القبر بالتراب، ويَتَلو الحاضرون الفتحة، واضعين أكفهم على نحو مقلوب في اتجاه الأرض (دلالة على الفاتحة «المقلوبة»). «أواد إيْمُوث، ها نُوكمي ناندايْت»، ومعناه «لقد مات هذا، ودفناه». وبعد ذلك فكل من يمر من هناك، سواء كان رجلاً أو امرأة، سوف يرمي بحجرة داخل القبر، وسوف يحمل هذا الأخير اسم تيندلت أو ماْيُوِير، ومعناه «قبر الخائن». ويعين المكان الذي اغتيل فيه المحمي بواسطة كركور يطلق عليه اسم أْكُرُورُ أو مُغْدُورُ، أي «كركور الخائن».

## 2- أمور بقوة القانون

إلى جانب أمور الذي يمنح طوعاً، هناك شكل آخر يرتبط بقوة القانون، ببعض الأماكن والأشخاص.

### أ- أمور المرتبط بأمكنة معينة

يهم هذا الشكل الأسواق أساساً، ومن الواضح أنه يعود إلى الضرورة الاجتماعية، وإلى العار الذي قد يصيب القبيلة التي ينعقد السوق فوق ترابها، لأن «كسر السوق» يعتبر من قبيل العار.

ف عند أيت مُكْيِلْدُ، تبلغ قيمة هذا العار 200 دُورُو و200 خروفاً. وبالإضافة إلى ذلك، فإن من يكسر السوق «يتحمل عقوبة من نوع غريب، إذ يحلق رأس زوجته أمام الملاء».

وهناك حق الاحترام وطلب اللجوء، ويتمتع به كل بربري التجأ إلى بيت ما، ولو كان بيت عدوه، فالمضيف لا يمكنه أن يقبل، بدون عار، أن يقتل أحد داخل بيته.

وعند هؤلاء السكان البدائيين، لا ينبغي أن نستغرب لوجود حق الاحترام لفائدة من التجأ إلى بعض الأضرحة، كما كان الشأن في أوربا خلال العصر الوسيط. ويعرف القانون العرفي البربري كذلك أمور الأضرحة، فكما أنه يمكن للمرء أن يضع نفسه في حماية شخص بالالتجاء إلى بيته، فإنه من التجأ إلى «سيد» (أو «قبة»)، فإنه يتمتع بحمايته. فانتهاك حرمة هذا المكان يعتبر بمثابة إهانة للولي، وهي إهانة لن يتوانى هذا الأخير في معاقبتها بشكل عنيف.

### ب - أمور المرتبط بالأشخاص

المراد هنا المرأة، إذ يعتقد أن حضورها يبعد الموت ويمنح الحماية. فكل من التجأ وسط النساء يفلت من عدوه.

يُمكن للمرأة أن تمتنع حمايتها لكل من طلبها منها<sup>52</sup>، ولهذا المبدأ استثناء : فالمرأة لا يمكنها أن تمتنع حمايتها لعشيقها الذي وجد معها في حالة تلبس بالزنا، وإلا فإن ذلك سوف يحول ضد معاقبة كل حالات الزنا.

والراجح أن هذا النوع من أمور يعود إلى فكرة ظلت شائعة طوال حقبة طويلة وسط الشعوب البدائية، ومفادها أن السحر عمَل يختص بالنساء. فعند البربر بشكل خاص، كما عند العرب في القدم، تعتبر المرأة كائنًا سحرياً ومخيفاً ومقدساً.

---

52. تحكى عند القبائل بالجزائر قصة معبرة لها صلة بالمرأة والحماية. ذهب رجل عند صديقه ليطلب منه العناية. وفي غياب الرجل، وجدت الزوجة نفسها في حرج، فأعطت للزائر كلبة يعرفها كافة سكان المنطقة. وهكذا انطلق الزائر مع الكلبة باعتبارها علامة من شأنها أن تضمن له السلامة. لكن سرعان ما عادت الكلبة وحدها، وهي ملطخة بالدم. ففضب زوج المرأة، واجتمع سكان القرية، وذهبوا يتبعون أثر الحيوان، واكتشفوا جثة المسافر. وأنداك أعلنت الحرب على القبيلة التي وقعت الجريمة فوق ترابها. وسفك دم كثير، ولا زالت القرية المدانة تحمل اسم «دشرة الكلبة». راجع :

## 5. المزرّاگ

نص 1 : عند المشرفي<sup>53</sup>

وأما خفر الذمة، ويسمونه بكسر المزرّاگ، إذ المزرّاگ عندهم هي الحماية، فإن الرجل يكون في حمايته رجل آخر أجنبي، ويتعرض له أحد بإذابة من أخذ مال على وجه التعدي ظاهراً أو إهانة أو قتل، وهو يعرفه في حماية من ذكر، فإن الحامي له يقاتل عليه بنفسه وإخوته إن كان حاضراً، إلى أن يموت أو يأخذ بثأره من فاعل ذلك بصاحبه، وإن كان غائباً أو بعيداً، فالحكم عندهم معروف متفق عليه بإعطاء شيء وافر مقدر معلوم على ذلك، أي على كسر المزرّاگ زيادة على رد ما أخذه المتعدي أو قتل نفس إن كان التعدي بالقتل، فإن لم يكن لهم عرف بقدر معلوم، يجعل الحاكم لهم قدراً معيناً يعتادونه من ذلك الوقت في المستقبل أو يتفقون عليه فيما بينهم كلما وقعت نازلة مثل ذلك، يؤخذ عليها ما اتفق عليه، فإن لم يقاتل الحامي عن حمايته، وكسر مزرّاگه سقط من أعين قبيلته وحيه وذل، ولم تبق له كلمة تسمع، ولا جاه يراعى، وكذلك إن غدر المحتمي به بنفسه أو وافق على غشه بأخذ ماله أو خيانته أو قتله ويسمونه بالمعورط، وكلما ذكر يقال إنما ذلك معورط لا يقبل منه قول ولا فعل ما دام حياً. وذلك حرصاً منهم على ورود الأجنب عليهم، والمرور بأرضهم بجلب ما فيه نفع لهم من السلع، وقضاء المأرب من الأمصار على يدهم، ولا بد من حماية أحدهم للوارد عليهم من قافلة أو غيرها، ويسمون صاحبها بالكاسي، فإذا تعرض أحد لهم بإذابة يقولون له : إن فلاناً هو الكاسي لنا ونحن ذاهبون إليه أو جئنا من عنده، وهذه علامة صدقنا، بأن يظهروا له شيئاً من ملبوس معروف للكاسي أو دابة له يعرفونها أو خديم عنده أو عبد أو صبي أو امرأة من جانبه، فحينئذ لم يقدر أحد أن يسومهم بأذى لما يعرفونه من جاه الكاسي أو شجاعته وعصبيته لما يترتب على ذلك من سوء العاقبة حتى أنه يؤدي إلى قتال عظيم مدة طويلة وهكذا.

نص 2 : المزرّاگ عند زمور<sup>54</sup>.

تطبق قبائل اتحادية زمور نفس الأعراف، কিما كانت أصول السكان. تقوم بين القبائل علاقات دائمة ذات طبيعة تجارية، ولا تنقطع هذه العلاقات إلا عند نشوب الحرب بين القبائل. لا يمكن لتريب أن يدخل تراب زمور دون أن يخاطر بنفسه ويعرض نفسه للقتل، وأقل

53. محمد المشرفي، الحلل البهية، ج 3، ص. 707-708. وقد وردت الترجمة الفرنسية لهذا النص في : Georges Salmon, « Les institutions berbères », A.M., t. I, 1904, pp. 127-148.

54. مقتطف ومترجم عن : C. Querleux, « Les Zemmour », A.B., vol. I, 1915, fasc. 2, pp. 122- 123.

وحول عرف المزرّاگ، ودوره في تسهيل اجتياز منطقة الغرب من طرف التجار والقوافل، انظر : Jean Le Coz, *Le Rharb*, t. I, p. 351.

ما يمكن أن يخشاه هو أن تُسلب أمتعته وسلعه. فلكي يستطيع أن يتنقل في أمن تام، ينبغي عليه أن يطلب المزاراگ من أحد أعضاء القبيلة التي يريد التوجه إليها. فقد يقبل هذا الأخير، مقابل إتاوة تُدفع له عيناً أو نقداً، وتُسمى الزطاطة. ويرافق الحامي المسافر، أو يعين من يرافقه حتى المكان المطلوب. وبطبيعة الحال، فالحماية تختلف باختلاف مكانة الحامي ونفوذه. لكن من المعلوم أيضاً أن الرجل الذي يمنح مزاراگه يعتبر أن ذاك يلزم عرضه، ولذلك فسوف يعمل كل ما في وسعه لاحترام «كلمته»، ولو كلفه ذلك الموت.

ويتكرر نفس الطقس عندما يُقبل المسافر على اجتياز القبيلة المجاورة، ويتصور سكان المنطقة بسهولة، أن الغريب الذي ليست له تجارة ذات أهمية، سوف يعمل على تجنّب تُراب زمور، عوض أن يواجه كل هذه المخاطر.

وإذا ما رغب الغريب في الإقامة بالمنطقة، فإنه يُلزم بأن يضع نفسه تحت حماية شخص قوي ويذبح عليه خروفاً. وأنداك يأمر الحامي بإعلان اسم محميه في السوق، وينبه بذلك إلى ضرورة احترام التزاماته.

وبعد القيام بهذه الإجراءات، يمكن للغريب أن يقصد الأسواق، ويعرض بها السلع الواردة من المدينة، من أثواب وعقاقير وغيرها، ويشترى المواد الفلاحية المحلية.

تعود أهل زمور أن يجدوا بأسواقهم المواد الضرورية لمعاشهم، لذلك لم يكونوا يسافرون إلا نادراً. وكما ينتقلوا من قبيلتهم إلى أخرى، كانوا يضطرون هم كذلك إلى التفاهم مع صاحب يضمن لهم «الحماية» كي يسهل عليهم «المرور».

وفي حالة قيام علاقة دائمة بين قبيلتين، فإنهما تعقدان ما يشبه الحلف، وتتبادلان المزاراگ، وكل خرق لهذا الميثاق يؤدي عادة إلى نشوب الحرب، وفي كل قبيلة، تنسب صفة مول المزاراگ لأحد أعضاء «الجماعة»، ويعتبر مسؤولاً عن التزام المجموعة، ويضمن بذلك إخوانه.

نص 3 : آيت عطا والسلطان الحسن الأول<sup>55</sup>

الحمد لله وحده      وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم

وبعد فبالأعتاب الشريفة أدام الله سموها وخلد عزها وعلوها  
حضر أشياخ قبيلة آيت عطة السبعة والستون المذكورة أسماؤهم بمنته مع الشرفاء السبعة  
أولاد سيدي عبد الله بن حَسَائِنُ المجاورين لهم بتأزيرِ الواردين معهم من الصحراء للحضرة العالية  
بالله.

وأشهدوا إشهداً طوعياً قطعياً قلبياً أبدياً سرمدياً أنهم أبرموا على أنفسهم وبحسب النيابة  
عن باقي إخوانهم عقد تعاهد وتحالف وتعاضد دون تخالف على أن يكونوا يداً واحدة ونفساً متحدة،  
في الخدمة المخزنية والامثال لأوامرها المولوية، وسلوك طريقها المرعية، والقيام على ساق الجد في  
تففيذ كل ما يأمرهم به مولانا نصره الله في النهوض والقعود والصدور والورود والسر والجهر، والعسر  
واليسر.

والتزموا الوقوف عنده وألا يتعدى أحد منهم حده وسلوك الطرق التي تقرر لهم الإشارة  
الشريفة بالجواز عليها، إما على الطريق الاكلاوية أو على غيرها والربط على كل من أمروا بالربط  
عليهم من قبائل الصحراء ونواحيها من قريب أو بعيد مضاف لهم أو عنيد، أيام ما كانوا وفي أي محل  
بانوا والزحف إليهم بقضهم وبفضيضمهم وكبيرهم وصغيرهم والضرب لجمعهم على نحو ما يقتضيه  
النظر الشريف فيهم، وأن لا يتأخر منهم أحد، ولا يرجع عنه وإن طال الأمد معترفين أن الأمر الشريف  
(...) وعرفوا به، قد عرفوه وقبلوه ونصب أعينهم جعلوه وفي سويداء قلوبهم أسكنوه وأحلوه.

وأعطوا عهد الله بذلك وميثاقه، ومزراگهم العرفي الذي لا يحل منهم وثاقه. وألا يرغبوا في  
المشار إليهم إلا ولا ذمة، ولا يلاحظوا لهم جوار ولا حرمة طاعة أو سمعاً لمولانا أمير المؤمنين وخليفة  
رب العالمين، وألا يرجعوا على أعقابهم ولو فتوا عن آخرهم، وإبلاغ المراد في الطعن فيهم والضرب  
والقتل والسبي والنهب حتى يستأصلوا بوجود مولانا أيده الله جميعهم، ويخربوا بسطوته العزيزة  
ربوعهم ويغادروهم في الأرض حصيداً، ولا يبقوا منهم والداً ولا وليداً.

وتكفل كل منهم بباقي عظمه وفريقه، وتحمل به التحمل التام اللازم على الدوام. كما  
تعاهدوا طراً وتعاهدوا على التوجه لضريح مولاي عبد الله بن حساين والاجتماع فيه وتحديد عقد  
العهود المذكورة وما انطوى عليه من معاني بحيث لا يتخلف عن ذلك منهم إنسان ولا يحصل له  
فيه توان.

55. نص وارد في أحمد البوزيدي، «علاقة المخزن بقبائل آيت عطا على عهد السلطان مولاي الحسن من خلال وثيقة محلية»، ضمن السلطان مولاي الحسن الأول، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، الدورة السابعة، الريصاني، 1997، ص. 104 - 108.

وتوجه كاتبه آمنه الله بمنه بإذن من مولانا أيده الله صحبة المذكورين من القبيلة المذكورة إلى ضريح مولانا عبد الله بن حساين نقعنا الله به، ووصلوه وذبحوا ثوراً ببابه ودخلوا بأجمعهم واجتمع عليهم أعيان الشرفاء أولاد الشيخ وطلبوا منهم صالح الدعاء على عادة الزائرين لأضرحة الأولياء. وأجابوهم لذلك.

ثم تعاهدوا وتشابكوا الأيدي فيما بينهم وأعطوا العهد والميثاق والرزاه والسهام التي في عرف قبيلتهم أيت عطة باجددها<sup>56</sup> ومن خالفه لا يبقى ذاك معرفة عليهم، انهم كلهم وإخوانهم العلية وعند أمره ونهيه، وإذا أمرهم بأمر يأتروا به وإذا نهاهم ينتهوا. وتساقطوا إلى الأرض وكتفوا أيديهم إلى أعناقهم حتى أتى أولاد الشيخ يحلون لهم تكتيفهم وقالوا إن هذا عندهم هو الدليل على الطاعة.

والتزموا ألا يخالفوا ما يأمرهم به سيدنا ومولانا أيده الله بوجه ولا بحال وإذا أمرهم بنهوض نهضوا وإذا أمرهم بجلوس جلسوا، واعترفوا أنهم ناثبون بهذا عن إخوانهم الذين لم يحضروا وتكلفوا والتزموا بهم التزاماً تاماً، وتكفل لهم سيدي محمد بن مولاي سعيد بجميع ما قالوه من الطاعة كما تكفل لهم من الحضرة العالية بالله بالإحسان الذي هو من عاداتها من الواردين.

واختاروا أن يجعلوا الأشياخ يحملوهم<sup>57</sup> وفي رأس العام يتخلف الأشياخ وتكون في موضعهم أشياخ آخرون ولا يكون الشيخ عليهم في رأس العام<sup>58</sup> إلا بأمر مولانا أيده الله يأتون به إلى حضرته العالية صحبتهم ويكمل لهم سيدنا المنصور (...) ذلك عنهم وهم بأتمه داخل الضريح المذكور وعرف بهم في سابع قعدة الحرام ثمانية وثلاثمائة وألف.

عبد ربه محمد بن أحمد (توقيعه)، محمد المعروف بمولاي الحاج (توقيعه)  
الحمد لله أديا فثبت وأعلم به عبد ربه (توقيع غير واضح)  
أسماء الأعيان والشيخ الضامنين لهذا الالتزام

56. صيغة عامة يُقصد بها : جُودها.

57. يدل فعل «حمل» هنا على الضمان، وتستعمل كلمة الحامل للدلالة على الضامن بالنسبة لأحد مستويات التنظيم القبلي. انظر نص الوثيقة الواردة أعلاه، ص. 198.

58. الإشارة هنا إلى مؤسسة «شيخ العام». انظر :

G. Spillmann, *op. cit.*, pp. 57-58.

وفي مناطق أخرى، تستعمل عبارة شيخ الربيع (بالأمازيغية أَشْغَارَنْ تُوْگَا). انظر مثال البرانس، حيث يستعين الشيخ المذكور بمجلس يُدعى إمزز، ويسمى أعضاؤه إماساين (مفردة : أماساين). راجع :

Trenga, « Les Branès : Notes pour servir à une monographie des tribus berbères de la région de Fès », *A.B.*, 1915-1916, fasc. 4, p. 425.

## II. الزطاطة بين العرف والفقه

1. الزطاطة «في شرح العمل الفاسي»<sup>59</sup>

وَبِالزُّطَاطَةِ أَحْكَمَنَ لِمَنْ حَمَى  
وَسَوِّ فِيهَا حِصْصًا عَلَى اخْتِلَافِ  
بَغَيْرِ جِأهِ مِنْ سِلَاحِ أَشْهُمًا  
أَحْمَالِهَا وَغَيْرَهَا فَالْكُلُّ وَافٍ

الزطاطة عند الناس معروفة، وهي ما يعطاه مجيز المارة وحميهم في الطريق المخوفة، ومعنى كلامه أنه جرى العمل بحكم الزطاطة لمن يحمي المسافرين بالسلاح والشجاعة، لأنها من وجه الإجارة الجائزة، لا لمن يحمي بجاهه لحرمة ثمن الجاه.

وهذا التفصيل نقله الغبريني والشيخ أبو الحسن الصغير، حسبما في «دور» المازوني في مسائل الجعل والإجارة<sup>60</sup>. ونصه : وسئل قاضي الجماعة سيدي عيسى الغبريني عما يؤخذ على سبيل الخفير هل هو حلال أو حرام ؟ وهل يفصل بين ذي الجاه والشجاعة أم لا : فأجاب : الذي رأيت، فيما قيد عن الشيخ أبي الحسن الصغير، أنه إن كان بجاهه لم يجز، وإن كان بشجاعته وقوته جاز.

وأفتى شيخنا ابن عرفة رحمه الله بالجواز، لأنه رأى أن مشيه معهم وانقطاعه عن أسبابه وأشغاله وتركه لها ليس بواجب عليه، وإن كان أفتى بذلك لبعض مرابطي لأعراب إفريقية، وكتب له بذلك خطه، وكان يذهب بالقوافل من تونس إلى قسطنطينية وغيرها بجعالة معلومة.

قلت هذا النقل عن ابن عرفة، يشعر بأنه يقول بجواز أخذ الحامي مطلقا، ولو لم يحم بالسلاح بل بالجاه، وأن ما يأخذه إجارة لا ثمن جاه.

والذي عزي له في الشرح هو التفصيل المذكور. ونصه : الذي أفتى به شيخنا القاضي ابن مسعود رحمه الله، هو ما ذكره ابن عرفة وغيره، أنها، يعني الزطاطة، تجوز للضرورة إن كان يحمي بسلاحه. قال : فإن كان يحمي بجاهه فلا، لأنها ثمن الجاه، انتهى.

فانظره وظاهر كلام الناظم ونقل «الدرر». أنه إذا كانت الحماية بسلاح جاز أخذ ما تراضوا عليه من الجعل القليل أو الكثير. وهو الذي يأتي على أن ذلك إجارة، وأن الحماية حينئذ ليست بالجاه الذي لا تجوز المعاوضة عليه.

59. محمد السجلماسي، شرح العمل الفاسي، ج 2، ص. 377-385.

60. حول الفرق بين الإجارة والجعل عند فقهاء المالكية، انظر ما جاء في رسالة ابن أبي زيد القيرواني : «الإجارة جائزة إذا ضربا لها أجلاً وسمياً الثمن. ولا يضرب في الجعل أجل في رد أبى أو بعير شارد، أو حفر بشر، أو بيع ثوب ونحوه. ولا شيء له إلا بتمام العمل». انظر تحقيق ليون بيرشي، ص 214. انظر كذلك التسولي، البهجة في شرح التحفة، ج 2، ص. 187-189، حيث يورد المؤلف تعريف ابن عرفة للجعل بأنه «عقد معاوضة على عمل آدمي يجب عرضه بتمامه لا بعضه ببعضه».

وقد حكى صاحب «المعيار» في جواز جعل الخفير أقوالاً ثالثها إن كان قدر تعب وترك أسبابه. ونصه: وقد اختلف في الخفير الذي يمشي مع الرفقة، ويخرجها من الأمن ويدخلها إليه بجعل. فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه، ومنهم من قال: إن كان قدر تعب وتعب فرسه وترك أسبابه، لهذا فهي جائزة، وإلا فلا، انتهى من نوازل الأكرية.

وحكى في نوازل البيوع، عن الإمام القوري، اختلاف العلماء في ثمن الجاه. ونص المقصود به: وسئل الفقيه أبو عبد الله القوري عن مسألة ثمن الجاه، هل يجوز أخذه على نية التصديق به؟ وعلى الجواز، هل الأولى التصديق به طعاماً أو إصلاح مسجد وما في معناه؟ فأجاب: اختلف علماؤنا، رضي الله عنهم، في حكم ثمن الجاه. فمن قائل بالتحريم مطلقاً، ومن قائل بالكراهة بإطلاق، ومن مفصل فيه، وأنه إن كان ذو الجاه يحتاج إلى نفقة وتعب وسفر أو ترداد شيء، فأخذ أجره مثله، فذلك جائز، وإلا حرم. وعلى كل تقدير، لا ينبغي الإقدام عليه، لا لتصدق ولا لبناء مسجد ونحوهما، انتهى.

ونقل الشارح، بعدما قدمنا عنه، ما نصه: وسئل سيدي عبد الله العبدوسي عنمن يجوز الناس من المواضع المخوفة، ويأخذ منهم على ذلك دراهم، وربما يكون موقراً عند الناس، هل يجوز ذلك، أو يكون من ثمن الجاه فلا يجوز؟

فأجاب أن الذي يحمل الرفاق ليأمنوا في طريقهم يجوز بشروط:

- أن يكون ممن له جاه قوي، يعلم بمستقر العادة أن لا يتجاسر أحد على من يكون معه؛  
- وأن يكون معهم بقصد حملهم، لا لحاجة عرضت له هناك في ذلك الموضع الذي صارت الرفقة إليه؛

- وأن يتفق معهم بأجرة معلومة، أو يدخل معهم على وجه المسامحة والمكارمة، بأن يرضى ما يعطونه من قليل أو كثير. والدخول معهم على أجرة معلومة أحسن، انتهى.

زاد الشارح ما نصه: ولم يعتبر هذه الشروط شيخنا ابن سودة. وإنما كان بما تقدم، وكان ذلك في الوقت الضرورة، حيث لا يمكن شرط ما ذكر، والمخاطب بها الحامي المختار لا المحمي المضطر، لأن الضرورات تبيح المحظورات<sup>61</sup>. إلا أن اشتراط الحماية بغير الجاه مخالف لما عند العبدوسي، وكأنه نظر إلى الأصل، وإلا فقد حكم بعد بأنها ظلم رخص فيها للضرورة. وحيث كان كذلك فثمن الجاه ظلم ومحل الرخصة كما يرخص في إعطاء الرشوة لدفع الباطل<sup>62</sup>، ذكره ابن سلمون، انتهى.

فقوله: كان يحكم بما تقدم، يريد الذي أفتى به شيخنا القاضي إلى آخر ما سبق. وقوله: وإلا فقد حكم، الخ. يريد ما يأتي عنه في شرح قوله: وسو فيها حصصاً. وقول الناظم: أشهما آخر

61. حول أهمية مبدأ الضرورة في نشأة فقه العمل، راجع محمد الحجوي، الفكر السامي، ج 2، ص. 405 وما تلاها.

62. حول هذا الموضوع، يورد أحمد الوثرسي نص الفتوى التالية. «وسئل (محبى الدين النووي) عن رجل حبسه السلطان أو غيره من المتعدين وحبسه ظلماً فبذل مالا لمن يتكلم في خلاصه بجاهه أو غيره، هل يجوز؟ وهل نص عليه أحد من العلماء؟ فأجاب: نعم يجوز وصرح به جماعة منهم القاضي حسين في أول باب الربا من تعليقه، ونقله عن الفقهاء الروزي، قال هذه جملة مباحة قال وليس هو من باب الرشوة بل هذا العوض حلال كساتر الجمالات». انظر المعيار، ج 8، ص. 297.

البيت بالشين المعجمة، اسم تفضيل من شهم بالضم شهامة، فهو شهم، أي جلد ذكي الفؤاد، كما في الصحاح. والجار والمجرور قبله بدل من غير، وهو إما مضاف لأشهما، وإما متون مقطوع. وأشهما حال من الضمير في حمى، والله أعلم.

### تنبيهات

الأول : كلام الشارح هذا من قوله : ولم يعتبر، الخ قابل لأن يبحث فيه من وجوه. منها لأن صورة الحماية بالسلاح، وهي التي كان يحكم بها ابن سودة بالجواز، لم يتكلم فيها العبدوسي. والظاهر من قوة كلامه أنه إنما تكلم على صورة الحماية بالجاء، واشترط للجواز فيها الشروط المذكورة، وهي التي أطلق ابن سودة فيها المنع. ولعل قيد عدم تلك الشروط معتبر عنده، وإن لم يصرح بذلك، ولا تخالف بينه وبين الإمام العبدوسي. وتعليل المنع بقوله : لأنها، يعني الزطاطة، ثمن الجاه، يفهم منه أنها إذا انتفت العلة، وقامت قرينة على أن العوض بسبب التعب والمشقة، كخروج ذي الجاه مع الرفقة بقصد حملهم لا حاجة عرضت له، فلا يمنع الأخذ، وهذا يعني الشرط الثاني من تلك الشروط يفهم من كلام ابن سودة.

وإذا خرجت المسألة عن كون العوض ثمن الجاه إلى الإجارة، فهم الشرط الأول من اشتراط الفقهاء سلامة عقد الإجارة من الغرر، لكون ذي الجاه القوي، السلامة معه كالمحققة، بخلاف ضعيف الجاه، ففي خروجه بالرفاق مخاطرة وتغيرير بأموال الناس.

وفهم الشرط الثالث من اشتراطهم أيضا عدم الجهل بالعوضين أو أحدهما في البيوع والإجارات، والدخول على المسامحة من باب هدية الثواب، ومن باب مسألة الخياط المخالط يستخيطه الثوب، فإذا فرغ أرضاه. قف عليها صدر الإجارة من الخطاب، والله أعلم.

ومنها أن قوله : وكان ذاك في وقت الضرورة، حيث لا يمكن شرط ما ذكر. يقال فيها إذا كان موضوع الجواز عند ابن سودة هو الحماية بالسلاح، لم يحتج إلى الشرطين الأولين، وهما قوة الجاه، وكون الخروج بقصد الرفقة كانت هنالك ضرورة أم لا. وأما شرط الدخول على أجرة معلومة، أو على المكارمة، فلا بد منه، ولا ضرورة تدعو إلى الدخول على الجهالة.

ومنها أن قوله : والمخاطب بها الحامي، يقتضي تخصيص الحمى لضرورته بالجواز دون الحامي لاختياره، وليس كذلك بل الجواز عام فيهما على ما هو فرض المسألة عند ابن سودة، من الحماية بالسلاح والقوة مما يأخذه الحامي أجرة سفره وتعبه. ويؤيد ذلك نقل الخطاب أول باب الحج، ونصه :

قال سند : وأما ما يأخذه الجند على بذرقه الحجيج، ليدفعوا عنهم كل يد عادية، فقال الشيخ أبو بكر بن الوليد : هي من وجه تشبه سائر النفقات اللازمة، لأن أخذها للجند جائز، إذ لا يلزمهم الخروج معهم. فهي أجرة يصرفونها في الكراع والسلاح والزاد. وهي من وجه تشبه الظلم، لأن أصل توظيفها خوف قاطع الطريق، انتهى.

ونقله ابن جماعة الشافعي في «مناسكه»، عن الشيخ أبي بكر، وزاد عنه : وقد اتفق على

جواز استئجارهم من يخفرهم من الأعراب واللصوص، مع تجويز العذر. ثم قال : وقال البرزلي، في أثناء جواب سؤال لابن رشد : و لم يقع خلاف فيما يأخذه الحافظ من اللصوص إذا قل، ووقع الخلاف فيما يأخذه الظالم لأنه لا بد من نكته. و الحافظ ليس بظالم فيما يأخذه إن لم يكن مثلهم، وإنما هو أجبر فوجب أن يؤتمن.

ثم قال الخطاب : و البذرقة معناها الخفارة. وقال النووي : هي الخفير، وهو الذي يحفظ الحجاج ويحرسهم، و كأنها تطلق على المعنيتين. و الخفارة فسرها في المشارك بالذمة، وكذا في «الصحاح». وقال النووي : إنها جعل الخفير، انتهى باختصار في آخره. وفي أحكام ابن العربي رضي الله عنه، عند قوله تعالى : و اعتصموا بحبل الله جميعا ما نصه : و البذرقة الخفارة للقافلة، وذلك بأنه يرسل معها من يحميها من يؤذيها. قال ابن خالويه : البذرقة ليست بعربية، وإنما هي كلمة فارسية عربتها العرب. يقال : بعث السلطان بذرقة مع القافلة، انتهى<sup>63</sup>. فتأمل ذلك كله، فإني أتهم فهمي، ولعل الحق مع الشارح، ومثار بحثي عدم فهمي لكلامه.

الثاني : وقع في آخر سؤال الإمام العبدوسي المتقدم ما نصه :

ومن قال لرجل : تمضي معي إلى البلاد الفلانية، و جميع ما يصيبك في ضمانتي من قبل ذلك. فسار معه لتلك البلاد، فأخذه أهل ذلك البلد، هل يضمن أم لا ؟ فقال المجيب المذكور في جوابه عن هذا الفصل : و الضمان على الوجه المذكور في المسألة الأخرى قبل لازم، انتهى.

قلت : رأيت في آخر نوازل الوديعه والعارية من «المعيار» مسألة تقرب من هذه في التصوير، فيها المتحمل بما عسى أن يأخذه الغاصب من المتحمل له. وهي قوله : وسئل، يعني القاسبي، عن معصرة لرجلين أراد أحدهما أن يحركها، فقال له صاحبه : لا تحركها، فإني أخاف أن يغرمني السلطان، فقال له : ما كان من السلطان فعلي. فحركها، فعدا السلطان عليه، فهرب، فأخذه شريكه، فغرمه دينارين. هل له رجوع على صاحبه ؟ فأجاب، بعد أن سكت هنيهة، ورجع، ثم قال : ما يعرف أن له رجوعاً إلى صاحبه، انتهى. فانظره مع ما قبله.

وقول الناظم : و سوّ فيها حصصاً، الخ. معناه أن الزطاطة إذا قسمت على أهل الرفقة، فإنها تقسم بالتساوي على الأحمال، وإن كانت مختلفة القيم.

قال الشارح ما نصه : وقال أيضاً، يعني شيخه ابن سودة : فمن له حمل فيه عشر أواق ونحوها، وآخر فيه ألف دينار مثلاً، إن حصّة كل في الزطاطة سواء، لأنه ظلم اضطر إليه. فيرجعون على بعضهم باعتبار الدواب لا بما حملت. انتهى الغرض من الشارح.

قلت : اعتبار عدد الأحمال لا القيم، هو مختار الشيبسي. نقله البرزلي عنه بعد أن قدم أنها على القيم. ونصّه : أظن أني رأيت للمتقدمين أنهم إن علموا أنهم يجتازون الأحمال مع الإبل إن لم يعطوا ذلك، فهو على قيم الجميع. وإن كانوا لا يأخذون إلا الأحمال، و يتكون الدواب، فهي على قيمة الأحمال خاصة. ووقع بنا ببرقة، ففرضناه مرة على عدد الأحمال، لا على قيم ما فيها، وتركتنا

الظهر، وهو اختيار شيخنا الشيبيني رحمه الله. قال : لأن التطلع على ما أتى به الإنسان من التجارة، يؤدي إلى هلاكه وأخذه إن كان الحمل غالباً. ومرة فرضناه على عدد الإبل، لأن من معنا كانوا بادية من برقة. فاستحسننا ذلك لأنهم رضوا به، ولأن الخوف كان عليهم أغلب لأنفسهم وحرعهم وأمواهم، وللخوف على ما في الأحمال أيضاً، وهو وجه حسن. انتهى بنقل المازوني، في مسائل الجهاد من «درره».

ورأيت في نسختين من «مختصر» الشيخ حلولو، بدل لا من قوله : لا على قيم ما فيها لفظة ثم، وأظنه تصحيحاً من الناسخ.

واختار الشيبيني القسم على عدد الأحمال، نقله في نوازل البيوع من «المعيار». ونصه : كان الشيخ أبو محمد الشيبيني يختار أنه، يعني المأخوذ في الطريق، على عدد الأحمال لا على قيمتها. ويعلل ذلك بأنه يؤدي إلى كشف أموال الناس، ويخاف على من حملة غال من إذايته في الطريق، وأنه لحسن من الفتوى إذا كان قليلاً، وإن كان كثيراً جداً فالأولى أن يصطلحوا على أن يزداد بعض شيء على من عنده رحل غال. انتهى.

وقد اعتمد جماعة من الشيوخ اعتبار الأموال في القسم، خلاف ما جرى به العمل. قال القاضي سيدي عيسى السجستاني في نوازل، ما نص المقصود منه أن هدية الطريق حراسة للمهج والأموال من غوائله، والنفع في ذلك متفاوت بكثرة المال وقتله. فيجب أن تكون الأجرة بحسب ذلك من قلة المال وكثرته، وعلى قدر المنفعة. وقد أفتى أحمد بن نصر الداودي، في رفقة استأجرت من يحرسها خوف اللصوص والقطاع ونحو ذلك، فيخرج بهم إلى موضع الأمن، أن الأجرة على ما لكل واحد منهم من الناض والمتاع، وعلى قدر قيمة المتاع، فرب كثير المتاع قليل المؤونة، البرزلي. وكان شيخنا الشيبيني يفتي بأنها على عدد الأحمال خاصة كيف كانت، انتهى كلام سيدي عيسى. وقد وقفت على نقل ابن عات، في «الطرر» لكلام الداودي، وفي آخره : فرب متاع كثير القيمة قليل المؤونة، انتهى. ولعل هذه العبارة أصوب مما نقله سيدي عيسى.

ونقل صاحب «كتاب «المغاربة» كلام صاحب «المهذب»، وفيه ما نصه : ومنه، يعني بما اختلف في فرضه، على الرؤوس أو ما لكل الرفقة يستأجرون من يحفظهم من اللصوص، أو من يبلغهم من مكان الخوف إلى محل الأمن، وكذا ما يعطونه إلى الخفير. إلا أنه لم يحك في هذين عن الداودي إلا أنها على قدر ما لكل واحد، انتهى.

ثم إن قول سيدي عيسى المتقدم : حراسة للمهج والأموال الخ، ظاهر في أن الأجرة تضرب على الرؤوس و على الأموال. وهو الذي في شرح الزرقاني، حيث قال ما نصه : إذا أخذوا، يعني الجند على حفظ المارة، فعلى عدد الرؤوس وقدر الأمتعة والدواب، لاستواء الجميع في النفع، بالحفظ من سارق ونحوه. وأما الدال على الطريق، فإنما ينتفع به المسافر فقط، فلذلك كانت على عددهم دون أمتعتهم، انتهى.

وقال الشيخ الإمام العارف بالله تعالى، سيدي أحمد بن ناصر رضي الله عنه ونفعنا به، في «رحلته»، أن منفعة هداية الطريق، ودلالة على موارد الماء أهل الأحمال وغيرهم في الإحتياج إلى

هذين الغرضين على حد السواء، يعني فبضرب الأجرة على عدد الرووس، قال : بخلاف أجرة الخفير الذي يجيز الركب من اللصوص. فليس خوف صاحب الأحمال والسلع الكثيرة كخوف غيره، لأن المخصوص بالإذاية في الغالب هو من له أحمال و سلع، والفخير قل ما يتعرض له، سيما مع وجود غيره، انتهى.

وما تقدم في أجرة الدال من أنها على الرووس، نحوه في «درر» المازوني، ونصه : وسئل بعض فقهاء المغرب عن قوم استأجروا من يدلهم على الطريق لبلد، أهي على الجمامج أم على الأموال ؟ فأجاب : هي على الجمامج كالحراسة سواء، ولا فرق بينهما، انتهى.

فتحصل أن أجرة الدال تفرض على الرووس، ولم يتكلم الناظم عليها. وأجرة الخفير الذي يحمي القافلة، جرى العمل بها على وفق ما أفتى به الشيبيني من أنها على عدد الأحمال، خلاف فتوى الداودي و من وافقه، لكن ذكر الشيخ سيدي أحمد بن ناصر رضي الله عنه، في كتابه المذكور آخر كلامه، أن الذي عليه رأي الأعيان من العلماء، قسم بعض ذلك على الأموال المعدة للتسمية، والبعض الآخر على الرووس استحسان و مراعاة للجانبين، انتهى.

ومعنى قول الناظم : فالكل واف، أي مناب كل واحد من أهل القافلة يؤخذ منه وافيأ أي كلاماً، وإن تبلغ قيمة حملة قيمة حمل غيره، والله أعلم.

### تنبيهات

الأول : قال سيدي عيسى، بعدما قدمنا عنه، ما نصه : فإن قلت يلزم على ما ذكروا، يعني القائلين بأن الأجرة على قدر الأموال، كون الإجارة مجهولة إذ لم يعلم ما ينوب كل واحد من أهل الرفقة إلا بعد التقويم. قلت إن عقدها إجارة، لزم ما ذكر، وإن لم يعقدها خرجت على هبة الثواب. نعم إن علم ما عند كل واحد من المال، وسموا الأجرة أولاً، كانت إجارة جائزة، انتهى.

الثاني : إذا تولى بعض أهل الرفقة دفع الزطاطة رجع بالزائد فوق حصته على من حضر أو غاب من له حمل معهم، بدليل ما نقله الخطاب صدر البيوع و نصه : قال سحنون، في الرفاق وفي المغرب، تعرض لهم اللصوص يريدون أكلهم، فيقدم بعض أهل الرفقة فيضاً منهم على مال عليهم وعلى جميع من معه وعلى من غاب من أصحاب الأمتعة، فيريد من غاب أن يدفع ذلك عن نفسه. قال : إذا كان ذلك مما عرف من سنة تلك البلاد أن إعطاء المال يخلصهم وينجيهم، فإن ذلك لازم لمن غاب ولمن حضر من له أمتعة في تلك الرفقة. وعلى أصحاب الظهر من ذلك ما ينوبهم وإن كان يخاف أن لا ينجيهم ذلك. وإن أعطوا وكان فيهم موضع لدفع ذلك فما أحب لهم أن يدفعوا عن أنفسهم و أموالهم. فإن لم يفعلوا وأعطوا على ذلك شيئاً لم يرجع بذلك على من غاب من أصحاب الأمتعة، انتهى.

ومن هذا المعنى ما ذكره المازوني في «الدرر» في كبير قرية صالح على مال أهلها وأمتعتهم من قصدهم بالقتال و النهب من المحاربين. سئل عن ذلك أبو الفضل العقباني فأجاب : للرجال

الرجوع على أهل القرية بما صالح به على حفظ أموالهم وأمتعتهم، ومسألة اللصوص، يعني مسألة سحنون السابقة، ومسألة الخفير يعطى مالا على أموال التجار وأهل القافلة يشهدون بلزوم هذا، ومن علم منه أنه يخلص ماله بغير شيء أو بأقل مما ينوبه في المحاصة كان له مقال، انتهى باختصار. ونقل المسألة صاحب «المعيار» في نوازل الجهاد، ثم كررها في نوازل الصلح مختصرة.

وقول سحنون رحمه الله : وعلى أصحاب الظهر من ذلك ما يتوبهم، يريد والله أعلم إذا كان اللصوص يأخذون الدواب مع الأحمال لو لم يعطوا، بدليل ما قدمنا عن اختصار البرزلي .

الثالث : قال الشارح بعد ما تقدم : أفتى شيخنا الوالد رحمه الله، فيمن استأجر على الحمل على الدواب إلى موضع فأخذ المتاع في الطريق، بأنه إذا أخذ المتاع وبقيت الدواب فعليه الكراء. وإن أخذ المتاع والدواب فلا كراء. ونحوه لأبي عمران في «المعيار». وقال شيخنا : وأما الزطاطة على ذلك فلا تؤخذ لعدم التحصين، وأما المتاع فلا ضمان على الأجير، وإن اشترط إلا أن يضيع شرطا جائزا أو يقصر، انتهى .

بنحو هذا وقع الحكم بمكناسة الزيتون، حيث قاضيها ومفتيها الحافظ أبو عبد الله محمد بن الفاسي . وأفتى قاضي حضرة فاس، شيخنا أبو عبد الله ابن سودة، أن لهم من الكراء حصة بقدر ما عملوا، انتهى الغرض من كلام الشارح ببعض اختصار، وقد أطال في هذا المعنى . والمناسب من هذا لما في النظم هو قوله : وأما الزطاطة، إلخ .

ثم ما صدر به في مسألة أخذ اللصوص الدواب والمتاع من سقوط الكراء، هو الذي استظهر البرزلي، وقد نقل كلامه ابن هلال رحمه الله في «نوازله». ونصه : قال الشيخ الأوحدي أبو القاسم البرزلي كان يمضي لنا في الدرس أنه إذا غادر اللصوص وأخذوا الدواب والمتاع، سقط ما مضى من المسافة عن المكتري . وإليه نحى شيخنا الإمام يعني ابن عرفة، قال : ويحتمل أن يضمن ما مضى . قلت والأول أظهر لقوله في المدونة وما حمل رجل على ظهره فعطب، فلا كراء له ولا ضمان عليه، وكذلك هروب الدابة، والسفينة إذا غرقت بما فيها، لأنه من أمر الله تعالى . ورأى مالك أن ذلك كله على البلاغ، انتهى يعني كلام البرزلي .

ثم قال ابن هلال : وفي «الكافي»، ولو ضلت دابة بالمتاع، لم يكن على ربه أجر، ولا على رب الدابة ضمان، انتهى .

وكلام أبي عمران، الذي أشار إليه الشارح، هو قوله في جواب له عن مسألة أخذ العدو المركب بما فيه، أو المتاع فقط، ما نصه : إذا أخذوا المتاع دون المركب، فالكراء ثابت، كما لو سرق المتاع لصوص مسلمون أو غاصب ظلوم، لأن المتاع لم يتلف بشيء لأجل المركب، كما لو غصب المتاع في المفاوز بحيث لا يجد المكري من يكري إبله، أو يموت الراكب في المفاوز . وأما أخذ المركب بمتاعه، فيسقط جميع الكراء لأنه في السفن على البلاغ . فعطب رقبة المركب كهلاكها، وكانعدام الدار، وموت العبد . ولو بلغوا البر ولم يمكنهم النزول حتى أدركهم العدو فأخذهم فهو كسوط البحر، انتهى نقله في نوازل الإجازة من المعيار وبالله التوفيق .

## 2. خريطة الإحالة الفقهية<sup>64</sup>

من المغرب الأقصى  
 عياض، القاضي، ت 544 / 1149، رئاسة الفتوى في المغرب، مؤلف المشارك على الصحيحين  
 و«الموطأ»  
 الصغير، أبو الحسن، ت 719 / 1319، رئاسة الفقه في المغرب الأقصى، صاحب «تقييد على المدونة»،  
 وفتاوي جمعها ابن هلال  
 العبدوسي، عبد الله، ت 849 / 1445-1446، رئاسة الفتوى، شيخ القوري  
 القوري، محمد بن قاسم، ت 872 / 1468، شيخ ابن هلال والونشريسي صاحب «المعيار» من  
 شراح مختصر خليل، ألف «تقايد على المدونة»  
 ابن هلال السجلماسي، إبراهيم، ت 903 / 1497، مؤلف «النوازل»  
 الونشريسي، ت 914 / 1508، صاحب «المعيار»  
 السكتاني، عيسى بن عبد الرحمن، ت 1062 / 1652، قاضي مراكش، صاحب «النوازل»  
 ابن سودة، أبو عبد الله محمد، ت 1076 / 1666، شيخ مؤلف «العمل الفاسي»  
 الفاسي، امحمد بن أحمد، ت 1084 / 1673، قرين عبد القادر الفاسي، شيخ مؤلف «العمل  
 الفاسي»، من شراح «مختصر» خليل  
 الفاسي، عبد القادر، ت 1007 / 1680، أب وشيخ مؤلف «العمل الفاسي»، ومؤلف «الأجوبة»  
 الفاسي، عبد الرحمان، ت 1096 / 1685، شيخ مؤلف «العمل الفاسي»  
 المجاجي، عبد الرحمان، كان حيا سنة 1099 / 1687-1688، صاحب «كتاب المغارسة»  
 ابن ناصر، أحمد، ت 1129 / 1717، مؤلف «الرحلة»

من الأندلس

ابن عبد البر، يوسف، ت 463 / 1070، مالكي ذو ميول شافعية، مؤلف «الكافي في الفقه»  
 ابن رشد، أبو الوليد، ت 520 / 1126، قاضي قرطبة، شيخ القاضي عياض، مؤلف كتاب «البيان  
 والتحصيل»  
 ابن العربي، أبو بكر، ت 543 / 1148، قاضي إشبيلية، صاحب «الأحكام»  
 الطرطوشي، أبو بكر بن الوليد، ت 520 / 1162، صاحب «سراج الملوك» و«كتاب البدع»  
 ابن عات النفزي الشاطبي، أحمد، ت 609 / 1212، صاحب الطرر  
 ابن سلمون، أبو القاسم، ت 741 / 1340، مؤلف «الشافعي»، و«العقد المنظم»

64. استندت في هذا الجرد من مساعدة الزميلين المحرمين محمد المتوني وعمر بنميرة.

## من المغرب الأوسط

الداودي، أحمد بن نصر، ت 402 / 1011، صاحب شرح على «الموطأ»  
العقباني، أبو الفضل، «الامام» و«شيخ الاسلام»، ت 854 / 1426  
المازوني المغيلي، يحيى، ت 883 / 1478، صاحب «الدرر»

## من إفريقية

سحنون، ت 240 / 854، صاحب المدونة  
القابسي، أبو الحسن علي، ت 403 / 1012، إمام المالكية بالقيروان بعد ابن أبي زيد، وشيخ أبي  
عمران الفاسي  
الفاسي، أبو عمران، ت 430 / 1038، من تلامذة القابسي، صاحب «كتاب التعليق على المدونة»  
الشبيبي، عبد الله بن محمد، ت 782 / 1380، من كبار فقهاء إفريقية  
ابن عرفة، ت 803 / 1401، إمام المالكية بإفريقية في عصره، صاحب «المختصر في الفقه»  
الغبريني، عيسى، ت 815 / 1413  
البرزلي، أبو القاسم، ت 844 / 1438، ترأس الفتوى بعد الغبريني وابن عرفة، صاحب «النوازل»  
الطرابلسي، حلولو، كان حيا سنة 895 / 1489 - 1490، من شراح «المختصر»، وقد اختصر أيضا  
فتاوي البرزلي

## من المشرق

مالك، الإمام، ت 179 / 795، صاحب «الموطأ»  
ابن خالويه، ت 370 / 980  
الجوهري، أبو نصر، ت نهاية ق 4 / بداية ق 11، من أصل تركي، معجمي، صاحب «الصحاح»  
الشرازي الشافعي، أبو إسحاق، ت 476 / 1083 - 1084، معجمي، صاحب «المهذب»  
الأزدي، سند بن عنان، ت 541 / 1146 - 1147  
النووي، يحيى بن شرف، ت 676 / 1278، فقيه شافعي، صاحب «التهذيب»  
ابن جماعة الشافعي، عبد العزيز بن بدر الدين، ت 767 / 1366، صاحب «المناسك»  
الخطاب، محمد الرعيني، مغربي الأصل، ت 954 / 1547، من شراح «مختصر» خليل  
الزرقاني، عبد الباقي، ت 1099 / 1688، من شراح «مختصر» خليل

### III. ثمن الجاه

#### 1. الرشوة والمأثور المؤسس

نص 1 : الرشوة والهدية<sup>65</sup>

[الحذر من الرشوة]

وليحذر من الرشوة والهدية فإنهما يجعلان الحق باطلاً. والعدل جوراً.

[الدليل من السنة]

روى أبو هريرة قال : قال رسول الله (ص) : « لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم ». أخرجه أبو داود والترمذي وصححه النسائي .  
وعن ثوبان قال : « لعن رسول الله (ص) الراشي والمرتشي والرايش «يعني الذي يمشي بينهما» رواه أحمد، الرشوة : الوصلة إلى الحاجة، وأصلها من الرشا، الذي يتوصل به إلى الماء. قال الرمخشري. والراشي : الذي يعطي من عينه على الباطل أو يبطل الحق أو منعه، والمرتشي : الآخذ، والرايش : الذي يمشي بينهما يستزيد هذا وينتقص لهذا.

[حكم الرشوة لدفع الظلم أو للتوصل إلى الحق]

وأما ما أعطي لدفع الظلم أو للتوصل إلى الحق فغير داخل فيما ذكرنا. وروي عن جماعة من التابعين الحسن والشعبي وجابر بن زيد وعطاء أنهم قالوا : لا بأس أن يصانع الإنسان عن نفسه و ماله إذا خاف الظلم<sup>66</sup>.

[هدايا العمال غلول]

وروى إبراهيم الحربي في «كتاب الهدايا» عن ابن عباس أن النبي (ص) قال : «هدايا

65. محمد الموصلي، حسن السلوك، ص. 101-122.

66. انظر :

Béatrice Hibou & Mohamed Tozy, « Une lecture d'anthropologie politique de la corruption au Maroc. Fondement historique d'une prise de liberté avec le droit », *Tiers-Monde*, t. XLII, n° 161, janv.-mars 2000, pp. 23-24.

يورد الباحثان حالة معاصرة، لرجل أعمال مغربي بنى ثورته على أرباح التجارة الصحراوية، ثم انتقل إلى صناعة النسيج والحديد الصلب. وهو متشبع بالأخلاق الدينية، وقد أصبح في أواخر حياته من أتباع المذهب الوهابي. ومع ذلك فهو يعترف بأنه يدفع الرشوة، ومن أجل تبرير ذلك فهو يحيل على الفقه المالكي الذي يقضي باستعمال كل الوسائل الممكنة لرفع الضرر. وهكذا تستخدم المرجعية الدينية لتجعل من الرشوة نوعاً من الدفاع المشروع. ومعلوم أن الونشريسي أورد سؤالاً «فيمن احتاج إلى مدارات الظلمة خوفاً على نفسه أو ماله أو قرابته». انظر المعيار، ج 11، ص. 217.

العمال غلول»<sup>67</sup>.

[التطبيق في عهد رسول الله (ص)]

وفي الصحيحين عن أبي حميد الساعدي قال : استعمل رسول الله (ص) رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال : هذا لكم، وهذا أهدي لي . فقال رسول الله (ص) : «ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولاني الله، فيقول : هذا لكم، وهذا أهدي إلي . فهلا جلس إلى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذي نفسي بيده، لا يأخذ منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة : إن كان بغيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تنعر» . ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه وقال : «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت ثلاثاً» .  
العفر (بضم العين المهملة وبالفاء) : البياض الذي ليس بناصع .

[محاباة الولاة في المعاملة من نوع الهدية]

وكذلك محاباة الولاة في المعاملة من نوع الهدية، ولهذا شاطر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من عمالنا من كان له فضل ودين لا يتهم بخيانة، وإنما شاطرهم لما خصوا به لأجل الولاية من المحاباة وغيرها<sup>68</sup> (...).

[الواجب كف الظلم وقضاء الحوائج المباحة]

وقد يتبلى الناس من الولاة بمن يمتنع من قبول الهدية ونحوها ؛ ليتمكن بذلك من استيفاء المظالم منهم، ويترك ما أوجبه الله من قضاء حوائجهم، فيكون من أخذ منهم عوضاً، على كف ظلم وقضاء حاجة مباحة أحب إليهم من هذا . وإنما الواجب كف الظلم عنهم وقضاء حوائجهم التي لا تتم مصالحها إلا بها .

[الإهداء بعد قضاء الحاجة]

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود في سننه عن أبي أمامة الباهلي، قال : قال رسول الله (ص) : « من شفع لأخيه بشفاعة ؛ فأهدى إليه هدية فقبلها فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الربا» .  
وروى إبراهيم الحربي عن عبد الله بن مسعود، قال : « السحت أن يطلب الرجل الحاجة للرجل فتقضى له فيهدى إليه فيقبلها »<sup>69</sup> .

67. كلمة «غلول» تعني الخيانة، والمراد ب«العمال» ولاة الأمور من الحكام والولاة.

68. «قال مالك : وكان عمر بن الخطاب يشاطر العمال فيأخذ نصف أموالهم، وشاطر أبا هريرة وقال له : من أين لك هذا المال ؟ فقال أبو هريرة : دواب تناجحت وتجارات تداركت، فقال : أد الشطر. وإنما شاطرهم حين ظهرت لهم الأموال بعد الولاية ولم تكن تعرف لهم.» الطرطوشي، سراج الملوك، ص. 423.

69. السحت هو «المال المأخوذ لتعطيل الحد». ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص. 68-69.

وروي أيضاً عن مسروق أنه كلم ابن زياد في مظلمة، فردها، فأهدى إليه صاحبها وصيفاً، فردها عليه، وقال : سمعت ابن مسعود يقول : من رد على مسلم مظلمة فرزقه عليها قليلاً أو كثيراً فهو سحت . فقلت يا أبا عبد الرحمن : ما كنا نرى السحت إلا الرشوة في الحكم . قال : ذلك كفر .

### [شريك وطعام الملوک]

ودخل يوماً على المهدي أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبي شريك فقال له : لا بد أن تحييني إلى خصلة من ثلاث خصال : إما أن تلي القضاء، أو تحدث ولدي وتعلمهم، أو تأكل عندي أكلة، وذلك قبل أن يلي القضاء . ففكر ثم قال : الأكلة أخفها على نفسي؛ فاحتبس وأمر الطباخ أن يصلح له ألواناً من المخ المعقود بالسكر والعسل وغير ذلك؛ فعمل، وقدم إليه، فأكل فلما فرغ من الأكل فقال الطباخ : والله يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً<sup>70</sup>، فحدثهم شريك بعد ذلك، وعلم أولادهم، وولي القضاء . وكتب له برزقه على الصيرفي فضايقه في النقد، وقال : إنك لن تبع به بزاً، فقال : والله بعت به أكثر من البز بعت به ديني .

### [حكم أخذ أموال الناس بغير حق]

وإذا أخذ السلطان أو غيره من الولاة أموال الناس بغير حق، وقد تعذر ردها على أصحابها، فكثير من الأموال السلطانية، وعلى ورثتهم فالواجب عليه أن يصرفها مع التوبة إن كان هو الظالم إلى مصالح المسلمين، هذا قول جمهور العلماء . وإن كان غيره قد أخذها، وتعذر ردها على أصحابها، وتم إمام عادل يصرفها في مصالح المسلمين دفعها إليه، وإلا صرفها هو بنفسه إلى أهم المصالح فأهمها، ولا يدفعها إلى وال يأكلها وهذا فيه المعاونة على البر والتقوى (...).

### [الواجب تحصيل المصالح وتكميلها]

وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتبطل المفساد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع المفسدتين مع احتمال أدناهما هو المشروع .

### [جواز الأخذ على الحكم إذا لم يكن له رزق]

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن النبي (ص) قال : «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول» أخرجه أبو داود . ومفهومه جواز الأخذ على الحكم إذا لم يكن له رزق؛ وقد جوزه بعض أصحاب الشافعي بشرط ألا يكون له رزق على بيت المال، وأن يأخذ مقدار أجرة العمل .

فإن قيل فقد كان رسول الله (ص) يقبل الهدية، قيل : قال بعض العلماء بتخصيصه (ص) بذلك، وأنه ليس لأحد بعده من الخلفاء والقضاة والولاة قبولها لعموم قوله (ص) : «هدايا العمال غلول» .

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : «كانت للنبي (ص) هدية وللأمرء بعده رشوة» .  
وروي عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه يردها إلى بيت مال المسلمين، وإليه ذهب أبو حنيفة. وقال أبو يوسف : ما أهدى إليه أهل الحرب، فهو له دون بيت مال المسلمين (...).

[منزلة السلطان من بيت مال المسلمين]

وينبغي للسلطان أن ينزل نفسه منزلة واحد من المسلمين فلا يتناول من بيت المال فوق كفايته .

فقد روى البيهقي أن أبا بكر لما استخلف غدا إلى السوق، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : السوق . قال : إنه قد جاءك ما يشغلك عن السوق . قال : سبحان الله يشغلني عن عيالي . قال : ففرض له بالمعروف .

وفي «صحيح» البخاري عن عائشة قالت : لما استخلف أبو بكر قال : لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن معيشتي أهلي، وشغلت بأمر المسلمين، فيأكل آل أبي بكر من هذا المال، ويحترف للمسلمين فيه «ومعنى الحرفة : الكسب أي يكتسب لهم بقدر ما يأكل من أموالهم . وعن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : «إنما أنزلت نفسي من هذا المال منزلة ولي اليتيم إن احتجت أخذت فإذا أيسرت رددته، وإن استغنيت استعفت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف» ولم يذكر الرد . أخرجه البيهقي .

[حقوق العامل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم]

وعن المستورد بن شداد، قال : سمعت النبي (ص) يقول : «من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب له مسكناً» . قال : وقال أبو بكر : أخبرت أن النبي (ص) قال : «ومن اتخذ غير ذلك فهو غال أو سارق» أخرجه أبو داود .

وقال الخطابي : هذا يتأول على وجهين : أحدهما : أنه يباح له اكتساب الخادم، والمسكن ذلك من عمالته التي هي أجرة مثله، وليس له أن يرتفق بشيء سواها .  
والوجه الآخر : للعامل السكنى والخادم؛ فإن لم يكونا له استؤجر له مسكن مدة مقامه في عمله، وخادم يكفيه مهنة مثله .

وعن الأحنف بن قيس، قال : كنا جلوساً عند باب عمر، فخرجت علينا جارية، فقلنا : هذه سرية أمير المؤمنين ؟ فقالت : والله ما أنا بسرية، ولا أحل له، وإني لمن مال الله، ثم دخلت، فخرج علينا عمر، فقال : ما ترون يحل لي من هذا المال أو من مال الله ؟ قال : قلنا أمير المؤمنين أعلم . قال : إن شئتم

أخبرتكم، ما أستحل منه، ما أحج وأعتمر عليه من الظهر، وحلتي في الشتاء، وحلتي في الصيف، وقوت عيالي وشبعي وسهمي في المسلمين.

[للوالى أن يأخذ من بيت المال قدر كفايته]

قال معمر : يجوز للوالى أن يأخذ من بيت المال قدر كفايته من النفقة والكسوة له، ولمن تلزم نفقته، ويتخذ مسكناً وخادماً.

[أجر القاضي]

وكان شريح يتخذ على القضاء أجراً.

قال الشافعي : «ينبغي للإمام أن يجعل مع رزق القاضي شيئاً لقرطاسه»  
وكان ابن مسعود يكره لقاضي المسلمين أن يأخذ أجراً أو عمالة.

نص 2 : القاضي ومسألة الرشوة<sup>71</sup>

(فصل). ويلزم القاضي أمور (منها) أنه لا يقبل الهدية وأن كافأ عليها أضعافه، إلا من خواص القرابة كالولد والوالد والعمة والخالة وبنات الأخ وشبههم لأن الهدية تورث إذلال المهدي وإغضاء المهدي إليه وفي ذلك ضرر القاضي ودخول الفساد عليه. وقيل إن الهدية تطفئ نور الحكمة. وقال ربيعة : إياك والهدية، فإنها ذريعة الرشوة. وقال محمد بن عبد الحكم : لا بأس أن يقبلها من إخوانه الذين كان يعرف له قبولها منهم قبل الولاية. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقبل الهدية من إخوانه. وقيل لا يسوغ له قبولها منهم ذكره المازري. وأجاز أشهب قبولها من غير الخصمين إذا كان صديقاً وكافأه عليها أو كان قريباً.

وقال سحنون : لا يقبلها إلا من ذوي رحم.

ولابن سحنون عن مالك رضي الله تعالى عنه : لا ينبغي لأمر ولا لعامل صدقة أن ينزل على أحد من أهل عمله، ولا يقبل له هدية ولا منفعة فإن فعل لم ينبغ لمن معه أن يأكل من ذلك ولا يأكل الساعي إلا من رأس ماله.

وقال ابن حبيب : لم تختلف العلماء في كراهية الهدية إلى السلطان الأكبر وإلى القضاة والعمال وجباة المال. وهذا قول مالك ومن قبله من أهل العلم والسنة.

وكان النبي (ص) يقبل الهدية، وهذا من خواصه (ص)، والنبي (ص) معصوم مما يتقى على غيره منها. ولما رد عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه الهدية، قيل له : كان النبي (ص) يقبلها. فقال : كانت له هدية، ولنا رشوة، لأنه كان يتقرب إليه لنبوته، لا لولايته، ونحن يتقرب بها إلينا لولايتنا.

وقال (ص) : يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية، والقتل بالموعظة، بقتل البريء ليتعظ به العامة.

(فصل). قال المازري : وأما الارتزاق من بيت المال فإن من تعين عليه الفقهاء وهو في غنى عن الارتزاق منه فإنه ينهى عن أخذ العوض على القضاء لأن ذلك أبلغ في المهابة وأدعى للنفوس إلى اعتقاد التعظيم والجلالة.

وإن كان القضاء لم يتعين عليه وهو محتاج إلى طلب الرزق من بيت المال، ساغ له أخذ

ذلك.

71. إبراهيم ابن فرحون، تبصرة الحكام، ج 1، ص. 22-24.

وفي «مفيد الأحكام»، قال أصبغ : ولا ينبغي له أن يأخذ رزقه إلا من الخمس، أو من الجزية، أو من عشور أهل الذمة.  
(مسألة). وكذلك الشهود لا يجوز لهم قبول الهدية من أحد الخصمين، ما دامت الخصومة بينهما.

(مسألة). وفي «الطرر» لابن عات قال ابن عيشون : أجاز بعضهم إعطاء الرشوة إذا خاف الظلم على نفسه، وكان الظلم محققاً.

(مسألة). قال ابن عبد الغفور : وما أهدى إلى الفقيه من غير حاجة فجائز له قبوله، وما أهدى إليه رجاء العون على خصمه أو في مسألة تعرض عنده رجاء قضاء حاجته على خلاف المعمول به، فلا يحل له قبولها، وهي رشوة يأخذها.

وكذلك إذا تنازع عنده خصمان فأهديا إليه جميعاً أو أحدهما يرجو كل واحد منهما أن يعينه في حجته أو عند حاكم إذا كان ممن يسمع منه ويوقف عنده فلا يحل له الأخذ منهما ولا من أحدهما.

(ومنها) أن لا يعتكف لأنه لا يقضي بين الناس في اعتكافه، من «مفيد الأحكام».

(ومنها) أنه لا يحضر وليمة إلا وليمة النكاح الحديث ثم إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل والأولى له اليوم ترك الأكل لأن في المسارعة إلى إجابة الدعوة و التسامح بذلك مذلة وإضاعة للتصاون وإخلاقاً للهيبة عند العوام، قاله ابن المناصف .

وفي «المتيطية»، قال أشهب في المجموعة : لا بأس أن يجيب الدعوة العامة إن كانت وليمة أو صنيعاً عاملاً لفرح. فأما أن يدعى مع عامة لغير فرح، فلا يجيب، وكأنه إنما دعي خاصة وكان ذلك لأجله. وقال سحنون : يجيب الدعوة العامة دون الخاصة، وتنزهه عن الدعوة العامة أحسن، إلا أن يكون لأخ في الله وخاصة أهله، أو ذي قرابة. وكره مالك رحمه الله لأهل الفضل أن يجيبوا كل من دعاهم...

نص 3 : الولي والهدية<sup>72</sup>

وأما رفع همته عن الخلق، فإنه رضي الله عنه في غاية من الانقطاع عنهم إلى الله سبحانه، لا يرجو إلا أفضله وإحسانه قد أعرض عنهم لما أقبل على مولاه وخلفهم فيما خلف وراءه لا يبالي بإقبال منهم ولا بإعراض ولا بسخط ولا بتراض سواء المقبل والشارد والمقارب والمباعد والذام والحمد والمقر والجاحد لا ركون له إليهم ولا معرج له عليهم غني منه بمولاه واكتفاء بما فيه تولاه لا يوالِيهم ظاهراً كما لا يشارِكهم فيما هم فيه باطنا قد قطع عنه منتهم بمرّة، ونبذ كل أحد نفعه وضره. فلا يقبل من أحد كائناً من كان، من قريب أو بعيد، قليلاً ولا كثيراً، ولا جليلاً ولا حقيراً. حتى لا يقدر أحد أن يسومه بعطية ولا بهدية، لا غني ولا فقير. وصار يضرب به في ذلك المثل.

وقد قال يوماً : لا يأخذ من يد المسكين إلا قليل الحياء، ولا يأخذ من يد الغني إلا ساقط الهمة. على هذه السيرة نشأ رضي الله عنه، وتلك حاله من لدن صغره، ولم يزل على ذلك إلى الآن سنة اثنتين وتسعين وألف.

وربما رأيناه اليوم قبل الشيء اليسير من يد بعض المساكين أهل النية والحسبة الذين يعلم طيب مكسبهم، جبراً لقلبه، وإقبالا عليه ليقبل على ربه. ثم يعطي ما أخذ منه، ولا يغفل عن مجازاته الظاهرة بعد ذلك، فيجمع له بين الإحسان الظاهر والباطن.

فلا تجد لأحد عليه منة في شيء من الأشياء، ويتمنى الإنسان أن يقضي له حاجة في شراء شيء أو تناوله، فما يجد لذلك سبيلاً ولا يستطيعه، بل يعاني أموراً كلها بيده، ويتحرز بمن يريد معاطاته معه، وإن لم يشعر بأحد حتى قضى له شيئاً كافأه، وقضى له أمثال ذلك، ودعا له، لا يعول على أحد في إعانتة ولا قضاء حاجة.

وَأَمَّا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَأَحَدُهَا مَنْ لَا يَعُولُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ

وهذه الزاوية التي هي محل ذكر الله تعالى وعبادته، وقدر مشترك بين سائر أهلها الملازمين لها، ومسجد من مساجد الله، يقيمها منذ نشأ ما تحتاج إليه من حصر وزيت، وإصلاح إن احتاجت إليه. لا يحوج أحداً إلى القيام بشيء من ذلك، ولا يأخذ من ناظر الأحباس، ولا ممن يهدي لها منة غير أهلها شيئاً ممن تلحقه منته.

وأرسل إليه مرة بعض كبراء الدولة بمصاييح يستصبح فيها في الزاوية، فردها عليه وقال للرجل الذي جاء بها : إن الزاوية قد كفت، ففي كل علاقة مرتبطة بسقفها مصباح. فاذهب بها إلى بعض المساجد التي ليس لها من يقوم بها، واجعلها هنالك. فرجع الرجل من حيث جاء.

72. عبد السلام القادري، المقصد الأحمد، ص. 135-143. وقد انتقينا الفقرات التالية من الباب الذي يحمل عنوان : «في علو همته وورعه وزهده وحرية».

وأمر عام أول، وهو عام إحدى وتسعين وألف، بحفر بئر بها، ليشرب الناس بها زمن المصيف ماء بارداً. فوكل بها من يقوم بأمرها ويدفع الأجرة لمن يحفرها. فكان إذا رام أجنبي أن يتطوع بحفر أو نحوه، حمله على أخذ الأجرة حتى يأخذها، حتى أم عملها من عنده. فجيء بسطل من نحاس، وأعد هنالك لتسخين الماء زمن الشتاء. فهو يوقد تحته الفحم ليلاً ونهاراً، ودواماً واستمراراً، والناس من أهل الزاوية وغيرهم يتوضأون بالماء الساخن منه مدة أيام البرد من شتاء وربيع، إلى أن يأتي المصيف، ينفق ذلك من عنده، ويقومه من ماله، وربما تبرع بعض أهلها بما يوقد هنالك فلا يمنعه.

وكان في هذه الأيام يبنى بداره بعض بيوتها، ويصلح بعض حيطانها، فيريد بعضهم أن يتطوع بشيء من الخدمة مع البنائين. فلا يتركه، ويوصي من يوكله على الوقوف مع البنائين بذلك. وأشرف يوماً على البنائين، فوجد بعض الناس يخدم معهم، فغضب ورجع، ولم يدخل الدار. فقيل له: إنه يخدم بالأجرة، فزال ما به. وهذه عادته في كل شيء من محاولاته ومناولاته.

وقال له يوماً بعض أصحاب الشيخ سيدي محمد بن محمد الوردغتي: ذهبت إلى بعض إخواننا في الله أستسلمه قمحاً، ففرح بي، وفتح مطمورة له، وأعطاني ما شئت من القمح. وقال لي: متى احتجت شيئاً منه فهو لك، وأنا وأنت فيه سواء. فقال له سيدنا أحمد: ذلك يصلح به ولا يصلح بك، إلا أن تجازيه أضعاف من ذلك.

تأبى همته رضي الله عنه أن يكون لأحد عليه منة أو يد، فلا يريد إلا أن يعطي الناس ولا يأخذ منهم، ويعينهم ولا يستعين بهم، عملاً بقوله (ص): اليد العليا خير من اليد السفلى، وتخلقا بأخلاق الصوفية رضي الله عنهم، حيث لا يقبلون منة أحد، إذ قالوا: من أسدى إليك معروفا فأنت أسيره، ومن أسديت إليه فأنت أميره، ومن استغيت عنه فأنت نظيره.

ولهذا لا يقبلون الهدية إلا من أذن لهم فيها مع إباحة أخذها وقبول النبي (ص) لها ذلك بأنهم ليسوا كهيئته (ص)، إذ لا منة تلحقه (ص) من أصحابه في ذلك، إذ هو (ص) سيدهم ومولاهم، ووالي المؤمنين من أنفسهم، وله عليهم في كل شيء المنة التي لا تجازى ولا تكافى، إذ لولا جوده ما كان جودهم، ولولا وجوده ما كان وجودهم. هذا مع عظيم ما ملك قلوبهم من عظيم المحبة له (ص)، وكثير المودة التي لا يبقى معها ما يتطرق له ولهم من الأوهام، ومع اتصافهم بالمعرفة، وبيع نفوسهم في ذات الله وفي مرضاة رسول الله (ص).

ولذا قيل: إن قبول الهدية من خصائصه (ص)، وإنها في حق غيره ذريعة للرشوة، وإنها تطفي نور القلب، حيث لا يتمكن أخذها من الصدع بالحق لمهديها. هذا بالنسبة لمن يتوسم فيه النية الصالحة من أهلها، فما ظنك بمثل هذا الزمان، ونية غالب أهله التي يستقيم معها قبول شيء منهم لفسادها بكثرة ما يقصدونه من الأغراض الدنيوية.

وسئل سيدنا أحمد رضي الله عنه يوماً عن سبب عدم قبول الهدية مع أن النبي (ص) كان يقبلها فقال كانت الهدية هدية واليوم صارت رشوة فإن الناس اليوم إذا أهدى أحدهم لأحد شيئاً أو قضى له حاجة مكث قليلاً ثم جاءه يطلب منه قضاء حاجة أو غرض وإنما يهدون لذي جاه ومن لم يكن له جاه ديني ولا دنيوي لا يهدون له أبداً.

وصدق رضي الله عنه، فإن الناس اليوم، كما هو مشاهد من حالهم، لا يعطون شيئاً بقصد المودة والإيحاء في الدين الذي هو معنى الهدية، وإنما يعطون لغرض لفساد نيته كما قدمناه، كما فسد العمل عندهم في كثير من المسائل التي لها أصل في السنة، ثم انحرفت بسبب ما يخالطها أو يترتب عليها إلى بدعة أو معصية، كالولائم والوساطات المسماة عند الناس بالمشيخة ونحوهما .  
وقد نظم منها بعضهم تسع مسائل فقال :

تَسْعُ أَيْ مِنْهَا أَوْلَسُوا الْأَ	خُلَامَ وَالْهَمَمِ السَّنِيَّةَ
إِلَّا يَحَالَ ضَرُورَةٌ	تَزَعُّوَالِهَامَعَ حُسْنِ نِيَّةِ
هِيَ الشَّهَادَةُ وَالْوَسَا	طَةُ وَالْحُكُومَةُ فِي الْقَضِيَّةِ
وَكَذَا الْإِمَامَةُ وَالْوُدِيَّةُ	وَالْتَعَرُّضُ لِلْوَصِيَّةِ
ثُمَّ الْإِجَابَةُ لِلطَّعَامِ	وَاللُّوْلَائِمِ وَالْهَدِيَّةِ
فَسَدَ الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ	إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الْبَرِيَّةِ

وهذه المسائل كلها لا يعرج عليها سيدنا أحمد رضي الله عنه، ولا يوافق على شيء منها. فلا يجب أن يتحمل الشهادة، ويتخرج من حملها، وما شهد في شيء قط فيما علمت، إلا أن يسأل عنها في ما اتفق له رؤيته وعلمه فيؤديها، وإن وجد من يؤديها غيره اقتصر عليه، ولم يرد أن ترفع إليه، ولا أن يعول فيها عليه .

ولا يجب الوساطة و يقول لمن يقصده لأجلها ويريد أن يوجهه إليها لست أهلاً لذلك وربما يتوسط لإصلاح ذات البين في أمر مالي أو غيره إذا قصده في ذلك أحد من الشرفاء أو ذوي رحمه أو نحوهما فيذهب منفرداً أو يأتونه فيصلح بينهم لكنه لا يكلف أحداً إسقاط حق لأحد وبنه على أن ذلك لا ينبغي وأنه لا يحسن إلا أن يكون صدر عن صاحب الحق ابتداء وعن نشاط منه.  
ولا يؤم أحداً أبداً إلا أن يكون في بعض أجنته مع أناس لا يجد فيهم من يؤمه ولا يجب من يتبادر للإمامة ولا من يجب أن يتصدى لها حتى أمه ربما يريد أن يقدم أحداً في بعض الأحيان فيفهم منه محبة ذلك التقديم فيتنكبه و يقدم غيره .

ولا يأخذ الوديعة من أحد هو ولا من يواليه فما دخلت داره وديعة أحد قط بل تجده يحذر منها ويشدد النكير في ذلك غاية وبين الآفات والمحذورات التي تترتب عليها ويحكي عن أبيه الشيخ سيدي محمد أنه كان يحذر كثيراً من ثلاثة أمور الأمانة والضمانة والهريانة يعبر عنها بهذه الألفاظ الثلاثة ويأبى أن يكون وصياً على أولاد أحد ومقداً عليهم ويحض على ترك ذلك ويشير على من استشاره في قبول ذلك أن لا يفعل وقدمه على أولاده عند موته هذه السنين بعض أصحابه فأبى أن يقبل ذلك وامتنع منه غاية الامتناع مع ما لهذا الرجل به من الموالة الأكيدة فتولى ذلك غيره من أهل الثقة والحزم في الدين وكفاه الله مؤنته .

ولا يأتي وليمة أحد لأن الناس في هذا الزمان يدعون لها الأغنياء ويتركون الفقراء فكان طعامهم بسبب ذلك شر الطعام كما ورد في الحديث فترك نفسه منه لأجل ذلك ولما يلبس صاحبها من الفشرة غالباً ومن أمور منكرات آخر فصار الناس لا يدعونه لها أبداً لما يعلمون من حاله .

وقد ذكر لنا رضي الله عنه أنه حضر في أول أمره طعام ختمة لبعض جيرانه دعني إليه فجيء باللوح إلى الفقهاء يكتبونه على عادتهم فجعل بعض أعيانهم يضحك مع بعض من رجل لم يحسن رسم كلمة كتبها فقال سيدنا أحمد في نفسه أهكذا يكون الناس في مثل هذه الولايم وعقد في نفسه أن لا يحضرها أبداً فما حضر من يومئذ شيئاً منها.

وأما ورعه رضي الله عنه فمنه استمراره على ترك هذه الأمور التسعة المذكورة ومداومته على اجتنابها لما بداخلها من الأغراض الفاسدة غالباً ويشوبها من الأمور المنكرات أو الشبيهة بالمنكرة كما ذكرنا فكان التنزه عنها علواً في الهمة وورعاً في الدين إذ الورع ترك ما لا يريبك إلى ما لا يريبك . ومنه شدة احتياظه في معاملاته ومناولاته من بيعه وشرائه وسائر تصرفاته فيما يتعلق به وبأولاده ومن له ارتباط به بالغاً في ذلك الغاية وواصله فيه النهاية.

فإذا ذهب إلى السوق ليشتري شيئاً لا يترك من ينقصه من قيمته وإن ظن أنه أرخص له فيه وفي له قيمته وزاده مخافة أن يكون ذلك لأجل ديانه وإذا تحقق ذلك منه لم يأخذه البتة، بل إذا علم أن أحداً من شأنه فعل ذلك ترك الشراء منه.

وإذا وجد زحمة على لحم أو غيره لم يحب أن يتقدم على أحد ولو علم محبة كل من حضر لذلك ولا يحب من يقدمه عليه . وإذا قدمه أحد عنه ترك ما أراد شراءه منه ولا يريد أن يرجحه أحد في الميزان شيئاً وإن أرجحه نهاه وأمره بالتسوية حتى إذا ساءه أخذه .

وإذا ناب عنه أحد في الشراء أو صاه أن لا يقبض للبائع شيئاً من الثمن كما يفعله غالب الناس اليوم، لاسيما في المبيعات الكبيرة الثمن.

ومن شأنه أن لا يشتري سلعة ممن يعلم حاله التخليط في مكسبه وماله أو ما يظن به ذلك وكذلك لا يبيعهها منه ولا ممن يعلم أنه يخالط أحداً من أهل الجانب المخزني مخافة أن يكون نائباً عن صاحبه في شرائه أو يكون اختلط ماله بماله وقد أتاه بعض التجار بدواء جاء به من بلاد الهند وضعه هنالك له فأبى أن يقبله إلا بالثمن وأخذه منه بقيمته ثم سمع بأن الأتي كان يخالط بعض أهل الرئاسة في معاملاته فرد عليه ذلك الدواء مع شدة احتياجه إليه وعدم وجوده في هذا القطر .

واشترى له مرة رجل بظهر الغيب شجرة عظيمة لعصر الزيت بمصرته، اقتطعت لأناس من عرصه ورثوها من أبيهم، وكان ابن عم أبيهم رئيساً قائداً . فلما أبلغه الخبر، وذكر له عن اشتراها، تركها وأبى ذلك الشراء، وقال : فيه دخن (...).

ولقد استشرته في هذه الأيام في دار كان اشتراها بعض قواد الرماة بمال طلبه من السلطان، ومات عنها، فورثها عنه ورثته، وأرادوا بيعها . فلما ذكرت له ما أردت من شرائها، حيث مست الحاجة لدار سكني، ولم يتيسر غيرها، قال لي : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم . وجعل يشدد في شأن مرتكب التأويلات والرخص لنفسه،

ويذكر أن ذلك في حق طلبة العلم، ومن يقتدي به أشد. فقلت له : يا سيدي صدقت، ولكني ما ارتكبت الورع قط. فقال بعض من حضر : تذهب إلى بائعها لعلنا نجد تيسيراً. فسكت، ثم ذهب ذلك الحاضر من فوره إلى ربها، فما انقلب عنه إلا مشترياً لها نيابة عني. فلما علمت بذلك، جثته فقلت له : يا سيدي، إنني قد اشتريت الدار. فقال لي : اللهم خر واختر. فقلت له : يا سيدي فات محل الاستخارة، ولم يبق إلا دفع الثمن (...).

ومن ورعه أنه رضي الله عنه أنه يتقي أكل طعام الناس كائنين ما كانوا، إلا من أيقن بتحريمه الحلال وصفاء معاملته من المتشابه، كبيع الموالين له من الأصحاب، ولا يتفق له ذلك إلا نادراً، كما إذا جلب أحدهم طعام وليمة للزاوية وقد حضر فيها، فيأكل منه لقيمات أو نحو ذلك. ولا يأكل طعام من لا يعرفه، أو جهل حال مكسبه. وقد كنت معه في بعض زياراته لسيدي عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به، وسيدي أحمد اليميني رضي الله عنه حاضر. فأتني بلحم بقر أرسله إليهم بعض الشرفاء العلميين كان قد أتى ببقرة لضريح الشيخ وذبحها هنالك، وأضاف بها الزائرين وفرقها فيهم. فسأل سيدنا أحمد رضي الله عنه بعض من حضر عنه كيف مكسبه، وهل يخالط أهل المخزن، فقليل له إنه يتكسب، وليس عنده إلا خالص ماله. فقال : لعله قصد الصدقة على المساكين فيما أتى به لضريح الشيخ، وأبى قبوله وأكله...

ومن ورعه رضي الله عنه، أنه لا يأخذ شيئاً من يد من لا يأكل بالورع، ولو كان تافهاً، ومن غير المأكل والمشرب، ولا يستعير شيئاً يحتاج إليه من الآلات أو غيرها ممن لا يتقي الحرام، ولا يتحافظ في مكسبه. كل ذلك لا يفعله، ولا يحب من يفعله (...).

## 2. السلطة والاستعارة

نص: رسالة السلطان سليمان إلى أهل فاس<sup>73</sup>

بسم الله الرحمن الرحيم      وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

إلى أهل فاس

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته و بعد،

فإن العثماني باصطنبول، وأمره يمثل بتلمسان والهند واليمن، وما أراه قط، ولكن أمر الله يمثلون. يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . وكان (ص) لا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح .  
وتعلموا أن العمال ثلاثة :

- عامل أكل السحت<sup>74</sup>، ووكله الغوغاء والسفلة .

- وعامل لم يأكل، ولم يوكل غيره، وانتصف من الظالم .

- وعامل أكل وحده، ولم يوكل غيره<sup>75</sup>.

فالأول تحبه العامة والسفلة، ويبغضه الله والملائكة والسلطان والصالحون .

والثاني يحبه الله، ويكفيه ما أهمه من أمر السلطان وغيره .

والثالث كعمال اليوم، يأكل وحده، ويمنع رفته، ولا ينتصر للظلم. فهذا يبغضه الله،

ورسوله، والسلطان، والناس أجمعون .

وهذا معنى حديث «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما بأيدي الناس يحبك الناس»،

وحديث «العمال ثلاثة» .

فلو كان للصفار مائدة خمر وطعام يأخذه من الأسواق، ويتغذى عنده ويتعشى السفلة

والفساق، ويدعو اليوم ابن كيران، وغدا ابن شقرون، وبعده بنيس وابن جلون<sup>76</sup>، ويفرق عليهم من

73 . أكتنوس، الجيش العرمرم، ج 1، ص. 308-309.

74 . السحت هو المال المأخوذ لتعطيل الحدة. انظر أعلاه، ص. 220.

75 . كتب شارح رسالة السلطان، البازيغي السالف الذكر : «والحديث العمال ثلاثة الخ المروي في ذلك أثر عن عمر رضي الله عنه أطلق عليه لفظ الحديث حقيقة لغة مجازاً عرفاً ونصه : قال في هداية من تولى للرجاجي قال عمر رضي الله عنه الأمراء أربعة. أمير قوي ظلف الدنيا نفسه وعماله فذاك كالجهاد في سبيل الله يد الله بأسطة عليه بالرحمة. وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وارتع عماله لضفه فهو شفا هلاك إلا أن يرحمه الله تعالى. وأمير ارتع نفسه وظلف عماله فذاك الحطمة فهو الهالك وحده. وأمير ارتع عماله ونفسه فهلوكوا جميعاً فقوله ظلف كفه ومنعها». ويتوقف الشارح عند استعارة تتصل بموضوع الأكل. « وقوله ارتع نفسه وعماله أي جعلهما راتعين في الأموال كالدواب في الحصب والكلاؤ فيه تشبيه النفس والعمال بالدواب استعارة بالكناية وإثبات الارتعاع استعارة تخيلية (...). وقوله فذلك الحطمة وردت في لسان العرب لمعان من جملتها الداعي الضلوم للماشية بهشم بعضها وبعضاً ومنه شر الدعاء الحطمة وهو اللائق هنا فيكون في الكلام تشبيه بليغ (...). انظر النص الوارد في الزباني، م.س، ص. 196 / أ- 196 / ب.

76 . تشير إلى أن هذه الأسماء إلى كبريات عائلات البورجوازية التجارية. ومن الملفت أن اسم ابن جلون يحيل في سياق الرسالة على الطالب ابن جلون الذي سوف يكون من قادة الحركة التي أعلنت في وقت لاحق إقالة السلطان سليمان وبيعة الأمير إبراهيم بن اليزيد. انظر أكتنوس، م.س، ص. 218.

الذعائر، لأحبوه وما قاموا عليه. وما دروا أن أولئك التجار بهم تعمر المدن، يجلبون إليها الأقوات والضروريات.

ولو أردت النصيحة لله ورسوله ولأمير المؤمنين، لقدم علينا ثلاثة منكم، أو ذكرت ذلك لولدنا مولاي علي أصلحه الله فأخبرنا بذلك<sup>77</sup>.

وأقول للصفار : إن الكلاب لا يتهاوشون إلا على الطعام والجيف. وإذا رأوا كلباً لا شيء أمامه، لا تعرج عليه. وإن رآته يأكل، فإن هو تعامى وشاركهم فيما يأكل، أكلوه معه وسكتوا. وإن هو قطب وجهه وكشر أنيابه، تراموا عليه، وغلبوه على ما بين يديه.

وهذا الصفار لم يتقي الله، ولم يزهّد الزهد الذي ينصره الله به، ولم يلاقي الناس بوجه طلق وبطرف ما يأكل، فسلبهم الله عليه.

ولما رأى يوسف بن تاشفين النعمة التي فيها ابن عباد، قال : أكل أصحابه وأعوانه مثله. فقالوا : لا. فقال : إنهم ييغضونه ويسلمونه للمكاره لاستبداده دونهم.

ولتغيير المنكر شروط، وما يعقلها إلا العالمون. وكم مرة قلنا لكم : العلماء هم ينكرون ما ينكر، ويعلموننا بما كان. ولكن الجلوس بلا شغل، والفراغ، وعدم حمد الله حملكم على ما يحرم عليكم الكلام فيه<sup>78</sup>.

### إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَّةَ<sup>79</sup> مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَةٍ

وأما بيت مال الله والأحباس، فالله حسيب من بدل. وقد كنتم تتكلمون على المكس والحريير والقشينية وغير ذلك، فأراحكم الله من ذلك<sup>80</sup>. وانظروا لمن تعرفونه من الملوك والعمال<sup>81</sup>.

وأما الفسق، فعادة وديدان كل من قام في الفتنة. وكم مرة أردت قطعه، فلم أجد إليه سبيلاً، لأن جل كباركم بالمصار والعرضات. وإنما كنت أولى عليكم البراني، لأنهم لا يحسدونه، وإن أكل وحده. والحاسد يريد زوال النعمة عن محسوده. أو التجار، لأن التاجر لا يطمع في مال أحد، ويكفيه الرفعة والجاه لنمو ماله وتجارته<sup>82</sup>.

77. هو ابن السلطان، وخليفته بفاس، وهو الذي قرأ رسالة السلطان التي نحن يصدها، وذلك «في المسجد الذي بباب داره بزقاق الحجر...». الناصري، الاستقصاء، ج 8، ص. 149.

78. خصص المؤرخ الزباني كتاباً للتبديد بالفقهاء والعلماء الذين انخرطوا في حركة معارضة السلطان سليمان في وقت لاحق. راجع تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء، مخط، خ.ع.ر، ك. 241.

79. الجِدَّةُ : الغنى والترف.

80. حوّل حذف المكوس، انظر : محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص. 94.

81. يقول المؤرخ أكتسوس أن السلطان عبد الرحمان بن هشام خالف عمه سليمان الذي كان يكثر من إقالة العمال عند اشتكاهم الرعية منهم. انظر م.س، طح، ج 2، ص. 56، 59.

82. تذكر هذه الصيغة بتحليل ابن خلدون لدور الجاه في تنمية المال. انظر أعلاه، ص. 187. وراجع كذلك مقالنا «المدينة الخلدونية بعد عصر ابن خلدون»، ضمن أعمال الندوة المنشورة بالمدينة في تاريخ المغرب العربي، الدار البيضاء، 1990، ص. 133-145.

وانظروا ما أجبتمكم به، وما كتبتم لنا به، واعرضوه على فقهاءكم . فمن قال الحق منا، ومن قال الباطل أخذتم بحظكم من الفتن .

سياق ما بعد الرسالة :

بعد وصول السلطان إلى مدينة فاس، عاد الهدوء بعد أن تقرر إقالة العامل الصفار، وعين مكانه قاسم بن سكين، وهو من فئة الوصفان، وقد سبق له أن عمل قائداً بجيش العبيد. ثم غادر السلطان فاس في اتجاه مراكش. فاضطرب مناخ المدينة من جديد، بعد أن هاجم الوداية الملاح، وحاصروا المدينة، وقلت الأوقات. وتعباً سكان فاس، وعينت كل مقاطعة رئيساً لها على غرار العادة التي كان معمولاً بها قبل عهد سليمان. ونشأ شعور بفراغ السلطة. وازداد هذا الشعور مع الرسالة الجديدة التي بعث بها السلطان، وأولتها بعض الأوساط على أنها تتضمن تنازلاً عن السلطة من جانب العاهل.

آنذاك حصل تحالف بين أهل فاس، وقبائل فازاز والزاوية الوزانية. وتمت مبايعة الأمير إبراهيم ابن أخ سليمان. ثم توفي إبراهيم المذكور، فبويع مكانه أخوه سعيد. وقرر سليمان العودة إلى الشمال، وعرف كيف يسترجع السلطة بعد أن حصل على دعم عدد من القبائل، وعزل مدينتي فاس وتطوان، وحاصرها قرابة سنة كاملة (1821-1822).



## الفصل الخامس

### حصيلة وامتدادات



## مقدمة

على مر أربعة فصول من هذا البحث، رافقنا القارئ في مسألة نصوص تم تبويبها وترتيبها وفق منطق الأجناس، بحيث انطلقنا من الرحلة الأوربية، ثم انتقلنا إلى أخبار الحكام، فمناقب الصلحاء والأولياء، وانتهينا بالنص القانوني. ولا شك أن القارئ لاحظ أن متن النصوص يفتح تدريجيا في عدة مستويات. فمن الزطاطة إلى قضية أمن السفر بشكل عام، ومن نص الرحلة المبني على المشاهدة، إلى تدوين أخبار فئات معينة، إلى نصوص تتولى إنجاز أهداف عملية، وتدبر شؤون الأفراد والجماعات. وفي مستوى آخر، لمسنا في الرحلة والنص القانوني إمكانيات أكبر في وصف الظواهر المتصلة بقضية تأمين الطريق، ولمسنا في أخبار الدولة والأولياء هيمنة أكبر للصورة والتخيل.

إن هذا التعدد الذي يغذي الفضول والرغبة في المزيد من الحفر، هو تعدد يوحى بأن موضوعنا يشكل في النهاية نقطة تقاطع فيها مظاهر وقضايا وأسئلة تنتمي إلى مستويات متعددة، وهو ما يحيل على مفهوم «الظاهرة الاجتماعية الكلية» *le fait social total* الذي صاغه عالم الاجتماع الفرنسي مارسيل موش انطلاقا من مقالته الشهيرة حول الهبة والهبة المضادة<sup>1</sup>.

تكمن خصوصية «الظاهرة الاجتماعية الكلية» في أنها تعين في آن واحد كامل المجتمع ومؤسساته. «فهي تكشف أساليب مختلف أنواع المؤسسات الدينية، والقانونية، والأخلاقية، وهي في آن واحد مؤسسات سياسية وعائلية. هذا إلى جانب المؤسسات الاقتصادية التي تفرض أشكالاً خاصة من الإنتاج والاستهلاك، والظواهر الجمالية التي تنتجها هذه الوقائع، والظواهر المورفولوجية التي تعبر عنها هذه المؤسسات»<sup>2</sup>.

1. راجع :

Marcel Mauss. *Sociologie et anthropologie*, pp. 143- 279.

2. ن.م، ص. 147.

وفي تقديمه الهام لكتاب «السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا»، يوضح كلود ليفي-ستروس أن «الظاهرة الاجتماعية الكلية» تتميز ببعد ثلاثي. فهي تقيم نوعاً من التناسب بين البعد السوسيولوجي التزامني، والبعد التاريخي التعاقبي، والبعد الفيزيو-سيكولوجي. ولا يمكن لهذا التناسب أن يتم إلا في مستوى الفرد، وهو ما يطرح على النظرية الاجتماعية معضلة الربط بين ما هو اجتماعي وما هو فردي<sup>3</sup>.

انطلاقاً من شعورنا بأن قضية أمن الطرق تشكل، إلى هذا الحد أو ذاك، ظاهرة اجتماعية متعددة السفوح<sup>4</sup>، فقد حاولنا، في هذا الفصل، أن نتخذ قدراً من المسافة مع متن النصوص، وذلك من أجل الانتقال من تصنيف المصادر، إلى تصنيف قضايا تاريخية واجتماعية وثقافية عامة، وهي قضايا تزيد في استجلاء السياق العام للأحداث والوقائع التي التقينا بها عبر النصوص، وما يتصل بها من حالات ووقائع محددة، كما أن هذه القضايا تزيد في التحسيس بخصوصية الموضوع، عبر إثارة إمكانيات المقارنة والتنظير. وهكذا سوف نتناول على التوالي أربعة مستويات، وهي التراب، والزمن، والمؤسسة، والتعبير.

3. ن.م، ص. XXVI-XXV.

4. لقد استعملنا استعارة طوبوغرافية للإشارة إلى تعدد له صلة بمسألة التخصصات. «من أجل الاشتغال عبر التخصصات، لا يكفي أن تختار «موضوعاً»، ثم تستدعي علمين أو ثلاثة لمعالجته. بل إن الاشتغال عبر التخصصات معناه أن تبتكر موضوعاً جديداً لا ينتمي إلى أي تخصص في حد ذاته». انظر :

## I. المجال والتراب

انطلقنا، في الفصل الأول، من سلسلة من المشاهد التي تدور حول قضية الزطاطة، أي التجاء المسافر إلى خدمات الحفارة المؤدى عنها لاجتياز الطرق المخوفة. واسترشدنا بنص رحلة شارل دو فوكو الذي زار المغرب في بداية ثمانينات القرن التاسع عشر. وقد أولى الموضوع اهتماماً خاصاً، لأنه ربط بين الحاجة إلى الزطاط وبلاد السبية، مثلما ربط بين الاستغناء عن الزطاط وبلاد المخزن. وبعد مرور عقدين على رحلة فوكو، سوف يسجل أوجين أوبان Eugène Aubin أن التمييز بين بلاد السبية وبلاد المخزن يقوم على ثلاثة معايير، وهي أداء الضرائب، وتعبئة حُرّاك يساهمون في الحملات العسكرية التي ينظمها السلطان، وضمان أمن الطريق للسلطان أو مثليه أو محمييه<sup>5</sup>.

ظل فوكو يُوحى بوجود تمييز واضح ومرئي بين مجالين. غير أن الثنائية التي اعتمدها فوكو ترتبط كذلك، في افتتاح الكتاب، بمسألة حاجة الأوربيين إلى التنكر خلال السفر عبر مناطق المغرب. ففي «بلاد المخزن»، يتنقل الأوربيون بشكل واضح وفي كامل الأمان. وفي «بلاد السبية»، لا يسافر أحد في أمان، وهو عالم مغلق أمام الأوربيين، ويكون التنكر بالنسبة لهؤلاء وسيلة إجبارية للإفلات من مختلف الأخطار. ومن جهة أخرى، أورد شارل دو فوكو عدداً من الوقائع التي تدعو إلى إعادة النظر في وضوح الثنائية التي أعن عنها في مُفتتح كتابه<sup>6</sup>.

وإذا قرنا أن نتجنب مقولات فوكو، قد نميل إلى تبني تصنيفات مغايرة لآليات تأمين الطريق، وهي تصنيفات تقوم على التمييز بين ما هو محلي وما هو مركزي، أو التمييز بين الحفر ومحطة التوقف، أو التمييز بين الحفر واستخدام سلطة المكتوب. لنتساءل على سبيل المثال: إلى أي حد يُعفي السفر في «طريق المخزن» من الحاجة إلى الحفر المحلي؟ وإلى أي حد يمكن اعتبار الشريف أو الزاوية ضمن القوى المحلية؟ يتبين أن مثل هذه التصنيفات هي في الواقع تصنيفات نسبية. قد يُحيل الحفر المحلي على رجال ينتمون إلى الهرم المخزني، وقد يستجيب لتعليمات وردت في مراسلة سلطانية. والزاوية قوة محلية، تبدو وكأنها تعوض سلطة المخزن، لكن ها هي زاوية أبي الجعد، وطيدة الصلة بالسلطان<sup>7</sup>، وها هم شرفاء وزان يدعمون الحضور المخزني ببلاد مَر تازة<sup>8</sup>. وفي كتاب فوكو، نلتقي بشرفاء يتولون أدواراً مماثلة في تراب قبائل «سائية»<sup>9</sup>.

وفي مستوى آخر، ترسّخت فكرة الربط بين رسم المرور وبعض القوى المحلية، والربط بين النزالة و«طريق المخزن». بيد أن الزاوية قد تقوم بوظيفة النزالة. ويخبرنا شارل دو فوكو بأن المركز

5. راجع :

Eugène Aubin, *Le Maroc d'aujourd'hui*, Paris, 1913.

6. انظر أعلاه، ص. 41 - 42.

7. انظر فوكو، م.س، ص. 54.

8. عبد الرحمان المودن، قبائل إينان والمخزن، ص. 292 وما تلاها.

9. ورد ذكر بعض الحالات بقبائل زمور وزيان. راجع فوكو، م.س، ص. 42 - 46.

المخزني يرخص لبعض القبائل بتحصيل رسوم المرور، وتفيد شواهد أخرى بأن إحداهن النزائل تُحوّل في واقع الممارسة إلى مبرر لتحصيل رسوم محجفة، إلى درجة أن القوافل أصبحت أحياناً تتجنب المرور بتلك المحطات التي يفترض فيها أن توفر للمسافرين المؤونة وشروط الأمن والراحة.

إن قضية تأمين الطريق هي في الواقع أحد أوجه إشكالية مراقبة المجال، وقضية الفرق بين المجال والتراب، وأنماط الانتقال من المجال إلى التراب. كتب دنيال نوردمان، انطلاقاً من دراسته للتجربة الفرنسية: «يقوم تعريف التراب على ثلاث خاصيات لا يتوفر عليها المجال. فالمجال عبارة عن وعاء غير متميز، يتم اختراقه، واجتيازه، وتحتله سيولات، وشبكات، وتشكلات قد تنتمي إلى مستويات اقتصادية أو اجتماعية أو غيرها. أما التراب فيكون بصفة مباشرة موضوع سلطة تمارس عليه بشكل من الأشكال الممكنة (فيودالية، أو كنائسية، أو ملكية، أو جمهورية). والمجال غير محدود (أو لم يتم تحديده بعد)، بينما التراب كيان تم تعيين حدوده بواسطة علامات (مرئية أو لا مرئية، مادية أو رمزية، تاريخية أو طبيعية، جاهزة أو موعود بها). والمجال لا يميزه كلمة تمنحه هوية معينة، بصفة شاملة وخصوصية، بينما التراب يعينه اسم واحد»<sup>10</sup>.

كيف يمكن تحديد التراب في مغرب القرن التاسع عشر؟ وكيف يمكن تشخيص التراب دون السقوط في تعريفات تبسّطية؟ للإجابة على هذين السؤالين، سوف نحدد أربع تشكيلات مجالية تعبر عن خصوصية مفهوم التراب في النسق المغربي التقليدي، وهي وحدات لا يوجد بينها انفصال تام وحواجز حقيقية، بل تتميز بالتقاطع والتداخل.

## 1. محاور ومحطات

هناك قرائن عديدة تؤكد وجود علاقة وطيدة بين نشأة الدولة المركزية وبين مراقبة وتوحيد شبكات المسالك، وهي أيضاً علاقة تماثل بين طريق التجار وطريق الجند. لننظر إلى مسار حركة المرابطين الذين تتبعوا في البداية، انطلاقاً من الجنوب، محوراً تجارياً عرف فيما بعد بـ«طريق اللمتوني»<sup>11</sup>. وقد احتلوا تدريجياً محطات ومفرقات طرقية حيوية، ووجدوا تحت سيطرتهم فسيفساء من الإمارات والكيانات المحلية التي كانت تجمع بينها علاقات لا تخلو من التوتر، وهي كذلك علاقات تبادل ومتاجرة داخل نسيجٍ طرفي متكامل. وإلى جانب «طريق اللمتوني»، عرف المغرب خلال العصر الوسيط خمسة محاور طرقية أطلقت عليها تسميات معبرة. - «طريق التمر»، وهي تربط بين فاس وسجلماسة.

- «طريق النحاس»، وهي تربط بين فاس ومراكش عبر تادالا.

10. انظر :

Daniel Nordman, *Frontières de France*, pp. 516-517.

11. انظر :

H.T. Norris, art. «al-Murâbitûn», *E.I.*, 2<sup>e</sup> éd., t. VII, p. 586.

- «طريق الجهاد»، وهي تربط بين مراكش ورباط الفتح.

- «طريق الحجاج»، وهي تربط بين فاس وتلمسان.

- «طريق القبلة»، وهي تربط بين مراكش وسجلماسة، وهو مسلك تجاري كان يجتازه حجاج دكالة وحاحة ورگراگة<sup>12</sup>.

ففي فاس، تلتقي طرق آتية من تلمسان وسجلماسة ومراكش. وفي مراكش تلتقي طرق آتية من فاس وسجلماسة ورباط الفتح. وفي حالات متعددة، يظهر التداخل بين ثلاثة أنماط، وهي الطريق ذات المضمون الاقتصادي، والطريق ذات المضمون الديني، والطريق ذات المضمون السياسي-العسكري<sup>13</sup>.

لنعد إلى زمن شارل دو فوكو، حيث كان الاستكشاف ووصف المسالك تمهيداً لسيطرة من نوع جديد. ولنترك خريطة تنقل الرحالة الفرنسي، من أجل الاقتراب من العناصر الأساسية لشبكة الطرق في ذلك العهد. سوف نلاحظ في البداية استمرار موقع فاس ومراكش كقطبين، مع تغييرات واضحة في تفاصيل الشبكة الطرقية. فمن فاس، يمكن للمسافر أن يتجه إلى :

- طنجة.

- العرائش.

- تافيلالت.

- تازة ووجدة.

- الرباط، ومنها إلى مراكش، وهو ما يتيح في بعض الظروف تجنب تراب زعير وزمور وزيان. ومن مراكش، يمكن الاتجاه إلى :

- فاس.

- أسفي.

- الصويرة.

- تارودانت.

- درعة، ومنها إلى تافيلالت.

وقد كان السفر بين فاس ومراكش يتم كذلك عبر مناطق سهلية مثل سايس، وتادلا (حيث توجد زاوية أبي الجعد)، والحوز (حيث تقطن قبيلة الرحامنة).

12. حول هذه المحاور، راجع :

Louis Massignon, *Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle. Tableau géographique d'après Léon l'Africain*, Alger, 1906, pp. 107-116.

وحول العلاقة بين هذه المحاور وتوطين الربط الصوفية خلال العصر الوسيط، راجع محمد مفتاح، الخطاب الصوفي، ص. 51-25. راجع :

Lucien Febvre, *La terre et l'évolution humaine*, pp. 384 et suiv.

وفي مستوى آخر، من اللازم أن نسجل أهمية المحاور الجبلية التي كانت تربط بين الشمال والجنوب. ويتعلق الأمر بأربعة ممرات رئيسية<sup>14</sup> :

#### - تيزي ن تالغمت

يبلغ علوه 1947 متراً. ويعني الاسم بالأمازيغية «فج الناقة». ويسمح المعبر باجتياز جبل العياشي، وبذلك يتم المرور من أعالي ملوية إلى بلاد زيز. وقد كان هذا الممر جزءاً من محور فاس-تافيلالت، المعروف بـ«طريق السلطان»، الذي اكتسب أهمية بالغة مع استيلاء العلويين على السلطة، حيث حل محل المحور الذي كان يربط بين مراكش وسوس عبر الأطلس الكبير<sup>15</sup>. وهو محور مرتبط بتجارة فاس، وقد استقرت في محطاته جاليات يهودية نشيطة. ويبدو أنه خلال عهد الحسن الأول، كان القائد عمر اليوسي يلعب، في مجال تأمين الطرق، دوراً مماثلاً للدور الذي كانت تلعبه قيادة العائلة الغلاوية بممر تلوات.

#### - تيزي ن تاشت

يبلغ علوه 2092 متراً. وهو يسمح بالانتقال من مراكش إلى تارودانت ووادي سوس. وقد أطلقت على هذا الطريق عبارة «طريق التمر»، نسبة إلى المحاصيل التي كانت تجلب من واحات جبل باني بشكل خاص. ومن الناحية التاريخية، يقع المعبر ببلاد گندافة، حيث يجري وادي نفيس. وبهذه المنطقة يوجد موقع تينمل الذي يذكر بفترة الموحدين، وبه قبر المهدي بن تومرت الذي ظل مزاراة هامة خلال قرون عديدة.

#### - تيزي ن ماشو

يبلغ علوه حوالي 1600 متراً. وعندما يصل المسافر القادم من جهة الشمال إلى السفح الجنوبي، تتفرع الطريق أمامه إلى اتجاهين : أحدهما نحو تارودانت، والثاني نحو أكادير والساحل الأطلسي. ومنذ أواخر القرن السادس عشر، تنامت أهمية هذا المحور، على حساب المحور الساحلي، وذلك بسبب مرور فضة تامدولت إلى مراكش. وأصبح المحور طريقاً عسكرياً شديداً عبرها سلسلة من القصبات السعدية، مثل إمين تانوت، وبن تاكموست، وأرگانة، وأمسكروض. وقد جدد السلطان إسماعيل هذه القصبات، وهو ما يؤشر على استمرار دور المحور مع دولة العلويين، في إطار «طريق

14. حول هذه الممرات، راجع :

Jean Celerier, « L'Atlas et la circulation au Maroc », *Hesp.*, t. VII, 4<sup>e</sup> trim. 1927, pp. 478-480.

15. راجع :

Magali Morsy, *La relation de Thomas Pellow*, p. 55.

المخزن»<sup>16</sup>. وقد كان المعبر المذكور خاضعاً لسلطة قواد من عائلة المتوگيين.

### - تيزي ن تلوات

يبلغ علوه 2400 متراً، وتعني كلمة «تلوات» بالأمازيغية «الحوض المنخفض». وتعود شهرة المر إلى العصر الوسيط، حيث أطلق عليه اسم «باب درن». وبعد المعبر، يتفرع طريق الجنوب إلى اتجاهين : الأول يقصد مركز الزاوية الناصرية تامگروت، عبر انعطاف وادي درعة، والثاني يقصد تافيلالت، عبر أودية دادس وفركلة وغريس. وبينما تمر في اتجاه الشمال قوافل محملة بالتمور وجلود تافيلالت، فإن الاتجاه المعاكس يزود الجنوب بالحبوب والمنتجات الأوربية. ورد ذكر نفس المعبر أيضاً تحت اسم «ثنية الكلاوي». ورددت المصادر أصداء بعض الكوارث التي لحقت هناك ببعض المحلات السلطانية في طريق عودتها من تافيلالت وبلاد درعة إلى مراكش. تلك كانت حالة إسماعيل في بداية سنة 1090 للهجرة (1679 للميلاد)<sup>17</sup>. وبعد مدة تزيد على ثلاثمائة وعشرين سنة، تعرضت محلة الحسن الأول لكارثة ماثلة. ويصدد موضوع مرور السلطان بتلوات (1894)، احتفظت المصادر بتفاصيل تشير إلى علاقة التحالف بين المخزن والعائلة القاندية المحلية<sup>18</sup>. وارتبطت تزايد أهمية المعبر بتنامي سلطة القائد الكلاوي، وأحدث هذا الأخير هناك سوقاً ونزلة.

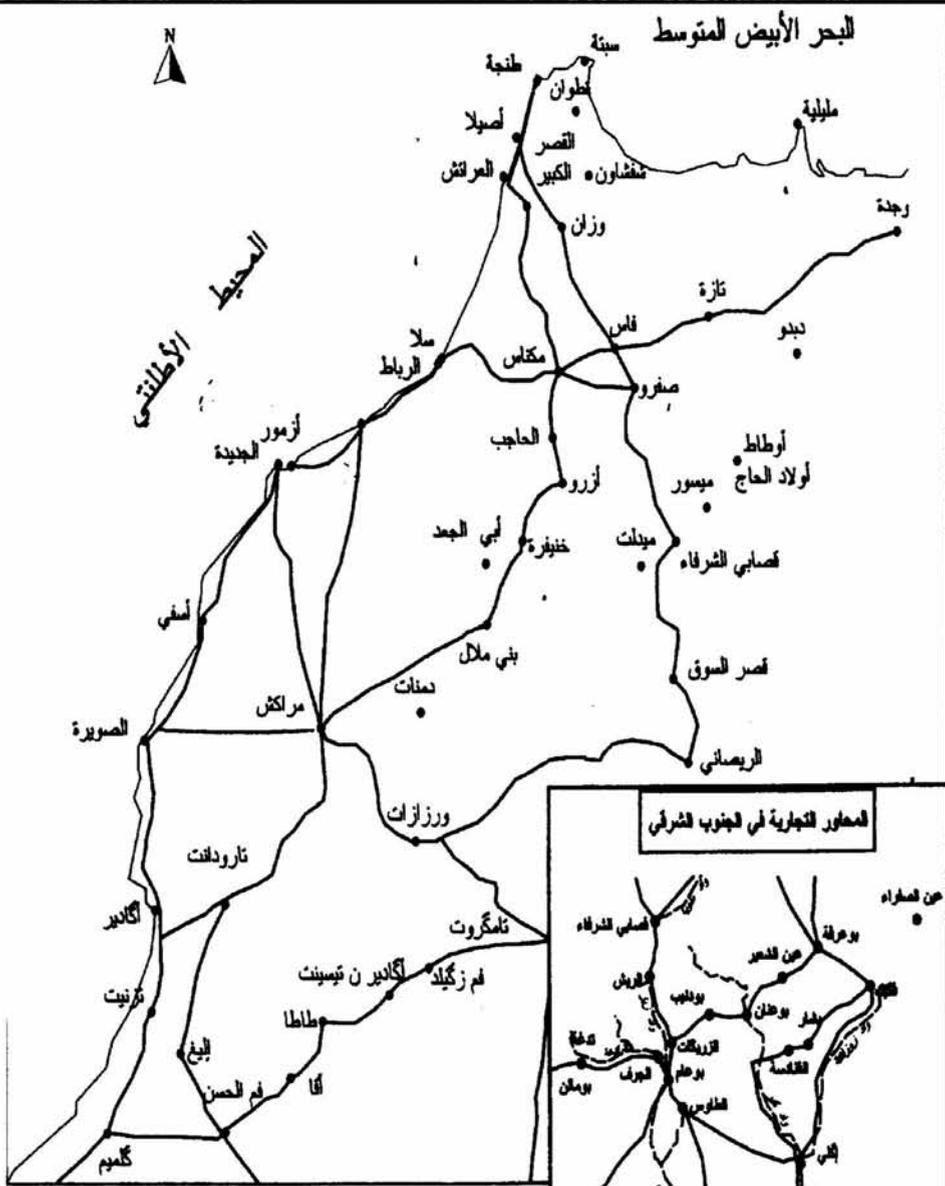
16. محمد زرهوني، الأطلس الكبير الغربي، ص. 58-59. وبالإضافة إلى هذا المحور، كان بالإمكان اجتياز غرب الأطلس الكبير عن طريق داخل بلاد حاحة، أو عن طريق الساحل، وهو محور «يربط ماسة جنوباً، غرب مصب وادي ولغاس، وكوز شمالاً، على مصب وادي تانسيفت». ن.م. ص. 58. وقد تراجع هذا المحور في فترة الغزو الإيري، ثم اتعش من جديد مع تأسيس ميناء الصويرة.

17. انظر القادي، نشر المثنائي، ج 2، ص. 267. وصل الخبر إلى فاس «بما قامى السلطان والناس مع الثلج والوعر، وهلك نحو ألف من الخيل، وطوى الناس على الجوع أياما، وتقطعت الأخبية، وبقيت الأموال وغيرها، وأنه خرج إلى الوطاء بعد شدة، ولم يخرج معه إلا مثنان من الخيل، فنزل نحو سيدي رحال».

18. يقال إن القائد وفر للسلطان عددا من الدواب للركوب والنقل، وخمسة عشر يوماً من المونة. وفي المقابل، وسع العاهل منطقة نفوذ القائد ( لتشمل تدغة، وتافيلالت، وفركلة )، وترك له مدفعا من نوع كروب وعددا من الأسلحة الحديثة. راجع :

Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, t.1, p. 312.

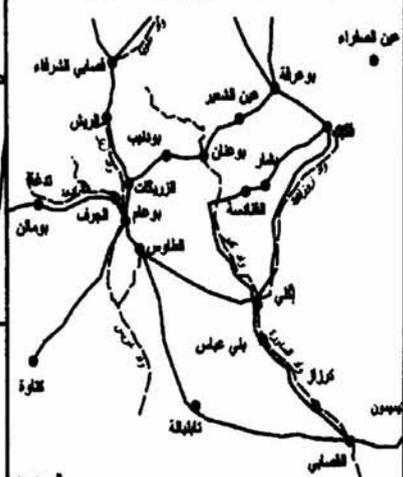
# المحاور التجارية الرئيسية شمال الصحراء (القرن التاسع عشر)



100 0

المصدر (بتصرف):

## المحاور التجارية في الجنوب الشرقي



المصدر:  
روس دان، المجتمع والمقاومة، ص. 128.

وعندما نجتاز جبال الأطلس، ونصل إلى المغرب شبه الصحراوي، فإننا نجد سلسلة من الواحات التي تضم موانئ صحراوية تقع على مشارف طريق السودان. في الجنوب الشرقي، تنتظم الموانئ الصحراوية في مثلث يتكون من واحات فكيگ، وتافيلالت، وتوات. فقد كانت فكيگ تجمعاً سكنياً يتكون من سبعة قصور: الوداغر، أولاد سليمان، المعيز، الحمام الفوقاني، الحمام التحتاني، العبيدات، زناگة، وهو أكبر القصور السبعة. وتميزت الواحة على العموم بنشاطها الفلاحي والتجاري<sup>19</sup>، ولقبت أحياناً بـ«فاس الصغير». وكانت تستقبل مجموعات كثيرة ترناد الواحة من أجل التبضع: ذوي منيع، وأولاد جرير، وبني گيل، وعمور، وكذا بعض القبائل من بلاد وهران. وكانت فكيگ تتصل بالسودان مباشرة، أو عبر توات. وفي اتجاه الشمال، تنطلق مجموعة من الطرق نحو:

- فاس، عبر دبدو وتازة.

- وجدة، عبر رأس العين.

- مليلية، عبر دبدو أو وجدة.

- تلمسان عبر عين الصفراء.

مع بداية أربعينات القرن التاسع عشر، تراجع دور فكيگ، لأن دورها كمعبر للسوق الجزائرية، كان أهم من دورها كحلقة تربط السودان بالمغرب. ومع ذلك، استمر إشعاعها الإقليمي، وظلت محطة يتم فيها توزيع المنتجات القادمة من شمال المغرب ومن البلاد الأوربية. وفي منتصف الطريق الرابطة بين فكيگ وتافيلالت، في تراب ذوي منيع، يمر المسافر بواحة القنادسة، حيث الزاوية المشهورة التي أسسها الحاج محمد بن أبي زيان في أوائل القرن الثامن عشر، وهي زاوية اشتهرت بتخصّصها في خفر القوافل<sup>20</sup>. وترتبط تافيلالت باسم سجلماسة، غير أن هذه الأخيرة اضمحلت بصفة نهائية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وحل محلها موقع بُوعَام الذي كان مفترقا طريقياً يتصل بعدة اتجاهات:

- فاس.

- مراکش عبر درعة.

- كَنَّاوَة (انعطاف درعة) - تَبُّوكْتُو (و الواقع أن هناك أربعة محاور تربط بُوعَام بالسودان).

- بُودْنِيْب - بُوعَرَفَة - وجدة أو تلمسان.

- تَابْلِبَالَة - الْقَصَابِي - تِيْمِيْمُون.

19. حول فكيگ انظر: رُوس دان، المجتمع والمقاومة، ص. 100 - 111.

وحول موقع الواحة في خريطة المحاور التجارية، انظر كذلك محمد مزبان، فكيگ: مساهمة في دراسة المجتمع الواحي في القرن التاسع عشر (1845-1903)، 1988، ص. 186-193.

20. انظر النص الوارد أعلاه، ص. 56.

- القنادسة - فكيگ.

- إگلي - فكيگ، وهي طريق تتبع وادي زُوْرْفَانَة<sup>21</sup>.

كانت منطقة تافيلالت مركزاً حقيقياً للجنوب الشرقي، إذ كانت تجمع بين التجارة، وخصوبة الزراعة الواحية، وكثافة الساكنة. وكان وادي إفلي أكبر تجمع للشرفاء العلويين، وبه كان يوجد مقر خليفة السلطان.

ثم يكتمل المثلث بتوات. وقد كانت هذه التسمية تُطلق في الواقع على كِيَانَيْن جغرافِيَيْن، وهما توات بمعناه المحدود، ومجال أوسع يشمل توات، وگورارة (حيث واحة تيميمون)، وتِيدِيكَلْت. ومن توات، كانت القوافل تنطلق في اتجاه<sup>22</sup> :

- سجلماسة عبر إگلي أو تابلبالة.

- فكيگ - تلمسان، وهي أهم طريق تربط توات بالشمال، وبين توات وفكيگ، كان نشاط النقل بين أيدي ذوي منيع وأولاد جرير.

- ورُگْلَة - بجاية أو تونس.

- غدامس - طرابلس.

شهدت أواخر القرن التاسع عشر أحداثاً وضعت حداً لحيوية النشاط التجاري في الجنوب الشرقي. ففي سنة 1894، كان الاحتلال الفرنسي لتنبوكتو. وفي سنة 1900 كانت نهاية التجارة الصحراوية عبر تافيلالت، وهي كذلك سنة احتلال توات.

وفي غرب المثلث المذكور، شهدت خريطة المحاور الطرقية محاولات هامة منذ أواسط القرن التاسع عشر. فقد تم إحداث تندوف من طرف شيخ قبيلة تاجاكانت، ومن هذا المركز كانت بضائع السودان تقصد الصويرة عبر منطقة «الساحل» وشُتُوْكَ، وأدى ذلك إلى تزايد نشاط كَلْمِيم، وتراجع الإشعاع التجاري لواحاحات جبل باني، ولاسيما تيسينت، وطاطا، وأقا، وهو تطور وصفه شارل دو فوكو بإسهاب<sup>23</sup>.

ثم نصل إلى طرق الجنوب الغربي، وهي طرق انتعشت مع تأسيس ميناء الصويرة، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ومعلوم أن الواقع الجديد خلق تنافساً بين طريقين، أحدهما ساحلي يمر ببلاد بيروك وآيت باعمران، والثاني داخلي يمر بإفران وتازروالت. وفي منتصف القرن التاسع عشر، كانت إلغ أهم مركز تجاري في الجنوب الغربي، يتم فيه تبادل منتوجات قادمة من السودان وأوروبا.

21. راجع : رُوس دان، المجتمع والمقاومة، ص. 121 - 123.

22. راجع محمد أعفيف، توات في القرن 19، ص. 42-50، 142-148.

23. انظر فوكو، م.س، ص. 119 وما تلاها.

إن التأمل في شبكة المسالك الرئيسية يدعو إلى إعادة النظر في العلاقة التي كانت قائمة بين المحاور والمكونات المجالية. فبالرغم من سياق التدخل التجاري الأوربي عبر موانئ الواجهة الأطلسية، ظل الاتجاه السائد اتجاها عموديا (شمال - جنوب)، وهو يقوم على التكامل بين المواصلات عبر جبال الأطلس وبين المواصلات عبر الصحراء. وخلافا لما توحي به التحولات اللاحقة، فإن المجال الجبلي كان يعرف حركة عبور دووية، تعكسها أهمية المعابر الرئيسية والثانوية<sup>24</sup>، مثلما تعكسها البنية العامة للشبكة الحضرية. ففي بداية القرن العشرين، كان تعداد ساكنة المدن حوالي 420000 نسمة، أي ما بين 8 و9 في المائة من مجموع سكان المغرب. وكان عدد المدن سبعا وعشرين. وإذا استثنينا فاس (حوالي 100000 نسمة)، ومراكش (60000 نسمة)، ومثلث الشمال الغربي (الدار البيضاء - فاس - تطوان)، فإن ظاهرة المستقرات الحضرية أو شبه الحضرية الصغرى تبدو وطيدة الاتصال بمجال الدير الذي يقع عند التقاء الجبل بالسهل<sup>25</sup>.

حين تنتقل من شبكة المسالك إلى لغة تمثل التراب، فإن التسمية تركز أحيانا على السهل على حساب الجبل.

## 2. الغرب والحوز

نفتح كتاب «إتحاف أعلام الناس» لعبد الرحمان ابن زيدان. في معرض التعريف بالسلطان الحسن الأول، خصص المؤلف فقرات دقيقة لموضوع «ضبط أوقاته وتقسيم أيامه وترتيب نظام مملكته وذكر رجال دولته». وفي هذا السياق، كتب ابن زيدان :

«ومن العوائد المقررة في الأعياد وفود الوفود على الأعتاب الشريفة قبل العيد بنحو العشرة أيام فأزيد لمنافسة العمال في الحصول على ملاقاته الجلالة السلطانية كل يود أسبقية غيره إذ العادة جارية بتقديم أول قادم على غيره فيتلاقى ساعة وصوله أو يومه على الأقل ويقدم أيضا أول قادم على دار المخزن ولو جاء عدد عديد في اليوم ومن جاء ليلة العيد فلا حظ له في ملاقاته القدوم والعادة جارية إذا كان السلطان بالحوز فقد على أعتابه من قواد أهل الحوز من وادي أم الربيع إلى أقصى سوس وأما أهل الغرب فلا يوجهون غير الخلائف وكذلك إذا كان في الغرب يأتي القواد من أم الربيع إلى وجدة ويأتي من الحوز الخلائف فإن رام أحد من عمال الحوز القدوم على السلطان للغرب بنفسه لا بد له من الاستئذان فإن أذن له أتى وإلا فلا وكذا بالنسبة لأهل الغرب ومن كانت له دار نزل بها وإلا أنزله السلطان على يد الوزير الصدر أو قائد المشور أو باشا البلد كل على قدر مكانته وما قدمه من الهدايا

24. انظر :

G. Couvreur, « La vie pastorale dans le Haut-Atlas Central », *Revue de Géographie du Maroc*, 13, 1968, p. 13.

25. راجع :

Robert Escallier, *Citadins et espace urbain au Maroc*, p. 23.

فيعين لكل محلا مناسباً لمقامه»<sup>26</sup>.

إنها جزئيات تتعلق بطقوس زيارة العمال للسلطان لتنهئته في مختلف الأعياد. يحضر عنصر الزمن في تنافس ممثلي السلطان في التبكير بالوصول إلى مقام الحضرة، وذلك من أجل الفوز بـ«ملاقة القدوم»، والحصول على هذا الامتياز قبل الآخرين. ويظهر كذلك نوع من التراتب بين العمال في نوع محل الإقامة، حسب مكانة الخدم الوافد، وحسب قدر الهدية التي نوى تخصيصها للعاهل. لكن ما يهمنا هنا هو تحديد لمنطقتين تحمل إحداهما اسم الحوز، وهي تمتد «من أم الربيع إلى أقصى سوس»، وتحمل الثانية اسم الغرب، وهي تمتد «من أم الربيع إلى وجدة». فمن الواضح أن كل واحدة من المنطقتين المذكورتين تتجاوز مجال السهل الذي ينسب لها في الاصطلاح الحالي، بل هي لا تستثني المجال الجبلي الذي يقع داخل الإطار المحدد في نص ابن زيدان.

إلى أي حد يمكن تتبع الجذور التاريخية لثنائية الغرب والحوز؟ من الممكن أن نتبع بعض القرائن والمؤشرات. ففي معرض سرد أخبار استقدام دولة الموحدين لقبائل بني هلال، كتب الناصري في «الاستقصا» في أواخر القرن التاسع عشر: «واعلم أن هذين البسيطين يسميان اليوم في عرف عامة أهل المغرب بالغرب والحوز»<sup>27</sup>، فالغرب عبارة عن بلاد الهبط وأزغار وما في حكمهما<sup>28</sup>، والحوز عبارة عن بلاد تامسنا وما اتصل بها إلى مراكش، فكان لرياح بلاد الغرب، وكان لجشم بلاد الحوز»<sup>29</sup>. يبدو من هذه الإشارة السريعة أن اصطلاح التمييز بين المنطقتين ربما ارتبط منذ البداية باعتبار استراتيجيات تهم ترحيل القبائل العربية المذكورة إلى السهول الأطلسية، وترتيبها في وحدتين مُحدّتين. لكن عنصر التسمية يدعو إلى بعض التحفظ<sup>30</sup>. ولعل التتبع الاسترجاعي للنصوص يوحي بأن رسوخ ثنائية الغرب والحوز يعود إلى تطورات نهاية «العصر الوسيط».

في سياق الصراع بين بني وطاس والسعديين على الحكم، انبرم في شهر صفر 943 للهجرة (يوليوز-غشت 1536 للميلاد)، صلح أبي عقبة الشهير، أحد مشارع وادي العبيد، بين حكام فاس والأمير السعدي أبي العباس الأعرج، «على أن للأشراف من تادلا إلى السوس وللبريني من تادلا

26. ابن زيدان، الاتخاف، ج 2، ص. 519-205.

27. عرف الاصطلاح الشفوي عدداً من التنوعات الجهوية. فكان سوس مثلاً كانوا يطلقون اسم «الغرب» على المناطق الواقعة شمال جبال الأطلس الكبير. انظر:

Bernard Rosenberger & Hamid Triki, « Famines et épidémies... », 1<sup>re</sup> partie, 1973, p. 141.

28. ومعلوم أن سكان المغرب الشرقي تعودوا على إطلاق اسم «الغرب» على كل المناطق الواقعة فيما وراء مدينة تازة، «مَنْ تازة لِهيه» حسب العبارة المأثورة.

29. الناصري، الاستقصا، ج 2، ص. 169. لقد استشهد بعض الدارسين الفرنسيين بهذا النص واعتبروه مرجعاً أساسياً، انظر على سبيل المثال:

Gaston Deverdun, art. « Haouz », *E.I.* 2e éd., vol. 3, pp. 309-310.

وسوف نقترح بعض المعطيات التي تدعو إلى إعادة النظر في الفرضية المذكورة.

30. خصوصاً بشأن تعريف «الحوز»، متى كانت هذه المنطقة تشمل بلاد تامسنا التي ارتبطت في المصادر الوسيطية بالكيان البرغواطي؟ نلاحظ مثلاً أن ابن خلدون يوطن قبائل دكالة «في وسط المغرب من عدوة أم الربيع إلى مراكش»، وهو ما يطابق موقع الحوز حسب نص الاتخاف السالف الذكر. انظر العبر، ج 11، ص. 421.

للمغرب الأوسط<sup>31</sup>. وفي عام 195 للهجرة، بويع محمد الشيخ السعدي بمراكش، «فاستولى على البلاد التي كانت بيده ويبد أخيه أبي العباس المخلوع من إقليم تادالا إلى وادي نول...»<sup>32</sup>. وهكذا برزت الثنائية المجالية في صراعات العصبيات حول السلطة، كما أنها برزت في سياق بعض الصراعات التي انفجرت داخل الأسرة الحاكمة الواحدة. فهذا عهد اليزيد الذي لم يدم سوى سنتين (1790-1792). ففي سياق أخبار بيعته، كتب صاحب «الاستقصا»: «... لما دخل مكناسة قدمت عليه قبائل الغرب كلها عربها وبربرها حتى عصاة آيت ومالو ودجالهم مهاوش»<sup>33</sup>. وأضاف نفس المؤلف: «ثم قدمت عليه قبائل الحوز كله من عرب وبربر لم يتخلف عن بيعته أحد...»<sup>34</sup>. وعندما نشأ الشقاق بين اليزيد والأمير هشام، استقطب هذا الأخير ولاء «قبائل الحوز»، واتفقت كلمة الرحامنة «مع أهل مراكش وعبدو وسائر قبائل الحوز»<sup>35</sup>. وبويع هشام «باتفاق قبيلة عبدة ودكالة وأهل الحوز وأهل مراكش»، وبحضر «كبراء الرحامنة (... ) وأهل سوس مع أولاد دليم وغيرهم»<sup>36</sup>. وبعدهما تحرك اليزيد مع جيوشه في اتجاه مراكش لمواجهة هشام، شاع أن الحاج بلا عزوز، من أولياء مراكش، قال إن اليزيد «لا يخوض وادي أم الربيع»<sup>37</sup>. وشاع على ألسنة الناس أن مولانا اليزيد لا يخوض ماء أم الربيع في كل أرض من فاس ومكناس والرباط»<sup>38</sup>. وعندما تتبع بعض الأخباريين تقدم اليزيد في اتجاه النهر المذكور، أسهبوا بشكل لافت في ذكر المراحل والمحطات. وهكذا فبعد اجتياز بسيط تامسنا، ترد أسماء سلسلة من المواقع، وهي على التوالي: قصبه ولد علي بن الحسن، وقصبه ولد الجدي، وقصبه سطات. ثم ترد سلسلة من نقط العبور التي مر بها اليزيد، أو فكر مؤقتا في أن «يقطع» عليها، وهي مشرع العونات، ومشرع أولاد غمرة، ومشرع أحمر، وأخيراً رأس الوادي من ناحية بلاد بني مسكين.

ثم يتوقف الأخباريون عند جزئيات حدث العبور، وكأن السلطان يعتز بتحديه لما صرح به ذلك الولي الذي أعلن تأييده لقبائل الحوز. فقد قيل إن جل العبيد هربوا، فسخط عليهم اليزيد، وقال: «أنا بالله أستعين والله لأقطعن وادي أم الربيع ولو مع عشرة من الخيل»<sup>39</sup>. وهنا يلاحظ القارئ دقة تأريخ حدث الاجتياز. «وفي يوم الأربعاء وهو أول يوم من جمادى الثانية من السنة السادسة بعد المائتين والألف (25 يناير 1792)، قطع وادي أم الربيع السلطان السعيد والخليفة الرشيد مولانا اليزيد وذلك يوم الأربعاء المذكور، وقطع معه البعض من دائرته، فالتقى بعبد الله الرحماني وأخبره

31. الافراني، نزهة الحادي، ص. 57.

32. ن. م، ص. 69.

33. الناصري، الاستقصا، ج 8، ص. 76.

34. ن. م، نفس الصفحة.

35. الناصري، م. س، ص.

36. الضميف، تاريخ، ص. 229.

37. ن. م، ص. 209.

38. ن. م، ص. 231.

39. ن. م، ص. 232.

بالتأثرين وبمراكش، ثم رجع للمحلة وهو عند العبور يدلي رجله في ماء وادي أم الربيع ويقول : أين قول أهل مراكش وبلا بن عزوز السفيه فهاً قدمي يخوض فيه، وهو يحرك في الماء برجله...»<sup>40</sup>.  
من المشروع أن تتساءل عن إمكان وجود عوامل تفسر ظاهرة هذا الوادي الذي شكل على امتداد فترات طويلة حاجزا حقيقيا بين منطقتين. وهنا يحضر العامل الطبيعي. فأم الربيع أطول الأنهار المغربية، وهو «أكثر الأنهار المغربية تعمقا على طول مجراه، إذ كانت تشكل خوائقه حاجزا منيعا أمام التحركات السكانية، وما زالت تفصل بين جزء من أهم الأربعين قبيلة تقريبا التي يلمسها الوادي»<sup>41</sup>. وهكذا فالنهر يشكل حداً فاصلاً بين قبائل الشاوية، وبين قبائل دكالة وقبيلة الرحامنة وقبائل السراغنة<sup>42</sup>.

40. ن.م، ص. 233.

41. مصطفى عياد، مادة «أم الربيع (وادي)»، معلمة المغرب، ج 3، ص. 782.

42. في سياق الحديث عن وصول محمد بن عبد الله إلى السلطة، يتحدث ويلفريد رولمان عن «قبائل حوز مراكش، وأخرى مثل حاحة ودكالة وعيدة». انظر :

Willfrid Rollman, *The « New Order » in A Pre-colonial Muslim Society. Military Reform in Morocco, 1844-1904*, The University of Michigan, 1983, thèse inédite, t. 1, pp. 252-253.

ولعل عبارة الحوز تشمل في الواقع القبائل المذكورة، إلى جانب قبائل أخرى مثل عبدة والشياطمة. والواقع أن ثنائية الغرب / الحوز كعنصر جيوسكري غابت في جل الدراسات الحديثة حول الجيش المغربي في القرن التاسع عشر. انظر تريبا برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، م.ص، وبهيجة سيمو، الإصلاحات العسكرية بالمغرب، 1844-1912، الرباط، 2000.



وفي مستوى آخر، يظهر تماسك منطقة الحوز من خلال نمط عيش قبيلة الرحامنة. ففي القرن التاسع عشر، كانت هذه القبيلة تتعاطى للالتجاج وفق محورين اثنين :  
- محور أول شمال-جنوب، بين الأطلس خلال فصل الصيف، و«البحيرة» خلال فصل الشتاء، و«الگعدة» في فصل الربيع.  
- محور ثاني شرق-غرب، بين «الگعدة» خلال فصل الربيع، و«ساحل» دكالة خلال فصل الصيف.

ويبدو أن تحركات القطيع لا تهتم فقط مواشي الرحامنة، بل تهتم كذلك مواشي قبائل أخرى يستضيفها الرحامنة، وذلك في إطار شبكة واسعة من العلاقات والمبادلات بين قبائل المنطقة، وهي شبكة تتوقف عند حدود وادي أم الربيع<sup>43</sup>. إنه إذن أساس مجالي لتضامن يتكرر صداه عبر القرون الأخيرة مع أخبار المواقف الموحدة التي تقفها قبائل الحوز، ولا سيما في علاقاتها مع الحكم المخزني.

لنعد الآن إلى جزئيات طقوس التهنئة في الأعياد. تحيل ثنائية الحوز والغرب، في مستوى المؤسسات، على تنقل السلطان بين عدة عواصم. فهو يقيم في مراكش إذا كان بالحوز، وفي فاس أو مكناس أو رباط الفتح إذا كان في الغرب. عاصمة واحدة بالحوز، وثلاث عواصم بالغرب. وفي كل من الحالتين، يأتي عمال المنطقة وخلائف المنطقة الثانية، ولا شك أن هذه العادة كانت وليدة اعتبارات أمنية، وهي اعتبارات تعود إلى ظروف التنقل وبطء السفر.

عاشت فاس مرحلتها الادريسية. ثم أنشأت دولة المرابطين مدينة مراكش لمراقبة مصامدة جبل درن. واحتفظ الموحدون بنفس العاصمة، وأحدثوا مدينة رباط الفتح كمحطة استراتيجية في طريق الجهاد بالأندلس، وأرادوا لها موقع الحاضرة الكبرى، لكن جاء حكم بني مرين، واستعادت فاس دور العاصمة الرئيسية. وتراجعت مدينة رباط الفتح من القرن الثالث عشر إلى بداية القرن السابع عشر للميلاد. وتزامن ذلك مع تراجع مراكش، غير أن هذه المدينة سوف تعرف انطلاقة جديدة مع وصول الشرفاء السعديين إلى السلطة.

ومنذ ذلك الحين، اقترن تنقل السلاطين بثنائية الشمال / الغرب والجنوب / الحوز، وتشير معطيات متعددة إلى الترسيخ التدريجي للتقاطب بين عاصمة الشمال وعاصمة الجنوب. فقد قيل عن أحمد المنصور السعدي : «كان قليل الأسفار وإنما سافر لفاس مرة أو مرتين لا غير (...)». وبه يعلم أن ما شاع على الألسنة أنه يمكث بفاس ستة أشهر ومراكش مثلها ليس بصحيح والله أعلم...<sup>44</sup>.

43. راجع :

Paul Pascon, *op.cit.*, t. 1, pp. 207 et suiv.

44. الإفرائي، م.س، ص. 199. وتظهر نفس المسألة في سياق الأوضاع التي تلت وفاة أحمد المنصور، من خلال رسالة وجهها أبو فارس خليفة مراكش إلى أخيه زيدان خليفة فاس، حول موضوع محاربة المأمون. «... نعقد على أنفسنا ولننزم متحملين بحول الله بالمحافظة على تسهيل أمن السبل بصرف أكيد الاعتناء وشديد الاهتمام لتعمير نزائل الطرقات الغربية لتمهيد الأمن في نواحيها لعابري سبلها، ومنمنع المنافع بها من تجار الأقطار الدانية والنائية بحيث (لا يكون) بين الحاضرتين المراكش والفاسية في شيء من الأحوال فرق ولا ميز حتى يستوي الجانبان، ويتحد الفريقان فتنفع الحاضرة من الأخرى انتفاعا متصلا لا يحسمه بحول الله التباين، ولا يتطرق إليه التشاح والتشاحن». انظر عبد الله گون، رسائل سعديّة، تطوان، 1954، ص. 30-31.

وبعد وصول شرفاء سجدلماسة إلى الحكم، قيل عن السلطان الرشيد إنه كان «يقسم أيامه بين المقام بمراكش والمقام بفاس وكان إذا ارتحل لفاس يترك بمراكش خليفته ابن أخيه مولاي أحمد بن محرز وإذا رجع يترك أخاه مولاي إسماعيل بالغرب»<sup>45</sup>. واستعادت مكناس دور العاصمة مع السلطان إسماعيل بسبب قربها من جبال فازاز، وهو ما أهلها للقيام بنفس الدور الاستراتيجي الذي أنيط بمراكش على عهد دولة المرابطين. وتغر مرحلة الاضطراب التي تلت وفاة إسماعيل. وها هو السلطان محمد بن عبد الله يصل إلى مراكش في أواخر محرم 1272 للهجرة (أكتوبر 1855)، فيقدم عليه وفد من أعيان فاس ليلتمس منه العودة إلى العاصمة الادريسية، و«اتخاذها محل استقراره». ويرد العاهل بأنه «لا يمكنه المقام بأرض واحدة وأنه يلزمه التطوف على سائر إيالاته والمكث بكل عاصمة من عواصمه مدة لاثقة بها ليتيسر لأهلها ملاقاته ورفع كل ما يهمهم إليه بدون أدنى مشقة تلحقهم...»<sup>46</sup>.

وفي القرن التاسع عشر، سوف يقتزن التقاطب بين فاس ومراكش بتكريس مؤسسة الأمير - الخليفة الذي يحظى بتفضيل السلطان. فعن محمد بن عبد الرحمان، قيل: «وكانت العادة بينه وبين والده أنه إذا كان والده بمراكش نهض هو للقيام بأعباء الخلافة بمكناس وفاس والعكس»<sup>47</sup>. ويبدو أن هذا الأمير استفاد من تفويض عدد من «أمور الملك ووظائفه»، «حتى كأنه ملك مستقل»<sup>48</sup>. وبعد ما خلف محمد بن عبد الرحمان أباه، عين بدوره أربعة خلفاء، وهم أخوه إسماعيل بفاس، وأخوه الرشيد بالرباط، وابنه الرشيد بتافلات، وأخوه الحسن بمراكش<sup>49</sup>. وسوف يعيد هذا الأخير نموذج أبيه، إذ تراه يكتسب بمراكش خبرة هيأته لمنصب السلطان. وبمجرد أن تمت مراسيم بيعته، شد الرحال وانطلقت المحلة السلطانية في اتجاه فاس.

وهكذا ففي ثنائية الغرب والحوز تقتزن تسمية الجهة بهوية القبائل التي تسكنها، ويقتزن ذكر الجهة بملاسات سياسية أو عسكرية، وينوع من التناوب فيما يخص حضور السلطان في عاصمة تقع في هذه الجهة أو تلك. ويختلف الأمر بالنسبة للأطراف والتخوم، وهما صفتان تُنسبان لمناطق تتميز بضعف الحضور المخزني.

### 3. الأطراف والتخوم

ما هي المناطق التي كانت تنعت بهاتين الصفتين؟ وما هي المميزات العامة لهذه المناطق؟ وما هي خصوصيات تعامل الدولة المخزنية معها؟ وما هي العوامل التي تحكمت في الظاهرة المذكورة خلال القرن التاسع عشر؟ وما هي الأسس التاريخية لظاهرة الأطراف والتخوم؟ وإلى أي حد تشكل

45. ابن زيدان، م. س، ج 3، ص. 56.

46. ن. م، ج 3، ص. 158.

47. ابن زيدان، م. س، ج 3، ص. 370.

48. ن. م، ج 9، ص. 80.

49. ن. م، ج 3، ص. 570.

الظاهرة أحد ثوابت الدولة المغربية منذ العصر الوسيط؟ سوف نكتفي ببعض المؤشرات والفرضيات التي تحتاج إلى المزيد من التدقيق والتمحيص.

لنتتبع عدداً من المناطق حسب اتجاه عقارب الساعة.

- بعد ما كان المغرب يتوفر على ساحل متوسطي نشيط، عرفت الواجهة المتوسطية احتلال بعض الموانئ من طرف الاستعمار الإيبيري، وهو ما عزل المغرب عن علاقته الحيوية بالمتوسط. وبذلك فمنذ أواخر العصر الوسيط، عاشت جبال الريف بكاملها وضعية الثغر بفعل المجاورة لمواقع الاحتلال الإسباني. وأعفى السلطان إسماعيل القبائل من عملية نزع السلاح التي فرضها على جل قبائل المغرب. وساهم مناخ الجهاد في بروز زعامة عائلة الريفي التي اكتسبت قوة كبيرة، إلى درجة أن هذه العائلة تدخلت في الصراع الذي دار داخل العائلة المالكة بعد وفاة السلطان إسماعيل، وضربت حصاراً تجارياً على فاس. وفي القرن التاسع عشر، حاولت إسبانيا أن تغير نمط حضورها لتساير حركة التوسع الاقتصادي الأوربي في المغرب. ولذلك خططت أهدافاً جديدة، تكمن بالأساس في فك الحصار عن «الجيوب»، وربطها بمحيطها القريب، وذلك لكي تجعل منها نقط تمسك داخل السوق المغربية<sup>50</sup>.

- وفي الواجهة الشرقية، ظل الحضور الفرنسي بالجزائر مصدر توتر دائم. ففي الشمال الشرقي كان التجاذب المستمر. وفي جنوب فكيك تمكنت الدبلوماسية الفرنسية أن تفرض مبدأ الحدود «البشرية» لتسهيل مطاردة المقاومين داخل التراب المغربي. وفي الجنوب الشرقي، انتهت فرنسا إلى صياغة سياسة «رقة الزيت» لتيسير التغلغل العسكري التدريجي.

- وفي الجنوب الغربي، تجاهلت بعض الشركات الأوربية (فرنسية وأجليزية) سيادة المخزن، وسعت إلى إقامة علاقات تجارية مباشرة مع قوى محلية، ولا سيما عائلة بيروك المقيمة بگلميم<sup>51</sup>.

لا شك أن هذه الأوضاع توحى بوضعية تطويق حقيقي<sup>52</sup>، وهي وضعية كانت تقترن ببنيات سياسية تقوم على صعوبة إقامة تمثيل مخزني مستمر بعيداً عن المركز المخزني. ولذلك تعودت الدولة المغربية على أن تعامل الأطراف والتخوم بمرونة تجعلها تتكيف مع ما تتيحه الامكانيات المحدودة التي كان يتوفر عليها الجهاز المخزني. فيقدر ما كان السلطان يستخدم الكتابة والمراسلة بكثافة لافتة

50. راجع :

Fouad Zaïm, « Le Maroc méditerranéen au XIXe siècle, ou la frontière intérieure », *ROMM*, dossier « A l'épreuve de la frontière », n° 48-49, 1988, pp. 61-95.

51. بصدد سرد أحداث حركة السلطان سليمان إلى «ناحية مراکش» و«ناحية السوس الأقصى»، كتب الضعيف : «ورئيس أهل آگلميم يومئذ عبد الله وسالم، له خمسة عشر مائة كانون من عبيده، ويُرطط في تلك النواحي مسيرة 19 يوماً في الصحراء، وهو فوق مائة بخمسة أيام، ومن آگلميم لزاوية أسة 11 يوماً، ومن زاوية أسة للساقية الحمراء 8 أيام، وتبقى زاوية سيدي أحمد وموسى نفع الله به وهي تازروالت في الصحراء قبله على يوم ونصف، والله أعلم». انظر تاريخ، ص. 341.

52. حول هذا الجانب، استعمل محمد الناصري عبارة «stress territorial». راجع :

Mohammed Naciri, «Territoire: contrôler ou développer, le dilemme du pouvoir depuis un siècle». *Maghreb-Machrek*, n° 164, avr.-juin 1999, p. 12 et suiv.

للتمكن من تتبع ما يجري داخل الأطراف<sup>53</sup>، بقدر ما كانت أشكال الحضور وردود الفعل تتميز بشتى مستويات الانتقائية. بين الإمهال، والامتياز، والاستغناء عن التمثيل الإداري المستمر، والاعتماد على قوى محلية وسيطة.

لكن هذه الخطأ العامة لا تعبر عن تعدد الأساليب التي اتبعتها المخزن في هذه المناطق. ففي المغرب الشرقي، وقبل احتلال فرنسا للجزائر، يتحدث صاحب «الاستقصا» عن فشل محمد بن الطيب، ابن عم السلطان عبد الرحمان بن هشام، وتعيينه بالقائد أبي العلاء إدريس بن حمان بن العربي الوديعي الجرازي. «وكانت ولاية هذا الثغر عند السلطان من أهم الولايات وأخصها بمزيد الاعتناء لبعدها عن دار الملك ومناخمتها لمملكة الترك، فكانت ثغراً من الثغور، ولكثرة قبائلها واختلاف آراء أهلها وتعدد عصبياتهم في العرب والبربر»<sup>54</sup>.

وخلال العقود التي تلت احتلال الجزائر، عرفت المنطقة استمرار التجاذب بين السلطة الفرنسية وسلطة الدولة المغربية. وعمدت هذه الأخيرة إلى ابتكار نط إداري خاص، أطلق عليه اسم «عمالة» وجدة. وقد شملت سلطة عامل وجدة مجموع القبائل القاطنة بمنطقة الشمال الشرقي، ولم تكن مهامه مقتصر على «أمور الخدمة الشريفة»، أي تحصيل الجبايات والوظائف، «والنظر في أمور القبائل»، وهي عبارة تعني تطبيق الأحكام المخزنية. بل تركز اهتمام العامل على معالجة خلافات قبائل المنطقة مع جيرانها، والتفاوض في بعض الحالات مع حكام غرب الجزائر حول قضايا تتصل برسم خط الحدود<sup>55</sup>.

وفي سوس الأقصى، كانت القبيلة تقيم علاقاتها في أربعة مستويات : مع ممثلي المخزن، وزاوية سيدي أحماذ أو موسى، وكُبريات الدور التجارية المحلية (إليغ، بيروك)، وبقية قبائل المنطقة. وكان نفوذ المخزن يعتمد على ثلاث أدوات : وهي الزعامات المحلية، وقواد حاحة، والحركات. ومن المفيد أن تتأمل الأسلوب الذي تم به استدراج إليغ داخل النسق المخزني. إنه أسلوب يقوم على تبادل الخدمات. فالزاوية والدار تساعدان الدولة في مستوى الاستعلام وبت التعليمات المخزنية، وكذلك عن طريق استعمال ما للزاوية من نفوذ معنوي، وثروة مادية، وقوة مسلحة. وقد ساعدت إليغ أيضاً في العمل على منع التدخل الأوربي في ساحل الجنوب الغربي، وذلك عن طريق الوساطة مع عائلة بيروك. وفي المقابل، عمدت الدولة المخزنية إلى تقديم الدعم الرمزي والمادي لرئيس الدار ضد القبائل المنافسة التي تنحدر من سيدي أحماذ أو موسى، والتي تتطلع إلى الاستيلاء على السلطة بتازروالت. واستفادت إليغ من عدد من الامتيازات الاقتصادية. فقد أعفي حسين أوهاشم من أداء الزكاة والأعشار والكلف، ومُنح مقراً ودوراً مخزنية بمدينة الصويرة، واستفاد من تسهيلات في تسديد الواجبات الجمركية بالميناء المذكور، ورُخص له بشراء مادة الكبريت، وضمن له أمن قوافله المتوجهة

53. انظر على سبيل المثال الافراني، نزهة الحادي، ص. 197، أحمد التوفيق، إيتولتان، ص. 480.

54. الناصري، م. م، ج 9، ص. 15.

55. انظر برحاب عكاشة، شمال المغرب الشرقي، ص. 214-215.

إلى الصويرة، وتصفية الخلافات التي كانت تتصل بأحداث النهب وقطع الطريق<sup>56</sup>. وتعبّر حالة أيت باعمران عن نموذج أقصى في علاقة الدولة بالأطراف. فإلى حدود سنة 1882، لم تكن هذه الاتحادية تعرف قواد المخزن، بل كانت القبائل تخضع لسلطة شيوخ محليين على صلة بعامل سوس المقيم بتارودانت. ومن منظور السلطان، ظل هاجس أمن القوافل أهم من هاجس تحصيل الجباية<sup>57</sup>.

#### 4. الطرف بالقرب من المركز

من أجل استجلاء علاقة القبيلة بالدولة، في الأنساق الشبيهة بالنسق المغربي، صاغ الأنثروبولوجي إرنست غلنير Ernest Gellner خطاطة تقوم على صورة الدوائر. فمن المركز إلى الطرف، نجد على التوالي :

- دائرة أولى يوجد بها القطيع المتمثل في القبائل الغارمة.
- دائرة ثانية توجد بها «قبائل المخزن»، وهي بمثابة الكلاب المكلفة بحراسة القطيع.
- دائرة ثالثة يوجد بها الذئب.

إنها استعارة تقوم على صورة الرعي، وتذكر ببعض الصيغ المأثورة في كتب الآداب السلطانية<sup>58</sup>. لكن الخطاطة لا تخلو من توتر، وهي قد تعرف عملية انقلاب الأدوار، ولا سيما بين فئة «الذئب» وفئة «الكلاب»<sup>59</sup>. وإذا ما اتخذنا القرن التاسع عشر كمحطة لمراقبة مدى مصداقية مثل هذه الخطاطة، فإن ذلك يُحيلنا على مفارقة ظاهرة الطرف القريب من المركز، والبعيد مجالياً عن موقع الهامش. ومن اللافت أن الظاهرة المذكورة تهتم مجموعة من القبائل، وتهتم في آن واحد بمجموع العواصم التي حددناها بصدد حديثنا عن ثنائية الغرب والحوز.

فبالقرب من مدينة فاس، يوجد حوض إيناون، حيث تقطن قبيلة غيائة التي اجتازها فوكو بفضل خديم لمقدم ضريح إدريس الثاني بفاس. وقد وصف الرحالة الفرنسي قوة غيائة، وضرورة اتخاذ المسافر لحماية الزطاط بمجرد عبور أبواب مدينة تازة<sup>60</sup>. والواقع أن منطقة شرق فاس كانت تتحول من حين لآخر إلى «مركز لانطلاق الرفض والمطالبة بالسلطة عندما تضمّر الأسر الحاكمة بفاس». ونجد مثل هذه الأحداث عبر عدة قرون، «من الناصر السعدي حتى الجيلالي الزرهوني (بوحمارة) مروراً

56. انظر علي المحمدي، أيت باعمران، ص. 104-105، وكذا :

Mohamed Ennaji & Paul Pascon, *Le Makhzen et le Sous ul-Aqsa. La correspondance politique de la maison d'Illigh (1821-1894)*, Paris / Casablanca, 1988, pp. 13 et suiv.

57. انظر علي المحمدي، م.ص، ص. 88.

58. حول هذا التصور، راجع :

Jocelyne Dakhli, *Le divan des rois*, p. 127.

59. راجع :

Ernest Gellner, *Muslim Society*, pp. 30 et suiv.

60. انظر النص الوارد أعلاه، ص. 91-92.

بالرشيد العلوي وبوعزة الهجري.<sup>61</sup>

وبالقرب من مدينتي مكناس وفاس، توجد قبيلة بني مطير. فالمصادر تذكر أن القبيلة كانت تكلف بضمان أمن الطريق على طريقي مكناس - فاس، ومكناس - تافيلالت. بيد أنها أصبحت موضوع حركة سنوية تشنها قوات السلطان، وذلك لأن المطيريين أصبحوا يهاجمون المارة، ويضيقون على فاس ومكناس، وينهبون أسواق المدينتين.<sup>62</sup>

وبالقرب من الرباط وسلا، توجد قبائل زمور، وزعير، والسهول. ففي سنة 1265 للهجرة (1848 - 1849 للميلاد) «كانت فتنة عرب عامر بأحواز سلا وفتنة عرب زعير بأحواز رباط الفتح، وكتب هاتان القبيلتان على المدينتين وألحوا عليها بالغارات والنهب والمبالغة في العيث والإفساد بالطرق والجناح»<sup>63</sup>.

وبالقرب من مراكش، توجد قبيلة الرحامنة. فهذه القبيلة تحتل موقعاً استراتيجياً، في «قبة الحوز» حسب تعبير إحدى رسائل السلطان سليمان. وهي ترابق طرفاً هامة مثل الطريق السلطانية التي تربط بين مراكش والشمال، والطريق التي تربط بين مراكش وموانئ منطقة الحوز (أسفي، والجديدة)، والطريق التي تربط بين مراكش ومنطقة الدير. واحتفظت المصادر بأصداء سلسلة من التورات<sup>64</sup>، مثل أحداث 1861-1862، وأحداث قطع الطريق في سنة 1875، وأحداث انتفاضة 1894.

كيف نُؤول هذه المفارقة المجالية؟ هل نُخفف من حدة ظاهرة التورت، ونذكر بمثانة الروابط التي كانت قائمة بين الرحامنة والدولة منذ حكم السعديين؟ أم نعتبرها وليدة التحولات الاقتصادية التي نتجت عن التدخل الاقتصادي الأوروبي؟

من المفيد مثلاً أن نعيد النظر في بعض المسلمات. ماذا نعني بالقبيلة؟ ألا يُحيل مفهوم القبيلة على الزعامة القبلية؟ أليست القبيلة، في كثير من السياقات، وحدات تصطنعها الدولة من أجل تسهيل عملية التطوع؟ ثم أليست التورات وليدة لحظات إعادة صياغة المخزن لتحالفاته القبلية والتوازنات؟

لا يخلو القرن التاسع عشر من قرائن تؤكد مثل هذه الفرضيات<sup>65</sup>. فقد حُرمت قبيلة الرحامنة من الأراضي الخصبة التي كانت تستفيد منها غرب مدينة مراكش، وهي أراضي استعملها

61. عبد الرحمن المودن، م.س، ص. 80.

62. العربي اكينح، قبيلة بني مطير، ص. 353 وما تلاها.

63. الناصري، الاستقصا، ج 9، ص. 60.

64. انظر:

Paul Pascon, *op.cit.*, pp. 198-207.

65. حول المقارنة بين المغرب وبلدان إسلامية أخرى في مستوى العلاقة بين الدولة والزعامات القبلية، راجع:

Ernest Gellner, *Muslim Society*, pp. 73-77; Ira M. Lapidus, « Tribes and State Formation in Islamic History », in Philip S. Khoury & Joseph Kostiner (eds.), *Tribes and State Formation in the Middle East*, London / New York, 1991, pp. 40 et suiv.

المخزن لإرضاء بعض القبائل التي تم ترحيلها واستقدامها إلى المنطقة. ولا يمكن أن نفهم تطور قبائل مثل بني مطير أو زمور، في غياب مسألة أوسع، تعود إلى بدايات الدولة العلوية في القرن السابع عشر، وهي مسألة اعتماد الدولة العلوية على اتحادية أيت إدراسن<sup>66</sup>.

ونلمس منذ عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام، سياسة تسعى إلى تقليص نفوذ الزعامات وتكثيف حضور الجهاز المخزني.

ففي حوض إيناون، كان الانتقال من قائد واحد في عام 1850 إلى أربعة قواد في عام 1894، ثم إحدى عشر في عام 1910<sup>67</sup>.

وفي زمور، كان الانتقال من قيادة ابن غازي الذي كان يحكم مجموع زمور، إلى وضعية سنة 1300 (1882-1883) حيث كانت الاتحادية تتكون من ست عشرة قبيلة يحكمها عشرون قائداً<sup>68</sup>.

ودخلت منطقة تادلا «مرحلة جديدة قسمت فيها إلى عدة قيادات نذكر من بينها قيادة بني موسى وقيادة بني عمير وقيادة بني ملال»، بالإضافة إلى قيادات أخرى أهمها «قيادات بني زمور وورديفة والسمايلة وبني معدان وسمكت وكطاية وغيرها، بل إن هذه الكيانات نفسها، التي لم تكن موجودة من قبل، تفرعت بدورها إلى عدة كيانات صغرى كما هو شأن بني ملال التي قسمت إلى أربع قيادات أولاً ثم إلى ست قيادات فثمانية...»<sup>69</sup>.

وعرفت منطقة الشاوية تطوراً مماثلاً، حيث انتهت مرحلة القواد ذوي النفوذ الواسع، مع إقالة الغازي بن المدني المزامزي الذي سبق له أن تمتع بثقة السلطان سليمان، وحكم إلى جانب الشاوية، قبائل أخرى، من بينها شتوكة، وتادلا. واستقر بقصبة سطات، وفرض على شيوخ القبائل أن يقيموا هنالك وينبؤا دورهم قرب نفس المركز<sup>70</sup>.

ومع تكثيف جهاز القواد، تزايدت أهمية المضمين المجالي «لإيالة القائد»، على حساب المضمون البشري، وهو تطور له صلة بقضية أمن الطرق. فالقائد يتحمل، من الناحية المبدئية، مسؤولية ما يقع في إيالته من هجوم على القوافل والمسافرين، وفي حال حدوث مثل تلك التجاوزات، فهو يكلف بتحصيل الذعيرة التي قد يفرضها المخزن على «إخراجه».

66. انظر أدناه، ص. 271-272.

67. راجع :

Abderrahmane El Mouddeh, « Pouvoir caïdal et Makhzen au Maroc à la fin du XIXe siècle. Le cas de l'Inawen », *B.E.S.M.*, Hommage à Paul Pascon, pp. 144.

68. راجع :

Rahma Boureqia, « La caïdalité chez les tribus Zemmour au XIXe siècle », *B.E.S.M.*, *op. cit.*, pp. 131-135.

69. محمد بوسلام، م، ص، 54.

70. انظر :

Mission Scientifique au Maroc, *Villes et tribus du Maroc. Casablanca et les Chaouia*, t. 2, pp. 253-255 ; C. Barrouquère- Claret, *Settat, centre historique de la Chaouia*, pp. 47 et suiv.

## II. زمن المجال

## 1. قضية التحقيب

إن الوقوف عند خصوصيات العلاقة بين المجال والتراب في مغرب القرن التاسع عشر جعلنا نشير إلى عنصر ثوابت تجرية تاريخية معينة. لكن فهم بعض المفارقات يتطلب مساءلة التطور والتحول. إنها قضية شائكة تهم عملية التحقيب. كيف يمكن أن نحري تحقيباً في موضوع مثل أمن السفر، أو تاريخ المجال بشكل أعم؟ وكيف تمت هذه العملية، بشكل معلن أو ضمني، في ما أنجز من دراسات؟ إن ما أثار انتباهنا هو أن التحقيب كثيراً ما تم بصفة ضمنية عن طريق إبراز حقب شهدت تحولات معينة، بحيث يفهم من تلك التحولات أنها خلقت أزمة في مستوى النسق السائد، بيد أن هذا النسق السائد، أو «التقليدي»، لم يخضع بعد لتعريف واضح المعالم.

لنأخذ مثلاً تطور المغرب خلال القرن التاسع عشر. تبدو التطورات المجالية بمثابة صدى للتحولات الاقتصادية التي نتجت عن «الانفتاح»<sup>71</sup>.

ثم لنتنقل، بطريقة استيعادية، إلى أواخر العصر «الوسيط»<sup>72</sup>. يُستدعى العامل الخارجي من جديد، من خلال التوسع الاستعماري الأيبيري. وهكذا كان احتلال عدد من مدن الساحل الأطلسي، وكان عزل المغرب عن واجهته المتوسطية التي عرفت فيما قبل حركية تجارية متميزة. وتؤكد اللوحة القائمة التي تركها كتاب حسن الوزان، في بداية القرن السادس عشر، خراب عدد كبير من المدن، وترجعاً عاماً للحياة الحضرية<sup>73</sup>، وضمور عدد من المحاور التجارية، وحركة عودة البوادي إلى حياة التنقل والترحال<sup>74</sup>.

لكن يتضح أن الأزمة بدأت في الواقع منذ أواسط القرن الرابع عشر، مع عواقب الطاعون الكبير، واختلال السلطة المرينية. لقد أصابت هذه الأزمة مجموع المغرب الكبير، وكانت الخلفية التي حفزت تفكير ابن خلدون من أجل فهم التفاوت الزاحف بين جنوب المتوسط وشماله.

وهناك دراسات انتهت إلى منعطف سابق يتمثل في القرن الحادي عشر للميلاد، حيث عرفت منطقة المغرب الكبير نزوح مجموعتين من الرحل، تتمثل الأولى في بني هلال وبني سليم

71. انظر : أعلاه، ص. 20.

72. انظر عبد المجيد قدوري، المغرب وأوروبا، ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، «الدار البيضاء / بيروت، 2000. ينطلق المؤلف من ضرورة نقل إشكالية التفاوت من القرن التاسع عشر إلى أواخر العصر «الوسيط». ويتناول بعض الجوانب المجالية، منها العلاقة بين إهمال المغاربة لشؤون البحر، وبين القارية التي دفعت إلى الانكماش نحو الداخل والتركيز على التجارة القارية، خلافاً لبعض البلدان الأوروبية التي اضطرها ضيق مجالها البري لمواجهة البحر. انظر م. س، ص. 361-355.

73. عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، ص. 181 - 184 .

74. انظر

القادمين من الشرق، وتمثل الثانية في القبائل الصنهاجية المؤسسة لدولة المرابطين، والقادمة من الجنوب الغربي. وكان من شأن هذا النزوح أن يساهم في تراجع الإنتاج الفلاحي الذي كان يقوم فيما قبل على قدر لا يستهان به من الزراعة والاستقرار<sup>76</sup>. وبموازاة لهذا التحول، أخذت مجتمعات غرب أوروبا آنذاك مساراً يتميز بنمو ديموغرافي قوي، ويتناسق فعّال بين تحسن أساليب الإنتاج الفلاحي، وبين انتعاش الاقتصاد الحضري الذي عرف فيما قبل تراجعاً شاملاً.

فرحلة البحث عن نسق تقليدي مغربي، هي في نهاية المطاف رحلة تعود باستمرار إلى الوراء، بدون أن تؤدي إلى الإمساك بالنسق - المنطلق، ربما لأن السؤال لم يطرح بالشكل الملائم. وهنا تستوقفنا أعمال المؤرخ محمد القبلي، ولا سيما مقاله الذي يحمل عنوان: «حول التحركات البشرية بجمال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر للميلاد»<sup>77</sup>. اتخذت هذه الدراسة منحى تركيبياً، وانطلقت من تصنيف ظاهرة التحرك إلى صنفين، وهما «التحركات الجماعية المكتسحة القائمة على التنافس وما يتبعه من صراع وتحالفات قبلية محدودة أو موسعة»، و«التحركات التحتية»، مثل «حركة بداية النزوح من الأندلس وكذا تلك الهجرة الاستيطانية لفئات معينة من المغاربة في اتجاه الشرق الإسلامي بالإضافة إلى حركة التواصل البشري الدائر حول تجارة الأبيض المتوسط»<sup>78</sup>.

تناول المؤلف النوع الأول من التحركات، وحاول أن يرصد خصوصية تجربة الموحدين وبني مرين. كيف تعاملت كل واحدة من هاتين الدولتين مع المجال، في مرحلة الاستيلاء على السلطة؟ وكيف دبرت المجال فيما بعد؟ ما هي «علاقة التحرك الغالب بالغير وبالمحيط»؟ وكيف كانت الردود التحتية من جانب المحكومين؟

وهكذا رسم محمد القبلي ملامح نموذج موحد قام في البداية على تطويق السهل من أجل رفع الحصار المضروب على الجبل الذي كان معقل حركة المهدي ابن تومرت. وبعد أن تم إرساء الحكم الجديد، تميزت سياسة هذا الأخير «بإمساك هذه القبائل الجبلية عن القيام بأي تحرك استيطاني مكثف نحو الأراضي السهلية المجاورة»، بل إنها «احتفظت بقاعدة انطلاقها الأولى كمجال حيوي رئيس مفضل رغم مشاركتها في تأطير هياكل الدولة وتوسيع رقعتها وعدم القبول المطلق داخل الجبل». ومن أجل ملء الفراغ الناتج عن القضاء على إمارة برغواطة، عمد الموحدون إلى «استقدام القبائل الهلالية من إفريقية وتوزيعها بالسهول الأطلسية المجاورة لمراكش». وسلكت هذه الدولة

76. انظر :

Julien Couleau, *La paysannerie marocaine*, pp. 20-21, 28-29.

وفي مستوى أعم، يعتبر موريس لومبار أن العالم الإسلامي شهد، منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد، بداية «الأزمات، والاضطرابات، والغزوات، ومعها الانحطاط المدني وانقطاع التيارات الاقتصادية». وترافق ذلك مع انقسام العالم الإسلامي إلى كيانات متعددة، تركية ومصرية ومغربية وإسبانية. راجع الإسلام في عظمته الأولى، ص. 204-205.

77. منشور ضمن كتاب للمؤلف، الحكم والولاية والمجال، ص. 41-70.

78. ن. م، ص. 41-24.

«سياسة تقوم على التعمير الفعلي بواسطة الآخر مع اللجوء إلى الترحيل الجماعي لأسباب أمنية توازنية بالدرجة الأولى»<sup>79</sup>.

أما الحركة المرينية فقد كانت في البداية حركة رعوية انساقت مع «دوافع التوسع المجالي الصرف». وكان «العامل المؤسس» هو «عامل انتزاع الأرض واكتساح المراعي السهلية». وقد أدت سياسة هذه الدولة إلى «توزيع مجال المغرب الأقصى بين مجال مركزي احتفظ به المرينيون لأنفسهم ومجال جانبي تم التخلي عنه كلياً في مرحلة أولى لفائدة المنافسين الأوائل من عرب المعقل»<sup>80</sup>.  
قد تحفز هذه الدراسة لمتابعة رصد التحولات المجالية وفق معيار سياسات الدول المتعاقبة. لكن من الممكن قبل ذلك أن تزيد في إبراز أهمية المنعطف المريني في سيرورة تشكل تراب المغرب الأقصى. وقد كان هذا التشكل نتيجة لأربع حركات تاريخية :

- سيرورة بناء هوية متميزة، من خلال إيديولوجيات دينية معارضة لإيديولوجية الخلافة بالشرق.  
- حركة اندماج الإمارات ودويلات المدن في إطار كيان أقرب إلى نموذج الدولة المركزية.  
- فشل طموح توحيد المغرب الكبير، وهو طموح حملته باستمرار دول نشأت في أقصى شرق المنطقة أو أقصى غربها. وهكذا أدى فشل أبي الحسن المريني إلى الانشطار الثلاثي الذي زاد رسوخاً مع الاحتلال العثماني للجزائر وتونس.

- إعادة تركيب الماضي على مستوى الذاكرة الاسطوغرافية السائدة، واعتماد اللحظة الإدريسية كمرحلة تأسيس للدولة المغربية<sup>81</sup>. وقد تم من خلال سلسلة من الاختيارات. فقد استعادت مدينة فاس دورها كعاصمة للملك، وتقرب الحكم المريني من أشرف فاس. واعتنى المؤرخون بالتركيز على شخصية إدريس الثاني على حساب أبيه إدريس الأول، و«نقحوا» صورة الدولة الإدريسية التي تحولت من دولة شيعية إلى دولة سنية مالكية.

وفي مستوى آخر، تتيح المرحلة الموحدية - المرينية محاولة تصنيف أولي لظاهرة التحركات البشرية السالفة الذكر، وهي ظاهرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع أمن الطرق، فهي تساعد على تفسير ظاهرة قطع الطريق، مثلما تساعد على تفسير صيغ تأمين الطريق. فتحرك المجموعات هو إما تحرك عصبية تحاول أن تستولي على الحكم لتأسيس دول جديدة، أو تحرك يدخل في نطاق سياسة الترحيل، أو تحرك ينتج عن أنماط العيش، أو عن الأزمات الاقتصادية و إكراهات البيئة و ضرورات

79. م. ن. ص. 47، 52. ولا شك أن هناك علاقة بين الأسلوب الموحدية وبين غط عيش القبائل التي شكلت نواة السلطة الموحدية، إذ تميزت هذه القبائل بنمط عيشها المستقر، خلافاً للقبائل المؤسسة للدولتين المرابطية والموحدية، والتي كانت تعيش على النجع والترحال. وقد كتب ابن خلدون في تعريفه بمصامدة جبل درن : «قد اتخذوا المعقل والحصون وشيدوا المباني والقصور واستغنوا بقطرهم منها عن أقطار العالم، فرحل إليهم التجار من الأفانق، واختلفت إليهم أهل النواحي والأمصار...». انظر العبر، ج 11، ص. 461.

80. ن. م. ص. 52.

81. انظر :

المعاش. ومن الواضح أن التمييز بين هذه الأصناف لا يعني غياب التقاطع والتداخل فيما بينها. سوف نخوض بدورنا مغامرة استجلاء محددات التطور ابتداء من المرحلة المرينية. غير أننا لن نتقيد بمتطلبات التحقيب على أساس السلالات الحاكمة، بل اخترنا أن نتتبع بعض المجموعات القبلية عبر مساراتها المعبرة. سوف نتناول على التوالي قبائل المعقل، ثم اتحادية آيت عطاء، ثم اتحادية آيت إدراسن، لننتهي إلى قصبة زطاط بالشاوية. وفي هذه الرحلة عبر المجال والزمن، لا نطمح إلى أن نستقصي أخبار الكيانات المذكورة، بل إن إشكاليتنا جعلتنا نبرز عدداً من المحطات الزمنية التي شهدت تحركات أو مواقف أو تحولات تنتمي إلى مستويات أوسع.

## 2. المعقل

لماذا الاهتمام بتحركات قبائل المعقل؟ لأن هذه المجموعة نزحت إلى المغرب في إطار أوسع، هو النزوح الهلالي، بيد أنها تتميز من حيث تشكلها وتاريخها ومسارها الجغرافي، إلى درجة أنها تقلبت عبر جل مكونات التراب المغربي.

تزامن دخول عرب المعقل إلى تراب المغرب الأقصى مع تحرك القبائل المرينية نحو السلطة في بداية القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد). وكانت العلاقة بين المجموعتين في البداية علاقة تعاون وتنافس. يبدو أن المعقل وصلوا آنذاك إلى شرق جبال الريف، وأحواز فاس، وأزغار. ومع تقدم الحركة المرينية، تمت عملية «إقصاء تدريجي لعرب المعقل عن مداخل السهول الغربية ورصد حواجز بشرية دون هذه المداخل على طول وادي ملوية ما بين بلاد اليز ووادي صا، إما بواسطة قبائل مرينية أو زناتية أخرى كمكناسة وبنو ومجاسن وبنو يرثيان وإما بواسطة قبائل حليفة كقبيلة بني وريتان الصنهاجية وقبائل سُوَيْد العربية الهلالية المستقدمة من المغرب الأوسط ابتداء من سنة 207 هجيرة على عهد أبي سعيد»<sup>82</sup>.

وتزامن وصول المعقل كذلك مع وصول السعديين الأوائل إلى درعة، والعلويين الأوائل إلى سجلماسة، أي مع حدث قدوم أو استقدام شرفاء الواحات<sup>83</sup>. فمن اللافت للانتباه أن المصادر السردية تتضمن تماًثلاً كبيراً بين ملابسات وصول «الجد القادم» لكلا السلالتين، وهما زيدان بن أحمد، والحسن بن محمد. ففي كلتا الحالتين، يرد الشريف من الينوع، على متن ركب الحاج المغربي، بطلب من سكان واحة مغربية الراغبين في التبرك بأهل البيت وإصلاح محاصيل ثمار النخيل. بل ذهب بعض الروايات إلى درجة الحديث عن اشتراك السلالتين الشريفتين في نسب واحد. نقرأ مثلاً عن السعديين: «وهؤلاء السادات يقولون إن أصل سلفهم وفد على المغرب من الينوع وأنهم أبناء عم السادات الأشراف أهل سجلماسة وأن السيد الحسن بن قاسم الداخل بلد سجلماسة كما سيأتي إن شاء الله هو ابن عم جدهم الداخل لدرعة وهو زيدان بن أحمد بن محمد

82. محمد القبلي، م.س، ص 51.

83. حول السمات المعالية المشتركة بين السعديين والعلويين قبل وصولهم إلى الحكم، انظر:

والد قاسم والد الحسن الداخلى...<sup>84</sup>. وإلى جانب علاقة النسب، هناك رابطة الصحبة والولاء، وهو ما أورده رواية شفهية سجلت صلة بين الحسن بن قاسم، الداخلى إلى سجلماسة، وبين عدي المنيع، الذي تنتسب إليه مجموعة ذوي منيع المعقلية، وهي التي عرفت فيما بعد بعلاقتها الوطيدة مع الدولة العلوية<sup>85</sup>.

بعد أن نجح بنو مرين في إقصاء قبائل المعقل، انتشرت هذه القبائل بالمغرب الشرقي وعلى امتداد الحزام الصحراوي، حتى الساحل الأطلسي. وقد ترك ابن خلدون وصفا مفصلا لتوزيع المجموعات الرئيسية من المعقل، أي ذوي عبيد الله، وذوي منصور، وذوي حسان «عرب السوس»<sup>86</sup>. وفي القرن الرابع عشر، بدأت مصاعب السلطة المركزية المرينية. وفي هذا انتقلت علاقة المعقل بالوحدات، من علاقة تقوم على السلم والتوازن، إلى علاقة يطبعها ضغط رحل المعقل على السكان المستقرين ومعظمهم من زناتة. وكان الضغط يأخذ شكل الإتاوات المجحفة، ويذهب أحيانا إلى حد حلول الرحل محل ساكنة المزارعين المستقرين.

وإلى جانب ذلك بدأ تحرك مجموعات معقلية في ثلاثة اتجاهات :

- نحو الغرب والشمال في اتجاه المجال المريني، عبر ممرات بلاد فازان (الأطلس المتوسط). ويبدو أن هذا الحدث أدى، بشكل تدريجي، إلى تحرك مجموعات صنهاجية انطلاقا من شرق الأطلس الكبير في اتجاه الشمال الغربي<sup>87</sup>.

- نحو المحيط الأطلسي، على امتداد الحزام شبه الصحراوي. وبوصول المعقل إلى الساحل، قطع طريق الانتجاع على صنهاجة، فانقسمت هذه الاتحادية إلى مجموعتين : إحداهما تسكن الأطلس المتوسط، والثانية انسحبت وتراجعت صوب الصحراء، وعرفت فيما بعد بـ«صنهاجة اللثام»<sup>88</sup>.

- نحو غرب الصحراء وموريتانيا. تمت هذه الهجرة بإيقاع بطيء في شكل مجموعات صغيرة. وافترن هذا التحرك بإخضاع القبائل الصنهاجية بالمناطق المعنية<sup>89</sup>، حيث عرفت الواحات تحولا هاما في بنيتها الاجتماعية، وظهر تراتب جديد سوف يترسخ خلال القرون اللاحقة. وفي مناطق الاستقبال، توزع المعقل على مجالين. ففي الساحل، زاوجت بعض القبائل بين الرعي والزراعة، ومن بينها الرحامنة

84. الإفرائي، م. م. ص، ص 32-33.

85. انظر:

Lt. de la Chapelle, « Le Sultan Moulay Smaïl et les Sanhaja de l'Atlas Central », *op. cit.*, pp. 18-19.

86. انظر ابن خلدون، العبر، ص 11، ص 118-121.

87. انظر:

Georges S. Colin, « Origine arabe des grands mouvements de populations berbères dans le Moyen-Atlas », *Hesp.*, t. XXV, 1938, 2°-3° trim., pp. 265-268.

88. انظر:

F. de la Chapelle, « Esquisse d'une histoire du Sahara occidental », *Hesp.* vol. XI, 1930, p. 66.

89. ن. م. ص، ص 68.

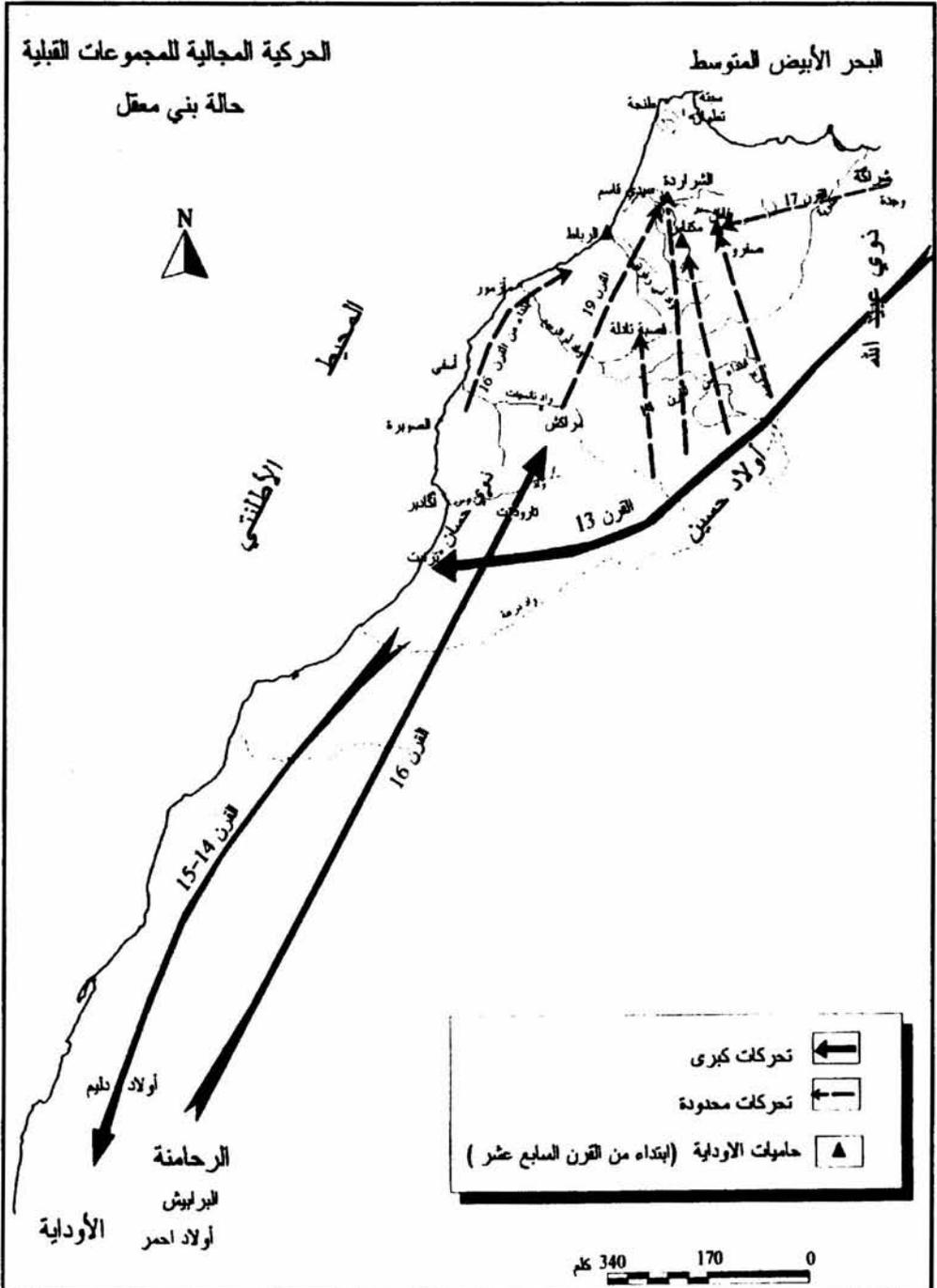
وأحمر. وفي الداخل، تعاطت قبائل أخرى لحياة الترحال، ومن بينها البرابيش وأولاد دليم<sup>90</sup>. وعلى مستوى أعم، تخلى عرب المعقل عن ركوب الفرس وتبنوا تربية الجمل مع ما يرافق ذلك من تحول في غط العيش.

---

90. انظر :

Paul Pascon, *op. cit.*, t. 1, p. 187.

91. الزباني، البستان الظريف، ص 150.



ثم جاءت تطورات القرن السادس عشر، لتدفع مجموعات معقلية هامة إلى النزوح في الاتجاه المعاكس نحو الشمال. لكنها لم تكن عودة إلى نفس المواطن السابقة، بقدر ما كانت انخراطاً في تجربة تاريخية جديدة، مع رهانات جديدة وقرقاء جدد. فقد برزت مجموعة أولى من شرفاء الواحات، وهم السعديون، وبدأ هؤلاء يتزعمون حركة الجهاد ضد الاحتلال الأيبيري للساحل الأطلسي، وتطلعوا إلى الحكم.

انتقل السعديون شرفاء درعة إلى سوس. ومن أجل تكوين «الجيش السوسي»، استقطبت الدولة الجديدة عدداً من قبائل المعقل ( أولاد جرار، وأولاد مطاع، وزرارة، والشباناث)، وأنزلتها بأزغار «على أنف جشم من الخلط وأهل الغرب»<sup>91</sup>. ومع السلطان العلوي إسماعيل، سوف يكون نفس الجيش السوسي أحد الأرحاء الثلاثة التي يتشكل منها جيش الوداية بمعناه الأوسع، وذلك إلى جانب المغافرة، «أحوال السلطان»<sup>92</sup>، والوداية، أهم المجموعات الثلاث، وهم الذين كلفوا بحماية الحواضر السلطانية، وتزويد الحاميات المرابطة بالقصبات إلى جانب عبيد البخاري<sup>93</sup>.

لنتأمل الآن مسار السعديين والعلويين في مرحلة الاستيلاء العسكري على السلطة. فقد انطلقت الحركة الأولى من سوس، وانتهت بفاس وبعدها الشمال الشرقي. وفيما يخص الحركة الثانية، فبعد المحاولات الأولى والتخلص من حصار بوحسون، نرى الرشيد ينجز انطلاقة ثانية بدأت بالمغرب الشرقي، وينتهي بتقويض إمارة إبيغ السوسية. لكن، في كلا الحالتين نلاحظ، في مستوى السند العسكري، تقابلاً مجالياً بين جيش أهل سوس / الوداية، وبين شراغة وقد كان هؤلاء في الأصل عرباً من بادية تلمسان، جندهم السعديون في البداية، ثم احتفظ العلويون بنفس التسمية ذات المضمون الجغرافي، وأعطوها لتشكيلة قبلية مركبة. «ولما جاء الله بدولة أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله واجتمع عليه من عرب أنكاد وغيرهم ما قدمنا ذكره نزع إليه من أهل تلك البلاد عدة قبائل بعضها من العرب وبعضها من البربر أنفاً من ولاية الترك فقبلهم. فمن العرب أشجع وبنو عامر، ومن البربر مديونة وهوارة وبنو سنوس...». «وجعلهم [الرشيد] قبيلة واحدة فلم تتميز الآن عربهم من بربرهم...»<sup>94</sup>.

وهكذا إذا جازفنا باختزال قرنين من الزمن وانتقلنا إلى القرن التاسع عشر، فإننا نلمس استمرارية مثيرة في مستوى دور الوداية وشراغة في الجيش، وموقع المجموعتين داخل دوائر القرار بالمرکز المخزني. هذا مع تغير خريطة التوازنات بين الوداية وشراغة، إلى جانب التوازن بين عائلات «الگيش» وفتة وصفان القصر.

92. انظر قصة لقاء السلطان إسماعيل بالمغافرة في ن.م، ص 149.

93. انظر نص الزياني، الوارد أعلاه، ص 129.

94. الناصري، م.س، ج 7، ص. 41-24.

### 3. آيت عطا

لقد بدأ مسار قبائل المعقل بالمغرب الأقصى، كما رأينا، في سياق زحف العصبية المرينية نحو الملك، وإقرار فعلي لثنائية المجال «المركزي» والمجال الطرقي. وفي فترات لاحقة تغير وضع المجموعات ذات الأصل المعقلي، إذ ولجت المجال الأول، وساهمت بكيفية فعلية في دعم دولتين أقامهما شرفاء قدموا من واحات المجال الثاني. ولم تخل علاقات المعقل بالحكام من توترات تشهد عليها عمليات الترحيل المتعددة، وبالتالي فقد جسدت تلك القبائل ظاهرة «الطرف بجانب المركز». أما اتحادية آيت عطا، فقد جاءت، في ظرفية أزمة نهاية العصر «الوسيط»، لتعيش تجربة مختلفة من منطلق مختلف، لكنها تبدو، من عدة أوجه، وكأنها دورة عطاوية حلت محل الدورة المعقلية<sup>95</sup>.

كان جبل صغرو موطن نواة الاتحادية الجديدة التي تأسست برعاية عبد الله بن حسان ولي زاوية تامصلوخت، واستقطبت مجموعة من قبائل الرحل ذوي الأصول الصنهاجية. وبالجيل المذكور، يقع «إغرم أمزدار»، وهو عبارة عن مخزن جماعي سوف يكون نواة التطور نحو الاستقرار. ويبدو أن الاتحادية كانت صيغة دفاعية اختارتها قبائل جبلية هنالك لتتكيف مع الخصائص في المنتوجات الزراعية في سياق أزمة المبادلات، ومع الحرمان من المراعي الشتوية بفعل سيطرة المعقل على البسيط<sup>96</sup>.

وقد كان ميلاد اتحادية آيت عطا جزءاً من عملية إعادة تشكّل قبلي عرفتها عدة مناطق مغربية<sup>97</sup> :

- ففي حوض إناون، ظهرت اتحادية الحياينة، «أهل جهة تازة»، في ظرفية الصراع بين السعديين والأتراك<sup>98</sup>.

- وفي الجنوب الغربي، ظهر الرحامنة بحوز مراكش، على إثر نزوحهم من موريتانيا في ركاب زحف السعديين، ودون أن ينخرطوا في «الجيش السوسي».

- وفي منطقة «الساحل»، الواقعة شمال بلاد تكتة<sup>99</sup>، تكونت اتحادية آيت باعمران في منطقة تتميز

95. سبق لأحمد التوفيق أن اعتبر، على سبيل «التماثل الفرضي»، بأن اتحادية هسكورة عرفت، منذ العصر «الوسيط»، مساراً يشبه مسار آيت عطا. راجع كتاب إيتولتان، الفصل الثاني، «أخبار إيتولتان إلى منتصف القرن التاسع عشر». وقد ميز المؤلف بين أربع مراحل، الأولى، قبل الموحدين، جمعت بين الاتحاد والتوسع، والثانية اقترن فيها توقف التوسع بمرور سلطة دولة الموحدين، والثالثة عرفت ظاهرة التقصص (بين منتصف القرن السابع وأواخر القرن التاسع للهجرة)، والرابعة عرفت الانتقال إلى وضعية التفكك (بين القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر للهجرة).

96. انظر :

Larbi Mezzine, *Le Tafilat*, p. 277.

97. عبد الرحمان المودن، قبائل إناون والمخزن، ص 75.

98. م. ن.، انظر كذلك ص 160.

99. فوكو، م، ص، هامش 1، ص. 124. يوضح المؤلف أن «الساحل» هي تسمية محلية تدل على الجزء المغربي من «الساحل» الذي يشكل منطقة أوسع تمتد حتى السنغال.

بالانتقال بين الترحال والاستقرار، وسهولة المرور «بين مناطق تنتمي إلى ثلاث بيئات : جبلية ، سهلية، وصحراوية». مما يسر الاتصال بين المناطق الصحراوية وماسة وأكادير والصويرة وسهل سوس»<sup>100</sup>.

- وفي منطقة تشمل وادي نون والساقية الحمراء، تكونت اتحادية تكنة (وهي «الضرة» بالمعنى الحرفي)، التي تجمع بين لف آيت عثمان ذي الأصل اللمطي، ولف آيت الجمل ذي الأصل المعقلي. وتجمع الاتحادية أيضاً بين نمط الاستقرار ونمط الترحال، الأول بوادي نون والجزء الغربي من جبل باني، والثاني بـ«الساحل» والساقية الحمراء. وقد تخصصت بعض قبائل هذه الاتحادية في خفر القوافل التي تجتاز المنطقة<sup>101</sup>.

بعد لحظة التأسيس، كانت جاذبية الشمال، وضغط آيت عطا على مراعي شرق الأطلس الكبير، والرغبة في التحرك نحو ذلك الاتجاه. وهنا سوف يأتي رد الفعل من جانب مجموعة من قبائل المنطقة، وذلك عبر مسلسل من الانشقاقات. بدأ ذلك بانسحاب آيت حديدو الذين كانوا يستوطنون الجزء الأعلى من حوض غريس. ثم حذا حذوهم آيت مرغاد. واستمر المسلسل إلى أن تكونت اتحادية آيت يافلما خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، وهي التي ضمت أيضاً قبائل آيت إزدك، وآيت إحيا، وعرب الصباح. ويبدو أن الكيان الجديد نشأ وسط رهانات متعددة. فقد استفاد من رعاية زاوية الدلاء، لأن هذه الأخيرة رأت فيه وسيلة لإعاققة تقدم نفوذ الزاوية السملالية شمال تافيلالت. ومن الناحية الاقتصادية، وافق ميلاد الاتحادية الجديدة تزايد أهمية محور تافيلالت التجاري المرتبط بتوات، على حساب محور درعة الذي سبق له أن دعم القوة السعدية في بداية القرن السابق<sup>102</sup>.

ومع ذلك تحركت بعض قبائل آيت عطا نحو الشمال، عبر دادس وتدغة، في اتجاه مراعي المرتفعات الواقعة على السفح الشمالي للأطلس الأوسط. وجاء تدخل السلطان إسماعيل، عبر الحركة التي نظمها سنة 1678، بهدف عزل آيت عطا الجنوبيين عن آيت عطا المقيمين بالسفح الشمالي للأطلس<sup>103</sup>، ومنع آيت عطا من الوصول إلى تادلا. وساهمت زاوية أحنصال في نفس الاستراتيجية المخزنية، في إطار علاقة تبادل المصالح بين الدولة والزاوية المذكورة. فموقع أحنصال كان يعبر عن الجاذبية التي كانت تمارسها أراضي دير تادلا، وهي «منطقة اتصال بين السهل والجبل، وكذا بين المخزن والتمرد». ولا غرابة إذن أن نرى أحمد الذهبي، خليفة أبيه السلطان إسماعيل بتادلا، يرأس شيخ الزاوية الحنصالية، ويطلب منه أن يتدخل لدى آيت عطا لكي يضعوا حداً لتحركاتهم في اتجاه السهل المذكور<sup>104</sup>.

100. علي المحمدي، آيت باصمران، ص 28.

101. نذكر منها قبيلة أزوايط. راجع مصطفى ناعمي، مادة «أزوايط»، معلمة المغرب، ج 2، ص 364-367.

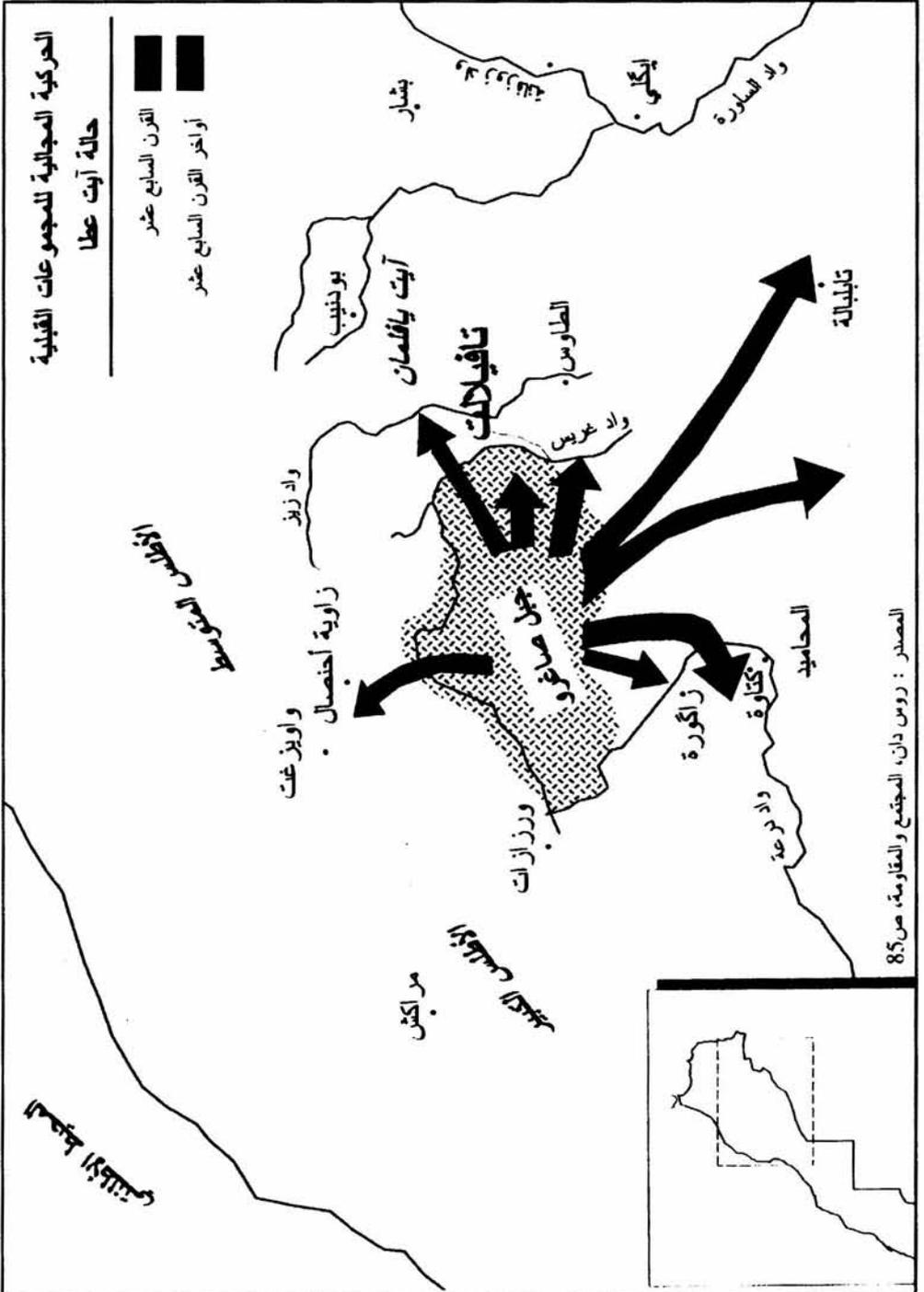
102. انظر :

Larbi Mezzine, *op. cit.*, pp. 278, 292.

103. دخل شارل دو فوكو تراب «آيت عطا دأمو» عند مغادرته لبني ملال، وألح على التمييز بينهم وبين آيت عطا القاطنين بدرعة. انظر فوكو، م. ص.، ص. 69.

104. عبد الله الحمودي، «الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداية : ملاحظات حول أطروحات كلنير» ضمن عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق (ترجمة)، الأنثروبولوجيا والتاريخ، ص. 76 وما تلاها.

ثم انتقل آيت عطا من الانحصار إلى الانتشار عبر الحزام الصحراوي. هكذا أعادت الاتحادية إنتاج الدورة المعقلية. ففيما بين القرن السابع عشر ونهاية القرن التاسع عشر، سيطرت القبائل العطاوية على جزء هام من مجال المغرب شبه الصحراوي، وبسطت الاتحادية مراقبتها على طريق تافيلالت - درعة، بينما كانت قبيلة آيت إزدك (من اتحادية آيت يافلمان) تراقب تيزي ن تالقمت والطريق التي تربط هذا المر بقصر الرتب بتافيلالت، وهي طريق تمتد على مسافة تتجاوز مائة وخمسين كيلومترا. ومن اللافت للنظر أن آيت عطا بسطوا حمايتهم على عدد من المجموعات المعقلية التي لم تغادر المنطقة ضمن المسارات التي تعرضنا إليها آنفا، وهي بالتحديد قبائل ذوي منيع وأولاد جرير (جنوب شرق منطقة نفوذ آيت عطا)، وبني امحمد (تافيلالت، درعة)، وعريب (جنوب درعة، بمنطقة محاميد الغزلان)، والروحا. وفي بعض الحالات، تقترن هذه العلاقة بتقسيم العمل. ففي أواخر القرن التاسع عشر، وعلى المحور الرابط بين تافيلالت وتوات، كان بني أمحمد يحترفون التجارة وتنظيم النقل القافلي، بينما كان حمايتهم آيت خباش (من آيت عطا) يوفرون الجمال والخفر<sup>105</sup>.



## 4. آيت إدراسن

سبق أن رأينا كيف كان ظهور اتحادية آيت يافلما، بشرق الأطلس الكبير، رد فعل تجاه ضغط آيت عطا في اتجاه الشمال. لقد بدأ تاريخ آيت إدراسن، شمال تراب آيت يافلما، عن طريق آليات مماثلة، مع بعض الخصوصيات في مستوى التعبيرات السياسية للدور المجالي المنوط بقبائل الاتحادية.

يبدو أن آيت إدراسن كانوا ينتمون في الأصل إلى مسوفة، إحدى مجموعات «صنهاجة اللثام». وحوالي القرن الحادي عشر، نزح آيت إدراسن من غرب الصحراء في اتجاه الشمال الشرقي، وانفصلوا آنذاك عن مسوفة. وهكذا أقاموا بتافيلالت، ثم في أعالي زيز وغريس، حيث ذكرتهم المصادر الموحدية ضمن «صنهاجة القبلة». وهناك انتقلت المجموعة إلى غط الاستقرار، وتحولت إلى قبائل مزارعين. وفي الظرفية التي نشأت فيها اتحادية آيت عطا، تحرك آيت إدراسن من جديد في اتجاه الشمال الشرقي، واستوطنوا مجالا يقع بين أعالي ملوية وناحية صفرو.

تشكلت النواة الثابتة لآيت إدراسن من القبائل التالية : آيت يوسي، وآيت عياش، وآيت إحاند، وآيت أوفلا، وآيت نظير (بني مطير)، وإمجاط. وقد بدأت الاتحادية بمشايعة الزاوية الدلائية، ثم دخلت في خدمة الدولة العلوية منذ أن أقام السلطان إسماعيل ببلاد ملوية (1684). وهكذا خضعت لعملية نزع السلاح، وأرغمت على التخلي عن التنقل، وتحولت إلى غط الاستقرار. ومنحها العاهل امتيازات جبائية، وكلفها بحماية الطريق الرابطة بين فاس وتافيلالت، والطريق الرابطة بين مكناس وتافيلالت.

ذلك أن ظهور الاتحادية جاء في سياق عام شهد تحرك مجموعات صنهاجية من السفح الجنوبي للأطلس في اتجاه الشمال الغربي. وكانت للمجموعة الجديدة هوية يحددها التعارض مع مجموعتين، وهما آيت يافلما القاطنين جهة الجنوب والراغبين في الوصول إلى السفح الشمالي للأطلس الكبير، وآيت أومالو (في اتجاه الشمال الغربي) الراغبين في تملك مراعي في السفوح الجنوبية للأطلس المتوسط. وساهمت هذه التطورات في بروز أوليغارشية محلية، مثل عائلة آيت يشو (كان أول رجالها بايشو القبلي)<sup>106</sup>، وقد حلت محلها عائلة وأعزير ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

غير أن اتحادية آيت إدراسن سوف تضعف تدريجيا ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. فقد ازداد ضغط آيت يافلما، وتحالف هؤلاء مع آيت أومالو ضد آيت إدراسن. وقد سمح السلطان محمد بن عبد الله لآيت إدراسن بالنزول إلى بسيط سايس، وكلفهم بمحاصرة آيت أومالو. ثم لعبوا دوراً كبيراً في عملية انتقال الحكم إلى السلطان سليمان، وذلك على حساب العبيد والوداية. وخلال هذه الأحداث، برزت شخصية محمد وأعزير المطيري. لكن التطور اللاحق كان في اتجاه تأزم العلاقة بين آيت إدراسن والسلطان، حيث حاول هذا الأخير أن يعيد

106. ورد ذكر بعض رجال هذه العائلة القائدية في بعض النصوص أعلاه. انظر على سبيل المثال ص. 132.

تنظيم جيش العبيد، ويقوي الوداية. وأحدث قبائل جيش جديدة : أولاد جامع، وبني حسن. وهكذا نجد المؤرخ أبا القاسم الزياني، في سرده لأحداث أواخر عهد السلطان سليمان، يميز بين كتلتين : «برابرة الدولة» (بني مطير، آيت إدراسن، زمور، حكم، آيت إامور، گروان)، و آيت أومالو<sup>107</sup>. وبشكل تدريجي، سوف يتهزم آيت إدراسن أمام اتحاديات أخرى. وسوف يزداد نفوذ قبائل زمور ضمن «برابرة الوطاط»، وتبرز زعامة محمد بن غازي، قائد زمور وبرابرة فازاز. وقد كان من كبار رجال المخزن، مقربا من السلطانين سليمان وعبد الرحمان.

كيف كان مصير آيت إدراسن في أواخر القرن التاسع عشر ؟ حصلت تحركات بشرية جعلت ملوية العليا موطننا لآيت يافلما و آيت أومالو. أما آيت إدراسن فقد تحركوا نحو الشمال تحت ضغط قبائل أخرى، أو انصهروا في اتحاديات أخرى مثل آيت يافلما أو آيت أومالو، أو حافظوا على استقلالهم، مثل آيت يوسي الذين أصبحوا ينفردون بحمل اسم آيت إدراسن في كتابات أخباريي نهاية القرن<sup>108</sup>.

107. الزياني، الترجمانة الكبرى، في أخبار المعمور برا وبعرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، الرباط، 1991، ص. 75-76. راجع :

Amina Ibrai-Aouchar, « Les communautés rurales de la Haute Moulouya du XVII e siècle à nos jours. Administration locale et pouvoir central », *Hesp.-Tam.*, vol. XXVI-XXVII, 1988-1989, fasc. unique, pp. 171-196.



## 5. قصبة زطاط

ربما لاحظ القارئ أن هناك خطين رئيسيين مرت عبرهما التحركات التي تعرضنا لها بشكل أو آخر : أحدهما يسير من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، والثاني يسير من الجنوب الغربي إلى الشمال الغربي. وبالتالي فمنطقة الشاوية جزء من مجال كان بمثابة محطة وصول. وداخل الشاوية هناك قصبة سطات التي تشكل، كما سنرى، نقطة تحمين تعود إلى القرن السابع عشر، وفي أن واحد علامة لغوية تشير إلى أهمية تأمين الطريق كأحد عوامل مسلسل التمدين على المدى البعيد.

تقدم تطورات العصر الوسيط مفاتيح مناسبة لفهم جذور قضية السهول الغربية، وقضية الشاوية بشكل خاص. لقد شكلت هذه المنطقة السهلية تراب دولة برغواطة خلال مدة تناهز أربعة قرون. إنه « مجال -رهان» حقيقي، وهو مجال «لم يعد مجرد رهان معرض للمطامع المتبدلة وإنما أصبح مجالاً محصناً تحصيناً بشرياً رسمياً منذ أن جعل منه الموحدون شبه «تكنة-إقطاع» قبل أن يقوم المرينيون بـ«إسناده» إلى بني جلدتهم بغية الارتكاز عليه كقاعدة متصلة رأساً بقواعدهم البشرية الزناتية المرابطة على المداخل والممرات الجبلية...»<sup>109</sup>.

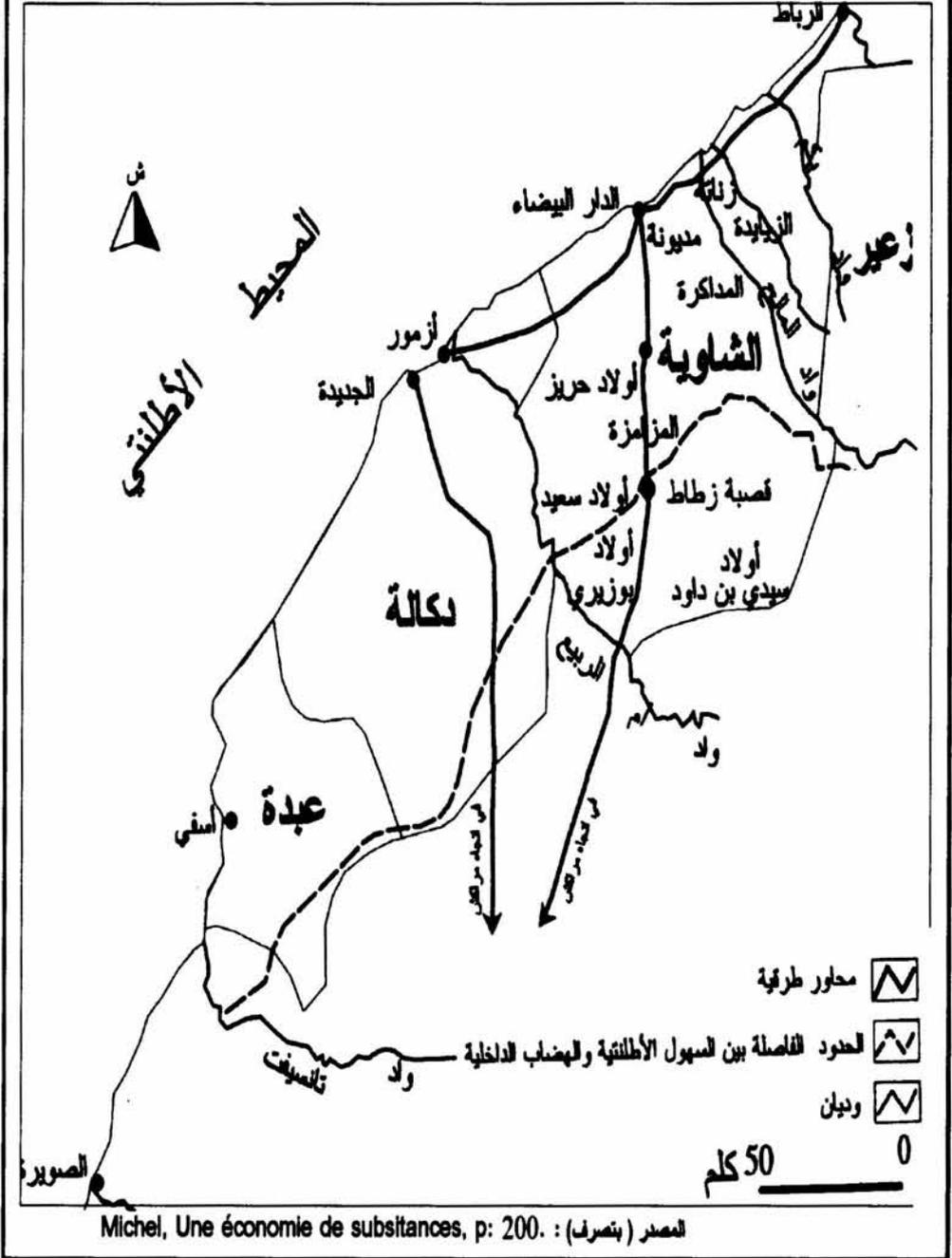
لنتأمل تسمية الشاوية وما تحمله من دلالة بشرية ومجالية. فقد أورد ابن خلدون : «الشاوية من ولد حسان بن أبي سعيد الصبيحي، نسبة إلى صبيح بالتصغير، بطن من بطون سويد، وسويد إحدى قبائل بني مالك بن زغبة الهلاليين. وكان دخول حسان وأخيه موسى بن أبي سعيد إلى المغرب الأقصى أيام السلطان يعقوب بن عبد الحق»<sup>110</sup>. وقيل إن الشاوية كانوا «يتصرفون في الدولة على ما كان لسلفهم من ولاية الشاوية، والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل الإبل»<sup>111</sup>.

109. محمد القبلي، م.س، ص. 53.

110. مذكور في علال الحدادي، احتلال الشاوية، ص. 113.

111. ن.م.

### الشاوية وقصبة زطاط (سطات)



وورد ضمن أخبار السلطان أبي يوسف يعقوب المريني أنه «أنزل بها قبيلة الشاوية، قدموا من المغرب الأوسط، أما عربهم فمن سويد الهلاليين، وأما زناته، فمن مغراوة ومزاب وكتامة الإياضيين، وانضاف إليهم من الوطنيين والبربر خلق كثير، وأطلق على الجميع اسم الشاوية لقيامهم على رعاية شاه السلطان وإبله»<sup>112</sup>.

وداخل المجال المذكور، هناك اتحادتان . تحمل الأولى اسم أولاد بورزك، وهي تضم قبائل المزامرة، وأولاد بوزيري، وأولاد سيدي بنداود، وأولاد سعيد، وزناته. وتحمل الثانية اسم أولاد عطية، وهي تضم قبائل مزاب، وأولاد حريز، والمداكرة. وإلى جانب هاتين المجموعتين الرئيسيتين، توجد مجموعة ثالثة تحمل اسم الشهاونة، وهي تضم قبائل مديونة، وأولاد زيان، والزيادة، وقد تعودت أن تتحالف مع أولاد عطية في حالة نشوب صراع بين المجموعتين الرئيسيتين.

لنتوقف الآن عند قبيلة المزامرة. يُحكى أن هذا الاسم يعود إلى زمن بعيد وغير محدد بدقة، حيث استقدم أولاد بورزك مائة عائلة من أمزميز (الواقعة جنوب غرب مراكش) ليستعملوها كمجموعة عازلة تحمي الاتحادية<sup>113</sup>. وقبيلة المزامرة هي التي سوف يحتضن ترابها قسبة زطاط، التي سوف تتحول في وقت لاحق إلى مدينة سطات.

كيف نشأت زطاط ؟ وردت حول هذا الموضوع قصص من المفيد أن تستحضرها، ويلتبس فيها عنصر الوقائع بمتخيل الأسطورة.

تدور بعض الحكايات حول الولي المؤسس<sup>114</sup>. والواقع أن الروايات تتحدث عن رجلين من رگراگة، وهي قبيلة كانت تقطن بين أم الربيع وحوز مراكش. فالولي الأول هو سيدي الغلّيمي، وهو رجل عاش في القرون الأولى للهجرة، وعاصر السلطان إدريس الثاني مؤسس فاس (?)، ويقال إنه جاء ليقضي أواخر حياته قرب عين سطات. وتركز بعض الروايات على قرب عصر الغلّيمي من عصر السلطان العلوي إسماعيل، على التحديد الكرونولوجي الوحيد هو أن ضريح الولي سبق عهد السلطان المذكور، وقد بني في غاية البساطة، وكان يستقبل عدداً غفيراً من الزوار.

أما الولي الثاني فهو سيدي بوعبيد، ولا تذكر الروايات حول هذا الرجل سوى أنه من أتباع ذلك المهاجر الرگراگي الشهير الذي ذهب إلى المشرق، وحضر دعوة نبي الإسلام، وواظب على الاستماع إلى كلام النبي دون أن يتعلم اللغة العربية، واستمر على هذه الحال إلى أن سمع النبي يخاطبه بالأمازيغية، فبهرتة هذه المعجزة إلى درجة أنه عاد إلى بلده الأصلي ليصبح هناك من أنشط

112. ن.م. وحول «ولاية الشاوية»، انظر كذلك :

Mohamed Kably, *Société, pouvoir et religion*, pp. 230- 231.

113. انظر :

Mission Scientifique au Maroc, *Villes et tribus du Maroc*, t. 2, pp. 266-267.

هناك روايات تتحدّد وصول المزامرة إلى المنطقة في عهد يعقوب بن عبد الحق المريني.

114. حول هذا الجانب، راجع :

C. Barrouquère- Claret, *op. cit.*, pp. 30-31.

الدعاة إلى الدين الجديد<sup>115</sup>.

وهناك روايات تربط تأسيس قسبة عين سطات بموضوع الزطاطة<sup>116</sup>. يحكى أنه في وقت غارق في القدم، كانت عصابة من قطاع الطرق تسكن بجوار العين، وقد تعود هؤلاء على أن يفرضوا إتاوة على المسافرين الذين يتوقفون بالعين للتزود بالماء أو لإيراد الدواب. وكثيراً ما كان قطع الرأس هو عقاب كل من رفض أن يؤدي المبلغ المطلوب عن طيب خاطر. وفي يوم من الأيام، تم قتل ستة عشر مسافراً بسبب امتناعهم عن دفع الإتاوة المعهودة. وبعد ذلك علق رؤوسهم كي يعتبر بذلك اللاحقون. ومنذ ذلك الحين، سمي المكان بعين سطاش راس<sup>117</sup>، وهو أصل كلمة سطات.

وتروي قصة أخرى أن الموقع المعني مجرد وكر تأوي إليه عصابات من اللصوص الذين كانوا يقطعون الطريق ويسلبون المارين قرب عين زطاط. وفي بداية عهد السلطان إسماعيل، اشتهرت بهذه الأعمال المشينة عصابة تضم ستة عشر رجلاً. فأمر السلطان باعتقال هؤلاء القطاع وإعدامهم، ودفنهم تحت أساس التحصينات التي أمر بإقامتها حول العين المذكورة، وبذلك يكون اسم سطات مجرد تحوير للكلمة العامية سطاش (ستة عشر)، حيث حل حرف التاء محل حرف الشين.

إلى جانب تأسيس القسبة، هناك روايات تحكي أحداث تعيين أول قائد بالمنطقة<sup>118</sup>. يقال إنه قبل عهد السلطان إسماعيل، كانت قبائل الشاوية تخضع في الأصل لقواد الرحامنة، ثم لرؤساء أقوىاء من دكالة. أما تعيين أول قائد من طرف السلطان إسماعيل، فهو حدث يحكى في صيغتين. تقول الصيغة الأولى إن علي بن الحسن كان مجرد راع بسيط يتنقل بالقرب من عين سطات. وخلال إحدى حركات إسماعيل إلى الجنوب، مر العاهل بهذه المنطقة. وكان الوقت وقت مطر غزير، فالتمس الحسن من السلطان أن يختبئ بخيمته، وذبح خروفاً على شرف الضيف الكبير. وقد تأثر السلطان بهذا الاستقبال، فوعد الراعي الشاب بالحماية والدعم. وبعد ذلك قصد الحسن مدينة فاس لتذكير السلطان بما وعده به. ومر الراعي بسلسلة من الصعوبات، إذ تم إبعاده من القصر ووضع في السجن، لكنه تمكن في النهاية من مقابلة السلطان. وعاد إلى موطنه ومعه ظهير عين بمقتضاه «قائداً على مجموع قبائل الشاوية».

115. قارن مع الرواية المتداولة حول «سبعة رجال» من رگراگة. يقال إن هؤلاء سمعوا بالدين الجديد، فاسفروا إلى الحجاز. وبعد وصولهم إلى مكة، دخلوا المسجد. وهناك اتجهوا إلى مجموعة كان بها النبي الذي لم يكونوا يعرفوه، وقالوا بالأمازيغية: «من منكم رسول الله؟»، فأجابهم النبي بنفس لغتهم: «أنا، تقدموا». فاعتنقوا الدين الجديد، وسلمهم النبي رسالة إلى سكان المغرب يدعوهم فيها إلى الإسلام، وقرئت الرسالة في مكان يسمى «موضع شاكر». وبعد ذلك أسلم المصامدة وبعدهم كافة سكان المغرب. والملاحظ أن سيدي بوعبيد لم يرد ضمن أسماء الرجال السبعة. انظر:

Henri de Castries, « Les Sept Patrons de Marrakech », *Hesp.* vol. 4, 1924, pp. 253-254.

116. انظر :

C. Barrouquère- Claret, *op. cit.*, pp. 42-43.

117. هناك علامات طوبونيمية أخرى تسجل العلاقة بين العين وخطر قطاع الطرق. نذكر على سبيل المثال اسم «اشرب واهرب» الذي كان يطلق على عين توجد جنوب فزكادوين، في الطريق الداخلي الذي يجتاز غرب الأطلس الكبير، من مراکش إلى سوس عبر تيزي ن ماشو. انظر محمد زرهوني، الأطلس الكبير الغربي، ص 60.

118. ن.م، ص 43 وما تلاها.

وتذكر الصيغة الثانية أن أحمد بن بهلول وأحمد بن لحسن هما رجلان صالحان كانا يسيران بالقرب من مرجة مديونة. فقال الثاني للأول: « هل رأيت هذه المرجة التي يستحيل اجتيازها؟ ذلك هو المكان الذي سوف تشيد فيه قصبة». وأشار لأحد الرعاة وأضاف: « وهذا الأقرع الذي تراه هنالك هو الذي سوف يصبح قائد القصبة».

ومرت مدة قصيرة، وإذا بالسلطان يمر من هناك متنكراً، فرفضت كل الخيام أن تستضيفه، فقصده مع رفيقه نواله بئيسة، يسكنها علي، وهو الراعي الأقرع. قال الوافدان المجهولان: «نحن ضيوف الله»، فاستقبلهما علي وعمل ما في جهده لتكريمهما على النحو الأمثل، وذبح شاة على شرفهما.

ودار الحديث داخل الخيمة، فسلم الضيفان بطاقة للراعي وقال له: «إذا أتيت إلى فاس أو مراكش، فاطلب مقابلة السلطان، وسلمه هذه البطاقة».

وفي وقت لاحق، أمر المخزن بتعبئة حُرْكة، ولم يرغب أحد من المنطقة أن يساهم فيها. فأرسل إليها علي، وزود ببعض النقود، وجهاز بفرس ضعيف القيمة. وخلال الحُرْكة، كشف علي عن بطاقته، فتم تقديمه للسلطان. وهكذا عاد إلى منطقتة، ومعه ظهير ينص على تعيينه قائداً على الشاوية.

ويستفاد من هذه الرواية الأخيرة، أن أول قائد للشاوية لم يكن ينتسب إلى قبيلة المزامرة، بل كان من أولاد حريز أو مديونة.

وخلف هذا التركيز على سطات، من منظور تأمين الطريق، هناك أهمية موقع القصبة. فهي تقع وسط قبيلة المزامرة الكبرى، كما أنها تقع على الطريق التي تربط مباشرة بين الدار البيضاء ومراكش. وتقع سطات على بعد مسير يوم واحد من وادي أم الربيع، وهي تراقب مختلف نقط عبور الوادي، مثلما تراقب الجزء الجنوبي من سهل برشيد، ومختلف نقط عبور نهر أم الربيع.

وفي مستوى آخر، كانت سطات نموذجاً للقصبة الاسماعيلية التي سوف تتحول إلى نواة حضرية. فعندما مر شارل دو فوكو بمنطقة تادلا والددير، سجل معطيات دقيقة حول هذه الظاهرة بناء على مشاهداته. فقد ذكر عدداً من التجمعات السكنية التي كانت في الأصل قصبات إسماعيلية، وقد عرفت تطورات مختلفة ونمواً متفاوتاً. فبعدما غادر فوكو زاوية أبي الجعد، توجه إلى قصبة تادلا التي كان عدد سكانها يتراوح آنذاك بين 1200 و1400 نسمة<sup>119</sup>. ثم زار فشتالة التي لم يبق من قصبتها سوى أطلال، ولم تعد سوى قرية صغيرة (ما بين 250 و300 نسمة)<sup>120</sup>. وبعد ذلك زار قصبة بني ملال، وتسمى أيضاً قصبة بلكوش، وهي مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها 3000 نسمة، وعُشرهم من اليهود<sup>121</sup>.

119. فوكو، م. س، ص. 57-58.

120. ن. م، ص 59-60.

121. ن. م، ص 63-65. راجع كذلك محمد بوسلام، م. س، ص 63 وما تلاها.

### III. روافد المؤسسة

من أجل فهم قضية أمن الطرق في القرن التاسع عشر، حاولنا فهم خصوصيات مفهوم التراب بالمغرب. ومن أجل فهم مفارقات سيرورة تشكل التراب، حاولنا أن نطرح سؤال التطور التاريخي منذ «العصر الوسيط»، مع التركيز على التحركات البشرية على اعتبار أن هذه الظاهرة تساعد على فهم ثنائية قطع الطريق وتأمين المسافرين.

لقد فضلنا تناول التطور التاريخي من خلال المسارات المعبرة لبعض المجموعات، عسى أن نتلمس بعض الثوابت. واتضح أن منطقة المغرب شبه الصحراوي لعبت دوراً هاماً في هيكلية الثنائية المجالية التي سنتها السياسة المرينية بشكل ضمني. ويبدو أن هناك دورة معقولة تمت إعادة إنتاجها، من وجهة دفاعية، لصالح اتحادية آيت عطا. لكن مقاربتنا اقتضت، إلى هذا الحد أو ذاك، على تحركات خضعت لنوعين من العوامل، منها ما يتصل بالسلطة وأدواتها القبلية، ومنها ما يتصل بإكراهات البيئة أو إغراءاتها.

سوف نغير الآن زاوية الملاحظة، وننزل أكثر إلى مستوى التدبير اليومي لقضية أمن السفر، لنرى كيف صاغت مكونات المجتمع المغربي أدوات مؤسساتية لتيسير التنقل داخل إطار عام يطبعه الاختلاف.

سبق لنا أن تتبعنا، عبر نصوص الفصل الرابع، كيف تم تقنين مؤسسة الزطاطة عبر الممارسة العرفية، وفقه «العمل» الذي تبنى العرف باسم المصلحة. سوف نعود الآن إلى مفهوم المؤسسة في مستوى المدلول الاجتماعي التاريخي، وبدل أن نتقيد بالجانب القانوني، سوف نتناول المؤسسة من خلال معجم الزطاطة، ووظائف أوفاق التضامن والحماية بشكل عام.

#### 1. المعجم وامتداداته

حاولنا رصد الكلمات التي استعملت للدلالة على الزطاطة<sup>122</sup>، وتوصلنا إلى أربع عشرة وحدة نقدمها كالتالي :

1. أَمُورٌ، وهي كلمة أمازيغية تعني في الأصل الحماية والحرمة<sup>123</sup>.

122. إن محاولتنا جد متواضعة، ومعلوم أن الدراسة الرائدة في هذا الميدان تعود إلى اللساني الفرنسي إميل بينفنيست الذي فتح البحث المعجمي على تاريخ المجتمعات والثقافات. راجع:

Emile Benveniste, *Le vocabulaire des institutions indo-européennes*.

123. انظر أعلاه، ص. 202-205. وعلى الأخص ص. 202، حيث وردت الإشارة إلى المصطلح كمرادف سبق استعماله قبل كلمة «الزراگ». وحول استعمال «أمور» بمعنى الزطاطة عند «البرابر» (بشكين الباء مرتين، ولعلمهم سكان الأطلس المتوسط)، راجع:

Bernard G. Hoffman, *The Structure of Traditional Moroccan Rural Society*, pp. 100-101.

2. أَعْفِيرٌ، وهي تخوير أمازيغي لكلمة غفر العربية التي تدل على الحماية<sup>124</sup>. وقد ورد في أحد بنود اتفاقية أقيمت بين بعض فصائل تكنته أنه «يمكن لأيت بلة أن يغفروا في تراب آيت موسى أعلي ومن والأهم، كما أن آيت موسى أعلي يغفرون في تراب آيت بلة»<sup>125</sup>.
3. بذرقه، من أصل فارسي، تعني الخفارة<sup>126</sup>.
4. خفارة. يقال : «خفزه وخفر به وخفر عليه : أجاره ومنعه وأمنه». وقيل الخفارة هي «الذمة». و«خفير القوم : مجيرهم الذي يكونون في ضمانه ما داموا في بلاده»<sup>127</sup>.
5. دَوَازٌ، ويقال أيضاً دَوَاسٌ، وهو تحريف لكلمة جواز<sup>128</sup>، أي الذي يساعد على اجتياز مجال معين.
6. رَفَادٌ، وهو يرادف أحيانا الرطاط<sup>129</sup>، ويستعمل أكثر بمعنى الضامن.
7. رَفِيْغٌ، تخوير عامي لكلمة «رفيق»، بمعنى رفيق الطريق.
8. رِقَاصٌ، وهي كلمة متداولة بمعنى الرجل الذي ينتقل مشياً على الأقدام لإيصال المراسلات<sup>130</sup>.

124. ينبغي أن نميز بين أعفير (الخفير)، وبين أغفار ومعناه «ضريبة مرور السلع عبر مجال ترابي لقبيلة معينة. فقد كان هذا الواجب يدفع عينا أو نقدا من طرف تجار القافلة المتاجرة لمراقبي المسالك التجاري. كما كان أغفار يأخذ في بعض الأحيان طابع الذعيرة». مصطفى ناعمي، م.س، ص 142، هامش 24. والراجع أن كلمة أغفار بهذا المعنى ترادف الغفر (بتسكين العين والغاء) عند الطوارق الشماليين. انظر :

Henri Duveyrier, *Les Touareg du Nord*, t. 1, p. 396.

125. وثيقة في حوزة أحمد جوماني الذي يحضر بحثاً في التاريخ الاجتماعي لمنطقة وادي نون.  
126. يقول الفيروزيادي في القاموس المحيط : « الخفارة والمبذرق الخفير (...) والبيادة الرجالة والبذق الدليل في السفر كالبيدق أو الصغير الخفيف)». انظر ج 3، ص 211. ونلتقي بمصطلح البذرقه عند ابن خلدون. ففي سياق تعريفه ب«وطن توات»، وفيه قصور متعددة تناهز المئين، أخذت من الغرب إلى الشرق، وأخرها من جانب الشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستبحر في العمران، وهو ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد، ومن بلد مالي إليه، وبينه وبين ثغر بلد مالي المسمى غار، المغازة المجهلة لا يهتدى فيها للسبل ولا يمر الوارد إلا بالدليل الخثريت من الملتئمين الطواعن بذلك القفر، يستأجره التجار على البذرقه بهم بأوفى الشروط». وعن مجموعة عبيد الله، من المعقل، يقول ابن خلدون : «فلا بد لهم في كل سنة من رحلة الشتاء إلى قصور توات وبلد تمنطيت، ومع ناجعتهم تخرج قفول التجار من الأمصار والتلول، حتى يخطوا بتمنطيت، ثم يبذرقون منها إلى بلد السودان». انظر كتاب العبر، ج 13، ص 118، 119.

127. راجع تاج العروس، مادة «خفر».

128. راجع محمد الحلوي، معجم الفصحى في العامية المغربية، الدار البيضاء، 1988، ص 76.

129. نقرأ في البند 30 من عرف قصر بونديب : « يمكن لرفاد أجنبي أن يحمي أناساً يسكنون مؤقتاً مع أهل بونديب، ويمكن لهؤلاء أن يوفروا نفس الحماية. لكن القوافل والخيام تستثنى من هذه القاعدة، ولا تحميها سوى قبيلة أهل بونديب». انظر :

Nehil, « L'Azerf des tribus et qsour berbères du Haut-Guir », *op.cit.*, fasc. 1. pp. 89.

130. كان الرقاصون يشتغلون لفائدة الفئات التي كانت في الحاجة إلى تبادل الأخبار أو التعليمات في أجال سريعة، ولا سيما الجهاز المنزني، والقيادات المحلية، وكبار التجار. حول العمق التاريخي لهذه المؤسسة في بلدان المغرب الكبير راجع هوبكنز، النظم الإسلامية في المغرب، ص 58-60. وحول الأهمية الأمنية للرقاص من منظور المخزن، انظر عبد العزيز الفشتالي، متاهل الصفا، تحقيق عبد الكريم كرم، دت، ص 207-208. وحول منهجية الرقاص في مستوى المشي والتوقف، راجع :

Général Daumas, *Meurs et coutumes de l'Algérie*. pp. 194-195.

وقد كانت سرعة الرقاص الراجل تبلغ أحيانا حوالي 60 كيلومترا في اليوم الواحد. أما «رقاص الشرط»، فكان بمثابة ساعي البريد المستعمل، و«كان يجد في كل نزلة حصانا مسرجا ملجأ يمتطيه إلى النزلة التي تليها تاركا فيها الحصان الذي امتطاه في النزلة التي قبلها، ويقال إن رقاد الشرط قطع المسافة بين طنجة وفاس في 12 ساعة فقط على عهد السلطان عبد الحفيظ». ابن زيدان، العز والوصول، ج 1، ص 407.

- وفي بعض الأحيان، يعني المصطلح مبعوث الزاوية الذي يتولى أحياناً مراقبة المسافر، ومعه مكتوب من شيخ الزاوية، يقدمه عند وصوله عند كل قبيلة توجد في الطريق، فتوفر الحماية اللازمة للرفقة<sup>131</sup>.
9. زطاط، من الأمازيغية: زط، أي فعل نسج، وأزطاً، ومعناها الثوب<sup>132</sup>. ويقال بالأمازيغية أزطاط بمعنى الزطاط، وتآزطاطت بمعنى الزطاطة. وتوجد بتراب زمور بقعة تسمى «تيزطين»، نسبة إلى لالة عائشة تيزطين التي اشتهرت بصنع الزرابي الرفيعة والحنابل المرقمة المشاة. ولا يزال النساء يقصدن قبرها للتوسل إلى الله بها<sup>133</sup>، وذلك من أجل اكتساب الخبرة في الصناعة المذكورة.
10. صاحب الركاب، وهو مصطلح كان يستعمل في بلاد آيت باعمران<sup>134</sup>.
11. عناية، مصطلح استعمله شارل دو فوكو بمعنى الزطاط في المغرب، لكن يبدو أنه كان أكثر شيوعاً في منطقة القبائل بالجزائر<sup>135</sup>.
12. كاسي، اسم فاعل، نسبة إلى الكساء<sup>136</sup>، ويقال أمكسا بالأمازيغية<sup>137</sup>.
13. مقْدَاف، اسم أداة، من فعل «قذف». وتستعمل هذه التسمية بمنطقة مقدمة الريف شمال مدينة فاس<sup>138</sup>.
14. مزراگ، تحوير عامي لكلمة مزراق، أي الرمح<sup>139</sup>.

131. راجع :

Abderrahmane Moussaoui, *Espace et sacré*, p. 100.

132. حول التنوعات الجهوية للمصطلحات الأمازيغية التي تدل على الثوب والنسيج، انظر :

Emile Laoust, *Mots et choses berbères*, pp. 125 - 126.

ولا بأس من ذكر اشتقاق مختلف ورد عند الخوارزمي في معرض حديثه عن «طبقات الناس بالهند»: «الزط هم حفاظ الطرق، وهم جنس من السند يقال لهم: «جتان». انظر محمد الخوارزمي، *مفاتيح العلوم*، مصر، 1342 هجرية، ص. 74.

133. يوجد الموقع المذكور بقبيلة آيت ميمون - آيت سومر. ويوجد بقبيلة آيت حمو بولمان قبر سيدي بويظيان، أي أبو المغازل أو أبو المناسج». انظر أحمد بوبية، قبائل زمور، ص. 62-63.

134. علي المحمدي، م.س، انظر المعجم، ص. 135.

135. انظر :

A.Hanoteaux & A.Le Tourneux, *La Kabylie et les coutumes kabyles*, Paris, 1893, t.2, pp. 107-111, Général Daumas, *Mœurs et coutumes de l'Algérie*, pp. 163, 169-172.

136. انظر نص المشرفي الوارد أعلاه، ص. 206.

137. هناك التباس قد ينتج عن الجنس الموجود بين كلمتين، إحداهما أمازيغية والثانية عربية نصحى. تعني أمكسا الراعي (من تاكسا، بمعنى الرعي). أما مصطلح الكساء، فلا يقتصر معناه على اللباس، بل يشمل أيضاً علاقة الحماية، مثلما يفهم من نصوص بعض الانتفايات العرفية. ففي منطقة درعة، أمضى سنة 1189 للهجرة (1775 للميلاد) عقد بين زاوية سيدي علي بن محمد وقبيلة الروحة السفلات. وينص العقد على أن المرابطين طلبوا من الروحة أن «يكسوا الزاوية المذكورة (...) وطلبوا الكسوة منهم فكسوا لهم الزاوية كل من سكنها من حراطين وغيرهم وعملوا على أنفسهم كل ضرر يلحقهم من الروحي (كذا) وغيرهم وكل من أتاهم بفضيحة أو تعديّة وغيرها...». انظر أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، ص. 174-175.

138. إفاة شفوية لبارك الشنتوني.

139. في سياق التعريف بنظام الجنود السلطانية، يذكر ابن زيدان فرقة «أصحاب سيدي»، ومن بينهم «أصحاب المزاريق». انظر العز والصولة، ج 2، ص. 191-192. وفي النظام التونسي التقليدي، استعمل مصطلح «القبيلة المزارقية» بمعنى مرادف لقبيلة الكيش بالمغرب. انظر :

Jocelyne Dakhlija, *L'oubli de la cité : La mémoire collective à l'épreuve du lignage dans le jérid tunisien*, Paris, 1990, p. 233.

تتنمي جل عناصر هذا المعجم لثلاث لغات، وهي العربية الفصحى، والعربية العامية، والأمازيغية. ويدل اشتقاق الكلمات على عمليات الاقتباس والتبادل بين اللغات المذكورة، وتعد التجارب التاريخية التي تحيل عليها المصطلحات : مناطق مغربية معينة، أو مجموع المغرب، أو المغرب الكبير، أو الشرق العربي في العصور الإسلامية أو ما قبلها. وقد تحمل نفس الظاهرة تسميات مختلفة حسب نوعية المستعمل : فهناك الاستعمال الشفوي اليومي، والاستعمال المكتوب الذي يتخذ شكل نصوص قانونية أو مراسلات قد تقرب أو تبعد عن المصطلح الشفوي. وهناك الأدب التاريخي الذي يصوغ تجربة اجتماعية وثقافية محلية بمصطلحات عامة قد تغيب عن معرفة المستعمل اليومي. والملاحظ أن جل عناصر المعجم ترد في صيغة واحدة، وهي صيغة اسم المبالغة (دواز، رقاد، رفيگ، كاسي)، وأحيانا في صيغة اسم الحرفة (عناية)، أو صيغة اسم أداة (مزراگ، مقداڤ). هذا مع استثناء واضح : نقول زطط (فعل)، وزطاط (اسم المبالغة) ، وزطاطة (اسم حرفة). وتعني الكلمة الأخيرة في أن واحد عملية الخفر، والمقابل المؤدى للخدمة المذكورة، أو رسم المرور الذي يؤدي دون عملية خفر مشخصة ومتعاقد عليها. وبالنسبة لعملية الخفر، قد يكون الحامي غير الخفير. وأنداك تشير كلمة زطاط إلى الشخصين معا. بينما تقتصر كلمات أخرى على إحدى الوظيفتين المذكورتين. فالعناية لا تعني سوى الحماية، وكلمات أغفير وصاحب الركاب والرفيگ لا تعني سوى الخفير. وقد تجتمع كلمة زطاطة مع كلمة أخرى. فالزطاطة هي ما يؤدي مقابل العناية أو المزراگ، وهي كذلك ما يدفع للكاسي.

وفي مستوى آخر، تكشف المصطلحات عن تقاطعات معجمية بالغة الدلالة، وهي تقاطعات يمكن رصدها انطلاقا من مفهوم الضمان.

### أ. صيغ الضمان

تحيل كلمة ضمن على معنى الكفالة والتفريم. ونلمس الترادف بين الزطاط والضامن، بشكل ضمنى، في مثل يهم مدينة تازة، ويذكر في صيغتين :

«شربو من السواد الهذار وطلقو ف تازة بلا زطاط»  
«شربو من السواد الهدار وطلقو ف تازة بلا ضامن»

والواقع أن كلمة الضامن تحيل على مفهوم مركزي يغطي استعماله مجموعة من الممارسات والرموز، وهو ما يضعنا أمام شبكة تقدم لنا إضاءات جديدة حول معجم الزطاطة.

يضع الفرد نفسه «تحت مزراگ» رجل صاحب قبل الإقدام على سفر، وبنفس الطريقة يتم اللجوء إلى العار لخلق نوع من واجب الحماية، يقوم على فكرة التعرض للخطر أو اللعنة في حالة

عدم الاستجابة<sup>140</sup>. ويكون اللجوء إلى طقس الذبيحة، وأحيانا التعرّجية لالتماس الحماية أو العفو أو الأمان. ويكون اللجوء إلى الزواگ الذي يعني التوسل والتضرع<sup>141</sup>. وتستعمل نصوص الأعراف كلمة ضامن بمعنى «الحامي». والواقع أن طقوس التوسل تنتمي إلى قانون العرّض الذي يتوفر على أبعاد كبرى. فحسب السياق المحيط بالحدث، قد يكون الكيان موضوع التوسل أحد أعيان القبيلة، أو زاوية<sup>142</sup>، أو السلطان نفسه. وقد يكون الكيان الذي يلتمس الحماية فرداً، أو مجموعة قبلية، أو مدينة. ومن الممكن أن تقتصر الحماية على فعل محدد في الزمن، وقد تمتد إلى حد الإدماج النهائي لفائدة الغريب الذي نفي من قبيلته الأصلية، ويسمى بالأمازيغية أزواگ، أو لفائدة مجموعة قبلية ترغب في التخلص من تعسف قائدها.

تنتمي حماية المسافرين إذن إلى هذه المنظومة من الصيغ، وهو ما لاحظته شارل دو فوكو حين قال عن عرف الذبيحة: «إنها صيغة ممددة للعناية (...). فالعناية، أو المزراگ، هي ضمان مؤقتة، تم إحداثها لفائدة المسافرين بشكل خاص. أما الغريب الذي يريد أن يقيم مدة أطول، ولو شهراً واحداً، فهو ملزم بأن يزود نفسه بضمانة أخرى (الذبيحة)»<sup>143</sup>.

عرف مصطلح المزراگ تطورات دلالية معبرة. ففي الأصل هناك الشارة، والطقس، والشخص الذي تطلب منه الحماية. لكن نفس الكلمة تدل على الميثاق القبلي الذي يسمى أحياناً بالعهد. فنحن نلتقي بهذا الانتقال الدلالي عند قبائل زمور، وبنو أحسن، وآيت يوسي، وآيت إزدگ. وفي قصور تافيلالت، وعند قبائل آيت عطا، تطلق كلمة المزراگ على الضامن - رئيس العشيرة الذي يشارك في مجلس الجماعة. وهكذا انتقلنا من الميثاق، إلى وظيفة قارة، هي وظيفة ممثلي هيئات قبلية معينة. ونجد نفس التعدد الدلالي في كلمة أمور، التي تستعملها القبائل الناطقة بتامازيغت، وهي كلمة ترادف في الأصل كلمة المزراگ، لكن يبدو أنها تغطي حقلاً دلالياً أوسع يشمل الميثاق المقدس الذي يحرم انتهاكه، والضامن الذي يشخص ذلك الميثاق، وفي أن واحداً ما للحامي من قوة، والمحمي الذي يستفيد من تلك القوة<sup>144</sup>.

140. حول مفهوم العار وامتداداته، راجع :

Kenneth Brown, «The Curse of Westernmarck», *Ethos, Ethnografiska Museet (Stockholm)*, 1982, 3-4, pp. 23-25.

141. حول ازدواجية مدلول الزواگ، انظر أدناه، ص. 346.

142. بصدد مفهوم «دار الضمانة» الذي وظفته زاوية وزان، نواتر ذكر حديث نبوي يفهم منه أن تقبيل يدي الشريف أو ساقيه عمل ينقذ فاعله من عذاب جهنم. انظر :

Hassan El Boudrari, *La «Maison du Cautionnement» : Les shurfa d'Ouezzane de la sainteté à la puissance*, thèse inédite, Paris, E.H.E.S.S, 1984, p. 14.

143. انظر أعلاه، ص. 192.

144. انظر :

Larbi Mezzine, *op.cit.*, note 8, pp. 183-185.

ويورد المؤلف أيضاً أمنگوس (ج. إنگاس)، وهو مصطلح يستعمله آيت عطا للدلالة على ممثلي العشائر في قصور الواحات. انظر ن. م. هامش 55، ص. 203.

ويعكس استعمال كلمة الرقاد نفس الانتقال من الحماية المشخصة إلى المؤسسة القبلية<sup>145</sup>. فالمعنى الأول يبدأ بالمعنى اللغوي. فالرقد هو «الطاء والصلة»، والإرقاد : «الإعطاء والإعانة»، والترافد: «التعاون». والرفادة «شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية، فيخرج كل إنسان مالا بقدر طاقته فيجمعون من ذلك مالا عظيماً أيام الموسم، فيشترون به للحاج الجزر والطعام والزبيب للنبيد، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام موسم الحج. وكانت الرفادة والسقاية لبني هاشم، والسدانة واللواء لبني عبد الدار، وكان أول من قام بالرفادة هاشم بن عبد مناف وسمي هاشماً لهشمه الشريد»<sup>146</sup>.

وفي المغرب، يظهر معنى الحماية في المثل التالي :

«المَرْفُودُ ما يترْفَدُ والعَبْدُ ما خُدْمُ لِسَيِّدُو»

وفيدنا تاريخ زموور بأنه من أجل تقنين الحرب، كانت هذه القبائل تتفق على بعض فترات الهدنة، وتسميها الرُقُودُ، أو الهَنَّا، وهي فترات يلتزم الجميع بعدم إثارة أي نزاع، وبالسهر على حسن سير الأسواق. ولهذا الغرض، تعين كل مجموعة رقاداً (جمع : رُقَاداً) يساهم في مجلس تذهب صلاحياته إلى إنزال العقاب على كل من سولت له نفسه بانتهاك الهدنة التي أقرتها الأطراف المتوافقة. وحين يجتمع الرقاداء، ينزع كل واحد سلهامة، ويلبسه لمثل الطرف الآخر، وفي ذلك رمز للالتزام باحترام الهدنة. وفي حالة حدوث عنف، فإن سلهام الرجل المسؤول عن العنف يلوث ويعرض أمام أنظار الجمهور، وذلك للدلالة على تلطيخ سمعة المعنى بالأمر<sup>147</sup>.

لقد أنشأ الوسط القبلي مؤسسة الزطاطة كطريقة لتأمين المسافر، ثم تبنها الشرع باسم «الضرورة»، وأخضعها لمبدأ «الضمان». يحدث أن يهاجم القطار قافلة في الطريق : فهم قد يكتفون بالاستيلاء على البضائع، أو يستولون على البضائع مع دواب النقل، أو يعتدون جسدياً على المسافرين. كيف تحدد مسؤولية الزطاط ؟ وإلى أي حد يؤثر الحادث في مستحقات الفرد أو الجماعة المكلفة بعملية النقل ؟ فمثل هذه النوازل شغلت الفقهاء والمفتين. لنذكر في هذا السياق أنه حين يهجم النقل مناطق غير آمنة، فإن النقل يقرن أحياناً بالالتزام باستئجار خدمات الزطاط. وذلك ما يتضح من هذه النازلة التي دونها المهدي الوزاني (المتوفى سنة 1925).

«وسثلت عنم أكرى رجلاً على حمل سلعة بموضع مخوف، وشرط عليه أن لا يسافر إلا ومعه الزطاط، وأجرته عليه. فخالف المكثري، وسافر بلا زطاط، فتهبت منه السلعة. فهل يضمن

145. تستعمل الوثائق العرفية أحيانا كلمة الحامل (ج. حملاء) بنفس معنى الرقاد. وترد بنفس المعنى أيضا كلمة أماساي (ج. إماساين)، وتدل على الرجل الذي يحظى باحترام المجموعة، وهو يكلف مثلاً بالتفاوض مع قبيلة أخرى، والتعهد ببعض الالتزامات في مستوى استغلال الأرض أو المراعي. انظر :

Abès, «Monographie d'une tribu berbère. Les Aït Ndhir (Béni Mtir)», A.B., vol. 2, 1917, pp. 343 et suiv.

146. انظر مادة «رقد» في ابن منظور، لسان العرب. وهو ما يفند ما ذهب إليه العربي مزين من أن اللغة العربية لا تستعمل الرفادة بمعنى الحماية والرعاية. انظر :

Larbi Mezzine, *op.cit.*, p. 235, n. 144.

147. رحمة بورقية، علاقة الدولة بالقبائل، ص. 102 - 103.

أو لا؟<sup>148</sup>.

لقد رأينا كيف أن مفهوم «الضامن» ينتمي إلى مجموعة من الممارسات التي لا تقتصر على مجتمع القبيلة. ويتبين من الاستقصاء المعجمي أن مفهوم «الضمانة» ينتمي إلى حقل معجمي شاسع، هو حقل يقوم على ثنائية الحماية والولاء، ويتقاطع مع عناصر هذا الحقل في علاقة دائرية. فمن بين عناصر هذا الحقل، نذكر على سبيل المثال : عهد، وأمان، وعصبية، وذمة، وحماية، وحرمة، وإجارة، وعناية، وجاه، وكفالة، وخفارة، وولاء. وقد تبنت العامية المغربية عدداً من هذه الكلمات، واستعملتها بدون تحوير كبير، وسمت بها عدداً من الممارسات الاجتماعية و الدينية-الاجتماعية، بما فيها الزطاطة.

ويرتبط مفهوم الضامن أيضاً بمفهوم العصبية ولغة القرباة. فالعصبية هي رابطة التضامن القبلي، وهي التي تولد الدولة والملك في إطار النسق الخلدوني، وهي تلك الجدلية التي تجمع بين التضامن والرئاسة، وتصيب علاقات التبعية والولاء بلغة القرباة. ومن ثم يأتي معجم القرباة الذي يوظف في تسمية عمليات تبني القبيلة للغريب الوافد، أو إدماجها لوحدات قبلية كاملة. وهكذا تختلف وحدة الاسم عن المضمون البشري الذي يعرف تاريخه الملموس عمليات الانفصال والاندماج<sup>149</sup>. وقد أكد ابن خلدون على ما للنسب من فعالية اجتماعية-عسكرية، وقد تعودت اللغة العربية على أن تستعمل مجاز القرباة لتسمي علاقات الولاء والتبعية. ويرد مصطلح الاصطناع، حيث تؤسس علاقات التضامن والحماية باسم الأخوة (الخواوة بالعربية العامية، وتاگما بالأمازيغية). وكذلك بعض أشكال طقوس التحالف، مثل صورة الأخوة بالرضاعة في عربي تافز تافز كانت<sup>150</sup>. ويؤكد ابن خلدون أن العصبية لا تقتصر على القبيلة والبادية، بل تنشأ أيضاً داخل الوسط الحضري حيث تقوم المجموعات العائلية على أساس رابطة المصاهرة<sup>151</sup>.

ويرتبط الضامن كذلك بقيمة العرض التي تلزم الحامي والضامن، لأن انتهاكها وعدم احترامها يؤديان إلى الإهانة وتشويه السمعة. ومعلوم أن المجتمع القبلي ابتكر عدة طقوس تهدف إلى إذاعة خبر الغدر وخيانة «الكلمة»، وقد يذهب الأمر إلى حد المقاطعة أو النفي والتغريب. كما أن

148. المهدي الوزاني، المعيار الجديد، ج 8، ص. 120.

149. جاك بيرك، «في مدلول «القبيلة» في شمال إفريقيا»، ضمن عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق (ترجمة)، الأنثروبولوجيا والتاريخ، ص 113-125. انظر كذلك علي المحمدي، م.س، ص. 11-12. وقد سبق لابن خلدون أن لاحظ بصدد عرب المعلل : «وعددهم كما قلنا قليل (...) وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم». انظر العبر، ج 11، ص 120.

150. اعتادت بعض القبائل أن تعقد فيما بينها عهد تافز تافز كانت لتدبير المجال الرعوي والدفاع المشترك في حالة الدخول في صراع مع مجموعات أخرى. فعند آيت عطا، يعتبر هذا العهد أكثر قدسية والزاما من عهد تافزا. ومن المفيد أن نشير إلى اشتقاق الكلمة. فهي «تعني في وسط الرحل المكان المسور بالحجارة لحماية الماشية من كخاطر الذئب أو لاتخاذه كدرع واق من البرد، أو كسد لجمع الغبار. ومعناها العام : الحمى. وتعني تافز تافز كانت عند آيت عطا ملجأ الماعز والأغنام، ومعناها العام الحمى. وهذه الأخيرة هي مصدر الحليب الذي سيطهر دوره في معاهدة تافز تافز كانت التي تبرم بين كبار المداشر والقبائل داخل اتحادية آيت عطا». عبد القادر بوراس، مادة «تافز تافز كانت»، معلمة المغرب، ج 6.

151. ابن خلدون، م.س، ج 2، ص 672-674.

مفعول العرض قد يتجاوز العلاقات داخل القبيلة ليمتد إلى مجالات أخرى مثل العلاقة بين القبيلة والسلطان. وهو ما تعكسه أصداء حدث دار سنة 1159 للهجرة (1746 للميلاد)، بين السلطان العلوي عبد الله بن إسماعيل، وبين محمد وعزيز كبير آيت إدراسن.

سبق للعاهل المذكور أن طلب العون من هذه الاتحادية القبلية ضد الباشا أحمد بن علي الريفى الموالي للأمير المستضيء. وفي وقت لاحق، راسل السلطان محمد وعزيز، «وكان له معه خلة ومصافاة، وكان يقول له «أبت» مراراً». وألح عليه في القدوم مع الأعيان للتهنئة بالعيد. واستشار وعزيز «إخوانه»، فتحفظوا، فأقنعهم، وتشكل وفد يضم قرابة مائة من الأعيان، وقصدوا السلطان بقصبة أبي فكران. وعندما دخل الأعيان على السلطان، «عاتبهم على ما يرتكبونه من العيث في الطرقات، والغارة على المستضعفين من العرب ورفاق التجار...». وأمر السلطان بإلقاء القبض عليهم في الحال، باستثناء وعزيز. ويروي أبو القاسم الزباني تفاصيل الحوار الذي دار خلال هذا الاستقبال. نرى وعزيز يتوجه إلى السلطان قائلاً: «أعذر بعد عهد ولست من أهله؟». فيحاول السلطان أن يقنع وعزيز ويطلب منه الانصراف. فيرد هذا الأخير: «والله لا أقوم ولا أتوجه إلا مع إخواني، إن ماتوا مت معهم ويبقى لك غدرك، ولا يتحدث الناس أنني دفعتهم للذبح ورجعت، فبأي وجه أسير؟ وإلى أين أقصد؟ وأي أرض تمنعني من عشائهم؟ ولا بد لي من القتل، فقتلك لي من جملتهم، أوفق لي وأجمل لي، ولا إثم عليك في ذلك، لأنني أنا الذي قدتهم لك، وأتيت بهم إليك بعد عرضهم علي هذا كله»<sup>152</sup>. فأمر السلطان بإخلاء سبيل الجميع. إنه مشهد تحضر فيه بكثافة أدوار الضامن، ولغة القرابة والعرض.

## ب. شبكة الأعراف

إن التقاطع الذي تتبعناه انطلاقاً من فكرة الضمان هو في الواقع تقاطع لا يقتصر على المستوى اللغوي، بل يبين أن الزطاطة تنتمي إلى شبكة من الأعراف التي كانت تعم المجال المغربي، وقد عرفنا بنماذج منها في الفصل الرابع المخصص لموضوع «الحدود والأوقاف». وكما تتجنب التكرار، ارتأينا من الأفيد هنا أن نرتب مجموعة من العناصر التي تساعد على تحليل تلك الأعراف، وتعيين مستويات التشابه والاختلاف فيما بينها.

### أولاً. التسمية.

وهي قد تختلف حسب نوعية المستعمل: فهناك الاستعمال الشفوي اليومي، وهناك الاستعمال المكتوب الذي يتخذ شكل نصوص قانونية أو مراسلات قد تقرب أو تبعد عن المصطلح الشفوي. وهناك الأدب التاريخي الذي يصوغ تجربة اجتماعية وثقافية محلية بمصطلحات عامة قد تغيب عن معرفة المستعمل اليومي.

152. الزباني، البستان الظريف، ص. 319-203، وكذلك الناصري، الاستقصا، ج 8، ص. 171-172.

ثانياً. الأطراف المتعاقدة.

ففي الزطاطة أو المزراگ، يتعاقد فرد مع فرد آخر. وفي الذبيحة، يتعاقد فرد مع آخر، أو فرد مع جماعة، أو جماعة مع أخرى. وفي الأوقاق التي تفيد الهدنة وعدم الاعتداء مثل الرفود أو الهنا أو العافية، يكون التعاقد بالأساس بين مجموعات محددة. وفي بعض أوقاق الحماية مثل تاييسا، يكون التعاقد بين مجموعات ذات طبيعة مختلفة (رحل مع مستقرين، رحل مع زاوية).

ثالثاً. الأطراف التي تتولى رعاية التعاقد.

وقد يكون شخصاً مبعلاً، مثل الولي أو الشريف. وقد يكون المخزن ممثلاً في السلطان أو أحد خدامه. وقد التقينا بهذه الصيغة الأخيرة في عقود توظف عرف الرفود لتنسيق حماية المسافرين والقوافل عبر بعض «طرق المخزن»<sup>153</sup>.

رابعاً. طقوس التعاقد.

وهي تتمثل في الكساء، أو في تزويد المسافر المحمي بعلامة تشير إلى هوية الحامي، مثل اللباس، أو السبحة، أو الرمح، أو العصا<sup>154</sup>.

خامساً. مضمون التعاقد.

ومن الممكن أن نميز بين ثلاث علاقات رئيسية، وهي المسألة، والتضامن، والحماية، وهي علاقات تحيل على تدرج في علاقة الارتباط، ومستويات من التساوي أو التفاوت.

سادساً. تحديد المجال المعني بالتعاقد.

كأن يحدد مجال حماية المسافر في طريق تؤدي من مكان إلى مكان آخر، أو مجال معني بالهدنة أو الحماية بين قبيلتين، أو بين قبيلة رحل وسكان مستقرين في بيئة الواحة.

سابعاً. تحديد الزمان المعني بالتعاقد.

ومعناه احتمال إنشاء علاقة دائمة، أو علاقة مؤقتة وقابلة للتجديد، أو علاقة موقوتة وعابرة، مثل علاقة الزطاط بالمسافر والقافلة، وهي علاقة تنتهي مبدئياً بانتهاء السفر، أو وصول المسافر المحمي إلى نقطة ينتقل فيها إلى حماية رجل آخر.

153 . انظر الوثيقة الواردة أعلاه، ص.65.

154 . انظر النص المتعلق بالقلائد، والوارد أعلاه، ص 176 - 179.

ثامناً. تحولات التعاقد في الزمان والمكان.

يختلف تعريف مضمون بعض الأعراف بين مصدر وآخر، دون أن تتمكن، في كل الحالات، من الحسم في مستوى الاختلاف. هل هو اختلاف في المكان؟ أو في الزمان؟ وهكذا تعتبر تاگما (الحاوة) تارة ضمن أوقاف التضامن بين كيانات متكافئة، وتارة أخرى ضمن أوقاف الحماية بين كيانات لامتكافئة. وأدرجت تازا تارة ضمن أوقاف التضامن، وتارة أخرى ضمن أوقاف المسالمة وعدم الاعتداء<sup>155</sup>. وتعرفنا على نصوص معاهدات محددة تعتمد تايسا كعلاقة حماية، وأخرى تنص عليها بمضمون العافية، أو الرفود، أي الهدنة وعدم الاعتداء<sup>156</sup>.

كيف نفسر مثل هذا الارتباك؟ وهل نحن أمام ارتباك حقيقي؟ الراجع أن الإشكال يعود إلى الإفراط في التجريد القانوني من جانب الضباط-الباحثين الفرنسيين في فترة الحماية، حيث كان هؤلاء يميلون إلى إضفاء الصبغة «البربرية» على عوائد لا تقتصر على المجال اللغوي المذكور، مثلما كانوا يصفون صبغة قانونية ثابتة على ممارسات تطبعها المرونة والتكيف مع مختلف سياقات الممارسة الاجتماعية. ولعل منطق هذه المرونة قضية تدعونا إلى أن نهتم أكثر بوظيفية العوائد المذكورة.

## 2. وظائف المؤسسة

### أ. تدمير العنف

انتبه شارل دو فوكو وملاحظون آخرون إلى أن الزطاطة كانت تساهم، إلى جانب أعراف أخرى، في تسهيل السفر من أجل تسهيل التبادل. إن تأمين التنقل أمر يتعلق بإشكالية أعم، وهي إشكالية تدمير العنف.

اعتبر الباحث السوسولوجي الألماني نوربير إلياس أن المجتمعات الأوربية عرفت تطوراً حاسماً في هذا المجال ابتداء من نهاية «العصر الوسيط». فقد عرفت هذه المجتمعات مسلسل التمدن *civilité / civilisation*. وفي آن واحد، خضع العنف لعمليات منع وقمع وكبح وتحويل. وتمكنت الدولة المطلقة من احتكار العنف بطريقة تدريجية. بينما شهد الفضاء الاجتماعي اتساع نطاق السلم، وساهمت مجموعة من الممارسات الاجتماعية في توجيه انفعالات الأفراد بطريقة تضبط العنف وتحد

155. راجع :

Capitaine Georges Spillmann, *Les Ait Atta du Sahara*, pp. 50 et suiv., Jean Le Coz, *Le Rharb*, t. 1, pp. 350-351.

156. انظر نص الوثيقة الواردة في كتاب أحمد البوزيدي، م.س، ص. 247-252. ويتعلق الأمر باتفاقية تيسى بين قصر بوخلال وقبيلة مسوفة، وهي مؤرخة في 26 صفر 1315 للهجرة، وتنطلق من مبدأ أن الله أمر «بالراحة والهدانة بعد الفتنة»، وتحدد مجال الهدنة، وعقوبات تنصل بعدد من الأفعال والخروقات.

منه، وتغذي عملية الإكراه الذاتي، وتجعل الفرد يستبطن عدداً من القواعد وأنماط السلوك<sup>157</sup>. وفي هذا المناخ العام، عرف المسافر ظاهرة الجواز ورخصة المرور بفرنسا، وهو ما كان يعكس تركز العنف في هذا البلد لصالح السلطة الملكية<sup>158</sup>.

كيف عرف المجتمع المغربي عملية تدبير العنف ؟ ينبغي هنا أن نسجل بعض الملاحظات الأساسية :

أولاً : لم يعرف المغرب عملية «احتكار العنف المشروع»، حسب تعبير ماكس فيبر Max Weber. فإلى حدود مرحلة الحماية، ظل السلاح في متناول القبائل في البادية، وفي متناول بعض الفئات داخل المدينة. وقد سجل الأخباريون بعض لحظات نزع السلاح من القبائل كأحداث استثنائية جاءت ضمن ظرفيات تاريخية محددة<sup>159</sup>.

ثانياً : لم يكن العنف، في مختلف تجلياته، ممارسة هامشية أو شاذة. فقد كان في بعض الحالات فعلاً يتوخى إعادة التوزيع في بيئة تعرف الندرة والاختلال الدوري بين الساكنة والموارد<sup>160</sup>. وشكل كذلك عنصراً من الاستراتيجيات التي اعتادت مجموعة من الزعامات المحلية أن توظفها لتفرض نفسها، وتطالب بالمساهمة في السلطة، في هذا المستوى أو ذاك<sup>161</sup>. لذلك يبدو قطع الطريق بمثابة جانب من جوانب غط العيش. فلا غرابة أن يقول ابن خلدون في مستهل «أخبار البربر» :

«هذا الجيل من الأدميين هم سكان المغرب القديم، ملأوا البساتن والجبال من توله وأريافه وضواحيه وأمصاره، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر. ويظن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والفقر الأملس. ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والتتاج. وربما كانت

157. راجع :

Norbert Elias, *La civilisation des mœurs*.

انظر على الأخص الفصل السابع الذي يعالج موضوع «تحولات العدوانية» من زاوية منظومة الانفعالات». راجع كذلك :

Arlette Farge, *Des lieux pour l'histoire*, pp. 32 et suiv.

158. بالنسبة للتجربة الفرنسية في العصر «الحديث»، يعكس تطور «رخصة المرور» و«الجواز» انتقالاً تدريجياً لمراقبة التراب من الخاص إلى العمومي، ومن القوى المحلية إلى السلطة الملكية. راجع :

Daniel Nordman, «Sauf-conduits et passeports en France à la Renaissance», in Jean Céard & Jean-Claude Margolin (dir.), *Voyager à la Renaissance*, Paris, 1987, pp. 145-158.

159. من أبرزها عهد السلطان إسماعيل، انظر النص الوارد أعلاه، ص. 129-130.

160. انظر النص الوارد أعلاه، ص. 82-83. وفي آن واحد، كان الاختلال المذكور من عوامل موجات الهجرة. انظر :

Nicolas Michel, *Une économie de subsistances*, t. 1, p. 228.

161. راجع :

Rahma Boureqia, «La caïdalité chez les tribus Zemmour au XIXe siècle », *B.E.S.M., Hommage à P. Pascon*, op.cit., p. 137.

«إن قطع الطريق ما هو إلا أحد مظاهر البنية القبلية، وهي بنية عسكرية بالأساس. فالعمل الحربي يقيم فوارق اجتماعية للتمييز بين المحاربين وغير المحاربين. فالحرب هي التي تدفع الأجماع إلى أن يتحول إلى أمغار، وهو الطريق النهائي الذي يساعد على الارتقاء إلى منصب القائد. وهكذا فأمغار هو بمثابة أجماع الذي أظهر كفاءته في القتال، والقائد هو بمثابة أمغار الذي راكم الشهرة العسكرية، وظل دائماً على استعداد للانخراط في المغامرة من جديد».

الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة. ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاطعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة»<sup>162</sup>.

ثالثاً: لقد عمد المجتمع إلى مأسسة ممارسات مثل النهب والسرقه وقطع الطريق. فقد كانت هذه الممارسات تتحول أحياناً إلى قيمة. فهذا الرحالة الفرنسي سيغونزأك يذكر أن قبائل جبالة تفتقراً عين السارق بحد منجل محمي بالنار، بينما تعتبر السرقه عملاً مشرفاً عند بعض قبائل زمور، ويتجنب الناس إطلاق الرصاص على السراق، خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى قتل صديق، أو قريب، أو رجل قوي النفوذ. لذلك يكتفي من يتولى ملاحقة السارق باستعمال المقلاع ورمي الحجارة»<sup>163</sup>.

وهكذا فعوض منع السرقه والنهب، عمدت المجموعات أحياناً إلى عملية التقنين، ولا سيما التمييز بين ما يجوز نهبه، وما لا يجوز نهبه. فهناك أفعال تقصد إهانة الشخص الذي تعرض للنهب، وأفعال أخرى قد تهين الناهب.

وتظهر عملية مأسسة السرقه في مؤسسة «البشارة». فقد كتب المشرفي، في معرض وصفه

لـ«أعراف البربر»:

«وأما السرقه، فالسارق لا يعاقب بشيء، ولا معرة عندهم فيها، وكل سارق له أصحاب بالقبائل المجاورة لحيه، يوجه ما حصل لديه بالسرقه إليهم أو على يد غيره من حرفته ذلك، ويسمونه بالصراف أو الصراري، فيمون هو الوساطة في بيع الشيء المسروق، ويأخذ حصته منه إن أذن له السارق في البيع إن جزم على عدم ردها لصاحبه، وإلا فإن السارق يعود لمحلته حتى يأتي المسروق منه يبحث على ما سرق منه، فيتفصل مع المستودعة عنده (السرقه) الصراري المذكور، أو مع السارق على يد غيره بنصف ما تساوي السرقه أو ما يقرب منه، ويأخذ على ذلك ضامناً بأن لا يعود للكلام على ما يدفعه في ذلك، فيدفع المسروق منه نصف القيمة ويأخذ سرقته وإلا فتباع ولا يلتفت إليه. ومن وجدت بيده سرقه فلا يكلف بإعطائها لربها واتباع ذمة من اشترى منه»<sup>164</sup>.

وقد تبنى الفقه البشارة، مثلما تبنى الزطاطة، وبناء على مفهوم الجعل كذلك. وهكذا عرف

السجلماسي بالبشارة في شرحه لمنظومة «العمل الفاسي»:

«البشارة ما يعطيه المبشر لوجدان التليفة. وما معنى كلام الناظم، أن من ضاع له شيء

أو سرق مثلاً، فالتزم الجعل المسمى في العرف بالبشارة، فمن يطلبه له فإنه يجوز للطالب أخذ ذلك بشرطين:

162. ابن خلدون، م.س، ج 11، ص. 175-176.

163. انظر:

Segonzac, *Voyages au Maroc*, p. 6.

164. المشرفي، الحلل البهية، ج 3، ص. 208-209. انظر كذلك وصف عرف البشارة في مقال إ. بيارني الذي كان معمرًا بمنطقة الغرب (وبالتحديد بمرکز «بيتي جان»، أي مدينة سيدي قاسم الحالية):

E. Biarnay, « Voleurs, receleurs et complices dans les vallées inférieures du Sebou et de l'Ouergha », *A.B.*, vol. 2, 1917, fasc. 2, pp. 135-148.

- الأول تقدم الالتزام على وجود الشيء.

- الثاني جهل مكان الضائع. فمن وجد الضائع أو علم مكانه، ثم جاء إلى ربه يطلب أن يلتزم له البشارة على رده أو على الدلالة على مكانه، فلا جعل له<sup>165</sup>.

تبدو الزطاطة إذن من بين المؤسسات التي صاغها المجتمع المغربي لتقنين العنف من أجل تسهيل السفر. وقد سجلت المصادر أن المجموعات التي يجتاز المسافر والقوافل ترابها كانت على وعي بأن تأمين المسافر يخدم مصلحتها ويلبي عدداً من حاجياتها الاقتصادية<sup>166</sup>. لكن من المفيد أن نوسع مفهوم السفر، لأن التنقل ظاهرة لم تكن تهم فقط التاجر الذي يتنقل عبر المدن والمحاور الطرقية التي سبق أن تعرفنا على ملامحها العامة، بل كانت تهم أيضاً مجتمع الفلاحين والرعاة، إذ كان هؤلاء يعرفون التنقل المنتظم بين منطقة وأخرى، أو التنقل في اتجاه مواقع التبادل. فكيف كانت المؤسسات تدبر مختلف أشكال التنقل؟

## ب. تفاعل أنماط العيش

ما هي أهم أنماط المعاش التي عرفها المغرب في بداية القرن العشرين قبيل التحولات المرافقة لحقبة الحماية؟ ميزت دراسة نيكولا ميشال بين أربع مناطق<sup>167</sup>:

1. مجموعة من السهول والهضاب التي تعتمد على زراعة الحبوب. وهي سهول الشمال (الغرب، وسائس)، وتلال مقدمة الريف، والسهول الأطلسية المتوسطة، أي الشاوية، ودكالة، وعبدة.

2. جبال وأقدام جبال، يسود فيها النشاط الزراعي<sup>168</sup>. هناك الريف في الشمال. وفي الجنوب، هناك الدير، والحوز، والأطلس الكبير الأوسط، بالإضافة إلى الواجهة الأطلسية من بلاد الشلوح، وهي تضم غرب الأطلس الكبير، وسهل سوس، والسفح الأطلسي للأطلس الصغير.

3. جبال ومناطق أقدام جبال يسود فيها النشاط الرعوي. ويتعلق الأمر بملوية العليا، والأطلس المتوسط، والهضبة الوسطى، والجزء الشرقي من الأطلس الكبير.

4. مناطق شبه صحراوية وصحراوية، حيث يتعايش غمط الترحال مع غمط الاستقرار

165. حول البشارة، انظر السجلماسي، شرح العمل الفاسي، ص. 373-377.

166. انظر المشرفي، الحلل البهية، ج 3، ص. 708.

167. راجع:

Nicolas Michel, *op. cit.*, t. 1, chap. 3.

168. ينبغي التنبيه إلى أن طبيعة المناخ وعدم انتظام حجم التساقطات كانا يفرضان على سكان البرادي أن يتجنبوا التخصص المفرط ولا سيما الاعتماد على مورد واحد. راجع:

Abdellatif Bencherifa, «Le monde rural marocain: Diversité spatiale et culturelle», in *La Grande Encyclopédie du Maroc*, vol. «Géographie humaine», dir. T. Agoumy & A. Bencherifa, pp. 85 et suiv.

بالواحات.

يعبر هذا التصنيف عن وضعية تدرج بين نمط الاستقرار، وبين أشكال التنقل على سبيل الانتجاع أو نصف الترحال أو الترحال. ويبرز كذلك تقاطب جغرافي بين المجموعة الثالثة، حيث نمط نصف الترحال، والجزء الجنوبي من المجموعة الثانية، حيث قَدَم التقاليد الزراعية في الوسط الجبلي. لكن التنوع اقترن أيضاً باستمرار أشكال التكامل والتفاعل، وذلك في اتجاه أفقي وآخر عمودي. وفي كلا النوعين، ينبغي أن نميز بين أوضاع التوازن وأوضاع الاختلال.

يظهر التفاعل الأفقي بين الرحل وسكان الواحات. ففي «العصر الوسيط»، يبدو أن العلاقات بين الطرفين كانت متعددة الأوجه. ففي جل بقاع المغرب الكبير، كان الرحل :

- يتكلفون بالنقل.
- يقودون القوافل.
- يزودون الواحات بالحبوب.
- ينقلون ثمر الواحات إلى الشمال.
- يخزنون حبوبهم في القرى والمدن.
- يرعون مواشي السكان المستقرين.
- يتبادلون في الأسواق، حيث يبيعون اللحوم والألبان، والجلود والأصواف، مقابل الحبوب والتمور، والتوابل وبعض المواد الأولية أو المصنعة<sup>169</sup>.

وعلى العموم، ظل التبادل بين الرحل وسكان الواحات تبادلاً يقوم على التكامل. غير أنه لم يكن يخضع لقانون العرض والطلب، بل كان يعكس علاقة الإتاوة، والحماية، والتأمين ضد مختلف أشكال الاعتداء. وقد سبق أن رأينا أن العلاقة بين الرحل من بني معقل وبين واحات الحزام الصحراوي قد دخلت طوراً من التوتر، ابتداء من القرن الرابع عشر للميلاد. ثم جاءت دورة توتر جديدة مع آيت عطا ابتداء من القرن السابع عشر، ويبدو أن هذه الظرفية الجديدة هي التي شكلت سياق عقود تأسيساً التي كانت تفر علاقة الحماية التي يتولاها الرحل لصالح الزوايا، أو لصالح قصور الواحات<sup>170</sup>.

وشكلت عقود الرعية نوعاً مختلفاً من علاقة الحماية. وقد أقيمت بين قصور الجزء الأوسط من وادي درعة وبين رُحل آيت عطا، وغريب، وأولاد يحيى. وتعني الرعية عقداً بين قصر معين ورحل يلتزمون بضمان حراسة المجال التابع للقصر. وهكذا يتم توزيع الرعيان على المجال المذكور بواسطة القرعة، ويعيشون تحت الخيام، ويمنعون أعمال السرقة في الحقول، ويتحملون شخصياً المسؤولية في

169. راجع :

Robert Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafides des origines à la fin du XX e siècle*, Paris, 1947, t. 2, pp. 162-163.

170. انظر أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، ص 107.

حالة وقوعها. وفي المقابل، يتمتع الرعيان بحق الإرعاء العمومي، ويعوضون بقسط من المحصول، وبهبة إضافية. ويبدو أنه خلال فترات الاضطراب، كان العقد ينص على تنازل القصر عن رُستاقه وأراضيه لصالح الرعيان، فيوظفها هؤلاء للمحافظة على احتياطيتهم، وقد يتطورون في اتجاه تبني نمط عيش الساكنة المستقرة<sup>171</sup>.

وقد تأخذ الحماية أشكالاً أخرى. ففي الجنوب الشرقي، كان سكان القصور الواقعة في شمال توات يقيمون علاقة الخاوة مع الرحل من ذوي منيع والغنائة وآيت عطا. وكان التعاقد يتم أحياناً بين أحد القصور وبين فرقة من إحدى قبائل الرحل، وأحياناً أخرى بين أفراد. وفي بعض الحالات، كان الحماة من الرحل يعينون في القصر المحمي ممثلاً عنهم لتحصيل الإتاوة المتفق عليها<sup>172</sup>.

قد تمتد علاقة التكامل إلى علاقة تقوم بين مناطق محددة. وتلك حالة العلاقة بين الساقية الحمراء، وهي مجال رعوي تغيب فيه الواحات، وبين مناطق تنتمي إلى المجال شبه الصحراوي، مثل درعة الوسطى والسفلى، و جبل باني، وآيت باعمران، وتكنة، وكلها مناطق تنتمي إلى مجال يعرف الإنتاج الزراعي. ففي فصل الصيف، اعتاد رعاة الغنم من الرغيبات أهل الساقية الحمراء أن ينتقلوا إلى بلاد درعة، ووادي نون حيث قبائل تكنة التي كانت تحمي مجموعة الرغيبات. وفي نفس الموسم، يقصد أهل تكنة وادي سوس. ومن أجل تيسير شروط الرعي، يضطر رحل تكنة إلى إقامة عقود تاغمات (الخاوة) مع السكان المستقرين.

أما التكامل العمودي فيمكن توضيحه من خلال نموذجين. يتجسد الأول في ثنائية أدرار وأزغار. ففي الأطلس المتوسط، تفرض البيئة الطبيعية على الرعاة أن يغادروا الجبل في فصل الشتاء، ويغادروا السهل في فصل الصيف. وبالتالي ففصل الصيف هو فصل الإقامة في أدرار، وفصل الشتاء هو فصل الإقامة في أزغار، وهو السهل الذي يشمل قدم الجبل، وهي على سبيل المثال حالات سايس، وتادلا، وملوية العليا (حوض ميدلت). ومعلوم أن حاجة الجبليين إلى أزغار هي أقوى وأكثر حيوية من حاجة سكان السهل إلى أدرار.

وفي الأطلس الكبير المجاور لمراكش، كان أعضاء بعض القبائل يضطرون إلى التعاقد الفردي مع شركاء يرخصون لهم باستعمال المرعى الشتوي لأغنامهم. هذا هو أساس علاقة «الصحبة» (بالأمازيغية: تامدأكولت) التي كانت قبائل جبلية مثل غيغاية تقيمها مع أفراد في البسيط، ومع

171. راجع :

Nicolas Michel, *Une économie de subsistances*, t. 1, pp. 224-225.

وللمزيد من المعطيات حول عرف الرُغْبِيَّة، راجع :

Cne Niclausse, *Une tribu du Sud marocain*.

172. انظر : رُوس دان، المجتمع والمقاومة، ص. 59.

قبائل مثل وزْغِيَّة، وسكَّانَة، وگذْمِيَّوَة، وأولاد مطاع، وحرَّيْبِل، والرحامنة<sup>173</sup>. وإلى جانب وضعية التخصص والتبادل بين مجموعتين متخصصتين في أحد النشاطين، أي الزراعة والرعي، قد تتعاطى الساكنة الواحدة للانتجاع، وتزواج بين النشاطين معا.

ويقوم النموذج الثاني على ثنائية أخرى. فقبائل آيت عطا كانت تقضي فصل الشتاء في سهوب صَغْرُو شبه الصحراوية، وتنتقل خلال فصل الصيف إلى مراعي المرتفعات بالأطلس الكبير، وتسمى أگدال (جمعها إگدْلان)، أو تَيْشْكَا. ويخضع هذا الاستعمال لتقنين دقيق. فافتتاحه يتم في فترة يونيو- يوليو. وتستفيد منه القبائل المحلية، بقوة القانون، وكذلك القبائل الصحراوية. ومعلوم أن زاوية أحنصال تعودت أن تسهر على تدبير التعاقد بين قبائل المرتفعات، وبين آيت عطا، وذلك لتجاوز احتمالات النزاع بين الفريقين.

حين تقترن علاقة التكامل بالتوازن، فهي تتسم بالتوافق، وحاجة كل طرف إلى الآخر. غير أن التاريخ سجل كذلك عدداً من سياقات الاختلال، وهو ما كان ينتج عن عوامل سياسية، أو إكراهات تعود إلى العامل الديموغرافي أو الأزمات الطبيعية التي كانت تعرف قدراً من الانتظام. فكلما اختل التوازن، كلما حصلت مختلف أشكال الضغط، والتحرك نحو البيئة الأفضل، وهو تحرك كثيراً ما يرافقه الاضطراب وقطع الطرق.

وقد سبق أن رأينا أن العلاقة بين الرحل من بني معقل وبين واحات الحزام الصحراوي قد دخلت طوراً من التوتر، ابتداء من القرن الرابع عشر للميلاد. ثم تكررت دورة توتر أخرى مع آيت عطا ابتداء من القرن السابع عشر. وتتميز ظرفيات الاختلال بمختلف أشكال الضغط من جانب الرحل على حساب السكان المستقرين. وهكذا تميل مجموعات من الرحل إلى الاستقرار، وتفرض الإتاوة على سكان الواحات، وربما انتزعت منهم ملكية الأرض. ويبدو أن هذه الظرفية الجديدة هي التي شكلت سياق عقود تايسا التي كانت تقر علاقة الحماية التي يتولاها الرحل لصالح الزوايا، أو قصور الواحات.

وفي مستوى ثنائية أدرار وأزغار، سبق أن أشرنا إلى موجات الضغط التي تعرضت لها بسائط مثل سايس وتادالا منذ القرن السابع عشر. وقد اعتمدت السلطة العلوية على اتحادية آيت إدراسن لمحاصرة هذا الضغط. وفي تادالا ظل هذا الضغط قائماً خلال القرن التاسع عشر. فهذه قبيلة آيت سخمان، إحدى قبائل آيت أومالو الجبلية، تتحرك كل سنة في اتجاه الدير للإفلات من قساوة المناخ الجبلي. وفي هذا الدير، توجد قبيلة بني ملال التي كانت ربعاً واحداً من غيش آيت الرُبْع، وهي بذلك مكلفة، من طرف المخزن، بالتضييق على القبيلة الجبلية ومحاصرتها. غير أنها كانت في آن واحد تنخرط في علاقة جوار وتبادل المصالح مع آيت سخمان. وكانت هذه الأخيرة «تعمل كل ما

173. راجع :

Martine Garrigues-Cresswell, «La complémentarité verticale dans le Haut-Atlas», B.E.S.M., En hommage

في وسعها للحفاظ على هذا الاستمرار بوسائل متعددة نذكر من بينها إقامة الأحلاف والأوفاق مع الجيران ورمي العار وشراء الذم وبذل الرشاوي بل واللجوء إلى العنف إن اقتضى الحال»<sup>174</sup>.

### ج. طريق السوق والموسم

هكذا كان التكامل بين أنماط العيش يقضي بالتناوب في استعمال مجالات مختلفة خلال المواسم الملائمة. وكانت أهمية التكامل تتجلى أيضاً في وجود نسبة هامة من المدن الصغرى في أحزمة «الدير» المحيطة بأقدام الجبال، وهي تشكل صلة وصل بين الجبل والسهل<sup>175</sup>. وقد أعجب شارل دو فوكو بدمنات، وقارنهما بمدينة صفرو الواقعة قرب فاس. ففي المدينتين تعيش جاليتان هامتان من اليهود. وفي دمنات، تأتي قبائل الأطلس والصحراء (دادس وتُدغة) لتتزوج بالأقمشة القطنية، والسكر، والشاي، والعلطور، والمجوهرات، والأحذية (البلاغي)، أي بمنوجات مستوردة من أوروبا أو مصنوعة بالمدن المغربية. وفي المقابل، تأتي تلك القبائل بالجلود، والأصواف، والتصور التي يرسلها تجار دمنات إلى مراكش<sup>176</sup>.

وكثيراً ما كانت المدينة امتداداً لنواة كانت سوقاً في الأصل. ومعلوم أن قاعدة التبادل التجاري كانت تتمثل في شبكة الأسواق التي تعرف تراتباً واضحاً، وتتفاوت في إشعاعها ونشاطها. وارتباد السوق يفترض أمن الطريق، ويتطلب إذن تدبير العنف داخل المجال القبلي، ولو في المستوى المحلي. ومن الناحية المبدئية، فإن السوق، مثل الأمن، أمر منوط بالقائد. فهو الذي يحدد الموقع ويدير الحراسة. غير أن التاريخ يكشف عن مجموعة من الآليات التي تلثقي فيها الأعراف القبلية مع المكونات الدينية، والتي ساهمت في صياغة أنماط التبادل داخل البوادي، وهي أنماط تخضع هيكلتها لنموذج الحرم.

فالسلم يفترض حياد المكان، والحياد شرط تدعمه القدسية. ومكان السوق ربما كان نواة مدينة، وقصة أصل المدينة تذكر أحياناً ملاسبات اختيار الموقع المناسب بناء على اعتبارات تهم تراب القبائل المعنية بالجوار والتبادل. وهكذا ذكرت المصادر أنه قبل بناء مراكش، كان موقع المدينة يتوسط قبيلتي أيلان وهزميرة<sup>177</sup>. وربما وضع المكان قديماً تحت رعاية الرب «كوش»<sup>178</sup>. وإذا كانت المدينة قائمة، فإن حضور الولي يخلق مركزاً رمزياً يجسد صورة الحياد. لننظر إلى

à P. Pascon, *op.cit.*, pp. 43-52.

174. انظر محمد بوسلام، م.س، ص. 166.

175. توجد ظاهرة الدير في ست مناطق مغربية، وهي مقدمة الريف، والأطلس المتوسط الشمالي، وملوية العليا، ومنطقة اتصال بين سلسلتي الأطلس المتوسط والكبير، وسوس، والسفوح الجنوبية بالمغرب شبه الصحراوي. راجع :

Mohamed Kerbout, «Originalité des zones de piémont : le cas du dir du Moyen-Atlas», in *La Grande Encyclopédie du Maroc*, pp. 119- 130.

176. فوكو، م.س، ص. 77-78.

177. انظر النص أعلاه، ص. 172.

178. م.س.

قصة الحسن الداخل، الجد القادم للشرفاء العلويين بتافيلالت.

«وكان المولى حسن الداخل رجلاً صالحاً ناسكاً له مشاركة في العلوم خصوصاً علم البيان فإنه كانت له فيه اليد الطولى، ولما استقر بسجلماسة واطمأنت به الدار زوجه الشيخ أبو إبراهيم ابنته وسكن على ما قيل بموضع يقال له: المصلح، ولما توفي تنازع أهل سجلماسة في موضع دفنه حتى كادت نار الحرب تشب بينهم فأجمع رأيهم أن يدفنوه بمحل وسط هم فيه سواء، فمسحوا أرض سجلماسة بالحبال وقسموها أرباعاً ودفنوه بمكان سوي يتوسط جميع النواحي...»<sup>179</sup>.

ويفترض السلم حياذ الزمان. وإلى حدود بداية القرن العشرين، كانت بعض الأوقاف القبلية، مثل الرفود أو الهنا، تُسنُّ السلم في فترات معينة من السنة، وهي الفترات التي يتفرغ فيها أعضاء القبائل المعنية لشؤون مثل التبادل.

وقد تأتي مبادرة تحديد زمن السلم من ولي تبجله المجموعات المحلية. فهذا الولي محمد بن مبارك الأفاوي الشوسى، الذي ذاعت شهرته في سياق بروز الشرفاء السعديين. يقال إنه «جعل للقبائل ثلاثة أيام في كل أسبوع. وفي كل شهر. كما تقدم أن لا يتعرض فيه أحد لأحد من خلق الله. حتى الحيوانات والحشرات»<sup>180</sup>.

وحين ينتقل التقديس من مستوى الفرد إلى المؤسسة الصوفية من حجم الزاوية الكبرى، فإن الموسم يجمع بين الدينني والدينيوي، أي بين الحج والتبادل. وهنا قد تتدخل الكرامة لتأمين طريق الموسم، وهي تحكي حكايات العقاب الذي يلحق بمن تجرأ على انتهاك حرمة الولي خلال زمن الموسم، وبالتالي فإن الكرامة تشيع الخوف وتثني عن أعمال الاعتداء واللصوصية. وهذه قصة الجسر الذي بناه جن كانوا في خدمة أبي حسون، وهو جسر يقع على وادي ولغاس<sup>181</sup>، في الطريق التي تربط بين تارودانت وموسم سيدي أحمد أموسى. فبعدما ارتكب سكان سوس عدداً من أعمال اللصوصية في هذه الطريق، انهار الجسر بقوة الله<sup>182</sup>. وفي حالات أخرى، تبدو كرامات الولي وكأنها بنود من قانون جنائي يساهم في

179. الناصري، م، ص، ج 7، ص. 6-7. والملاحظ أن نشوب الصراع بين المجموعات حول مكان دفن الولي هو بمثابة قصة نمطية تتردد في كتب المناقب.

180. انظر النص الوارد أعلاه، ص. 174.

181. هو من أهم وديان سوس، ينبع من الأطلس الصغير، ويصب في المحيط الأطلسي قرب ماسة، ويحمل كذلك اسم وادي ماسة. 182. انظر :

L. Justinard, « Notes sur l'histoire du sous au XIXe siècle », *Hesp.*, t. V, fasc. 3, 1925, p. 270.

ويبدو أن رجال المقاومة ضد الاحتلال البرتغالي بنوا هذا الجسر في بداية القرن السادس عشر. وقد استخدمته قبائل المنطقة في القرن الموالي في عهد إمارة بوميمية، وهدم الجسر في سياق حملة السلطان الرشيد العلوي ضد الإمارة المذكورة. وقد أصبح الوادي «من جديد صعب المرور خاصة أثناء الحملات المطرية، مما يجعله كحد نحو الجنوب، خاصة بالنسبة بجيوش السلطة المركزية في ظروف كانت القوى المحلية بالمنطقة يحسب لها حسابها أثناء حركة سوس 1280 / 1863». انظر محمد زهوني، م، ص، ص. 132، هامش 17. وربما كان ذلك أصل الاعتقاد الشائع إلى اليوم، بأن الملك الذي يجتاز وادي ولغاس لن يعيش بعد ذلك أكثر من سنة. ومعلوم أنه حين زار الملك الحسن الثاني الأقاليم الجنوبية، راجت شائعة مفادها أن العاهل توقف عند مشارف الوادي المذكور، وركب طائرة مروحية، وأخذ اتجاه المحيط نحو مصب الوادي... تجنباً لعبور هذا الأخير. راجع :

Abderrahmane Lakhsassi, « Ziyara to a Pilgrimage Center in Morocco. The Case of Sidi Hmad U-Musa (S.H.M.), *Islamic Area Studies, Working Paper Series, Tokyo, 2002, p. 13, n. 13.*

تأسيس الحرم. فهذه بعض كرامات إدريس الثاني تنتظم في إطار وحدات مجالية تنطلق من الضريح، تنتهي بالمدينة التي يراها وليها المؤسس. تحكي الكرامات مشاهد تصور الولي وهو يحمي :

- مجال حرمه .
- القائمين على حرمه .
- أحفاده وخدام أحفاده .
- من استغاث به، أو استجار بحرمه .
- مجموع سكان مدينته<sup>183</sup> .

هل تنتمي الكرامة إلى عالم الواقع أو إلى عالم التخيل ؟ في مثل هذه السياقات، تتراجع الحدود بين المستويين. فالكرامة تذكر بتلك «الخرافات والأساطير التي ليست مجرد ثمرات الخيال، أو مجرد مادة تغذي التوهم الجماعي. فهي تحكي وتتداول خلال الأمسيات، وهو ما يخلق مناخاً من الترقب والخوف. ويكفي أن تحدث أدنى صدمة، فيولد هذا المناخ الأوهام، ويقود إلى ارتكاب أفعال معينة. وفي هذه الحالة، يصعب علينا أن نقيم حداً فاصلاً بين الخرافة والمعتقد والمحكي، وبين الخير الحقيقي والأمثلة التي تصدق بالضرورة»<sup>184</sup>.

وتلتقي مختلف عوامل تأمين السفر لفائدة السوق والموسم في نصوص القوانين العرفية. فالعُرف يزجر مجموعة من الأفعال، من سرقة، واعتداء، وإثارة الاضطراب. غير أنه زجر يتعامل مع الأفعال المدانة حسب زمانها ومكانها. لناخذ مثال أعراف قبيلة ماسة<sup>185</sup>. فهي تنقلنا، بصفة غير مباشرة، عبر فضاءات مداشر المنطقة، من الحقل والمرعى والغابة، إلى الطريق، ومخزن الأقوات، والمسكن، والزاوية والحرم، والسوق<sup>186</sup>.

فمن زاوية الصحايا، هناك :

- «من قبض طريق<sup>187</sup> أسواقنا كالثلاثاء وملاق سيدي وَسِي بلا شهود وأكله للصوص في

183. انظر :

Abdelahad Sebti, « Images du saint-patron », in *Ville et figures du charisme*, pp. 83-85.

184. راجع :

Marcel Mauss, *Sociologie et anthropologie*, p. 25.

185. وردت الترجمة الفرنسية للنص في :

Ben Daoud (officier interprète), « Recueil du droit coutumier de Massat : Exemplaire des Ida ou Mout », *Hesp.*, vol. IV, 1924, 4<sup>e</sup> trim., pp. 405- 439.

وقد أطلعنا الزميل عمر أفا مشكوراً على نسخة مصورة للنص الأصلي المخطوط (انظر الجيولوجيا)، كما ساعدنا، إلى جانب عبد الرحمان لخصاصي، على فهم عدد من المصطلحات وأسماء المواقع الجغرافية الواردة في النص.

186. حول قراءة النص القانوني لرصد أشكال المجال والبنية الاجتماعية، راجع :

Baber Johannsen, art. in M. P. di Bella (dir.), *Vols et sanctions en Méditerranée*, pp. 41-74.

187. صيغة عامية تعني التجه إلى السوق.

الطريق أو قطع بعض القبيلة في طريقه»<sup>188</sup>.

- «من ذهب مع عاره»<sup>189</sup> في بلادنا وقطع عليه أحد فأكله بيده».

- «من ذهب للحركة أو لملاقات الأشياء مطلقا وذهب للصوص لداره».

وفي فضاء السوق، يعاقب العرف من «فاتن»<sup>190</sup>، أو «نصر لأحد»، أو «سل الهند»<sup>191</sup>، أو «ضرب بها»، أو «اطلع الزناد»<sup>192</sup>، أو «ضرب بالمكحولة أصاب أم لا»، أو «ضرب بالحجارة»، أو «قتل في السوق أو طروقه».

وتتعدد الأماكن التي تنسب لها صفة «حرمات آل ماسة». فهناك المساجد، والمرابطين، ودور الفقهاء، والزوايا، ولاسيما زاوية سيدي وأساي وزاوية الصوابي، ورباط ماسة<sup>193</sup>.

وفي مستوى الزمن، تبرز بنود العرف سوق الثلاثاء، وتضيف الاثنين والأربعاء، أي يوم الذهاب نحو السوق ويوم العودة منه. وتبرز كذلك أيام «ملاقة الأشياء»، أي المواسم السنوية التي تعقد بالزوايا.

وفي مستوى العقوبات، يفرض على إيجاني أن يدفع الغرامة، ويعوض المسروقات، ويستضيف إنفلاس<sup>194</sup>. وقد «تخلّى داره»<sup>195</sup>، أو «ويزوّگ من بلادنا»<sup>196</sup>.

هكذا تعكس بنود الأعراف، بشكل واضح، رغبة المجموعات في تأمين فضاء الزاوية والسوق، وأيام الموسم والتجارة<sup>197</sup>.

وفي بعض المناطق مثل الجنوب الغربي، يحصل التطابق بين موسم الولي وبين موسم قافلة

188. يدل فعل «الأكل» هنا على السرقة والنهب والسلب، وهو المعنى الذي يرد في النصوص الأخبارية والمراسلات السلطانية حين تتحدث عن سلوك جيوش السلطان عند اجتياحها لقبائل متمردة. وفيما يخص الأكل بمعنى الرشوة واستغلال النفوذ، انظر النص الوارد أعلاه، ص. 231.

189. إحالة حرفية على معنى «العار» بالأمازيغية، وهو معنى يتصل بالقرابة، وقد يقتصر على الزوجة أو الأسرة. وهذا ما يؤكد العلاقة بين الحرم والعائلة والمرأة.

190. عبارة عامية تعني «أثار الفتنة».

191. الهند هو الحديد الصلب، والمراد هنا السلاح الأبيض.

192. معناه هدد بالبنديقية، وقد سميت أدناه «المكحولة».

193. يطلق اسم سيدي وأساي على قبر المجاهد الأندلسي سيدي عبد الرحمان الرندي. أما زاوية الصوابي، وتسمى كذلك زاوية أكدال، فقد أسسها سيدي أحمد بن عبد الله بن بكة الصوابي الذي قدم هناك في بداية القرن الثامن عشر للميلاد. وتطلق على الموسم السنوي للزاوية أو الضريح كلمة «ملاقة» (مع بعض التنويعات في الرسم، مثل «ملاق» و«ملاقة»)، ويقال كذلك «ملاقة الأشياء». والكلمة ترجمة حرفية للكلمة الأمازيغية أمموگاز. حول زوايا المنطقة، راجع :

Robert Montagne, « Une tribu berbère du sud marocain : Massat », *Hesp.*, vol. IV, 1924, « 3<sup>e</sup> trim. », p. 386.

194. إنفلاس : جمع «أنفلاس»، ومعناه أعضاء مجلس القبيلة، ويستعمل الفقهاء في النوازل عبارة «النفاليس». وفيما يخص الاستضافة الطقوسية للنفاليس كأحد أشكال العقوبة، تستعمل نصوص الأعراف أحيانا كلمة «المباينة»، أو «المبينة». انظر محمد حمام، «أعراف قصور آيت إحيا : مجموعة من قصور آيت سدرات بوادي دادس» (وثيقة مع دراسة بالفرنسية)، ضمن جوانب من تاريخ وادي دادس وحضارته (لنفس المؤلف)، الرباط، 2002، ص. 13.

195. عبارة عامية لها هنا دلالة حرفية، وقد أصبح لها معنى مجازي يحيل على البلاء والمحنة.

196. فعل «زوّگ» يعني هنا نفى، ومعلوم أن الدلالة الشائعة تحيل على طلب اللجوء والحماية.

197. يكتسي النشاط التجاري أهمية كبرى في قبيلة ماسة، بسبب الموقع الاستراتيجي للقبيلة. انظر :

الصحراء. لتأخذ مثال زاوية سيدي أحماد أو موسى. تنفرد هذه الحالة بشئانية مجالية : تازروالت، حيث الزاوية والموسم، والبيخ، حيث المؤسسة الدنيوية (قوات مكلفة بالمحافظة على الأمن، ومقاولة تجارية ومصرفية). وتشهد الزاوية موسمين : يعقد الأول في نهاية شهر مارس، والثاني في نهاية غشت - بداية أكتوبر، وهو أكبر موسم يجنوب غرب المغرب<sup>198</sup>. وبعد الموسم الثاني، يعقد موسم إسبِكُ بأيت باعمران. وتعقد بمنطقة وادي نون سلسلة من المواسم، بين بداية يونيو (أُسْرِيرُ الأول)، ونهاية يوليوز (أُسْرِيرُ المِعْلِيلِ)، وبينهما القُصَابِي (منتصف يونيو)، وگلميم (بداية يوليوز). ومع قدوم الخريف، تبدأ إجراءات الاستعداد بمراكش، وتازروالت، ووادي نون، لانطلاق القافلة الكبرى التي تقصد تنبوكتو. ويكون الانطلاق في شتنبر أو أكتوبر، والرجوع بين فبراير وأبريل في موسم الربيع<sup>199</sup>.

#### IV. التعبير ومسالك الدلالة

حين تحدثنا عن قضية الانتقال من المجال إلى التراب، وعن زمن التحركات البشرية، وعن تشكل الزطاطة ومختلف المؤسسات التي ابتكرها المجتمع المغربي التقليدي لتأمين الطريق والمسافر والقافلة، فقد كنا نعرف بجوانب مختلفة من الممارسة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. لكن حديثنا كان يفترض باستمرار أننا نبحث، ونستقصي، ونصوغ فرضياتنا واستنتاجاتنا بناء على ما توفره لنا نصوص متنوعة هي مجرد وسائط تنقل إلينا أصداء تلك الأحداث والأفعال. لكن إلى أي حد يقف مضمون هذه الوسائط عند مستوى المدلول المعلن؟ ربما حان الوقت في هذه المرحلة الأخيرة لكي نقرب من دلالات أخرى توجد خلف الخبر، وتستدعي إعادة النظر في تصورنا للنص - المصدر كمجرد ناقل «محايد» للخبر والحدث.

#### 1. بين النصوص والأجناس

لنبدأ من التصنيف المتداول للنصوص كمصادر تاريخية. إنه تصنيف يقوم على ثنائيتين رئيسيتين. فالمؤرخ يميز بين الوثيقة والمصدر السردى. لقد التقينا بالنوع الأول من خلال نماذج من المراسلات المخزنية، ورسائل فقهاء وأولياء إلى أولي الأمر، ونصوص الأوقاف والتنظيمات العرفية. وكلها نصوص تبدو ملتصقة بالحدث، تردد صدهاء، أو تساهم في صنعه أو توجيهه. وتتعدد لغات هذه النصوص بتعدد الفئات المعنية واختلافها، وبوجود أو غياب وسائط تعيد صياغة القول حسب ثقافة كاتب الوثيقة، والطرف الذي تقصده المراسلة. أما النوع الثاني، فهو يخضع لمطالبات أدبية يليها الانتماء إلى هذا النوع أو ذاك، وهو انتماء يحيل على ثنائية أخرى.

198 . حول المواسم الكبرى بالمغرب شبه الصحراوي، انظر :

Nicolas Michel, *op.cit.*, t. 2, pp. 434-435.

199. دانييل شروتز، تجار الصورة، ص. 187-191.

وهناك التمييز المتداول بين التاريخيات وغير التاريخيات. ينبغي أن نذكر هنا بأن مفهوم التاريخ في الموروث العربي الإسلامي لا يقتصر على كتابات الأخباريين، أي أنه لا يقتصر على التاريخ العربي الإسلامي، بل يعم جملة من الحقول والمواضيع التي يحددها عنصر الزمن والتوقيت. ولذلك قد يهتم المؤرخ بالدول، والشعوب، والكيانات المحلية. وقد يهتم بالأنساب والبيوتات. وقد يهتم بالرجال، من فقهاء، وأولياء، وحكام. وقد يمتد الاهتمام إلى الصعاليك، والسراق، وقطاع الطرق<sup>200</sup>. وفي مجال المصادر غير الاسطوغرافية، ترد نصوص الأدب الجغرافي، وأدب الرحلة، والأدب السلطانية، والسياسة الشرعية، والأجوبة الفقهية. وقد تعود البحث التاريخي الحديث أن يوظف هذه الأجناس من أجل تنوع مصادر الخبر. فهذه الكتابات تستجيب لمتطلبات أدبية معينة، لكنها تفيدنا بطريقة غير مباشرة. فالرحالة الفرنسي شارل دو فوكو كان يقصد بالأساس المساهمة في استكشاف مناطق مجهولة من المغرب لفائدة مواطنيه. والمفتون والفقهاء كانوا يلبون حاجيات آنية وملحة واجهت السكان أو الحكام في ظروف معينة.

تلك كانت الملامح العامة لتصنيف المصادر. وقد انطلقنا من هذه الأوليات في تبويب بحثنا، حيث بنينا الفصل الأول على الرحلة، والثاني على الكتابة الأخبارية، والثالث على أدب مناقب الصلحاء والأولياء، والرابع على النص الفقهي في إطار أشكال الخطاب القانوني. لكن الغوص في ثنايا المصادر وتعاملها مع موضوع أمن الطرق وضعنا أمام ظاهرة تقاطع الأجناس. سوف نرصد هنا بعض النماذج المعبرة.

نقرأ كتاب «المسالك والممالك» للجغرافي الأندلسي البكري، فنلتقي بصفحات من تاريخ انتقال حركة المرابطين نحو السلطة، بل لا يتردد المؤلف في ذكر كرامات ابن ياسين، وهي تصور أحيانا مشاهد لها صلة بالسفر في بيئة الصحراء.

«وما يذكرونه ولا يشكون فيه من براهين صلاح عبد الله أنه ذهب في بعض أسفاره فعضوا فشكوا ذلك إليه، فقال: عسى الله أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً. ثم سار بهم ساعة وقال لهم: احفروا بين يدي. فحفروا فوجدوا الماء بأدنى حفر، فشربوا وسقوا واستقوا أعذب ماء وأطيبه»<sup>201</sup>.

ونقرأ كتاب البيدق حول أخبار ابن تومرت، فنجد الكرامة تتخلل سرد غزوات المهدي. ففي خبر الغزوة الثانية، نرى «المعصوم» يقول لأتباعه عند اقتراب المجسمين: «لا تجزعوا، فإنكم تقبلون منهم الهدية، فقلنا يا سيدنا كيف يهدي لنا أعداؤنا؟ قال لنا الرعب الذي يرمي الله في قلوبهم ويردهم، فلما وصلوا أمرنا المعصوم أن نخرج إليهم ونكثر من ذكر الله وقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فلما التقى الجمعان كبر المعصوم فيهم وقال لنا الله ينصركم عليهم، ثم قبض قبضة من تراب ورمها في وجوههم فانهمزوا وتركوا الخيل والبغال والذخر والسلاح، وانقلبوا خاسرين، والحمد

200. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الإعلان بالتبويخ لمن ذم علم التاريخ، بيروت، 1979، ص. 86.

201. البكري، م. ص. ج 2، ص 783.

لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين»<sup>202</sup>.

أما ابن القطان، فقد خصص فصلاً كاملاً لذكر كرامات «المعصوم»، من بينها نماذج تنتمي إلى مجال خرق العادة في السفر. «ومن كراماته رضي الله تعالى عنه نضوب وادي سلا الذي هو بحر ترفاً فيه السفن الكبار، فنضب لجوازه رضي الله عنه بعسكره، حتى لم يحتج فيه إلى قنطرة ولا قارب، كما سيأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى، وذلك خرق عادة»<sup>203</sup>.

ونقرأ «مسند» ابن مرزوق حول العاهل المريني أبي الحسن، و«منتقى» ابن القاضي حول السلطان السعدي أحمد المنصور، فنجد فصلاً مطولة حول سياسة تأمين الطرق، غير أن المعطيات ترد بأسلوب أقرب إلى أدب المناقب، حيث تغلب لغة التجميل على هاجس تحديد الزمان والمكان<sup>204</sup>. وإذا كان أبو القاسم الزياني، على عكس ذلك، قد أورد معلومات دقيقة حول قصبات السلطان العلوي إسماعيل، فلأنه تمكن من الاطلاع على ديوان «كاتب الدولتين» سليمان الزرهوني. ومن حين لآخر، يذكر الزياني أن القسبة الاسماعيلية كانت في الواقع تجديداً لقسبة تعود إلى عهد سلطان سابق<sup>205</sup>، مما يدعو إلى الاعتقاد بأن أنماط المصادر تُكَيَّفُ أحياناً تصورنا لبعض المراحل التاريخية.

وفي الكتاب الذي خصصه سليمان الخوات لمناقب الزاوية الدلائية، نجد نصوص الفتاوي الشهيرة التي وضعها سبعة من مشاهير فقهاء فاس حول قبائل الحياينة، وتوجهوا بها إلى الأمير الدلائي لالتماس تدخله ضد القبائل المذكورة والمتهمة بالفساد وقطع الطريق، وذلك في سياق الصراع حول السلطة، وقبيل دخول العلويين إلى فاس<sup>206</sup>.

وفي كتاب «نشر المثاني» لمحمد بن الطيب القادري، نقرأ ترجمة السلطان العلوي الرشيد، فنجد أمامنا استعراضاً لفصول من صراع الأمير المذكور من أجل السلطة. وعندما يغادر الرشيد زاوية الدلاء عند زيارته الأولى لها، يطلب منه المسافرون في قافلة «أن يحميهم إلى محلهم الذي يريدونه لأن الوقت وقت نهب ففعل فتعرض لهم خلال الطريق بعض أهل البوادي يريدون نهبهم فأخبرهم المولى الرشيد بأنهم في حمايته ليحترموا بحرمة إذ تلك كانت عادة أسلافه في حماية القوافل وغيرها...»<sup>207</sup>.

202 . البيدق، أخبار المهدي، ص. 35.

203 . ابن القطان، نظم الجمال، ص. 147.

204 . انظر أعلاه، ص. 117 وما تلاها.

205 . على سبيل المثال، نذكر قلعة تاوريرت التي بناها بنو مرين. ويبدو أن المبالغة في عدد القلاع التي بناها إسماعيل لها صلة بأسطورة «السلطان الأكل»، وهي تسمية أطلقت على عدة سلاطين من حقب مختلفة، ومن بينهم السلطان العلوي المذكور. انظر فوكو، م. ص. 82.

206 . أبو الربيع سليمان الخوات، البدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلائية، تحقيق عبد الرحمان كظيمي، رسالة مرفوعة، ك. آداب الرباط، 1992، ج 2، ص. 391-401. حول هذه الفتاوي، انظر مقال عبد الرحمن المودن، «التوتر والانفراج في علاقات البادية والمدينة: فاس وتازة وأريافهما بين القرنين 16 و 19»، ضمن أعمال ندوة تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي، الرباط، 1988، ص. 37-44.

207 . انظر أعلاه، ص. 124.

وفي كتاب «الإتحاف»، يعرف عبد الرحمان ابن زيدان بالسلطان الحسن الأول، فيحكى المؤلف وقائع حركة السلطان ضد أيت شخمان وحلفائهم أيت يعقوب أعيسى (طائفة من شُقين)، خلال شهري ذي القعدة وذو الحجة 1305 (يوليوز- شتنبر 1888). ثم يورد نص رسالة «إخبارية» وجهها العاهل إلى أخيه إسماعيل خليفته بفاس. ثم يورد ابن زيدان مجموعة من الأقوال الفقهية المتعلقة بالحراية.

«ولا شك أن هؤلاء العتاة البغاة محاربون يجب قتالهم ويقدم على قتال الروم. يتبع منهزمهم، ويقتلون مقبلين، ومدبرين، ومنهزمين. وليس هربهم توبة تدرأ عنهم القتل، على قول سحنون، خلافاً لابن قاسم، انظر المواق. وإذا أخذوا قبل التوبة، لزمهم الحد. وهو ما نص الله تعالى عليه في محكم وحيه بقوله: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض). ولا يسقط حق الحراية على من ثبتت حرايته إلا التوبة قبل القدرة عليه، ثم لا يسقط بعد حق الأدميين. ولا خلاف يعتبر في أن المحارب هو القاطع للطريق، المخيف للسبيل، الشاهر للسلاح طالبا للمال، فإن أعطيه وإلا قاتل عليه، انظر «منتقى» الباجي. وقد قال ابن المواز: لم يختلف قول مالك وأصحابه في إجازة قتال المحاربين، وإن من قتلوه فهو خير قتيل، ومن قتل منهم فهو شر قتيل. وقال مالك وابن القاسم: غزوهم غزو. وقال عنه أشهب: من أفضل الغزو وأعظمه أجراً. وقال مالك في أعراب قطعوا الطريق: غزوهم أحب إلي من غزو الروم. وقال ابن القاسم: وإذا قتل الواحد منهم قتيلاً فقد استوجب جميعهم القتل، ولو كانوا مائة ألف إذا كانوا رداءً له وأعداءً. وقد صرح ابن الحاجب وغيره بالاتفاق على قتالهم، ووجوبه على من قدر عليه. ومن كان معاوناً للمحاربين، كالكمين والطليلة، فحكمه حكمهم. ويدخل في قوله (ص): لغدوة أو روحة في سبيل الله، خير من الدنيا وما فيها، والغدوة لقتال المحاربين. وقال ابن عرفة: لا ينبغي لمسلم مخالفة في قتال المنتصبين لقطع الطريق وسفك دماء المسلمين وأكل أموالهم، وكذلك استباحة أموالهم واتباعهم في هروبهم والإجهاز عليهم لا يشك في ذلك إلا مفرق في الجهل ومعاند للحق. قال: وذلك عندي كفر، لأنه منكر لما علم من الدين ضرورة إن كان يعلم وصفهم المذكور»<sup>208</sup>

والملاحظ أن نقول ابن زيدان تحيل على ما ورد في فتاوي فاس السالفة الذكر، وهذه الفتاوي تحيل بدورها على الفصل الذي خصصه الماوردي، في كتابه «الأحكام السلطانية»، لموضوع «قتال من امتنع من المحاربين وقطاع الطرق».

كيف نفسر هذا التداخل بين النصوص والأجناس؟ قد تختلف مستويات التعليل. أولاً. هناك عوامل تعود إلى وظيفة النصوص. فإضفاء الشرعية على مواجهة السلطة لبعض القبائل قد يدعو إلى استحضر نصوص الفقه والسياسة الشرعية. ثانياً. هناك ضرورة التمييز بين منطوق الأجناس، وبين بعض القيم والمكونات البنوية لثقافة

المؤلفين، وهي مكونات قد تخترق أجناساً متعددة ومختلفة في ظاهرها. ومن ثم فمن المفيد أن نقيم الفرق بين الجنس المنقبي والمضمون المنقبي، وهو ما يبرر حضور الكرامة في النص الأخباري أو الجغرافي<sup>209</sup>، أو حتى في النص القانوني كمثل الفتوى وكتاب النوازل<sup>210</sup>.

ثالثاً. إن التقاطع المذكور يدعو كذلك إلى إعادة النظر في الحاجز المفترض بين الوثيقة والمصدر السردي. إنها «تخوم» نصية ودلالية توجد، على سبيل المثال، بين الفتوى المنفردة، وبين مجموع النوازل على غرار «معيار» أحمد بن يحيى الونشريسي و«معيار» المهدي الوزاني، وقد توجد بين الفتوى المنفردة وبين شرح منظومة «العمل الفاسي».

وبقدر ما تتيح القراءة المتأنية انتباهنا لهذه الأشكال من التبادل بين النصوص والأجناس، بقدر ما تستدعينا للبحث عن طبقات مضمرة من المضامين والدلالات. وقد توصلنا إلى رصد ثلاث طبقات، وهي تهتم على التوالي المجاز، والقصة المتوال، والمعيار.

## 2. المجاز

قد ينتظر القارئ من مؤلف أخبار الدولة، ولاسيما الموالي للحكام، أن يهتمش أحداث قطع الطريق، غير أن النصوص تؤكد العكس. لكن نادراً ما تحكي النصوص مشاهد ملموسة، ونادراً ما تذكر أسماء قطاع الطرق، بل تكتفي بتوطين فضفاض للحدث. ذلك أن حدث قطع الطريق، وحدث رده لا يهتمان في حد ذاتهما، بقدر ما يهتمان كمؤشرين لظواهر أخرى. إنه المجاز، والكناية على وجه التحديد.

لنتأمل مثلاً في أقوال السياسة الشرعية فيما يخص زجر قاطع الطريق، وهو ما اصطُح عليه بـ«حد الحرابية». ففي كتاب «الفكر السامي»، يورد محمد الحجوي سياق التشريع انطلاقاً من الآية المؤسسة التي تتصل بالموضوع<sup>211</sup>. فقد أصبح قطع الطريق يعني الحرابية، وهو ما معناه أن فاعلها «يحارب الله ورسوله»، و«يسعى في الأرض فساداً». ويكفي أن نعود إلى استطراد ابن زيدان السالف الذكر، فنحصي امتداد الكناية من خلال تعدد الصيغ المترادفة. فقطع الطريق «عتو»، و«بغى»، و«سفك دماء المسلمين وأكل أموالهم، وكذلك استباحة أموالهم واتباعهم في هروبهم والإجهاز عليهم». وقد زيد في تمديد السلسلة، بحيث يستقطب مفهوم الحرابية مجموعة من المفردات التي تنتمي إلى معجم «الفتنة».

لماذا هذا التضخيم لعواقب قطع الطريق؟ تبدو إعاقة التبادل وكأنها إعاقة لجوهر الحكم. فقد ورد في فتوى محمد بن أحمد ميارة، حول قضية الحياينة السالفة الذكر :

209. انظر مقالنا «أخبار المناقب ومنقب الأخبار»، ضمن التاريخ وأدب المناقب، جماعي، الرباط، 1989، ص. 93-113.

210. تناول الفقيه المهدي الوزاني (المتوفى سنة 1342 للهجرة / 1923 للميلاد) عدداً من المواضيع ذات الطابع المنقبي، نذكر من بينها «دليل الكرامة من الكتاب والسنة»، و«الفرق بين الكرامة والمعجزة»، «الكرامة لا تدك على الأفضلية»، و«الطي على قسمين طي أصغر وطى أكبر». المعيار الجديد، ج 11، ص. 283-284.

211. انظر أعلاه، ص. 104، هامش 34.

«قال علماؤنا رضي الله عنهم : إنما كان للمحاربين الخزي في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة، لشناعة المحاربة وعظم ضررها، لأن فيها سدا السبيل الكسب على الناس، لأن أكثر المكاسب وأعظمها التجارات، وركنها وعمادها إنما هو الضرب في الأرض (...). فإذا خيف الطريق انقطع الناس عن السفر واضطروا إلى لزوم البيوت، فانسد باب التجارات عليهم وانقطع اكتسابهم فشرع الله التغليظ على قطعة الطريق...»<sup>212</sup>.

وقد نتساءل : متى يستحق فعل السرقة أو قطع الطريق أن تنسب إليه صفة الخرابية وما يرافقها من حدود ؟ قد نصادف بعض القرائن التي تدل على أن مفهوم الخرابية قد يستقل عن الفعل الملموس . فخلال مرحلة الاضطراب التي تلت وفاة السلطان إسماعيل، يقال إن العبيد ولوا الأمير أحمد الذهبي، وحاولوا أن ينتزعوا البيعة لصالح العاهل الجديد، «وأعدوا من شق عصا طاعته بما يلزم البغاة والمحاربين»<sup>213</sup>.

لا غرابة إذن أن نرى دلالات الخرابية تخضع لمقتضيات السياق وموازين القوة وعلاقات السلطة. ولا غرابة أيضاً أن نرى استعمال هذه الدلالات يشمل تأليف السياسة الشرعية، وفتوى الفقيه، ومراسلات الملوك والولاة، وتدوين أخبار الدول. وهنا تبرز ثنائية الطرق الآمنة والطرق المخوفة.

### 3. الخبر والنمط والمعيار

اهتم منظور السياسة الشرعية بمسألة قطع الطريق كفعل يستحق الإدانة ويستدعي إقامة الحد من طرف أولى الأمر. أما كتب الأخبار، فهي لا تورد أخبار أمن الطرق في حد ذاتها، بل توردها كمؤشرات أساسية على أوضاع الملك. ولذلك كثيراً ما تلتبس لغة الحدث بلغة النمط. إن العنصر الذي ظل يهيكل أشكال حضور أمن الطريق هو مدلول معين لمصطلح «الدولة». فهذه الكلمة لا تحيل على مؤسسة سياسية مجردة، بل تحيل على الشهرة، والغلبة، والتداول. وقد تسربت الدلالة الأخيرة إلى الاستعمال اليومي في العامية المغربية :

- «دولة البقر»، وهي تشير إلى تنظيم التناوب في رعي قطع الجماعة. وبنفس المعنى تستعمل بعض القبائل، مثل هواة بسوس، عبارة «مراح الدولة»<sup>214</sup>.

- «دولة السقي»، وهي واضحة المعنى، وتستعمل في بعض المناطق الجبلية والواحات، حيث تعودت المجموعات، منذ القديم، على إقامة تقاليد دقيقة في توزيع الموارد المائية على مستوى الاستغلاليات الصغرى.

- «دولة الطلبة»، وهي «الدورة في الدرس على أستاذ يلقن مادة في وقت معلوم». وبهذا

212. انظر نص الفتوى في كتاب سليمان الحوات، البدور الضاوية، م.س، ج 2، ص. 393-396.

213. ابن زيدان، م.س، ج 1، ص 266.

214. إفادة شغوية.

المعنى يقال «الطالب صاحب الدولة في القراءة». «وقد تعني الدولة عند الطلبة الدورة والتطواف على البلاد لجمع ما يستعان به على الطلب».<sup>215</sup>

أما استعمال مصطلح الدولة في كتب الأخبار، فهو يشمل عدة مستويات، وقد صنف ابن خلدون هذا الاستعمال، فميز بين مستوى المجال ومستوى الزمن. ففي مستوى المجال، هناك «الدولة العامة» التي لا تخضع لغيرها، وهناك «الدولة الخاصة»، وهي حكم عصبية خاصة في إقليم معين، تابع ولو نظرياً لحكم عصبية عامة تمتد سلطتها إلى أقاليم عديدة. وفي مستوى الزمن، هناك «الدولة الشخصية»، و«الدولة الكلية»<sup>216</sup>. وقد تؤدي بعض ظروف الاضطراب السياسي إلى إقالة سلطان وتولية الحكم عدة مرات بشكل متقطع، فيقال «الدولة الأولى» أو «الثانية» لعاهل واحد.

في كل هذه المستويات، تَحضر ثنائية الطرق الآمنة والطرق المخوفة. فعند افتتاح «الدولة الشخصية»، يورد المؤرخ سلسلة من العناصر التي تتصلب بالتأسيس والافتتاح والتدشين. فالسلطان الجديد يتخذ عدة إجراءات، والبلاد تعرف أحوالاً مثالية، وهي أحوال توحى بصورة تجدد الكون.<sup>217</sup>

وهكذا فبعد ما ولي يوسف بن عبد المؤمن الموحيدي، «أخذ بنهج أبيه وسلك سبيله واهتدى بهديه، وسار بسيرته واقتدى بأفعاله، وجمع الأموال الكثيرة، وهو أول ملك من ملوك الموحيدين جاز إلى الجهاد فغزا بنفسه، وواظب عليه، واقتنى الذخائر، واستكثر من الجيوش والجنود، ومهد البلاد، وأطاعه من بالعدوتين من العباد، وضخم ملكه (...). يجبي إليه خراج ذلك كله دون مكس ولا جور، فكثرت الأموال في أيامه وتمهدت البلاد، وتأمنت الطرقات، وضبطت الثغور، وصلح أمر الناس في البادية والحاضرة، وذلك لحسن سيرته الجميلة، وعدله الشامل لرعيته، وتفقدته لأحوال بلاده القريبة والبعيدة ومباشرة أمور مملكته بنفسه حتى لا يغيب عنه منها شيء، ولا يدخله فتور عن النظر في أموره ولا يكلها إلى غيره»<sup>218</sup>.

وهذا يوسف بن يعقوب المريني. «لما تم له الأمر واستقامت له الخلافة فرق الأموال على جميع قبائل مرين والعرب والأندلس والأغزاز وسائر الأجناد، وأحسن إلى الفقهاء والصلحاء، وأخرج الصدقات إلى الضعفاء، وسرح السجون في جميع بلاده، وتصدق بترك الفطرة على الناس، وقال من وجب عليه أداؤها يتصدق بها لنفسه حيث شاء، ورفع الأثقال عن ديار الرعية، وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس، وأزال المكوس، وأمر بهدم المروس، وقمع البغاة، وأباد الطغاة، وأمن الطرقات،

215. العزفي، دعامة اليقين، ص. 51، مع الهامش 42.

216. انظر محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي، الدار البيضاء، ص. 320-322.

217. انظر عبد الملك ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم وارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، 1964، ص. 353. بصدد بداية عهد أبي يعقوب يوسف الموحيدي، كتب المؤلف: «ومنت الجبايات والخراجات حين نما كرمه ورغد، وعزمت النفوس على الغزو وحرر المحاربين في الحضرة لهم والبدو، واتصلت الغبطة بالبيعة الرضوانية والأمان، وقيل للزمان: «أنت خير زمان»، وتجدد للعالم من حالهم الجديدان، وطلب الجبان من طربه الطعن في الميدان».

218. انظر النص الوارد أعلاه، ص. 124.

وأزال أكثر الرتب والقبالات التي كانت بالمغرب إلا ما كان منها بالبلاد الخالية والمغازات العالية، فخفضت مرين تحت قهره وصلح أمر الناس في أيامه»<sup>219</sup>.

وتُنسج أخبار تجدد «الدولة الكلية» وفق نموذج تكراري. لناخذ مثال مرحلة انحلال دولة الموحدين. فقد «صار فيها النقص وتبين أي تبيين، وصارت ملوكهم ليس لهم حكم في البوادي، وإنما سلطانهم وأوامرهم في المدن خاصة، وكثرت الفتن بين القبائل، واشتد الخوف في الطرقات والمناهل، ونبذ أكثر الناس الطاعة، وفارقوا الجماعة، وقالوا لولا أنهم لا سمع ولا طاعة، فاستوى الدنيا والشريف، وأكل القوي الضعيف، كل من قدر على شيء صنعه، ومن أراد شراً ابتدعه، ليس لهم سلطان يكفهم، ولا أمير في غيرهم يردهم ويصدهم، وكانت قبائل فازاز من جناتة وقبائل العرب والبربر يقطعون الطرقات، ويغيرون على القرى والمجاشر مع الأحيان والأوقات»<sup>220</sup>.

وتقدم هذه الصورة لتبرير تطلع بني مرين إلى السلطة. «فلما رأى الأمير عثمان بن عبد الحق ملوك الموحدين قد أهملوا دولتهم، وسبوا رعيتهم وضيعوا حرماتهم، واعتكفوا في قصورهم، واحتجبوا عن مهمات أمورهم، وأنهم قد اشتغلوا بالخمور والغواني، وتلذذوا باللهو وسمع الأغاني، رأى أن ضلالهم قد تبين، وجورهم قد زاد وتحكم وغزوههم على من له قوة واجب تعين، وأن خلعهم من أوجب الواجب، لعجزهم عن القيام فيما تقلدوه من أمر الأمة بالحق الواجب، فجمع أشياخ مرين، وندبهم إلى القيام بأمر الدنيا والدين، والنظر في صلاح المسلمين، فوجدهم في ذلك راغبين...»<sup>221</sup>.

وهذا أبو بكر يدخل مدينة فاس. «فاستقامت له الأمور بالمغرب وتمهد له الملك وقدمت عليه الوفود للبيعة والتهنئة وتهدنت البلاد وتأمّنت الطرقات وكثرت الخيرات، وتحركت التجارة، وأمر القائل بسكنى الأوطية وعمارة القرى والمداشر الخالية والاستكثار من الحرث، فرخصت الأسعار وصلح أمر الناس...»<sup>222</sup>.

وقد تعرف «الدولة الكلية» ولادة ثانية بعد مرحلة انحلال كادت تؤدي إلى انهيار شامل. وذلك ما عاشته الدولة العلوية خلال العقود الثلاثة التي تلت وفاة السلطان إسماعيل، فيما بين سنتي 1727 و1757 للميلاد. فمن منظور الأخباريين، تميزت هذه المرحلة بخاصيتين. فهي حالة «فترة»، وهي كلمة تعني لغويًا حالة الضعف والسكون التي تلي حالة الحدة، وهي تعني كذلك «المدة الفاصلة بين نبيين حيث تنقطع الرسالة السماوية ويترك البشر دون هدى سوى من أنفسهم»<sup>223</sup>. وهي في أن واحد مرحلة تذكر بالجيل الثالث من عمر الدولة حسب الاصطلاح الخلدوني.

ف عند سرد أحداث هذه المرحلة، استعمل المؤرخون عبارات مثل: «النحوس»، و«الخطوب»، و«توالي الشرور والفتن»، و«كثرت الهرج وعمت الفتنة». ومن الممكن رصد مجموعة من الصيغ المعبرة

219. انظر النص الوارد أعلاه، ص. 116.

220. انظر النص الوارد أعلاه، ص. 114.

221. انظر النص الوارد أعلاه، نفس الصفحة.

222. انظر النص الوارد أعلاه، ص. 115.

223. ابن منظور، لسان العرب، مادة «فترة». راجع كذلك عبد الرحمن المودن، «الحوليات والأزمات السلطانية (1727-1757)»: مصطلح الفترة، ضمن الاسطوغرافيا والأزمة، جماعي، الرباط، 1944، ص. 105-111.

مثل: «ازداد الأمر شدة، وارتفعت الأسعار وانعدمت الأقوات، وكثر الهرج»، و«الفساد وانقطاع السبل وتعذر الأسباب». ثم تزداد حدة التعبير فيقول المؤرخ: «وسقطت هيبة الخلافة وانحل نظام الدولة بالمرّة...»<sup>224</sup>، أو «لحق الدولة الهرم، وكانت دولة أبيهم [إسماعيل] من أعظم الدول في الإسلام وبهجة في جميع الأيام»<sup>225</sup>.

فخلال «الفترة»، بلغت أوضاع أمن الطرق ذروة الانحدار، وكانت هذه الأوضاع جزءاً من حالة عامة تذكر بأحوال القيامة. وهو ما نلمسه بشكل خاص في أخبار عهد محمد ابن عربية. «وكثر أهل الفساد في الحاضر والباد، وعم جميع المغرب الغلاء وعظم البلاء، وأكل القوي الضعيف، وصارت أموال الناس غنيمة ولا بقي في الناس عهد ولا نية، وكثرت المنكرات واشتد الخوف في الطرقات وغلت الأسعار في جميع الأمصار ولا سيما مدينة مكناسة وفاس، وكانتا محصورتين من كل جهة من الناس، وكثر في المدينتين الخراب، وضيق عليهم من كل جهة البرابر والأعراب، وتوالت في أيام السلطان سيدي محمد ولد أغريب الهزائم على العساكر، وضعف الجند في دولته في البادية والحاضرة»<sup>226</sup>.

وبعد وصول محمد بن عبد الله إلى السلطة، قال عنه ابن زيدان إنه «جدد هذه الدولة الإسماعيلية بعد تلاشيها، وأحياها بعد خمود جمرتها وتمزق حواشيها، بحسن سيرته، وبمن نقيته، رحمه الله تعالى ورضي عنه». وقيل عنه: «وهو الذي أعاد للدولة شبابها، وهياً للحياة أسبابها، ونهج لها نهجاً جديداً وأسس لها بعد جده الأعظم أبي النصر إسماعيل ركناً شديداً، ونشر بين الخفافين مجدداً، بعدما كسر من شوكة العبيد حدها»<sup>227</sup>.

وفي وقت لاحق ستم الدولة العلوية بصعوبات شديدة في نهاية عهد سليمان، ويأتي عهد ابن أخيه عبد الرحمان بن هشام، فيذكر له صاحب «الاستقصا» خصلتين: «إحداهما شهادة عمه السلطان المولى سليمان له بالتقوى والعدالة والمحافظة على خصال الخير ونوافله حتى قدمه على بنيه حسبما مر ذلك مستوفى، والثانية إقامته صلب هذه الدولة الشريفة بعد إشرافها على الاختلال وردها إلى شبابها بعد أن حان منها الزوال والارتمال كما رأيت أيضاً». وبعد ذلك يستعرض الناصري عدداً من آثار العاهل المذكور، ومن بينها بناء قصبتي الصخيرات وبُوزْنِيَّة «لتأمين طرق رباط الفتح»<sup>228</sup>. وهكذا ترد أحوال الطرق في إطار صور تكرارية تتحدى تغيرات الزمان والمكان، وهي صور توظفها فكرة الدائرة والعود الأبدي<sup>229</sup>. يعتمد المؤرخ إلى تلوين أخبار الحاكمين وفق دائرة قيام الدول

224. الناصري، الاستقصا، ج 7، ص. 117.

225. الضعيف، تاريخ، ص. 110.

226. انظر النص الوارد أعلاه، ص. 139.

227. ابن زيدان، الاتحاف، ج 3، ص. 150.

228. الناصري، م، س، ج 9، ص. 78-79. وتجدر الإشارة إلى أن بناء القصبين المذكورتين تم في طرفية شهدت ضعف قبائل زعير على الساحل الواقع بين رباط الفتح والدار البيضاء.

229. انظر:

وزوالها. فالطرق المخوفة عنوان الجور، وإعلان الانحلال، وتبرير لانطلاق مشروع دولة بديلة. والطرق الأمانة عنوان العدل والسلطة المشروعة.

خلف هذا التصور، نجد مقولات الآداب السلطانية. فالسلطان مطالب بتأمين السبل، لأن في ذلك فائدتين، وهما إقامة العدل، وتنشيط التبادل والكسب. ففي أولى الفائدتين منفعة، وفي الثانية استجابة لقيمة ومثال. وبين العدل ورفاه الرعية، هناك علاقة وثيقة تتجلى بوضوح في «دائرة العدل» التي استعارها المؤلفون المسلمون من ثقافات سابقة، وربطوها بمرجعيات السلف الصالح. «لا سلطان إلا بجند، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل، فصار العدل أساساً لكل الولايات»<sup>230</sup>.

لننظر الآن إلى تعامل كتب الأخبار مع موضوع الجباية. فالدولة الجديدة تقوم على دعوة إصلاحية تندد بجور الجباية باسم الكتاب والسنة. وصورة السلطان العادل تقترن بحذف الجبايات المجحفة. وفي المقابل، نادراً ما ترد أخبار إحداه الجبايات الجائرة، إلى درجة أن الباحث الحديث، في غياب الوثائق والسجلات، لا يتوصل إلى تفاصيل تاريخ الضرائب، في كثير من الحالات، إلا عن طريق ذكر إغائتها من طرف بعض السلاطين المصلحين<sup>231</sup>، أو عن طريق شجبها من طرف دعوات تطمح إلى تقويض الحكم القائم، أو فقهاء أو أولياء يتولون مهمة نصيح السلطان.

ذلك أن صفة الجور ظلت لصيقة بالمكوس، وهي كل الجبايات التي لم تعرفها الدولة الإسلامية في العصر التأسيسي. والملاحظ أنه منذ العصر الوسيط، اتسم معجم الجباية بالتباس بين تسميات تحمل تخصيصاً إدارياً ومالياً واضحاً، وبين تسميات تحمل حكم قيمة ديني وتشير إلى اللاشريعة. وفي هذا الإطار ترد كلمات مثل : «رسوم»، و«ضرائب»، و«لوازم»، و«وظائف»، و«مغارم»، و«تكاليف»<sup>232</sup>.

فإلى هذا المعجم تنتمي رسوم المرور، التي تسمى أحياناً «الخفارة»، أو «مال الحراسة»، أو «ضريبة الإجازة»<sup>233</sup>. إن الترادف بين الخفارة والمكس ضمنى في كثير من النصوص، وقد يكون

230. حول دائرة العدل، راجع عز الدين العلام، الأدب السلطاني، ص. 131 وماتلاها.

231. انظر حالة كتاب محمد ابن مرزوق، المستد، ص. 281-286، في سياق ذكر أبي الحسن المريني، وبالتحديد «محوه رضي الله عنه للمناكر والمكوس والبدع وقيامه بذلك رضي الله عنه». وفيما يخص جبايات الطريق التي حذفها أبو الحسن، يقول المؤلف : «فكانت طائفة تدعى الغرباء، وهم العيون والجواسيس وخدام الطرق، يستعملون أشياء جرت عوائدهم واختلفت فيها طرقهم، فينتقلونها قصداً لأكل أموال الناس بالباطل» (266). لكن الرسالة الثانية للولي ابن عباد إلى العاهل المريني أبي فارس عبد العزيز، تدعو إلى التحفظ إزاء معطيات ابن مرزوق، على أساس أن نوعاً من المبالغة نتج عن الصورة الإيجابية لأبي الحسن المذكور. انظر النص الوارد أعلاه، ص. 134-137.

232. حول صعوبة تحديد مضمون هذه المصطلحات، راجع :

Halima Ferhat, *Le Maghreb*, pp. 127-142.

233. يذكر ابن خلدون، في تعريفه بذي عبيد الله، من عرب المعقل، أنهم «ضربوا على بلاد هنين بالساحل ضريبة الإجازة منها إلى تلمسان، فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها إلا بإجازتهم، وعلى ضريبة يؤديها إليهم». العبر، ج 11، ص. 124. وفي سياق آخر، ضمن أخبار الخليفة الموحد أبي يعقوب يوسف، كتب ابن عذاري : «ولما استقر بإشبيلية في عام ستة وستين عقد جسراً على واديهما بالقنطرة العظيمة المؤسسة لعبور الناس عليها من أهلها وأهل الشرف إليها وإجازة العساكر للفرز عليها وسبيلها للمسلمين للعبور في مصالحهم دون قبالة ولا إجازة...». ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، ص. 165.

صريحاً كما هو الشأن عند ابن تيمية في معرض حديثه عن أحكام الحرابة وقطع الطرق<sup>234</sup>.

وتقترن جباية الخفارة عادة بضعف حضور الدولة المركزية. وهكذا ففي عصر سيادة الدويلات وإمارات المدن، ذكرت بعض المصادر أن القبائل الواقعة على المحور الرابط بين أودغشت وسجلماسة كانت تجبي «اللوازم» على القوافل المارة بتلك الطريق، وكانت بعض قبائل مزاتة وزناتة («أصحاب البرانس») تحصل جبايات ماثلة في المحور الرابط بين مدينتي سجلماسة وفاس<sup>235</sup>.

وفي مرحلة الدولة المركزية، ذكرت المصادر «ضريبة الرتب». فكتب الأخبار قد تشيد بسلطان أقام الرتب على الطرق من أجل حماية المسافرين، لكنها تغيب إحداث ضريبة الرتب، وسوف تشيد بمآثر سلطان حذف مثل هذه الضريبة. والولي أو الفقيه قد يحتج على إحداث ضريبة الرتب ويعتبرها من قبيل الجور، وهو ما قام به ابن عباد الرندي في مراسلته للسلطان المريني أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن.

لنتتبع لغة الاستطراد في الرسالة-النصيحة. فابن عباد يشير إلى «مظالم الرتب التي أحدثت بطرق المسافرين». ثم يخبر السلطان أن «من تولى ذلك من أهل الفساد والشر قد انتشروا في بسيط الأرض، وقطعوا طرقاتها على المساكين والمستضعفين، وحازوا منهم من الأموال الحرام بالنهب والغصب ما استعانوا به على ارتكاب الكبائر والفواحش، حيث لا تتألم أحكامكم، وهم أراذل الناس وسفهائهم...». ثم ينصح ابن عباد السلطان بأن يحذو حذو أبيه أبي الحسن الذي سبق له أن ألغى الضريبة موضوع الرسالة. وبعد ذلك يشير على مخاطبه بأن يتفقد عماله، لأنه «ظهر منهم الغش وعدم النصيحة لكم ولرعيكم»، «وتمكنوا من الرعية كل التمكن، وأحدثوا سنناً غير مشروعة، وفعلوا عليه ما يوافق أغراضهم بما يكسبهم المال والجاه، وتوصلوا بذلك إلى جباية أموالهم، والاستيلاء على رقابهم بالجبر والقهر». وبعد ذلك يؤكد الولي أن المراقبة الصارمة لسلوك العمال من شأنها أن تزيد من موارد الجباية، وتجعل السلطان في غنى «عما أحدث من المظالم والمراسم والمغارم الضارة برعيكم...». ثم تورد الرسالة أقوالاً عديدة من مأثور السنة حول مضار الرشوة وواجب محاربتها.

وفي مستوى آخر، فحين عالج فقه العمل موضوع عرف الزطاطة، وجواز أداء المقابل لمن يحمي المسافر ويساعده على اجتياز الطرق المخوفة، فإنه ميز بين من يحمي بسلاحه وبين من يحمي بجاهه. إن تعويض النوع الثاني يعني أداء «ثمن الجاه»، وهو ما يرفضه الفقه في المشهور، باعتباره من قبيل الرشوة، بينما فصل فيه بعض المفتين في اتجاه احتمال التجوز<sup>236</sup>.

«اختلف علماؤنا، رضي الله عنهم، في حكم ثمن الجاه. فمن قائل بالتحريم مطلقاً، ومن قائل بالكرهه بإطلاق، ومن مفصل فيه، وأنه إن كان ذو الجاه يحتاج إلى نفقة وتعب وسفر أو ترداد شيء،

234. انظر النص الوارد أعلاه، ص. 109.

235. هوبكنز، النظم الإسلامية في المغرب، 1999، ص. 76.

236. من الممكن أن نلمس علاقة بين ظاهرتين ثقافيتين: تتمثل الأولى في التعارض بين تحريم الرشوة وتجويز «ثمن الجاه»، وتتمثل الثانية في الالتقاء الحاصل بين «الواقعية» و«طوبى» الفقيه. انظر عبد الله العروي، مفهوم الدولة، ص. 114.

فأخذ أجرة مثله، فذلك جائز، وإلا حرم»<sup>237</sup>.  
وفي مستوى أعم، يعبر التقاء الفقه بالعرف، في معالجة موضوع الزطاطة، عن المصلحة المشتركة التي تجمع بين المدينة والبادية فيما يخص تيسير التنقل والتبادل داخل تشكيلة ترابية تغيب فيها المراقبة التي يتولاها جهاز موحد.

## خلاصات مرحلية

انطلقنا في بداية هذا البحث من إشكالية تاريخية تتجلى في سؤالين مُترابطين : لماذا انتقلت الرطاطة، منذ أواسط القرن العشرين، من معنى حماية المسافر في الطرق المخوفة إلى معنى الرشوة ؟ ولماذا يقوم هذا المجاز على صورة التعارض في الأدوار والتمثلات؟ ومن أجل محاولة الكشف عن جوانب هذه الإشكالية، تبيننا مبدأ تصنيف النصوص وفق منظور أجناس الكتابة، وميَّزنا بين الرحلة الاستكشافية، والحوليات السلطانية، وأدب المناقب، والنص القانوني .

تبين لنا أن عملية تصنيف الممارسة الاجتماعية تتيسر أكثر بواسطة الرحلة الاستكشافية والنص القانوني . ففي الفصل الأول انطلقنا من كتاب شارل دو فوكو، الذي امتزج فيه الوصف الجغرافي، بالثقافة الإثنوغرافية، ويوميات الرحلة . ومن خلال هذا المؤلف، حاولنا تحديد أشكال تأمين الطرق، فتعرفنا على التدبير المحلي والمخزني، وآليات النفوذ القبلي والديني المتمثل في الشرفاء والزوايا . ومن خلال وقائع محددة، شاهدنا كيف تزواج نفس القوى القبلية بين موقع الخفر والحامي وموقع المعتدي وقاطع الطريق .

وفي الفصل الرابع، بفضل النصوص ذات المحتوى القانوني، من أبحاث ميدانية فرنسية، وأعراف، ونصوص فقهية، لمسنا أن الرطاطة كانت عنصراً ينتمي لشبكة من الأعراف التي ابتكرها المجتمع القبلي من أجل تنظيم السلم والتضامن وحماية الطارئ والغريب . وجاء فقه العمل، وبناء على مبدأ الضرورة والمصلحة، نجدته يتبنى موقف تجويز اتخاذ الرطاط في الطرق المخوفة وتعويضه على أتعابه .

وفي الحوليات السلطانية وأدب المناقب، يتراجع مستوى الوقائع، لفائدة الصور والتضمينات التي تحيل على أجناس أخرى . ففي الفصل الثاني، تناولنا الكتابة الأخبارية، منذ العصر «الوسيط»،

فلاحظنا أن موضوع أمن الطريق يرتبط بثنائية النظام والاختلال، وتحده تصورات معينة حول نموذج الحكم الأمثل، ويستعير المؤرخ مصطلحات الآداب السلطانية والسياسة الشرعية. وانطلاقاً من نموذجي المرحلة الموحدة-المرينية، والمرحلة العلوية ما بين عهد السلطان إسماعيل و«الفترة»، لاحظنا أنه بالرغم من موالة المؤرخين للحكام، فإن السرد ينتظم وفق صورة دائرية سبقت النظرة الخلدونية، وتلتها دون أن تأخذ من مضمونها التنظيري، وهي صورة تعتمد العود الأبدي، ومفهوم الدولة القائم على مداولة الأيام بين الناس.

وفي الفصل الثالث، اقتربنا من النص المنقبي، حيث تسود لغة الكرامة. وقد استعرضنا أشكال خرق العادة، حيث ينفي الولي إكراهات الطبيعة، فتطوى له الأرض، ويمشي فوق الماء ويطيير في السماء. وفي مشاهد أخرى يواجه الولي مصاعب الطريق، وقد يستغيث المسافر بالولي في غيابه، وحتى بعد وفاته، فيتغلب على العطش والجوع أو الخوف أو قاطع الطريق. وفي كل هذه المواضيع، يكتشف القارئ أنه أمام قصص نمطية تُعيد بوضوح معجزات الأنبياء، ولا تنسب بشكل اعتباطي لهذا الولي أو ذاك، بل تنتمي إلى أنواع تعكس درجات المجاهدة ومراتب الولاية، وفق تعريفات وردت في أدبيات «علم التصوف». فهـ «أحداث» الكرامة هي إذن علامات لا تخلو من منحنى استعاري، وهي في آن واحد نصوص تربوية ترغّب في منافع مجاهدة النفس، ونصوص إعلامية تقصد إرهاب قطاع الطرق وإخضاعهم لسلطة الولي والزواوية.

من الواضح أن التمييز بين خطابين يقتربان أكثر من الممارسة الاجتماعية، وبين خطابين تغطي فيهما الصورة، هو تمييز يطابق تمييزاً آخر، يهـم معنى التاريخيات (الإسطوغرافيا)، ويقيم الفرق بين معنى عام يشمل كافة أشكال التأليف الذي يشهد على حقب تاريخية معينة، وبين معنى محدود يراد به ما يُصنّف بغرض التأريخ. غير أن ما أثار اهتمامنا هو ما يربط بين الأجناس والخطابات من تداخل وتقاطع. قد يحضر المضمون المنقبي والكرامة في أخبار السلطان ونوازل الفقهاء، وقد نلتقي بالنص الفقهي في أخبار الدولة ومناقب الولي. وليس إبرازنا لظاهرة التداخل النصي مجرد لعبة شكلانية، بل إن المقابلة بين أجناس التأليف تحيل على تقاطع آخر له صلة بتعريف الظاهرة الاجتماعية بشكل عام. فالمؤرخ الحديث يجتهد، حسب ما تتيحه المصادر، كي يتجاوز الصورة من أجل الوصول إلى الواقعة الاجتماعية. بيد أن ما نقترحه هنا هو أن نعيد تركيب الصورة باعتبارها جزءاً من الواقعة الاجتماعية. فالصورة والمخيال يساهمان في تشكيل الظاهرة الاجتماعية، وهو ما حاولنا أن نبينه من خلال موضوع «فعالية» الرموز.

كانت الفصول الأربعة الأولى بمثابة لحظة تحليلية استعرضنا فيها شبكة من النصوص المبوبة وفق أربعة أجناس، وبعد ذلك جاء الفصل الأخير كحلقة تركيبية حاولنا فيها رصد أربع قضايا تتصل بإشكاليتنا العامة، وهي على التوالي قضايا الانتقال من المجال إلى التراب، وزمنية المجال، وتشكل المؤسسة، وأشكال التعبير عن تجربة المجال.

فبالنسبة للقضية الأولى، تبين لنا أن أشكال تأمين الطرق تعبر عن خصوصيات الانتقال من المجال إلى التراب في السياق المغربي. فعلى عكس الثنائية المبسطة التي انطلق منها شارل دو

فوكو، أي «بلاد المخزن» و«بلاد السبية»، اكتشفنا قدرًا كبيراً من المرونة، وتمفصلاً معقداً بين التدبير المحلي والتدبير المخزني. وقد اعتبرنا أن العناصر التي كانت تحدد تشكل التراب هي المحاور الطرقية الكبرى، واعتماد الخطاب المخزني على ثنائية «الغرب» و«الحوز»، ونسبية التمييز بين المركز والطرف على اعتبار أن هناك ظاهرة الطرف القريب من المركز.

وبالنسبة لقضية الزمن، تبين لنا أن أسلوب الدولة المخزنية في مراقبة التراب لم يكن وليد سياق القرن التاسع عشر وما عرفه من أوجه التسرب الأوربي، بل لعلنا أمام قضية بنيوية تعود إلى ظروف تشكل الدولة المغربية منذ «العصر الوسيط».

إن التعريف الأولي للمجال المغربي ينطلق مبدئياً من تحديد عناصر مثل البوادي والمدن والدولة. وخلافاً للصورة المتداولة التي تحيل على تحالف الدولة مع المدن على حساب البوادي، فإن ما يلفت النظر في التجربة المغربية، هو تأسيس المدن من طرف دول قائمة على عصبية قادمة من الهامش، ثم انقطاع نسبي لصلة الحكام مع الهامش وحلول التوتر محل التحالف.

ورغم ما عرفته المدن من نشاط ويسار يرتبطان بدورها على خريطة محاور التجارة البعيدة المدى، فإن صعوبة تأمين الطرق كان باستمرار عامل ضعف وهشاشة بالنسبة للكيان الحضري، وعامل قوة بالنسبة للجناح العسكري من الجهاز المخزني، والقوى القبلية القادرة على مراقبة الطرق وخفر القوافل.

ساهمت هذه العناصر في تشكل نسق يتميز بتعدد أوجه الحركية المجالية، وهي ظاهرة تساعدنا في آن واحد على فهم اختلال أمن الطريق، وصياغة بعض أشكال تأمين السفر، وتعارض الأدوار من جانب القوى القبلية والسلطة المخزنية.

- حركية السلطة المخزنية، من خلال الحركة وتعدد العواصم.  
- حركية المجموعات القبلية لأسباب تعود إلى إكراهات المناخ، أوجاذبية المرعى، أو القرارات الأمنية للحكام.

- حركية التحالفات بين المجموعات القبلية، أو بين المجموعات القبلية والدولة. وقد تتبعنا، بالنسبة للدولة العلوية، وبصدد اتحادية آيت إدراسن («برابرة المخزن» حسب تعبير الزياتي) التداخل الحاصل بين خريطة التحالفات وبين تحركات المجموعات القبلية. ومعلوم أن هذا النسق استمر طيلة القرن التاسع عشر، وتمثل بعض فصوله الأخيرة في عملية التدافع التي انتهت باستقرار مجموعات زموور وزعيم وبني حسن.

وبالنسبة للقضية الثالثة، حاولنا التعريف بمعجم الزطاطة، حيث لمسنا التقاطع بين المصطلح العربي الفصيح، والعربي العامي، والأمازيغي. ورصدنا الحضور المحوري لمفهوم الضمان. واهتمنا بالوظائف التي تقوم بها شبكة الأعراف التي حددناها فيما قبل، وتمثل هذه الوظائف في تدبير العنف، وتفاعل أنماط العيش، وتيسير التنقل والتبادل من خلال تأمين طريق السوق والموسم.

وبالنسبة لقضية التعبير، فقد بدا لنا أن صورة الدولة القائمة على الازدواجية والتعارض تعود إلى وظيفة النصوص ذات الصلة بالمرجعية المؤسسة. فإذا انطلقنا من موضوع تأمين الطرق، نلاحظ

أن الحوليات السلطانية توظف مفاهيم ومصطلحات تصفي المشروعية على استعمال القوة من طرف دولة السلطان لمواجهة الحِرابية. وفي آن واحد، فمن خلال خطاب النصيحة، يربط الفقيه والولي بين الزطاطة وابتزاز المسافرين وبين جور المكس، وهو انتقاد يُمس على العموم كل تدبير جبائي يتعد عن معيار الإسلام المؤسّس.

وقد ابتكر الخطاب الديني والقانوني أدوات مناسبة لتزكية خطاب التعارض. يستنكر الفقيه أو الولي الرشوة على غرار المكس والزطاطة، وفي آن واحد يطرح بعض الفقهاء إمكانية جواز أداء «ثمن الجاه». وهكذا يلتقي موقف «الطوبى» مع موقف «الواقعية».

ونعود الآن إلى مدلول الكلمة التي انطلقنا منها. فالزطاطة تعني حماية المسافر، أو ما يؤدي مقابل تلك الحماية. وقد تعني رسم المرور الذي يحصله الخواص، أو يمثلو السلطان. وسواء كانت الحماية بالخفر أو بإقامة «الزنايل»، فإن التحصيل قد يتطور إلى ابتزاز، مثلما تدل الزطاطة في بعض الأحيان على ثمن النجاة، أي ما يبتزّه قاطع الطريق من المسافر خلال هجومه على مسافر، أو قافلة، أو حي داخل المدينة. تدل كلمة الزطاطة إذن، حسب سياق الاستعمال، على ثمن الحماية، أو الإتاوة، أو الجباية، أو المكس، أو الرشوة، أو استغلال النفوذ.

لسنا إذن أمام مجرد استعارة، بل نحن أمام تقاطع دلالي مرّكب يعكس عدداً من الظواهر التاريخية التي تعرفنا عليها عبر متن النصوص والشواهد. لقد جعلت عوامل متعددة من الزطاطة تشخيصاً للسلطة، مثلما ساهمت في خلق التباس بنيوي بين مستوى الممارسة ومستوى التسمية والخطاب.

نود في الختام أن نؤكد ما سبق أن أوضحناه في مستهل البحث، وهو أننا خُصنا مغامرة منهجية في عدة مستويات. فعوض الكتابة انطلاقاً من نصوص غائبة، دَعَونا القارئ لمحاورة جهاز من النصوص وفق شبكة من المواضيع التي تتفرع عن إشكاليتنا الأولى. وعوض التركيز على تجديد رصيد المعطيات اعتماداً على الأرشيف، اخترنا إعادة استشكال النص الإسطوغرافي. وعوض الإعلان عن إفلاس الاعتماد على النص الأوربي الاستعماري، استثمرنا الرحلة الاستكشافية من أجل القيام بتصنيف أولي للظواهر التي تتصل بالزطاطة وأمن الطريق. وعوض التركيز على محطة زمنية واحدة طيلة البحث، اخترنا مُقارَبة استرجاعية تقوم على رصد عناصر الموضوع في القرن التاسع عشر، ثم العودة للبحث عن الثوابت والمرجعيات الاجتماعية والثقافية منذ العصر «الوسيط».

والواقع أن هاجسنا الأساسي يتمثل في السؤال التالي : كيف يمكن للبحث التاريخي أن يوظف تاريخ المجتمع لفهم منطق التاريخيات، ويوظف في آن واحد موضوع التاريخيات للكشف عن جوانب جديدة من تاريخ المجتمع. كل ما تمنناه هو أن نكون قد توفّقنا بعض الشيء في إشراك القارئ والباحث في الشعور بجدوى سؤالنا واختيارنا المنهجي، وتحفيز آخرين لخوض مغامرات مماثلة.





## فهارس

خرائط

أعلام جغرافية

أعلام بشرية

مصطلحات ومؤسسات

بيبليوغرافيا



## توضيحات

سوف يلاحظ القارئ أن بعض الكلمات ترد في أكثر من فهرس، حيث تحضر تارة كمصطلحات، وتارة كأسماء أعلام. مثلاً: النزالة، ووادي النزالة. وتجزئ نفس الملاحظة بالنسبة لكلمات تدل تارة على أعلام جغرافية، وتارة أخرى على مجموعات بشرية. مثلاً: قصبة بني ملال، وقبيلة بني ملال. وقد تعمدنا إدراج أسماء عدد من الأودية لأنها تحيل على مناطق معينة، مثل زيز ودرعة وملوية. ومن أجل تجنب شحن الفهارس، لم ندرج عدداً من أسماء الأفراد والمجموعات الواردة في بعض الوثائق المخزنية والمحلية. وفي مستوى أسماء المؤلفين، اكتفينا بأصحاب النصوص المدرجة في البحث، وتعمدنا عدم إدراج المؤلفين العديدين الذين تحيل عليهم نصوص الأدب السلطانية والفقه، وخصصنا جدولا للتعريف بالفقهاء الذين تمت الإحالة عليهم في الصفحات التي اقتطفناها من «شرح العمل الفاسي» لمحمد السجلماسي (انظر ص 250-251).

وفيما يخص عملية ترتيب الأسماء، اتبعنا طريقة «معلمة المغرب»، حيث لم نعتبر على العموم عناصر الاسم الدالة على النسبة، بالعربية أو الأمازيغية، من قبيل «ابن»، و«أولاد»، و«آيت»، و«أو»، و«إدا». وقد استثنينا أسماء الأمراء والسلاطين والأولياء، حيث اعتمدنا الاسم الشخصي، والكنية التي اشتهر بها المعنيون في بعض الحالات.

وعند إنجاز قائمة المصادر والمراجع، اقتصرنا على الكتب التي تردت الإحالة عليها عبر البحث، بالإضافة إلى بعض المؤلفات التي تتوفر على قيمة نظرية أو منهجية خاصة.

## خرائط

- 49.....رحلة شارل دو فوكو.
- 244.....المحاور التجارية الرئيسية شمال الصحراء (ق 19)
- 251.....الغرب والحوز (ق 19)
- 265.....الحركية المجالية للمجموعات القبلية . حالة بني معقل
- 270.....الحركية المجالية للمجموعات القبلية . حالة آيت عطا
- 273.....الحركية المجالية للمجموعات القبلية . حالة آيت إدراسن
- 275.....الشاوية وقصبة زطاط (سطات)

## أعلام جغرافية

- أحصال (زاوية) : 268، 39.  
أدخسان : 132.  
أرگانة (نزالة-) : 242، 68.  
أزرو : 131.  
أزغار : 266، 248.  
أزمور : 164.  
اسفاس : 161.  
أسفي : 149، 119، 118.  
الأسكندرية : 162.  
اصطنبول : 231.  
أعليل : 132.  
إغرم أمزدار : 267.  
أغمات : 164، 15، 9.  
أغمات أيلان : 155.  
أغمات وريكة : 151، 17.  
أقا : 173، 52.  
أگادير : 242، 62.  
أگوراي : 79.  
إليغ : 255، 39.  
أمزميز : 276.

- إمزور : 46.  
أودغشت : 309.  
إيناون (وادي) : 58، 256، 258، 267.  
بادس : 162.  
باني (جبل-) : 50، 192، 293.  
بجاية : 156.  
برقة : 113، 214.  
بسكرة : 125.  
بوزنيقة (قصة-) : 307.  
بوعام : 245.  
بوعقبة (مشرع-) : 248.  
تادلا : 36، 41، 53، 55، 241، 248، 249، 268.  
تارودانت : 52، 53، 132، 242.  
تازة : 58، 59، 83، 115، 130، 146، 282.  
تازروالت : 62، 63، 246، 254، 255، 299.  
تازناخت : 44، 50، 51، 88، 196.  
تاغجيشت : 190.  
تافيالات : 56، 57، 58، 74، 76، 98، 185، 241، 243، 245، 268.  
تافودايت : 84.  
تامانارت : 197.  
تامسنا : 248.  
تامگروت : 39، 199، 243.  
تاميوست : 132.  
تاويريرت : 130.  
تُدغة (وادي) : 46.  
تطوان : 140، 162، 185.  
تلمسان : 167، 231، 241.

- تندوف : 52، 74.
- تنبوكتو : 74، 245، 299.
- توات : 58، 76، 254، 246، 248، 269، 293.
- تونس : 14، 15، 210، 246، 261.
- تياالين : 46.
- تيزطين : 281.
- تيزكي : 50، 52.
- تيزي ن تاست : 242.
- تيزي ن تالغمت : 42، 46، 47، 242، 269.
- تيزي ن تلوات : 51، 243.
- تيزي ن ماشو : 40، 68، 242.
- تيسينت : 44، 50، 51، 196.
- تيفلت : 84.
- تيكيرت : 41، 51.
- تيويت : 52.
- ثنية الغلاوي : 243.
- الجديدة (قلعة-) : 131، 257.
- الجريد (بلاد-) : 125.
- الجزائر : 20، 36، 43، 51، 98، 119، 162، 202، 254، 255، 281.
- أبي الجعد : 39، 53، 54، 55، 85، 239، 241، 278.
- الحاجب : 79، 137، 302.
- الحجاز : 25، 40، 56، 158.
- الحوز : 79، 129، 241، 247، 248، 249، 252، 253، 257، 313.
- الخميسات : 84.
- دادس (وادي) : 46، 243، 268.
- الدار البيضاء : 55، 85، 247، 278.
- دار الطمع (قلعة-) : 132.

- دبدو : 245 .
- درعة (وادي) : 37 ، 45 ، 52 ، 55 ، 57 ، 58 ، 292 .
- درن (جبل) : 132 ، 170 ، 243 ، 252 .
- الدلاء (زاوية-) : 124 ، 268 ، 271 ، 301 .
- دمنات : 36 ، 294 ، 295 .
- رباط أبي محمد صالح : 118 .
- رباط الفتح : 149 ، 241 ، 252 ، 257 .
- أم الربيع : 85 ، 115 ، 153 ، 154 ، 247 ، 248 ، 249 ، 250 ، 252 ، 276 ، 278 .
- ردانة : انظر تارودانت .
- رقادة : 130 .
- الريف (جبال) : 27 ، 58 ، 61 ، 232 ، 139 ، 254 ، 262 ، 281 ، 289 ، 291 .
- الزباب : 167 .
- زطاط (قصبية-) ، أو سطات : 274 ، 276 ، 277 .
- زيز (وادي) : 37 ، 242 ، 271 ، 317 .
- الساحل (بلاد-) : 37 ، 76 ، 130 ، 242 ، 246 ، 259 ، 263 ، 267 ، 268 .
- الساقية الحمراء : 126 ، 268 ، 293 .
- سايس : 131 ، 138 ، 241 ، 271 ، 291 ، 293 .
- سبته : 117 ، 119 ، 153 ، 162 .
- سجلماسة : 38 ، 166 ، 185 ، 240 ، 241 ، 245 ، 246 ، 253 ، 262 ، 263 ، 296 ، 309 .
- سطات : (انظر زطاط، قصبية)
- سلا : 16 ، 66 ، 118 ، 160 ، 257 .
- سلا (وادي-) : 153 ، 301 .
- السودان : 58 ، 74 ، 76 ، 111 ، 124 ، 125 ، 168 ، 245 ، 246 .
- سوس : 41 ، 26 ، 69 ، 132 ، 139 ، 165 ، 173 ، 174 ، 185 ، 242 ، 249 ، 256 ، 266 ، 291 ، 268 .
- سوس الأقصى : 112 ، 113 ، 247 ، 248 ، 255 .
- سويقة ابن مكتود : 112 .

شفشاون : 59.

الصحراء : 36، 37، 46، 56، 74، 76، 86، 108، 126، 139، 157، 159، 170، 208، 247، 263.

الصخوريات (قصبنة) : 98، 307.

صفرو : 45، 267.

صفرو : 37، 48، 131، 171، 295.

الصوابي (زاوية-) : 298.

الصويرة : 37، 52، 62، 70، 84، 241، 246، 255، 256، 268.

الصين : 103.

طاطا : 50، 76، 193، 246.

طرابلس : 56، 141، 246.

الطريق الاغلاوية : 208.

طريق التمر : 240، 242.

طريق الجهاد : 241، 252.

طريق الحجاج : 241.

طريق الحرير : 113.

طريق القبلة : 241.

طريق اللمتوني : 240.

طريق النحاس : 240.

طنجة : 35، 36، 38، 87، 99، 115، 171، 186، 241.

الظهراء : 126.

عيذاب : 157.

عين اللوح : 131.

العيون (قلعة-) : 130، 179.

الغرب : 52، 119، 135، 161، 247، 248، 252، 266، 266، 290.

غريس (وادي) : 75، 198.

فزاز : 99، 114، 131، 132، 288، 233، 253، 263، 272.

- فاس : 36 ، 58 ، 59 ، 72 ، 73 ، 78 ، 79 ، 80 ، 84 ، 98 ، 99 ، 114 ، 126 ، 127 ، 135 ،  
 140 ، 152 ، 162 ، 163 ، 167 ، 189 ، 241 ، 247 ، 252 ، 254 ، 256 ، 261 ، 309 .
- الفايجة : 76 .
- فرغانة : 125 .
- فركلة (وادي) : 243،75 .
- فكيگ : 36 ، 39 ، 58 ، 245 ، 246 ، 254 .
- القاهرة : 56 .
- القصابي : انظر قصابي الشرفاء .
- قصابي الشرفاء : 46 ، 48 ، 130 ، 168 .
- قصبة أبي فكران : 286 .
- قصبة بني ملال : 278،55 .
- قصر بوخلال : 288 .
- قصبة تادلا : 278 ، 55 .
- قصبة فشتالة : 278 .
- قصر بني زمور : 74 .
- قصر بني مطير : 132 .
- قصر بودنيب : 280 .
- قصر تولال : 192 .
- قصر السوق : 46 .
- قصر عبد الكريم : 115 .
- قصر النزالة : 46 ، 75 .
- القنادسة : 39 ، 55 ، 56 ، 57 ، 152 ، 245 ، 246 .
- كرزاز : 152 .
- گرسيف : 130 .
- الكعبة : 147 ، 151 ، 173 ، 176 .
- گلميم : 62 ، 63 ، 246 ، 254 ، 299 .
- گورارة : 246 ، 58 .

- لكوس (وادي): 154.  
ماسة (رباط) : 298,297,268.  
المتوسط (البحر الأبيض) : 260, 259, 254.  
المدينة المنورة: 156.  
مراكش : 27, 52, 62, 70, 85, 113, 114, 117, 128, 139, 149, 157, 160, 170, 171,  
240, 241, 242, 245, 247, 249, 250, 252, 253, 257, 295.  
مسون (وادي) : 130.  
مشرع أحمر : 249.  
مشرع أولاد غمرة : 249.  
مشرع العونات : 249.  
مصر : 94, 108, 127, 128, 155, 158, 176.  
مغنية : 36, 37.  
مكة : 56, 156, 157, 158, 160.  
مكناس : 65, 66, 79, 84, 98, 99, 137, 189, 149, 252, 253, 257, 271.  
ملوية (وادي) : 37, 42, 98, 115, 130, 131, 132, 134, 165,  
166, 172, 142, 262, 271, 272, 291, 293.  
مليلية : 245.  
المهدومة (قلعة) : 131.  
ميدلت : 41.  
ميسور : 157, 170, 242.  
نقيس (بلدة) : 157.  
نول (بلاد) : 112, 113.  
نول لطة : 127, 128, 249.  
نون (وادي) : 62, 126, 127, 128, 268, 293, 299.  
الهند : 103, 229, 231, 298.  
واساي (زاوية سيدي-) : 297.  
وجدة : 36, 86, 127, 128, 129, 130, 245, 247, 255.

ورزازات : 87.

وزان : 239، 39.

وطاط (قلعة -) : 132.

ولغاس (وادي) : 296، 243.

اليمن : 231.

## أعلام بشرية

- الأحلاف : 295،130،109.  
أحمد الأعرج السعدي : 248، 173.  
أحمد الذهبي بن إسماعيل العلوي : 268، 136، 135، 99.  
أحمد المنصور الذهبي السعدي : 301، 252، 151، 125، 117.  
أحمر (قبيلة) : 264، 249.  
إحْصالن : 51.  
آيت إحيا : 268، 174.  
آيت إدراسن : 294، 286، 272، 271، 262.  
إدريس الثاني : 297، 276، 261، 256، 58.  
آدم (النبي) : 179، 178.  
آيت إزدگ : 283، 279، 269، 283، 268، 46.  
إزرگين : 196.  
أزوافيط : 268.  
إسماعيل بن الشريف العلوي : 136، 134، 133، 128، 125، 98، 96، 94، 84، 27، 26.  
242، 243، 253، 254، 266، 268، 271، 277.  
إسماعيل (أمير علوي، أخ الحسن الأول) : 302، 253، 65.  
الأشقر (ابن-) : 137، 136، 135، 99.  
إشقين : 55، 53.  
اطليق (قبيلة) : 139.  
الإفراني، محمد الصغير : 125، 97.

- الأكحل (السلطان-) : 301 .  
 أكنسوس، محمد بن أحمد : 189 .  
 بني امحمد (بني-) : 272، 269 .  
 آيت إمرور : 172 .  
 الأندلسي الموزن، علي : 157 .  
 الأنصاص : 197 .  
 أنجاد : 58، 86، 129، 130، 167، 266 .  
 الأودية : 66، 67، 68، 87، 135، 140، 266 .  
 أيلان : 155، 295 .  
 البادسي، أبو يعقوب : 158 .  
 البادسي، عبد الحق : 27، 107، 147 .  
 باعمران (آيت-) : 190، 246، 256، 267، 281، 293، 299 .  
 بداوة (قبيلة) : 141 .  
 البرابيش : 264 .  
 براهيم (إد-) : 190، 191 .  
 برغواطة : 248، 260، 274 .  
 برغاش، محمد : 70، 86 .  
 برونو، لويس (Louis Brunot) : 80 .  
 بطوطة (ابن-) : 103 .  
 بطيوة : 114 .  
 البغدادى الجامعي، بوشتى بن : 65 .  
 أبو بكر بن عبد الحق المريني : 115، 222، 306 .  
 آيت بلا : 196، 280 .  
 بلا عزوز : 249، 250 .  
 إداو بلال : 44، 50، 76، 77، 193 .  
 بلعيد (الحاج-) : 72 .  
 بنداود (أولاد سيدي-) : 164، 276 .

- بهلول، أحمد بن : 278.  
بهلولة : 114.  
بوحسون: 266، 296.  
بوزيان، امحمد : 55، 56، 57.  
بوعبيد ( سيدي -): 276.  
بوعزة، مولاي : انظر أبو يعزى.  
بوعقوب (سيدي -): 198.  
بيروك : 246، 254، 255.  
بيروك، دحمان بن : 63.  
تجكانت : 52، 246.  
تجلأت (ابن -): 165.  
التسول : 58، 114.  
التطوانى، علي بن الحاج : 62.  
تكنة : 45، 190، 196، 197، 267، 268، 280، 293.  
التميمي، محمد بن القاسم : 27.  
تومرت، المهدي ابن : 167، 242، 260، 300.  
تيمية (ابن -): 26، 93، 94، 107، 188.  
أولاد جامع : 65، 79، 140، 272.  
جبالة (قبائل) : 290.  
جنج، موحى أو : 51.  
أولاد جرار : 67، 266.  
الجراري، المهدي : 66، 255.  
أولاد جرير : 58، 245، 246، 269.  
الجسيمي، أحمد: 62.  
جشم (قبيلة) : 248، 266.  
الجلولي، سعيد : 62، 63.  
آيت الجمل : 196، 197، 268.

- جنون (ابن-) : 111 .  
الجيلاني، حمُّ بن : 65، 66 .  
حاحة : 62، 65، 70، 241، 242، 250، 255 .  
حجاوة : 139 .  
الحجوي، محمد بن الحسن : 187، 303 .  
ابن حدو الدكالي، محمد : 99 .  
آيت حديدو : 268 .  
حربيل : 197، 294 .  
أولاد حريز : 276، 278 .  
ذوي حسان : 263 .  
حساين، عبد الله بن : 208، 209، 267 .  
بني حسن : 65، 79، 84، 135، 272، 283، 313 .  
الحسن الداخل : 263، 296 .  
الحسن الأول العلوي : 54، 59، 64، 65، 66، 69، 78، 85، 208، 242، 247، 302 .  
الحسن الثاني العلوي : 296 .  
أبو الحسن المريني : 27، 95، 96، 117، 122، 261 .  
الحضرمي، محمد بن أبي بكر : 153 .  
الحضيغي، محمد بن أحمد : 149، 173، 149 .  
بني حكم : 132، 135 .  
حميان : 58، 130 .  
الحوات، سليمان : 301، 304 .  
الحوات (رئيس العبيد) : 138 .  
الحيانية : 58، 135، 140، 267، 301، 303 .  
آيت خباش : 269 .  
الخضر : 29، 115، 157، 158، 199 .  
الخطيب، ابن : 95، 171 .  
خلدون (ابن-) : 92، 95، 170، 187، 259، 263، 274، 285، 289، 305 .

- الخلط : 113، 114، 139، 266.
- داود، سيدي بن : 54، 61، 119، 154، 164، 276.
- الدغمة : 66.
- دكالة : 132، 168، 241، 249، 250، 252.
- الدلائي، محمد بن أبي بكر : 124، 301.
- أولاد دليم : 67، 74، 168، 197، 249، 264.
- دوتي، إدمون Edmond Doutté : 164
- الرامي (مقدم الضريح الإدريسي بفاس) : 58.
- الرامي، المنصور بن : 130.
- آيت الربيع : 294.
- ابن أبي الربيع : 26، 101.
- رحال، سيدي : 153، 263، 267، 277، 294، 249.
- الرحلنة : 21، 79، 241، 249، 250، 252، 257، 267، 277.
- الرحماني، عبد الحميد : 87، 253، 257، 266، 301.
- الرشيد (سلطان علوي) : 124، 126، 128، 131، 139، 149، 266، 296.
- رضوان، ابن : 26، 103.
- رگراگة : 16، 241، 277.
- الرگراگي الدوبلاي : 86.
- الرگيات : 74، 174، 197، 293.
- الروحة : 199، 269، 281.
- الروسي، أبو علي : 127.
- الروسي، حمدون : 127.
- رياح (قبيلة) : 114، 115، 161، 248.
- الرياحي، جابر بن مخلوف : 168.
- الريفي، أحمد بن علي : 99، 139، 140، 141، 286.
- الريفي، عبد الكريم : 27، 99.
- الريفي، علي بن عبد الله : 99، 141، 286.

- رين ، لويس Louis Rinn : 39 ، 55 .  
 زرارة : 67 ، 129 ، 266 .  
 ابن أبي زرع : 26 ، 95 ، 111 ، 112 ، 113 ، 114 ، 115 .  
 الزرهوني ، سليمان بن عبد القادر : 133 ، 256 .  
 زروق ، الشيخ : 167 .  
 زعير : 66 ، 67 ، 79 ، 241 ، 257 ، 313 .  
 زمور : 36 ، 47 ، 65 ، 66 ، 79 ، 83 ، 84 ، 188 ، 206 ، 207 ، 214 ، 257 ، 258 ، 272 ،  
 283 ، 284 ، 290 .  
 بني زمور : 74 ، 258 .  
 زناتة : 69 ، 263 ، 276 ، 309 .  
 الزناتي ، عبد القادر بن عياد : 69 .  
 زناغة : 45 ، 145 ، 196 .  
 الزيات (ابن -) : 15 ، 16 ، 27 ، 151 ، 156 .  
 زيان (قبيلة) : 36 ، 51 ، 188 ، 241 ، 276 .  
 الزياتي ، أبو القاسم : 26 ، 97 ، 99 ، 127 ، 135 ، 272 ، 286 ، 301 ، 313 .  
 الزيتوني ، محمد : 167 .  
 زيدان ، عبد الرحمان ابن : 26 ، 79 ، 99 ، 136 ، 247 ، 248 ، 262 ، 302 ، 303 ، 307 .  
 السجلماسي ، محمد بن أبي القاسم : 29 ، 186 ، 187 ، 217 ، 290 .  
 أيت سدرا ت : 45 ، 46 ، 174 .  
 السراغنة : 79 .  
 السعديون : 65 ، 174 ، 199 ، 242 ، 248 ، 252 ، 257 ، 262 ، 266 ، 268 .  
 سعيد السلاوي ، محمد ابن : 65 .  
 أبو سعيد عثمان المريني : 26 .  
 أيت سفروشن : 79 ، 131 .  
 سفيان : 139 .  
 سقونة : 130 .  
 سكتانة : 294 .

- بنو سليم : 259 .  
سليمان (سلطان علوي) : 71 ، 86 ، 133 ، 186 ، 188 ، 231 ، 233 ، 245 ، 257 ، 258 ،  
272 ، 307 .  
بني سنوس : 131 .  
السهول (قبيلة) : 98 ، 248 ، 257 ، 260 ، 262 ، 274 ، 291 .  
السوسي ، علي : 168 ، 266 .  
سوكونزاك ، الماركيزي Le Marquis de Segonzac : 68 ، 290 .  
سويد (قبيلة) : 274 ، 276 .  
السويسي ، عبد السلام : 67 ، 69 .  
السويسي ، محمد : 69 .  
سيدي وسيدي (ولي) : 53 .  
الشاوية : 55 ، 138 ، 164 ، 232 ، 250 ، 258 ، 262 ، 274 ، 276 ، 277 ، 291 ، 298 .  
الشبانات : 67 ، 129 ، 266 .  
شتوكة : 62 .  
الشجع : 131 ، 266 .  
آيت شخمان : 294 ، 302 .  
شراكة : 57 ، 65 ، 79 ، 131 ، 266 ، 267 .  
الشرغي ، العربي بن محمد : 78 .  
شعيب (النبي) : 178 .  
أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي : 163 ، 164 .  
الشيخ (أولاد سيدي -) : 57 ، 124 ، 164 ، 158 ، 162 ، 169 ، 168 ، 169 ، 208 ، 209 ، 215 ، 228 ،  
227 .  
الصباح (قبيلة) : 198 ، 309 .  
صدراة : 114 .  
الصفار ، محمد : 189 ، 231 ، 232 ، 233 .  
صنهاجة اللثام : 263 ، 271 .  
صنهاجة القبلة : 263 ، 271 .

- الصنهاجي، حسن : 161 .  
 الصوابي، أحمد : 298 .  
 الطرطوشي، أبو بكر بن الوليد : 217، 92 .  
 طوير الجنة، أحمد بن : 173، 52، 39، 25 .  
 عاشر (ابن-) : 160، 153، 118، 96، 16 .  
 عامر (قبيلة) : 257 .  
 بني عامر : 266، 131 .  
 عباد (ابن-) : 309، 232، 121، 98، 96، 27 .  
 أبو العباس السبتي : 160 .  
 عبدة : 291، 250، 249 .  
 عبد الحفيظ (سلطان علوي) : 62 .  
 عبد الرحمان بن هشام (سلطان علوي) : 307، 258، 255، 84، 38 .  
 عبد العزيز (سلطان علوي) : 309، 151، 70، 62 .  
 عبد الله (سلطان علوي) : 307، 286، 271، 253، 199، 186، 153، 140، 138، 96 .  
 عبد الله بن ياسين : 300 .  
 عبد الملك بن إسماعيل العلوي : 200، 128 .  
 عبد المومن (خليفة موحدي) : 121 .  
 بني عبيد الله : 308 .  
 أيت عثمان : 268، 197 .  
 عثمان بن عبد الحق المريني : 306، 114 .  
 ابن عدو (عامل مكناس) : 137 .  
 العرائشي، علي بن محمد : 85 .  
 عربي، محيي الدين ابن : 147، 96، 354 .  
 عريب : 269، 239، 138، 76 .  
 العزفي، أبو القاسم : 154 .  
 عزوز دالله (ولي) : 162 .  
 عسكر (ابن-) : 167 .

- بني عط : انظر آيت عطا.  
 آيت عطة : 134 ، 166 ، 200 ، 202 ، 208 ، 209 ، 267 ، 268 ، 269 ، 293 ، 294 .  
 آيت عطة ن أومالو : 44 .  
 العلويون : 198 ، 242 ، 258 ، 262 ، 266 ، 306 .  
 بني عمرو : 66 .  
 بني عمير : 258 .  
 أبو عنان المريني : 16 ، 96 ، 118 ، 122 .  
 آيت عياش : 79 ، 271 .  
 العياشي، عبد الله بن حمزة : 85 ، 130 ، 131 ، 132 ، 242 .  
 الغزواني، عبد الله : 153 .  
 الغليمي، سيدي : 276 .  
 غمارة : 58 ، 139 ، 175 .  
 الغنائمة : 64 ، 293 .  
 غياثة : 58 ، 59 ، 83 ، 135 ، 256 .  
 أبو فارس عبد العزيز المريني : 98 ، 121 .  
 أبو محمد صالح : 149 ، 176 .  
 الفاسي، أبو المحاسن : 154 .  
 الفاسي، عبد الرحمان : 29 ، 185 ، 186 ، 217 .  
 الفاسي، محمد العربي : 154 .  
 الفاسي، محمد المهدي : 154 ، 162 .  
 فرحون، ابن : 188 ، 224 .  
 فشتالة : 169 ، 278 .  
 آيت أوفلا : 47 ، 271 ، 336 .  
 فوكو، شارل دو : 24 ، 25 ، 36 ، 37 ، 38 ، 39 ، 41 ، 42 ، 43 ، 44 ، 45 ، 46 ، 47 ، 50 ، 51 ، 53 .  
 74 ، 75 ، 76 ، 83 ، 85 ، 87 ، 146 ، 183 ، 192 ، 239 ، 241 ، 246 ، 288 ، 295 ، 300 .  
 القادري، عبد السلام : 188 ، 226 .  
 القادري، محمد بن الطيب : 26 ، 36 ، 97 ، 126 ، 301 .

- قبليين (قبيلة) : 66، 84 .
- القطان (ابن-) : 301 .
- قنغد (ابن-) : 96، 144، 156 .
- الكتاني ، محمد بن جعفر : 152، 160 .
- گدميوه : 294 .
- الكرزازي ، عبد الكبير : 64 .
- الكرزازي ، عبد الكرم : 152 .
- گروان : 47، 79، 272 .
- گزولة : 173 .
- الگعيدي اليازغي ، محمد : 139 .
- گلاوة : 43، 87، 242 .
- الگلاوي ، المدني : 97، 243 .
- گندافة : 242 .
- گنون ، عبد الصمد : 62، 186 .
- كيرلو ، القبطان Capitaine Querleux : 206 .
- كولان G.S. Colin : 71 .
- بني گومي : 58، 245 .
- بني گيل : 58، 245 .
- لارويل ، القبطان Capitaine de La Ruelle : 190 .
- آيت لحسن : 66، 196، 197 .
- لمتونة : 111، 149، 171 .
- ليناريس Linares : 74، 78 .
- الماجري ، أحمد بن إبراهيم : 176 .
- ماسه (قبيلة) : 298 .
- بني مالك : 139، 274 .
- مالكا ، إيلي Elie Malka : 80 .
- آيت أومالو : 188، 249، 271، 272، 294 .

- المأمون الموحدى : 113 .  
 الماوردي، أبو الحسن : 26، 93، 101، 104، 302 .  
 المبارك، أحمد بن : 189 .  
 المبارك، محمد بن : 149، 173 .  
 مجاط : 79، 197، 271 .  
 محرز، أحمد بن (أمير علوي) : 129، 253 .  
 آيت محلي : 174 .  
 محمد (النبي) : 64، 66، 69، 70، 85، 167، 178، 179، 219، 220، 222، 227، 228 .  
 أبو محمد صالح : 149، 176 .  
 محمد العالم (أمير علوي) : 129 .  
 محمد بن عبد الرحمان العلوي : 69، 70، 83، 84، 85، 253 .  
 محمد بن عبد الله العلوي : 26، 60، 70، 99، 186، 250، 253، 307 .  
 محمد ولد اعريب : انظر محمد بن عربية العلوي .  
 محمد بن عربية العلوي : 99، 138، 139، 140 .  
 محمد الشيخ السعدي : 173، 249 .  
 محمد بن الطيب (أمير علوي) : 26، 255 .  
 محمد القائم بأمر الله السعدي : 174 .  
 أبو مدين : 156 .  
 مديونة : 114، 131، 266، 278 .  
 المرابطون : 111، 120، 164، 167، 174، 240، 252، 253، 260، 261 .  
 آيت أو مريبط : 44، 76، 197 .  
 المراكشي، أبو الحسن : 147، 158 .  
 المراكشي، عبد الواحد : 149، 171 .  
 مرجان (الحاجب) : 99، 126، 135، 136، 137 .  
 مرزوق، محمد ابن : 27، 95، 96، 97، 117، 301 .  
 آيت مرغاد : 75، 198، 268 .  
 المروري الشياظمي، المكّي : 70 .

- المرينيون : 20 ، 25 ، 77 ، 111 ، 252 ، 260 ، 274 .  
 مزاب (قبيلة) : 276 .  
 المزامة : 276 ، 278 .  
 المزامي ، الغازي بن المدني : 258 .  
 مزغبة : 88 .  
 المستضيء بن إسماعيل العلوي : 141 ، 286 .  
 المستنصر (خليفة فاطمي) : 128 ، 129 .  
 مسعودة (أم أحمد المنصور الذهبي) : 117 .  
 مسوفة : 149 ، 171 ، 271 .  
 المشرفي ، محمد بن محمد : 206 .  
 المصامدة : 15 ، 170 ، 171 ، 173 ، 252 .  
 أولاد مطاع : 67 ، 266 .  
 بني مطير : 79 ، 132 ، 257 ، 258 ، 271 ، 272 .  
 بني معقل : 148 ، 262 ، 263 ، 285 ، 292 ، 294 .  
 معن ، أحمد بن عبد الله : 162 ، 188 ، 226 ، 227 .  
 المقرري ، أبو العباس : 171 .  
 بني مغيلد : 79 ، 202 ، 204 .  
 مكناسة (قبيلة) : 58 ، 79 ، 114 ، 131 ، 132 ، 138 ، 139 ، 140 ، 202 ، 204 ، 216 ، 249 ، 262 .  
 بني ملال (قبيلة) : 294 .  
 الملياني ، أبو علي : 68 ، 156 .  
 ذوي منصور : 263 .  
 ذوي منيع : 56 ، 58 ، 246 ، 263 ، 269 ، 293 .  
 المهاية : 58 .  
 الموحدون (دوة) : 25 ، 111 ، 252 ، 242 ، 260 ، 261 .  
 موسى (النبي) : 157 ، 168 ، 178 ، 179 .  
 الموصلي الشافعي ، محمد : 188 ، 219 .  
 ميارة ، محمد بن أحمد : 302 ، 303 .

- ناصر، أحمد ابن : 217،215،168 .  
الناصر الموحدى : 112 .  
الناصر السعدى : 256 .  
الناصرى، أحمد بن خالد : 26، 97، 99، 127، 248، 307 .  
نتيفة : 41 .  
نهليل Nehlil : 57، 66، 69، 70 .  
النوينى، ابن (رئيس عبيد البخارى) : 138 .  
أوهاشم، حسين : 255 .  
الهبرى، بوغزة : 257 .  
هزميرة : 295 .  
هسكورة : 113، 114، 267 .  
هشام (أمير علوى) : 249، 255، 258، 307 .  
بنو هلال : 112، 148، 259، 260 .  
آيت واحى : 66 .  
واعزيز المطيرى، محمد : 271، 286 .  
الوديبى، أحمد : 86 .  
الوديبى، إدريس بن حمان : 255 .  
بنى وراين : 135 .  
آيت ورياغل : 17 .  
الوزان الفاسى (ليون الإفريقى) : 165، 259 .  
الوزانى، المهدي : 186، 284 .  
الوزانى، علال : 60 .  
وزگيتة : 294 .  
بنى وطاس : 174، 248 .  
الولاتى، محمد المختار : 25، 40، 62 .  
آيت ولال : 166 .  
الولالى، أحمد : 165 .

- الوليد السعدي : 17 .  
الونشريسي، أحمد بن يحيى : 217، 185 .  
اليابوري، عبد الله : 153 .  
بني يازغة : 139 .  
اليازغي، أحمد بن علي : 136، 135، 99 .  
اليازغي، محمد بن عبد الرحمان : 189 .  
آيت يافلمان : 198، 168، 271، 272، 269، 271 .  
أولاد يحيى : 292، 76، 50 .  
يحيى المعتصم الموحدى : 113 .  
بني يرنيان : 302 .  
بني يزناتن : انظر بني يزناسن .  
بني يزناسن : 130، 129، 58 .  
اليزيد العلوي : 249 .  
يشي، أو يشو القبلي (با-) : 132 .  
يشي (أو يشو) علي بن : 271، 136، 135 .  
أبو يعزى : 169، 164، 163، 157، 154 .  
يعقوب المنصور الموحدى : 127، 112 .  
يعقوب المريني : 276، 274 .  
يوسف بن تاشفين المرابطى : 232، 171، 170، 149، 132 .  
يوسف الموحدى : 305، 160، 112 .  
يوسف المريني : 305، 276، 115 .  
آيت يوسي : 283، 272، 271، 131، 78، 48 .  
اليوسي، الحسن : 166، 134، 98، 27 .  
اليوسي، عمر : 242 .

## مصطلحات ومؤسّسات

- إتاوة : 55، 192، 194، 197، 207، 263، 277، 293، 294، 314.
- أجماع : 289.
- أداب سلطانية : 92، 93، 94، 101، 302، 308.
- أذرار : 293، 294.
- أزغار : 293، 294.
- أسوقي : 202.
- اصطناع : 193، 285.
- أطراف : 25، 125، 129، 135، 140، 203، 254، 255، 284، 287.
- أعراب : 66، 67، 69، 86، 109، 128، 139، 167، 174، 199، 213، 302.
- أغفار : 280.
- أغفير : 197، 280.
- أكابار : 168.
- أكدال : 294.
- أكل (معنى مجازي) : 19، 44، 79، 110، 137، 139، 189، 198، 213، 231، 232، 297، 298، 307.
- أماساني : 209، 284.
- أمان : 41، 44، 60، 73، 87، 105، 130، 136، 150، 167، 169، 172، 176، 177، 195، 239.
- 285.
- أصغار : 289.

- أمنجوس : 283 .  
 أمور : 40، 86، 101، 102، 103، 112، 115، 121، 128، 135، 146، 172، 177، 184، 202،  
 203، 224، 228، 229، 253، 255، 283، 305 .  
 إنفلاس : 298 .  
 إيالة : 67، 69، 70، 71، 126، 258 .  
 إيلاف : 19 .  
 بذرقه : 212، 213، 280 .  
 برج : 119، 120 .  
 بشاره (عُرف) : 185، 290، 291 .  
 بلاد السببة : 24، 41، 42، 48، 55، 85، 87، 167، 183، 239 .  
 بلاد المخزن : 24، 37، 41، 42، 47، 48، 55، 58، 68، 87، 183، 239 .  
 تاضاً : 184، 285 .  
 تافرغاننت : 285 .  
 تاگمات : 184، 190، 191، 288، 293 .  
 تامداكولت : 293 .  
 تايسا : 172، 184، 198، 287، 288، 292، 294 .  
 تخوم : 125، 253، 254 .  
 تراب : 36، 39، 41، 43، 47، 51، 65، 76، 88، 196، 197، 206، 239، 240، 241،  
 247، 254، 259، 261، 262، 279، 280، 281، 310، 312، 313 .  
 ترافد (انظر كذلك رفاد، زفوذ) : 65، 67، 284 .  
 ترحيل : 248، 258، 261، 267 .  
 تريتيل : 80، 81 .  
 نعرگيية : 283 .  
 تيشكا : 294 .  
 ثغر : 112، 129، 162، 254، 255 .  
 ثمن الجاه : 29، 187، 210، 211، 219، 309 .  
 جاه : 72، 101، 122، 186، 187، 206، 210، 211، 212، 227، 285، 309 .  
 جباية : 18، 27، 58، 84، 93، 111، 122، 164، 169، 256، 308 .  
 جمالة / جعل : 186، 187، 210، 229، 290 .

- جور : 16، 112، 116، 122، 129، 140، 174، 305، 309.
- جيرة : 192.
- حامل : 284، 209، 198، 70.
- حد (مصطلح فقهي) : 16، 28، 53، 83، 91، 92، 104، 105، 106، 107، 148، 149، 177، 182، 183، 186.
- حُرْم : 172، 202، 297، 298.
- حق النزالة (انظر كذلك نزالة) : 70، 71.
- حِلاق : 176.
- حِمى : 165، 172.
- خانقاه : 118.
- خاوة : 190، 285، 288، 293.
- خطوة (انظر كذلك طي الأرض) : 27، 58، 148، 151، 152، 153.
- خفارة : 109، 213، 239، 280، 285، 308.
- خفر : 38، 41، 50، 53، 55، 58، 75، 84، 206، 245، 268، 269، 280، 282، 313.
- خفير : 210، 211، 215، 280.
- خوف : 26، 114، 139، 148، 160، 161، 169، 210، 211، 212، 214، 307، 312.
- دار أم السلطان : 117.
- دار الضمانة : 283.
- درك : 25، 40، 42، 64، 67، 78، 80.
- دوّاز : 280.
- دية : 106، 107، 110، 194، 203.
- ذبيحة : 184، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 283، 287.
- ذعيرة : 67، 195، 258.
- رباط : 66، 67، 70، 72، 79، 84، 115، 118، 119، 149، 156، 172، 185، 186، 241، 249، 252، 257.
- رُتب (انظر كذلك ضريبة الرتب) : 116، 117، 121، 122، 309.
- رِزّة : 209.
- رسم المرور : 27، 38، 42، 239، 282، 240.

- رشوة : 17، 18، 19، 29، 187، 188، 211، 219، 221، 222، 224، 225، 227، 309.  
 رعية : 201، 292.  
 رفاد (انظر كذلك ترافد، رفود) : 280، 284، 288، 286، 287، 296.  
 رفود (انظر كذلك ترافد، رفاد) : 184، 284، 286، 287، 288، 296.  
 رفيك : 280، 282.  
 رفاض : 68، 280.  
 ركاب (انظر كذلك صاحب الركاب) : 56، 149، 167، 281، 282.  
 ركب : 52، 56، 149، 157، 158، 167، 215، 262.  
 ركب الحاج (انظر كذلك حج) : 149، 167.  
 ركوة : 150، 157، 158، 176، 179.  
 زلوية : 27، 39، 40، 43، 53، 56، 59، 64، 85، 118، 124، 145، 174، 188، 199،  
 226، 239، 255.  
 زطاط / زطاطة : 17، 22، 24، 37، 38، 40، 41، 42، 43، 44، 45، 46، 47، 50، 51،  
 53، 54، 75، 80، 83، 88، 139، 183، 184، 185، 186، 192، 193، 195، 210،  
 212، 213، 215، 216، 237، 254، 256، 277، 279، 281، 282، 284، 291، 309،  
 310، 311.  
 زواك : 80، 81، 283، 298.  
 زيارة : 53، 54، 55، 56، 57، 61، 154، 248.  
 سُبحة : 150، 177.  
 سحت : 220، 221، 231.  
 سلطان : 16، 26، 42، 47، 59، 78، 79، 82، 83، 84، 85، 87، 91، 95، 114، 133،  
 140، 148، 195، 213، 221، 222، 224، 247، 248، 252.  
 سلهام : 284.  
 سياسة شرعية : 92، 93، 94، 104، 302.  
 شاشية : 150، 176.  
 شعيرة : 177.  
 شهر حرام : 176.  
 صاحب الركاب : 281، 282.  
 ضامن (انظر كذلك ضمان) : 280، 282، 283، 285، 286.

- ضريبة الإجازة : 308.  
 ضريبة الرتب : 96، 309.  
 ضمان (انظر كذلك ضامن) : 54، 78، 193، 213، 216، 239، 257، 282، 284، 286، 292.  
 طريق السلطان : 242.  
 طريق المخزن : 40، 42، 64، 65، 66، 68، 70، 239، 243، 287.  
 طي الأرض (انظر كذلك خطوة) : 146، 147، 151، 158.  
 عار : 46، 52، 194، 202، 204، 282، 285، 295، 298.  
 عافية : 81، 111، 127، 128، 149، 174، 184، 287، 288.  
 عامل : 66، 79، 86، 99، 123، 135، 136، 137، 189، 222، 231، 247، 248، 255.  
 عُرف : 18، 28، 29، 30، 65، 67، 84، 92، 184، 186، 192، 203، 206، 210، 290، 310.  
 عصا : 150، 166، 176، 178، 179، 287.  
 عكاز : 154، 168، 174، 175.  
 عَمَل (فقه) : 29، 185، 186، 210، 303.  
 عناية : 45، 47، 53، 76، 88، 172، 191، 202، 205، 281.  
 غريب : 59، 83، 103، 184، 192، 204، 206، 207، 283، 285، 311.  
 غزو : 50، 51، 54، 74، 76، 77، 195، 302.  
 غفر : 109، 280.  
 فساد : 79، 102، 103، 104، 107، 110، 114، 121، 123، 135، 139، 177، 199.  
 فندق : 53، 71، 103، 131، 133.  
 قاضي : 17، 19، 113، 137، 210، 211، 214، 216، 217، 223، 224، 233، 224، 301.  
 قافلة : 25، 42، 47، 51، 53، 56، 58، 59، 68، 71، 74، 75، 76، 77، 78، 87، 124، 134، 160، 167، 168، 169، 195، 210، 215، 240، 291.  
 قائد : 18، 40، 43، 52، 62، 65، 66، 70، 78، 79، 83، 84، 85، 86، 87.  
 قاصص : 88، 130، 136، 149، 188، 242، 243، 247، 255، 258، 272، 277، 278، 295.  
 قصبة : 66، 83، 97، 98، 113، 115، 130، 132، 139، 149، 154، 170.  
 قطع الطريق / قاطع الطريق : 21، 27، 38، 42، 43، 56، 58، 65، 68، 74، 78، 84، 86، 242، 249، 258، 262، 266، 274، 276، 277، 278، 301، 307، 317.

- ، 148 ، 137 ، 134 ، 127 ، 125 ، 121 ، 116 ، 111 ، 109 ، 107 ، 104 ، 102 ، 98 ، 87 ،  
 ، 298 ، 294 ، 290 ، 289 ، 284 ، 279 ، 261 ، 257 ، 256 ، 212 ، 169 ، 168 ، 167 ، 165 ،  
 ، 312 ، 304 ، 303 ، 302 ، 301 .  
 قلادة : 178 ، 177 ، 176 ، 150 ،  
 قلعة : 133 ، 132 ، 131 ، 130 ، 129 ، 98 ،  
 كاسي (انظر كذلك كساء) : 281 ، 206 ،  
 كركور : 204 ، 203 ،  
 كساء / كسوة (انظر كذلك كاسي) : 287 ، 281 ، 200 ، 199 ،  
 مال الحراسة : 308 ،  
 مجال : 97 ، 96 ، 94 ، 91 ، 87 ، 56 ، 41 ، 40 ، 39 ، 29 ، 28 ، 24 ، 20 ، 19 ،  
 ، 248 ، 247 ، 240 ، 239 ، 184 ، 150 ، 146 ، 145 ، 108 ، 98 ،  
 ، 312 ، 297 ، 274 ، 267 ، 263 ، 262 ، 260 ، 249 ،  
 مُحارب (انظر كذلك حِرابَة) : 129 ، 107 ، 105 ،  
 مُحرس : 119 ،  
 محلة : 254 ، 250 ، 85 ، 79 ، 78 ،  
 مخازنية : 88 ، 86 ، 83 ،  
 مخزن : 188 ، 174 ، 72 ، 62 ، 58 ، 55 ، 54 ، 47 ، 43 ، 42 ، 41 ، 40 ، 25 ، 24 ، 21 ، 18 ، 17 ،  
 ، 268 ، 267 ، 239 ، 229 ،  
 مرابط : 298 ، 255 ، 254 ، 243 ، 210 ، 199 ، 197 ، 192 ، 174 ، 173 ، 149 ، 77 ، 38 ،  
 مزارگ : 287 ، 283 ، 282 ، 281 ، 208 ، 207 ، 206 ، 202 ، 192 ، 185 ، 184 ،  
 مشاطرة : 220 ،  
 مظالم : 309 ، 220 ، 137 ، 123 ، 121 ، 113 ، 107 ، 79 ، 27 ،  
 مظلمة الرُتب : 121 ،  
 مقذاف : 282 ، 281 ،  
 مكس : 314 ، 308 ، 305 ، 232 ، 139 ، 132 ، 116 ، 112 ، 111 ، 109 ، 94 ،  
 منزل : 196 ، 190 ، 146 ، 133 ، 103 ، 98 ، 68 ، 62 ،  
 منهل : 352 ، 114 ،  
 موسم : 313 ، 299 ، 298 ، 297 ، 296 ، 295 ، 293 ، 284 ، 172 ،  
 ناظور : 119 .

- نزالة : 40 ، 41 ، 42 ، 48 ، 65 ، 68 ، 69 ، 70 ، 71 ، 72 ، 145 ، 301 .
- نهب : 47 ، 53 ، 68 ، 69 ، 76 ، 79 ، 83 ، 86 ، 87 ، 106 ، 121 ، 124 ، 125 ، 134 ، 135 ،  
137 ، 138 ، 139 ، 140 ، 165 ، 192 ، 199 ، 256 ، 290 ، 309 .
- هلية : 18 ، 85 ، 139 ، 188 ، 197 ، 212 ، 214 ، 219 ، 220 ، 222 ، 224 ، 225 ، 226 ، 227 ،  
228 ، 248 .
- الهنا : 284 ، 287 ، 296 .
- وساطة : 228 ، 255 .
- وصيف : 54 ، 60 ، 66 ، 69 ، 221 .
- وظيف : 111 ، 255 .
- ولاء : 18 ، 163 ، 194 ، 249 ، 285 ، 293 .
- وليمة : 225 ، 228 ، 229 ، 230 .





## مصادر وأبحاث بالعربية

أبو إدريس، إدريس  
المغرب في النصف الأول من القرن الثامن عشر : مساهمة في دراسة إشكالية أزمة الدولة  
المركزية، رسالة مرقونة، د.د.ع، تاريخ، ك.آداب فاس، 1987.

أعفيف، محمد  
مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لولايات الجنوب المغربي. توات في القرن 19،  
د.د.ع، تاريخ، ك.آداب الرباط، 1982، مرقون.

الافراني، محمد الصغير  
نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشادلي، [الدار البيضاء، مطبعة  
النجاح الجديدة]، 1998.

أكنسوس، محمد بن أحمد  
الجيش العرمرم الخماسي في أولاد مولانا علي الشريف السجلماسي، تحقيق أحمد بن يوسف  
الكنسوسي، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، ط.ح، فاس، 2ج.

اكنينج، العربي  
آثار التدخل الأجنبي في المغرب على علاقات المخزن بقبيلة بني مطير، 1873 - 1912، د.د.ع،  
تاريخ، ك.آداب الرباط، 1983، مرقون.

الأوربي، عبد الله بن محمد  
الوسيلة إلى المرغوب في كرامات المولى يعقوب، ضمن أحمد البوعاشي، حرب الريف التحريرية ومراحل النضال،  
طنجة، 1974، ج 1، ص 301-343.

إيكلمان، ديل  
الإسلام في المغرب، ترجمة محمد أعفيف، الدار البيضاء، توفال، 1989-1991، ج 2، [ط.  
الأصلية 1976].

البادسي، عبد الحق  
المقصد الشريف والمنزح اللطيف، في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أحمد أعراب، الرباط،  
المطبعة الملكية، 1982.

برحاب، عكاشة  
شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي، 1873-1907، المحمدية، منشورات ك. آداب  
المحمدية، 1989.

برودل، فرنان  
الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، ج 1، ترجمة م. ماهر، القاهرة / باريس، دار الفكر،  
1993.

ابن بطوطة  
تحفة النظار في غرائب الأمصار، تحقيق طلال حرب، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987.

البكري، أبو عبيد  
كتاب المسالك والممالك، تحقيق أ. فان ليوفن وأ. فيري، قرطاج، بيت الحكمة / الدار العربية للكتاب،  
1992، ج 2.

بورقية، رحمة  
الدولة والسلطة والمجتمع. دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب،  
بيروت، دار الطليعة، 1991.

بوية، أحمد  
قبائل زمور والحركة الوطنية، الرباط، منشورات ك. آداب الرباط، 2003.

البوزيدي، أحمد  
التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع القرن 17-مطلع القرن 20). دراسة في الحياة السياسية

والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، [الدار البيضاء]، آفاق متوسطة، 1994.

بوسلام، محمد بن البشير  
تاريخ قبيلة بني ملال، 1854-1916. جوانب من تاريخ دير الأطلس المتوسط ومنطقة تادلا،  
1991.

البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي  
أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، دار المنصور، 1971.

ابن تجلات، أبو عبد الله محمد بن محمد  
إثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين، تحقيق محمد رابطة الدين، د. د. ع. تاريخ، ك.  
آداب الرباط، 2، ج، مرقون.

التسولي، أبو الحسن علي  
البهجة في شرح التحفة على الأرجوزة المسماة بتحفة الحكام لابن عاصم الأندلسي الغرناطي،  
بيروت، دار المعرفة، 1397 / 1977، 2 ج.

التكريتي، ناجي  
الفلسفة السياسية عند ابن أبي الربيع، مع تحقيق كتابه سلوك المالك في تدبير الممالك، بيروت،  
دار الأندلس، ط. 2، 1980.

التوفيق، أحمد  
المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان 1850-1912)، الرباط، منشورات ك. آداب  
الرباط، ط. 2، 1983.

ابن تيمية، تقي الدين  
السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (مصر)، دار الكتاب العربي، 1969.

الجيدي، عمر بن عبد الكريم  
العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومهما لدى علماء المغرب، الرباط، 1984.

الحجوي الثعالبي الفاسي، محمد بن الحسن  
الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي، القاهرة، دار التراث، 1396 هجرية، 2 ج.

حجي، محمد  
الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، 1964.

الحضرمي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر  
السلسل العذب والمنهل الأحملي، نشر محمد الفاسي، مجلة معهد المخطوطات العربية، عدد  
1، 1964.

الحضيكي، محمد بن أحمد  
طبقات الحضيكي، تحقيق أحمد بومزكو، رسالة مرقونة، د.د.ع، ك. آداب الرباط، تاريخ، 1994،  
4 ج.

الحكيم، سعاد  
المعجم الصوفي، بيروت، دندرة للطباعة والنشر، 1981.

حمام، محمد  
جوانب من تاريخ وادي دادس وحضارته، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2002.

الخير محمد  
جيش العبيد والدولة المغربية منذ التأسيس إلى سنة 1757 م، د.د.ع، تاريخ، ك. آداب الرباط،  
1996-1997، مرقون.

الخديمي، علال  
التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب، 1894-1910. حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية،  
الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 1991.

ابن خلدون  
كتاب العبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني / مكتبة المدرسة، 1983، 14 ج.

ابن خلكان، أحمد بن محمد  
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1971.

خليل بن إسحاق المالكي  
مختصر العلامة خليل، القاهرة، مطبعة حجازي، 1950.

خليل القبلي، فاطمة  
رسائل أبي الحسن بن مسعود اليوسي، الدار الثقافة، 1981، 2 ج.

دان، رؤس إ.  
المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي. المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية، 1881-  
1912، ترجمة أحمد بوحسن، الرباط منشورات نراوية، 2006.

الذهبي، نفيسة (تنسيق)  
الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب : دراسات تاريخية مهداة للأستاذ إبراهيم حركات، الرباط، منشورات ك. آداب الرباط، 1997.

ابن رضوان المالقي، أبو القاسم  
الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق علي سامي النشار، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984.

الريفي، عبد الكريم بن موسى  
زهر الأكم، تحقيق أسية بنعدادة، الرباط، مكتبة الصور الجميلة، 1992.

ابن أبي زرع، علي (؟)  
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور، 1973.

زرهوني، محمد  
العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر (863 / 1280 - 873 / 90)، الدار البيضاء، منشورات ك. آداب الدار البيضاء / جامعة الحسن الثاني - عين الشق، 1998.

ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي  
التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، منشورات ك. آداب الرباط، 1984.

الزياني، أبو القاسم  
الباستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تحقيق رشيد الزاوية، الريصاني، مركز الدراسات والبحوث العلوية، 1992.

ابن زيدان، عبد الرحمان  
إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الرباط، المطبعة الوطنية، 1929-1939، ج5.

ابن زيدان، عبد الرحمان  
العز والصولة في معالم نظم الدولة، الرباط، المطبعة الملكية، 1961-1962، ج2.

السبتي، عبد الأحد والفلق، عبد اللطيف (ترجمة)  
الأنثروبولوجيا والتاريخ : حالة المغرب العربي، جماعي، الدار البيضاء، توبقال، 1988.

السبتي، عبد الأحد، حليلة فرحات  
المدينة في العصر الوسيط : قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، بيروت / الدار البيضاء،

المركز الثقافي العربي، 1994.

سحاب، فكتور

إيلاف قريش. رحلة الشتاء والصيف، بيروت، كومبيونشر / المركز الثقافي العربي، 1992.

السلامي، رشيد

وثائق مرينية (مراسلات، معاهدات، ظهائر)، رسالة مرقونة، د. د. ع، تاريخ، ك. آداب الرباط، 1989، ج 3.

السوسي، محمد المختار

المعسول، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، ج 18، د.ت.

الشادلي، عبد اللطيف

التصوف والمجتمع، غاذج من القرن العاشر الهجري، الدار البيضاء، منشورات جامعة الحسن الثاني، 1989.

شروتز، دانييل

تجار الصويرة، المجتمع الحضري والامبريالية في جنوب غرب المغرب، 1844-1886، ترجمة خالد بن الصغير، الرباط، منشورات ك. آداب الرباط، 1997.

شودكفيتش، علي

الولاية والنوبة عند الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، ترجمة أحمد الطيب، مراكش، دار القبة الزرقاء، 1999.

الشيذري، عبد الرحمن بن عبد الله

المنهج السلوك في سياسة الملوك، تحقيق علي عبد الله الموسى، الأردن-الزرقاء، مكتبة المنار، 1987.

الصديقي، عبد الرزاق

الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن (1850-1900)، الرباط، بابل، 1997.

بن الصغير، خالد

المغرب في الأرشيف البريطاني : مراسلات جون دراموند هاي مع المخزن (1846-1886)، الدار البيضاء، ولادة، 1992.

الضعيف الرباطي، محمد

تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق أحمد العماري، [الرباط]، دار المآثورات، 1986.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير  
كتاب جامع البيان في تفسير القرآن، مصر، بولاق، المطبعة الكبرى الأميركية، ط. 1، 1328 هجرية.

الطرطوشي، محمد بن الوليد  
سراج الملوك، تحقيق جعفر البياتي، لندن، رياض الريس، 1990.

ابن طوير الجنة، أحمد المصطفى  
رحلة، مخطوط، الرباط، ك. آداب الرباط، مكل 380.

ابن عاشر الحافي، أحمد  
تحفة الزائر بمناقب الحاج أحمد بن عاشر، تحقيق مصطفى أبو شعراء، سلا، منشورات الخزانة العلمية  
الصبيحية، 1409 / 1988.

العبدري الحيجي، أبو عبد الله محمد بن محمد  
رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم  
الأصلي، 1968.

عبد اللطيف، كمال  
في تشريح أصول الاستبداد. قراءة في نظام الآداب السلطانية، بيروت، دار الطليعة، 1999.

ابن عذاري المراكشي  
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق م. إ. الكتاني وآخرون، بيروت،  
دار الغرب الإسلامي / الدار البيضاء، دار الثقافة، 1985.

ابن العربي الطائي الحاتمي، محيي الدين  
مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم، [القاهرة]، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده،  
1384 / 1965.

العروي، عبد الله  
مفهوم الدولة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1981.

العزفي، أبو العباس  
دعامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق أحمد التوفيق، [الرباط]، مكتبة خدمة الكتاب، 1989.

ابن عسكر، محمد  
دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط، دار  
المغرب، 1976.

- العلام، عز الدين  
السلطة والسياسة في الأدب السلطاني، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 1991.
- الفاسي، محمد العربي  
مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، الدار البيضاء،  
مطبعة النجاح الجديدة، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجلد، 1424 / 2003.
- الفاسي، محمد المهدي  
متمتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لها من الأتباع، تحقيق عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد،  
فاس (مطبعة محمد الخامس)، 1989.
- ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم  
تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام، بيروت، دار الكتب العلمية، 1301 هجرية.
- القادري، عبد السلام  
المقصد الأحمد في مناقب سيدنا بن عبد الله أحمد، فاس، ط. ح، 1351 / 1932.
- القادري، محمد بن الطيب  
نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، دار  
المغرب، 1977 - 1986، 4 ج.
- القادري، محمد بن الطيب  
نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، مخط، النصف الأول، خ، ع، ر، رقم د. 2809.
- القبلي، محمد  
مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء، توبقال، 1987.
- القبلي، محمد  
الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط : علائق وتفاعل، الدار البيضاء، توبقال، 1997.
- ابن القطان، علي بن محمد  
نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكّي، الرباط، منشورات ك. آداب الرباط، د. ت.
- ابن قنفذ، أحمد بن الخطيب القسنطيني  
أنس الفقير وعز الحقيير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، المركز الجامعي للبحث العلمي،  
1965.

الكتاني، محمد بن جعفر  
 سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقيرو من العلماء والصلحاء بفاس، فاس، ط.ح، 1309 /  
 1891، 3ج.

كيلطو، عبد الفتاح

المقامات. السرد الأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشراوي، الدار البيضاء، توبقال، 1993.  
 لوطورنو، روجي  
 فاس قبل الحماية، ترجمة م. حجي وم. الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986، 2ج.

لومبار، موريس

الإسلام في عظمته الأولى (من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر ميلادي)، بيروت، دار  
 الطليعة.

الماجري، أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي محمد صالح  
 المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، المطبعة المصرية، محمد محمد عبد اللطيف،  
 ط 1، 1352 / 1933.

الموردي، أبو الحسن بن محمد

الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، 1978.

الموردي، أبو الحسن علي بن محمد

تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، بيروت، دار  
 العلوم العربية / المركز الإسلامي للبحوث، 1987.

مجهول

تاريخ مولاي سليمان، 1248 / 1833، مخطوط، باريس، الخزنة الوطنية، مجموع رقم 1892، ورقات  
 64 – 69.

مجهول

أعراف ماسة، مخط، نسخة مصورة عن الأصل المحفوظ بخزانة الإمام علي، معهد محمد الخامس  
 بتارودانت، رقم م. 86.

المحمدي، علي

السلطة والمجتمع في المغرب. نموذج آيت باعمران، الدار البيضاء، توبقال، 1989.

المراكشي، عبد الواحد  
المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الدار البيضاء، دار الكتاب، ط. 7، 1978.

ابن مرزوق التلمساني، محمد  
المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريّا خيسوس بيغيرا، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.

المشرفي، محمد بن محمد بن مصطفى  
الخلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية، تحقيق ادريس بوهليلة، د. د. ع، تاريخ، ك. آداب الرباط، 1993-1992، مرقون.

مفتاح، محمد  
الخطاب الصوفي : مقارنة وظيفية، الدار البيضاء، مكتبة الرشاد، 1997.

المنوني، محمد  
ركب الحاج المغربي، تطوان، معهد مولاي الحسن / مطبعة المخزن، 1953.

المنصور، محمد  
المغرب قبل الاستعمار. المجتمع والدولة والدين، 1792-1822، ترجمة محمد جببودة، بيروت /الدارالبيضاء، المركز الثقافي العربي، 2006.

المنوني، محمد  
ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، منشورات ك. آداب الرباط، د. ت (1979).

المودن، عبد الرحمن  
البوادي المغربية قبل الاستعمار. قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، الرباط، منشورات ك. آداب الرباط، 1995.

الموصللي الشافعي، محمد بن محمد [المعروف بابن الموصللي]  
كتاب حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك، تحقيق فؤاد عبد المتعم أحمد، إسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1416 / 1996.

الناصري، أحمد بن خالد  
كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1956، 9 ج.

الناصرى، أحمد بن خالد  
طلعة المشتري في النسب الجعفري، ط. حجرية مصورة بالأوفسيت، [سلا]، المؤسسة الناصرية  
للثقافة والعلم، د.ت، 2 ج.

ناعمى، مصطفى  
الصحراء من خلال بلاد تكتة. تاريخ العلاقات التجارية والسياسية، الرباط، عكاظ، 1988.

هوبكنز، ج. ف. ب  
النظم السياسية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار البيضاء، المدارس،  
ط. 2، 1999.

الوارث، أحمد  
الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي في المغرب خلال القرن السادس عشر، د. د. ع، تاريخ،  
ك. آداب فاس، 1988، مرقون، 2 ج.

الوزان الفاسي، الحسن بن محمد (ليون الإفريقي)  
وصف إفريقيا، ترجمة م. حجي وم. الأخضر، الرباط، الشركة المغربية للنashرين المتحددين / بيروت،  
دار الغرب الإسلامي، 2 ج، ط. 2، 1983.

الوزاني، المهدي  
المعيار الجديد الجامع المغرب عن فتاوي المتأخرين من علماء المغرب، فاس، ط. ح، 1328 /  
1910، 13 ج.

الولاتي، محمد يحيى بن محمد المختار  
الرحلة الحجازية، تحقيق محمد حجي، بيروت، دار الغرب الاسلامي / الرباط، معهد الدراسات  
الإفريقية، 1990.

الولالي، محمد  
مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار، تحقيق عبد العزيز بوعصاب، الرباط، منشورات ك. آداب  
الرباط، 1999.

الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى  
المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، [الرباط]، وزارة  
الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981، 13 ج.

اليفرنى، محمد الصغير  
روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف، الرباط، المطبعة الملكية، 1962.

## مصادر وأبحاث بلغات أجنبية

- ABUN-NASR, Jamil M.  
*A History of the Maghrib in the Islamic Period*, Cambridge University Press, 1993.
- AGOUMY, Taoufik & BENCHERIFA, Abdellatif (dir.)  
*La Grande Encyclopédie du Maroc*, vol. «Géographie humaine», Rabat, G.E.M., 1987.
- ARRAKI, Sylvette  
*Petites villes de la Chaouia intérieure : Settat, Benahmed, El Gara*, mémoire inédit, Rabat, 1966.
- BACHELARD, Gaston  
*La poésie de l'espace*, Paris, PUF, «Quadrige», 1989.
- BACHELARD, Gaston  
*L'air et les songes. Essai sur l'imagination du mouvement*, Paris, Librairie José Corti / Poche, 1992.
- BARROUQUERE-CLARET, C.  
*Settat, centre historique de la Chaouia*, Paris, Larose, 1919.
- BARTHES, Roland  
*Le bruissement de la langue : Essais critiques IV*, Paris, Seuil, «Points», 1984.
- BARTHES, Roland  
*L'aventure sémiologique*, Paris, Seuil, 1985.
- BECK, Herman  
*L'image d'Idris II, ses descendants de Fâs et la politique sharifienne des sultans marinides (656-869 / 1258-1465)*, Leyde, Brill, 1989.

- BELLA, Maria Pia di (dir.)  
*Vols et sanctions en Méditerranée*, Amsterdam, éd. des Archives Contemporaines, 1998.
- BENCHEIKH, Jamel Eddine  
*Le voyage nocturne de Mahomet*, Paris, Imprimerie Nationale, 1988.
- BENVENISTE, Emile  
*Vocabulaire des institutions indo-européennes*, Paris, Minuit, 1969, 2 vols.
- BERQUE, Jacques  
*Ulémas, fondateurs, insurgés du Maghreb (XVII<sup>e</sup> siècle)*, Paris, Sindbad, 1980.
- BLOCH, Marc  
*Apologie pour l'histoire, ou Métier d'historien*, Paris, Armand Colin, 1974.
- BONJEAN, M.  
*Une tribu bédouine au milieu des Berbères : Les Sejaa*, CHEAM (Paris), 1936, n° 66.
- BOUSSER, Marcel  
*Le problème des transports au Maroc*, Paris, Librairie du Recueil Sirey, 1934.
- BRUNOT / MALKA  
*Textes judéo-arabes de Fès*. Rabat, Ecole du Livre / Publications de l'IHEM, s.d.
- CASTORIADIS, Cornelius  
*L'institution imaginaire de la société*, Paris, Seuil, «Points / Essais», 1999.
- CHARTIER, Roger  
*Au bord de la falaise. L'histoire entre certitudes et inquiétude*, Paris, Albin Michel, 1998.
- CHELHOD, Joseph  
*Les structures du sacré chez les arabes*, Paris, Maisonneuve & Larose, nv. éd., 1986.
- COLIN, G.-S  
*Chresthomathie marocaine*, Paris, Librairie. d'Amérique et d'Orient Adrien-Maisonneuve, 2<sup>e</sup> éd., 1951.
- CORNELL, Vincent  
*Real of the Saint. Power and Authority in Moroccan Sufism*, Austin, University of Texas Press, 1998
- COULEAU, J.  
*La paysannerie marocaine*. Paris, CNRS, 1968.
- DAKHLIA, Jocelyne  
*Le divan des rois. Le politique et le religieux dans l'islam*, Paris, Aubier, 1998.
- DAUMAS, Général  
*Moeurs et coutumes de l'Algérie : Tell – Kabylie - Sahara.*, Paris, L. Hachette et Cie, 1853.
- DOUTTE, E  
*Merrâkech*, Paris, Publications du Comité du Maroc, 1905.

DROUIN, Jeannine

*Un cycle oral hagiographique dans le moyen-atlas marocain*, Paris Publications de la Sorbonne, 1975.

DUBY, Georges

*Le dimanche de Bouvines*, Paris, Gallimard, 1985.

DUVEYRIER, Henri

*Les Touareg du Nord*, Paris, Challamel Aîné, 186

ELIADE, Mircea

*Traité d'histoire des religions*, Paris, Payot, 1979.

ELIAS, Norbert

*La civilisation des mœurs*, Paris, Calman-Lévy, 1995.

ESCALLIER, Robert

*Citadins et espace urbain au Maroc*, Tours, Imprimerie de l'Université de Tours, 1981.

FARGE, Arlette

*Des lieux pour l'histoire*, Paris, Seuil, 1997.

FEBVRE, Lucien

*La terre et l'évolution humaine. Introduction géographique à l'histoire*, Paris, Albin Michel, 1949.

FERHAT, Halima

*Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles : Les siècles de la foi*, Casablanca, Wallada, 1993.

FERHAT, Halima

*Le soufisme et les zaouyas au Maghreb : Mérite individuel et patrimoine sacré*, Casablanca, Toubkal, 2003.

FOUCAULD, Vicomte Charles de

*Reconnaissance au Maroc, 1883-1884*, Paris, Challamel, 1888, 2 vols.

GARCIN, Jean-Claude et al.

*Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, Xe- XV e siècle, t. 1*, Paris, P.U.F., «Nouvelle Clio», 1995.

GAUTHIER, Philippe

*Symbola. Les étrangers et la justice dans les cités grecques*, Nancy, Annales de l'Est (Université de Nancy II), 1972.

GEERTZ, Clifford

*Le souk de Sefrou : Sur l'économie du bazar, trad. D. Cefai*, Paris, Bouchene, 2003.

GELLNER, Ernest

*Muslim Society*, Cambridge, Cambridge University Press, 1985.

- HART, David M.  
*Banditry in Islam. Case Studies from Morocco, Algeria and the Pakistan North West Frontier*, Wisbech, Cambridgeshire, MENAS Press , 1987.
- HOFFMAN, Bernard G.  
*The Structure of Traditional Moroccan Rural Society*, La Haye / Paris, Mouton, 1967.
- KABLY, Mohammed  
*Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*. Paris, Maisonneuve & Larose, 1986.
- LAGARDERE, Vincent  
*Les Almoravides jusqu'au règne de Yusuf b. Tasfin (1039-1106)*, Paris, L'Harmattan, 1989.
- LAOUST, Emile  
*Mots et choses berbères*, Rabat, Société Marocaine d'Édition, «Calques»,1983.
- LAROUÏ, Abdallah  
*Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, 1830-1912*, Paris, Maspéro, 1977.
- LECOZ, Jean  
*Le Rharb : Fellahs et colons. Etude de géographie régionale, 2 vols.*, Rabat, C.U.R.S, 1964.
- LENZ, Oscar  
*Timbouctou. Voyage au Maroc, au Sahara et au Soudan*, Hachette, 1886-1887, 2 vol.
- LINARES, Dr.  
 «*Voyage au Tafilalet avec S.M. le sultan Moulay Hassan en 1893*», extrait du Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc, 1932.
- LOUBIGNAC, Victorien  
*Textes arabes des Zaers*, Paris, Librairie orientale et américaine Max Besson, 1952.
- MAHE, Alain  
*Anthropologie historique de la grande Kabylie (XIXe-Xxe siècle) : Histoire du lien social dans les communautés villageoises, thèse inédite, sociologie*, Paris, E.H.E.S.S, 1994.
- MARCAIS, Georges  
*Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle*. Constantine / Paris, 1913.
- MARTIN, A.G.P.  
*Quatre siècles d'histoire marocaine*, Rabat, éd. La Porte, 1994 (1923).
- MAUSS, Marcel  
*Œuvres*, Paris, Minuit, 1968-1969, 3 vols.
- MAUSS, Marcel  
*Sociologie et anthropologie*, Paris, PUF, 1989.

MEZZINE, Larbi

*Le Tafilaht. Contribution à l'histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe siècles*, Rabat, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Rabat, 1987.

MICHEL, Nicolas

*Une économie de subsistances. Le Maroc précolonial*, Le Caire, I.F.A.O., 1997, 2 vol.

MIEGE, Jean-Louis

*Le Maroc et l'Europe (1830-1894)*, Paris, PUF, 1961-1963, 4 vols.

MILLIOT

*Introduction au Droit musulman*, Paris, Sirey, 1971.

Mission Scientifique du Maroc

*Villes et tribus du Maroc, t. 1-2, Casablanca et les Chaouia*, Paris, E. Leroux, 1915.

MORSY, Magali

*La relation de Thomas Pellow : Une lecture du Maroc au 18<sup>e</sup> siècle*, Paris, éd. Recherche sur les civilisations, 1983.

MOULIERAS, Auguste

*Le Maroc inconnu. Etude géographique et sociologique, L, II, Exploration des Djebala*, Paris, Augustin Challamel, 1899.

MOUSSAOUI, Abderrahmane

*Espace et sacré au Sahara : Ksour et oasis du sud-ouest algérien*, Paris, C.N.R.S., «Anthropologie», 2002.

NEHLIL

*Lettres chérifiennes*, Paris, E. Guilmoto, 1915.

NICLAUSSE, Cne

*Une tribu du Sud marocain : Les Ait Atta du Sahara, mémoire CHEAM* (Paris), 1956.

NORDMAN, Daniel

*Frontières de France : De l'espace au territoire, XVIe-XIXe siècle*. Paris, Gallimard, 1999.

NORRIS, H.T.

*The Pilgrimage of Ahmad, son of the Little Bird of Paradise*, Narminster(G.-B), Aris and Phillips Ltd, 1977.

PASCON, Paul

*Le Haouz de Marrakech*, Rabat, CURS-INAV / Paris, CNRS, 1977, 2 vols.

PLANHOL, Xavier de

*Les fondements géographiques de l'histoire de l'islam*, Paris, Flammarion, 1968.

RINN, Louis

*Marabouts et khouan. Etude sur l' Islam en Algérie*, Alger, Adolphe Jourdan, 1884.

ROBERT, Denise, ROBERT, Serge, DEVISSE, Jean  
*Tegdaoust, 1. Recherches sur Aoudaghost, t.1*, Paris, Arts et métiers graphiques, 1970.

ROSENBERGER, Bernard  
*Société, pouvoir et alimentation. Nourriture et précarité au Maroc précolonial*, Rabat, Alizés, 2001.

RUELLE, Capitaine de la  
*Contribution à l'étude de l'histoire de la coutume et du folklore des populations du versant Sud-Ouest de l'Anti-Atlas. Les Tekna berbérophones du Haut Oued Seyed : Les Id Brahim et leurs tributaires, doc. CHEAM*, Paris, 1941.

SEBTI, Abdelahad  
*Ville et figures du charisme*, Casablanca, Toubkal, 2003.

SEGONZAC  
*Voyages au Maroc (1899-1901)*, Paris, Armand Colin, 1903.

SHATZMILLER, Maya  
*L'historiographie mérinide. Ibn Khaldun et ses contemporains*, Leiden, E.J.Brill, 1982.

SPILLMANN, Capitaine Georges  
*Les Ait Atta du Sahara et la pacification du Haut Dra*. Rabat, Félix Moncho, 1936.

TOUATI, Houari  
*Entre Dieu et les hommes. Lettrés, saints et sorciers au Maghreb (17<sup>e</sup> siècle)*, Paris, éd. de l'E.H.E.S.S., 1994.



# محتويات

15 .....	منطلقات
23 .....	متن وقراءات
33 .....	الفصل الأول : الزطاطة وآليات الحماية
35 .....	مقدمة
44 .....	I . التدبير القبلي
44 .....	1 . التعاقد .....
46 .....	2 . ثمن الحماية .....
50 .....	3 . الحيطة والمفاجأة .....
53 .....	II . الحفر والقوى الدينية .....
53 .....	1 . الزاوية .....
58 .....	2 . الشريف .....
62 .....	III . التدبير المخزني .....
62 .....	1 . المكتوب المخزني .....
64 .....	2 . درك الطريق .....
64 .....	3 . طريق المخزن .....
68 .....	4 . النزالة .....
74 .....	IV . تعارض الأدوار .....
74 .....	1 . الدفاع الذاتي .....
76 .....	2 . بين الحماية والاعتداء .....

83	3 . الحماية والمراقبة الانتقائية .....
89	الفصل الثاني : النظام والاختلال .....
91	مقدمة .....
101	I . سياسات وأحكام .....
101	1 . الأداب السلطانية .....
104	2 . السياسة الشرعية .....
111	II . المرحلة الموحدية- المرينية .....
112	1 . عهود وأوصاف .....
117	2 . إجراءات .....
121	3 . بين التأمين والابتزاز .....
124	III . المرحلة العلوية .....
125	1 . صور الأمن الشامل .....
129	2 . إجراءات .....
134	3 . حدود التأمين .....
135	4 . مناخ الاختلال المطلق .....
143	الفصل الثالث : مناقب ومواقع .....
145	مقدمة .....
151	I . الكرامة ونفي إكراهات المجال .....
151	1 . طي الأرض .....
153	2 . المشي على الماء .....
154	3 . الطيران في الهواء .....
157	II . الكرامة ومواجهة مشاق السفر .....
157	1 . العطش والجوع .....
160	2 . الخوف .....
164	3 . قاطع الطريق .....
170	III . الرمز وفعاليته الاجتماعية .....
170	1 . المكان .....
173	2 . الزمن .....
176	3 . القلائد .....

181	الفصل الرابع : حدود وأوقاف.....
183	مقدمة
190	I. أوقاف الحماية
190	1. تَأْمِنَات
192	2. الذبيحة
198	3. تَابِئًا
202	4. أُمُور
206	5. المَزْرَائِحُ
210	II. الزطاطة بين العرف والفقه
210	1. الزطاطة في شرح العمل الفاسي
217	2. خريطة الإحالة الفقهية
219	III. ثمن الجاه
219	1. الرشوة والمأثور المؤسس
231	2. السلطة والاستعارة
235	الفصل الخامس : حصيلة وامتدادات
237	مقدمة
239	I. المجال والتراب
240	1. محاور ومحطات
247	2. الغرب والحوز
253	3. الأطراف والتخوم
256	4. الطرف بالقرب من المركز
259	II. زمن المجال
259	1. قضية التحقيب
262	2. المعقل
267	3. آيت عطا
271	4. آيت إدراسن
274	5. قصبة زطاط
279	III. روافد المؤسسة
279	1. المعجم وامتداداته
282	أ. صيغ الضمان

286 .....	ب. شبكة الأعراف .....	
288 .....	2. وظائف المؤسسة .....	
288 .....	أ. تدبير العنف .....	
291 .....	ب. تفاعل أنماط العيش .....	
295 .....	ج. طريق السوق والموسم .....	
299 .....	IV. التعبير ومسالك الدلالة .....	
299 .....	1. بين النصوص والأجناس .....	
303 .....	2. المجاز .....	
304 .....	3. الخبر والنمط والمعيار .....	
311 .....		خلاصات مرحلية
315 .....		فهارس
319 .....		I. خرائط
321 .....		II. أعلام جغرافية
329 .....		III. أعلام بشرية
343 .....		IV. مصطلحات ومؤسسات
351 .....		VI. بيبليوغرافيا

تتحو المقاربة الوطنية الدفاعية إلى التركيز على العامل الخارجي لتفسير أوضاع المغرب خلال القرن التاسع عشر. وهكذا قد يعتبر التدخل الأوربي بمثابة المسؤول الأساس عن وضعية أزمة واضطراب واختلال أدت إلى تزايد أعمال اللصوصية وقطع الطريق، وفرضت أساليب لتجاوز هذه الآفة. وبما أن قطع الطريق يتصل بتوتر العلاقة بين القبائل والمخزن، فإن الموضوع يجد أجوبة جاهزة في الدور الذي لعبه التدخل الأوربي في إضعاف الدولة وتفاقم تناقضاتها مع مختلف مكونات المجتمع. إنه تناول يطرح الجواب محل السؤال، ويتكلف بإعادة الاعتبار بدل التحليل، ويحمل التدخل الأوربي أكثر مما يتحملة لتفسير معضلات المغرب خلال القرن التاسع عشر.

فهل ينبغي على المؤرخ أن يتعامل مع القرن التاسع عشر على أساس رصد النسق الاجتماعي والسياسي التقليدي، أو على أساس رصد التحولات التي عرفها ذلك النسق بفعل التسرب الأوربي؟  
إنه سؤال يدعو إلى التأمل وإلى قدر من مراجعة المسلمات. في اعتقادنا أن التركيز المعلن أو الضمني على العامل الخارجي قد يحجب فهم بعض الظواهر والبنى التي ورثها المجتمع المغربي على امتداد قرون عديدة. وبالتالي سوف نعتبر القرن التاسع عشر مرحلة «توطين» وتحديد الخطوط العامة لقضية أمن السفر، من خلال موضوع الزطاطة وضيغ تأمين الطريق عبر مناطق مختلفة من التراب المغربي، دون تركيز على هذه المنطقة أو تلك.

تسعى إذن محاولتنا إلى محاورة ملف القرن التاسع عشر بواسطة المكتسبات التي حققها البحث الذي أنجز حول الحقب السابقة. وفي مستوى آخر، فإننا سوف نهتم بمواطن التماثل بين الممارسات الاجتماعية والتصورات، ولذلك لن نتعامل مع التاريخيات (الاسطوغرافيا) كمتن من المعطيات التي يتجاوزها المؤرخ حين يتاح له الوصول إلى الوثائق، بل فضلنا أن نسائل المضامين الثقافية للنصوص.